المنح القدسية
على الحكم العطائية

لسيدي ابن عطاء الله السكندري
المتوفى ٧٠٩ هـ

تأليف
شيخ الإسلام عبد الله بن حجازي الشرقاوي
المتوفى ١٢٢٧ هـ

ومعه إفادات لكبار علماء الصوفية

اعتنى به وعلق عليه
الشيخ أحمد فريد المزيدي





تأليف

شيخ الإسلام عبد الله بن حجازي الشرقاوي

المتوفى ١٢٢٧ هـ

ومعه إفادات لكبار علماء الصوفية

اعتنى به وعلق عليه

الشيخ أحمد فريد المزيدي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ النبي وأزواجه أُمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد ..

فبين يدي القارئ الكريم، الباحث عن درر جواهر حكم السادة الصالحين، المتطلع لمواعظ ومآثر المقربين، شرح لحكم التاج سيدي ابن عطاء الله السكندري، أشهر حكم عرفتها الدنيا، فقد أخذها العلماء بالشرح والتدوين، وأقبل عليها طلبة العلماء الشرفاء والعلماء الربانين بالمذاكرة والدراسة والاعتبار المبين.

وكان شيخ الإسلام والأزهر عبد الله الشرقاوي، ممن لهم الاعتناء بشرحها في الجامع الأزهر، وحث طلبة العلم بمعرفتها والوعظ بها.

وقد أسماه «المنح القدسية على الحكم العطائية»، باعتباره منحة من الحضرة القدوسية الأقدسية، وقد اشتهر بشرح حكم ابن عطاء، وشرح الحكم العطائية أيضًا باعتبار مضمونه وموضوعه.

وقد سبق لنا أن حققنا للشيخ الشرقاوي شرح الحكم الكردية لشيخه سيدي محمود

الكردي، ثم استئذنت الشيخ عند ضريحه الشريف بتحقيق هذا الكتب فجاء الإذن والحمد لله رب العالمين.

وإتمامًا للفائدة وضعنا في حاشيته وهامشه تعليقات أهل العلم من شراح الحكم العطائية وغيرها من حكم صوفية.

هذا ونسأل الله قبوله وتوفيقه لما يحب ويرضى، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

كتبه: العبد الفقير الحقير إلى ربه الغني القدير: أبو الحسن أحمد فريد المزيدي الشافعي الأحمدي الأزهري، وذلك في ١١ محرم ١٤٢٨ هـ.

شروح الحكم العطائية

- شرح ابن عباد النفري الرندي.
- شرح ابن العماد الأقفهسي.
- شرح خلف بن محمد المصري المشالي.
- شرح ابن زغدان محمد بن أحمد التونسي.
- شرح أبي المواهب الشاذلي (وهو أعظم الشروح).
- شرح تلميذه إبراهيم المواهبي الأقصرائي (تحت قيد التحقيق).
- شروح الشيخ زروق الفاسي.
- شرح أحمد بن عمر الوفائي.
- شرح محمد بن علي الخروبي.
- محمد بن إبراهيم ابن الحنبلي.
- شرح محمد بن إبراهيم الخطيب الوزيري.
- شرح محمد بن علي الصقلي الشطيبي.
- شرح المتقي الهندي.
- شرح القاسم بن عبد الرحمن الحلبي.
- شرح الشيخ محمد عبد الرءوف المناوي.
- شرح ابن علان الصديقي.
- شرح القشاشي البدري.
- شرح ولده أحمد القشاشي.
- شرح ابن زكرى المدني.
- شرح المدابغي.
- شرح جسوس بن قاسم.
- شرح محمد الكيلاني الحموي.
- شرح أبي بكر الرباطي.
- شرح محمد نووي الجاوي.

- شرح محمد بن كيران.
- شرح الشيخ علي البيومي.
- شرح الشيخ ابن عجيبة.
- شرح الشرنوبي.
- شرح ابن الصابوني.
- شرح نور الدين اليمني.
- شرح الكركي.
- شرح التكروتي.
- شرح عبد الغني المدني.
- شرح أبي الشامات.

وقد نظم الحكم كثير من أهل العلم، وشرحها غيرهم بلغات مختلفة.

ترجمة سيدي ابن عطاء الله [1]

قدس الله سره العزيز

هو سيدي أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، الشيخ تاج الدين أبو الفضل السكندري الشاذلي.

إمام تاج علمه مرتفع، وشمل فضله مجتمع، وخبر نعته مشتهر، ودر حكمه منتشر، ومصنفاته مفيدة، وحلل ذكره على مر الأيام جديدة.

هجر النوم وقلاه، ولو لم يكن له غير كتاب التنوير لكفاه.

قال التاج السبكي: أراه كان شافعيًا، وقال غيره: كان مالكيًّا.

وله اليد الطولى في العلوم الظاهرة، والمعارف الباطنة، إمام في التفسير والحديث والأصول، متبحر في الفقه، وله وعظ يعذب في القلوب، ويحلو في النفوس.

وكان قد تدرب بقواعد العقائد الشرعية، وهذبته العلوم، فاستدل بالمنطوق على المفهوم، فساد بذلك العصابة الصوفية، فكان له من الرياسة شرب معلوم، وهو صاحب كتاب الحكم الذي من تأمله قال ما هذا منشور، إن هذا إلا لؤلؤ منثور، كل سطر منه جنة قد حُفت بالثمار، وأحدقت بأنوار الأزهار، وكل شطر من سطر لو يباع بثمن بخس لاشتري بألف دينار.

صحب العارف المرسي، وأخذ عنه جمع من الأعيان، وانتفع به خلق كثر، منهم شيخ الشافعية التقي السبكي.

وأصله من الإسكندرية، ثم قطن مصر، وصار يعظ الناس ويرشدهم، وله الكلمات البديعة المفردة بالتدوين.

ومن نظمه:

أَعِنْدَكَ عَنْ لَيْلَى حَدِيثٌ مُحَرَّرُ ... لاَ يَرَاهُ يُحْيِى الرَّمِيم وَيَنْشُرُ

فَعَهْدِي بِهَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ وَإِنَّنِي ... عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي هَوَاهَا مُقَصِّرُ

---

(١) مرآة الجنان (٤/ ٢٤٦)، طبقات السبكي (٩/ ٢٣)، الدرر الكامنة (١/ ٢٧٣)، المنهل الصافي (٢/ ١٢٠)، الطبقات الشعرانية (٢/ ٢٠)، جامع كرامات الأولياء (١/ ٣١٧)،الديباج المذهب (٧٠)، الوافي بالوفيات(٨/ ٥٧)، حسن المحاضرة (١/ ٤٢٤)، وطبقات الشاذلية (٩٧).

مات سنة تسع وسبعمائة، ودفن بالقرافة بقرب بني الوفا قدس الله أسرارهم.

ومن كراماته أن الكمال بن الهمام زار قبره، فقرأ عنده سورة هُود حتى وصل إلى قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] وأجابه من القبر بصوت عالٍ:

يا كمال، ليس فينا شقي، فأوصى بأن يُدفن هناك[١].

ومنها أن رجلاً من تلامذته حج، فرأى الشيخ في المطاف، وخلف المقام، وفي المسعى، وفي عرفة. فلما رجع سأل عن الشيخ: هل خرج من البلد في غيبته إلى الحج؟ قالوا: لا.. فدخل إليه وسلم عليه، فقال له: من رأيت في سفرك هذه من الرجال؟ قال: يا سيدي، رأيتك.. فتبسم وقال: الرجل الكبير يملأ الكون، لو دُعِيَ القطب من جحر لأجاب[٢].

(١) وضريحه الشريف بمسجده، قرب مسجد السادة الوفائية، وبجوار سيدي ابن أبي جمرة، وابن سيد الناس، وابن دقيق العيد.

(٢) قلت: وللشيخ مصنفات عديدة نافعة مثل التنوير، والقول المجرد، وغير ذلك.

ترجمة الشيخ الشرقاوي (الشارح)

في حدود الخمسين بعد المائة وألف من السنة الهجرية، وفي بلدة الطويلة بشرقية بلبيس كان مولده، وفي بلدة القرين كانت تربيته ونشأته الأولى، ثم بدأت بعد ذلك رحلته الحقيقية في بحار العلم والعلماء، وذلك حين حفظ القرآن وقدم إلى الجامع الأزهر ليسمع لكثير من الشهابين الملوي والجوهري والحفني وأخيه يوسف والدمنهوري والبليدي وعطية الأجهوري ومحمد الفارسي وعلي المنسفيني الشهير بالصعيدي وعمر الطحلاوي وسمع الموطأ فقط على علي بن العربي الشهير بالسقاط وبآخره تلقن بالسلوك والطريقة على سيدي محمود الكردي الذي لازمه وحضر في أذكاره وجمعياته، أيضًا درّس الدروس في الجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيبرسية وأفتى في مذهبه.

وبالإضافة إلى بروزه في الإلقاء والتحرير إلا أنه قدّم العديد من المؤلفات التي تدل على سعة فضله وعلمه.

قلت: منها:

- حاشيته على التحرير في الفقه الشافعي.
- شرح نظم يحيى العمريطي.
- شرح العقائد المشرقية.
- شرح مختصر في العقائد والفقه والتصوف- وهو مشهور في بلاد داغستان.
- شرح رسالة عبد الفتاح العادلي في العقائد.
- مختصر الشمائل وشرحه لها.
- رسالة في لا إله إلا الله.
- شرح ورد السحر لسيدي مصطفى البكري.
- مختصر المغني في النحو.
- حاشية على شرح السنوسية للأهدل (بحوزتنا نسخة منها بخطه عن جدنا المزيدي الكبير).
- شرح الحكم العطائية (كتابنا هذا).
- شرح الحكم الكردية (طبع بتحقيقنا).
- تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين.

- التحفة البهية في طبقات الشافعية (يسر الله لنا تحقيقه).
- فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي.
- شرح حزب الستار للباكوبي (بتحقيقنا).

وحينما أراد شيخنا سلوك طريق الخلوتية، ولقنه الشيخ الحفني الاسم الأول حصلت له حالة من الوله والاختلال في عقله حتى أنه مكث أيامًا بالمارستان قبل أن يشفى ويلازم الإقراء والإفادة حتى تلقّن من شيخنا الشيخ محمود الكردي وقطع الأسماء عليه وألبسه الشيخ التاج، وواظب على مجالسة شيخه.

الحملة الفرنسية

بعد وفاة الشيخ أحمد العروسي تولى مشيخة الأزهر.. وفي تلك الفترة دخل الفرنسيون مصر، ومع ما نعرفه من سياساتهم التي انتهجوها في ممالاة المشايخ تارة وعدائهم تارة أخرى، إلا أن الشيخ بحكمته وحنكته وحسن سياسته استطاع أن يمرّ بالأزهر وبالمصريين من خلفه من هذه المكائد دون أن يقدم تنازلات في حق الله، ومجنبًا في الوقت نفسه الناس كثيرًا من ويلات الغزو.

وفاته

وظل الشيخ على سيرته الحسنة حتى جاء يوم الخميس ثاني شهر شوال لسنة سبع وعشرين ومائتين وألف ليكون ذلك هو الموعد الذي اختاره الله ليكون الشيخ في جواره، ليخرج في مشهد حاشد مهيب ممن عرفوا قدره وبجلوه، ويدفن في مدفنه الذي بناه لنفسه بالمجاورين.

الجبرتي

كان الجبرتي من معاصريه، والمتابع لأقوال الجبرتي خاصة فيمن عاصرهم يجده مفتقدًا لكثير من الموضوعية، نقول ذلك رغم أن للجبرتي مواضع أثنى فيها على الإمام الشرقاوي، ووصفه بشيخ الإسلام وسيدنا، إلا أنه في مواضع أخرى تناوله بلمز لا يليق، وليس هذا تناقضًا أو تخبطًا في كلام الجبرتي بقدر ما هو تغير للظروف والأهواء، حيث ألف الجبرتي تاريخه على مدار العديد من السنوات، والتي يجوز جدًا أن يكون رأيه في الإمام الشرقاوي قد تغير لسبب أو لآخر، أو حتى بدون سبب.

كما يرى أيضًا المتابع لأقوال الجبرتي أنه ربما يكون صاحب هوى في تناوله لبعض الترجمات، حيث نرى نفس اللمز الذي تعرض به للشيخ الشرقاوي تناول به أيضًا العلامة

المحدث السيد محمد مرتضى الزبيدي.

وقد أشار لذلك العلامة عبد الحي الكتاني في «فهرس الفهارس» وأضاف أن الجبرتي نقل عن شيوخ الزبيدي دون أن يعزو النقل لأصحابه، بل إن تواريخ الوفاة التي أوردها في ترجمة الأعلام خاصة بها كثير من الاضطراب.

وإذا كان الشيخ مرتضى الزبيدي والذي هو في منـزلة الشيخ بالنسبة للجبرتي، ورغم ذلك تناوله بمثل هذا الهوى، أيستبعد على الجبرتي ألا يكون منصفًا مع الشيخ الشرقاوي؟

ومن أمثلة اللمز المردود عليه بوضوح وصفه للشيخ الشرقاوي بالإقبال على الدنيا والتعالي، في حين أورد مثلاً العلامة أحمد بن محمد الحضراوي في (نزهة الفكر) أن الشيخ علي المداح الشهير بصائم الدهر توجه مع أستاذه الشيخ النبراوي لزيارة الشيخ الشرقاوي في مرضه، ورغم أن الشيخ الشرقاوي يُعد أستاذًا للشيخ النبراوي في العلم إلا أنه ما إن رآه حتى قام من رقدته وقبل يديه، وذلك لما يعرفه عنه من صلاحه وولايته.

وحدث أن اجتمع سيدي أحمد الصاوي مع الشيخ الشرقاوي في بيت شمس الدين الحنفي في ليلة من ليالي ذكر الله، وحينما صعد سيدي أحمد الصاوي للطابق الأعلى حيث الأمام الشرقاوي لتحيته قال له الشيخ الشرقاوي: جماعتك يا شيخ أحمد مشتغلون بأورادهم ومتمسكون بآداب الطريق، ونحن ندعي ذلك ولا نعمل به.. وذلك رغم أن الإمام الشرقاوي هو شيخ الإسلام، وهو الأكبر سنًّا من الشيخ الصاوي، إلا أنه وبتواضع تام أقرّ بفضله.. أمن يفعل هذا يكون من أهل التكالب على الدنيا كما يزعم الجبرتي سامحه الله؟

* * *



المنح القدسية على الحكم العطائية

لسيدي ابن عطاء الله السكندري

المتوفى ٧٠٩ هـ

تأليف

شيخ الإسلام عبد الله بن حجازي الشرقاوي

المتوفى ١٢٢٧ هـ

ومعه إفادات لكبار علماء الصوفية

اعتنى به وعلق عليه

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الحكمة الأولى

«من علامات الاعتمادِ على العملِ نُقصان الرجاءِ عندَ وجودِ الزَّلَلِ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: «الاعتماد على الشيء هو الاستناد عليه والركون إليه والعمل حركة الجسم أو القلب فإن تحرك بها يوافق الشريعة سمي طاعة وإن تحرك بها يخالف الشريعة سمي معصية.

والأعمال عند أهل الفن على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة وعمل الطريقة وعمل الحقيقة، أو تقول: عمل الإسلام وعمل الإيمان وعمل الإحسان، أو تقول: عمل العبادة وعمل العبودية وعمل العبودية أي الحرية، أو تقول: عمل أهل البداية وعمل أهل التوسط وعمل أهل النهاية، فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده، أو تقول: الشريعة لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر والحقيقة لإصلاح السرائر.

أو تقول: الشريعة لتطهير الجوارح من لوث الهفوات والطريقة من تطهير القلوب من الغفلات والحقيقة تطهير الأسرار من الفترات، وإصلاح الجوارح بثلاثة أمور: بالتوبة والتقوى والاستقامة، وإصلاح القلوب بثلاثة أمور: بالإخلاص والصدق والطمأنينة، وإصلاح السرائر بثلاثة أمور: بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة.

أو تقول: إصلاح الظواهر باجتناب النواهي وامتثال الأوامر، وإصلاح الضمائر بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل، وإصلاح السرائر وهي هنا الأرواح بذلها وانكسارها حتى تتهذب وترتاض بالأدب والتواضع وحسن الخلق.

واعلم أن الكلام هنا إنما هو في الأعمال التي توجب تصفية الجوارح أو القلوب والأرواح وهي ما تقدم تعيينها لكل قسم وأما العلوم والمعارف فإنها هي ثمرات التصفية والتطهير فإذا تطهرت الأسرار ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار ولا يصح الانتقال إلى مقام حتى يحقق ما قبله فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة وترتاض جوارحه معها بأن يحقق التوبة بشروطها ويحقق التقوى بأركانها ويحقق الاستقامة بأقسامها وهي متابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ فإذا تزكى الظاهر وتنور بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة وهي التصفية من أوصاف البشرية على ما يأتي فإذا تطهر من أوصاف البشرية تحلى بأوصاف الروحانية، وهي الأدب مع الله في تجلياته التي هي مظاهره فحينئذ ترتاح الجوارح من التعب، وما بقي إلا حسن الأدب.

قال بعض المحققين: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل بسوى الله، ومن بلغ إلى الحقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله، انتهى.

ولا يعتمد المريد في سلوك هذه المقامات على نفسه، ولا على عمله ولا على حوله وقوته، وإنما يعتمد على فضل ربه وتوفيقه وهدايته وتسديده، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

=

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، فيقول المرتجي غفر المساوي، عبد الله بن حجازي الخلوقي، المشهور بالشرقاوي:

هذه تقييدات لطيفة على حكم العارف بالله سيدي أحمد بن عطاء الله -قدس سره- وقصده بها الغالب خطاب المريدين الصادقين، وترقيهم إلى مقام العرفان؛ فينبغي لنا أن نقتصر على بيان مقصوده بحسب الإمكان.

قال رحمه الله:

«من علامات الاعتماد على العمل» أي: الجوارح من صلوات وأوراد وأذكار وغيرها،

=

وقال ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

فالاعتماد على النفوس من علامة الشقاء والبؤس والاعتماد على الأعمال من عدم التحقق بالزوال، والاعتماد على الكرامة والأحوال من عدم صحبة الرجال، والاعتماد على الله من تحقق المعرفة بالله، وعلامة الاعتماد على الله أنه لا ينقص رجاؤه إذا وقع في العصيان، ولا يزيد رجاؤه إذا صدر منه إحسان، أو تقول: لا يعظم خوفه إذا صدرت منه غفلة كما لا يزيد رجاؤه إذا وقعت منه يقظة قد استوى خوفه ورجاؤه على الدوام لأن خوفه ناشئ عن شهود الجلال، ورجاؤه ناشئ عن شهود الجمال، وجلال الحق وجماله لا يتغيران بزيادة ولا نقصان فكذا ما ينشأ عنهما بخلاف المعتمد على الأعمال، إذا قل عمله قل رجاؤه وإذا كثر عمله كثر رجاؤه لشركه مع ربه وتحققه بجهله ولو فني عن نفسه وبقي بربه لاستراح من تعبه وتحقق بمعرفة ربه ولا بدَّ من شيخ كامل يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك فالشيخ الكامل هو الذي يريحك من التعب لا الذي يدلك على التعب من دلك على العمل فقد أتعبك ومن دلك على الدنيا فقد غشك ومن دلك على الله فقد نصحك.

كما قال الشيخ ابن مشيش ﷺ:

والدلالة على الله هي الدلالة على نسيان النفس؛ فإذا نسيت نفسك ذكرت ربك قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤]، أي: ما سواه انتهى وسبب التعب هو ذكر النفس والاعتناء بشئونها وحظوظها وأما من غاب عنها فلا يلقى إلا الراحة، وأما قوله تعالى:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، أي: في تعب فهو خاص بأهل الحجاب أو تقول: خاص بإحياء النفوس.

وأما من مات فقد قال تعالى فيه:﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩]،

أي: فروح الوصال وريحان الجمال وجنة الكمال، وقال تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]، أي: تعب ولكن لا تدرك الراحة إلا بعد التعب ولا يحصل الظفر إلا بالطلب «حفت الجنة بالمكاره».

والمعتمد على ذلك العُبّاد والمريدون.

فالأولون يعتمدون عليها في دخول الجنة والتنعُّم فيها، والنجاة من عذاب الله تعالى.

والآخرون يعتمدون عليها في الوصول إلى الله تعالى، وكشف الأستار عن القلوب وحصول الأحوال القائمة بها والمكاشفات والأسرار، وكلاهما مذموم، وناشئ من رؤية النفس، ونسبة الأعمال إليها حتى ينتج ما ذكر.

أما العارفون(١) فلا يرون لأنفسهم شيئًا يعتمدون عليه، بل يشاهدون أن الفاعل

---

(١) قال الشيخ الصيادي في شرحه لحكم سيدنا الرفاعي: ثم قال: «المعرفة بالله على أقسام» أي: المعرفة بحكمة الله في ملكه وخلقه والقصد من إظهار عظمة ربوبيته على أقسام كثيرة، وأعظم أقسامها إصابة وأجلّها حكمة وأقربها لرضا الله تعظيم أوامر الله تعالى بامتثال ما أمر به وترك ما نهى عنه.

وهذا هو الانتباه السليم الذي هو ضد الغفلة وأقرب الطرق إلى الله تعالى ولهذا اتبع سيدنا المؤلف جملته الماضية بقوله: «بين العبد والرَّب حجاب الغفلة لا غير» فقد عيَّن أن الغفلة حائل وقاطع عن الله تعالى والانتباه حبل متين يلزم الاعتصام به ليصل به العبد إلى الله وأيَّد مقصده بقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

ثم قال: «العبد العارف» أي: الذي ذاق طعم المعرفة المبحوث عنها يفزع إلى الله لا لغيره، ويتوقع سر الله وهو العون الناشئ من محض الكرم والفضل من دون سابقة صنع ولا عمل، وهو فرج الله الذي يحف بعبده من حيث لا يدري. (قلائد الزبرجد ص٢٠٩) بتحقيقنا.

فالعارف عند الجماعة: من أشعر نفسه الهيبة والسكينة، وجعل أول المعرفة لله، وآخرها ما لا يتناهى، ولم يُدخِل قلبه حق ولا باطل وغاب عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلى غيره فهو يعيش بربه لا بقلبه، وأفسدت المعرفةُ الداخلة قلبه أحوالَهُ التي كان عليها، بأن يقلبها الله تعالى إليه، لا بأن يعدمها، فإنها عند الجماعة لا تنعدم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل:٣٤].

فلا حال عندهم للعارف؛ لمحور رسومه وفناء هويَّته وغيبة أثره، وهو منقطع منقمع، عاجز على معروف، خائف متبرم بالبقاء في هذا الهيكل، وإن كان منورًا لما عرَّفه الشارع: أن في الموت لقاء الله فتنغصت عليه الحياة الدنيا شوقًا إلى ذلك اللقاء؛ فهو صافي العيش كدر طيب الحياة في نفس الأمر لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق، وهابه كل ناظر إليه، ذو أنس بالله، معه تعالى بلا فصل ولا وصل، حي القلب قلبه مرآة للحق، حليم محتمل، فارغ من الدنيا والآخرة، ذو دهشٍ وحيرة، يأخذ أعماله عن الله، ويرجع فيها إليه، بطنه جائع، وبدنه عار، لا يأسف على شيء، لا يرى غير الله، تبكي عينه ويضحك قلبه فهو كالأرض يطأها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل ما يجب وما لا يجب، لا تمييز عنده، لا يقضي وطره من شيء، بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه، يضيعُ ما له ويقفُ مع ما للحق، لا يشتغل عنه طرفة عين، عرفَ لربه بربه، مهدي في أحواله، لا تلحظه عين الأغيار، ولا يتكلم بغير كلام الله، مستوحش من الخلق، ذو فقر وذلة، يورث غنى وعزة، معرفته طلوع حق على الأسرار =

=

ومواصلة الأنوار، حاله فوق ما يقول، استوت عنده الحالات في الفتح، يفتح له على فراشه كما يفتح له في صلاته، وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن، دائم الذكر، ذو لوامع تسقط التمييز، لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء، تضيء له أنوار العلم؛ فيبصر بها عجائب الغيب، مستَهلَك في بحار التحقيق، صاحب أمواج تغط فترفع وتحط، صاحب وقت واستيفاء حقوق المراسم الإلهية على التمام، تعبه في تحوله من صفة إلى صفة، دائم لا يتعمل ولا يجتلب أحبذ الوقت، يسع الأشياء ولا تسعه، يرجو ولا يرجى، رحيم مؤنس، مشاهد جلال الحق وجمال الحضرة، معه مع كل وارد، يصادف الأمور من غير قصد له وجود في عين فقد، ذل في عز، قهر في لطف، ولطف في قهر، حق بلا خلق، مشاهد قيام الله على كل شيء، فانٍ عنه باقٍ معه به، غائب عن التكوين، حاضر مع المكون، صاحٍ بغيره، سكران بحبه، جامع للتجلي، لا يفوته ما مضى بما هو فيه، ثابت المواصلة، محكم للعبادة في العادة مع إزالة العلل، طائع بذاته، قابل أمور ربه، منـزه عن الشبيه، يجري عليه منه أحكام الشرع، في عين الحقيقة، ذو روح وريحان، قلبه طريق مطروقة لكل سالك، صاحب دليل وكشف وشهود، يلزم الوارد ويتأدب مع الشاهد، بريء من العلل، صاحب إلقاء وتلق، مضنون به مستور، بولهٍ محبوس في الموقف، ذاهبٌ تحت القهر، رجوعه سلوك، وحجابه شهود، سره لا يعلم، به زره كلما ظهر له وجه عَلِم أنه بَطُنَ عنه وجه، منفرد بلا انفراد، متواتر الأحوال بحكم الأسماء، أمين بالفهم، قابل للزيادة، موحد بالكثرة، صاحب حديث قديم، يعلم ما وراء الحجر من غير رفع حجاب، ذو أنوار، طامس شعاعاته محرقة، وفجاجات وارداته مقلقة، يرد عليه ما لا يعرف، متمكن في تلوينه، لكون خالقه كل يوم هو في شأن، مجرد بكله عن السوى، واقف بالحق في مواطنه، مريد لكل ما يُرَاد منه، ذو غيابة إلهية تجذبه، سالك في سكونه، مقيم في سفره، صاحب نظرة ونظر، يجد ما لا تسعه العبارة من دقائق الفهم عن الله من غير سبب، مهذب الأخلاق، غير قائل بالاتحاد، ذاهب في كل مذهب بغير ذهاب، مقدس الروح من رعونات النفوس، مؤمن بالناطق في سره، مصغ إليه راغب فيما يرد به، مشفق بها في طيه، مظهر خلاف ما يخفى لمصلحة وقته، لا يُحكَم عليه، غريب في الملأ الأعلى والأسفل، ذو همة فعالة، مقيدة غير مطلقة، غيور على الأسرار أن تذاع في عالم الغيب والشهادة، عن أمر الحق ولاية وخلافة، حمَّال أعباء المملكة، يستخرج غيابات الأمور، تُنشئ خواطره أشخاصًا على صورته، محفوظ الأربعة، فريد من النظر، له في الملكوت وقائع مشهودة، قائم بالحق في جمعيته، ناقد الهمة، مؤثر في الوجود على الإطلاق من غير تقييد لكن بالميزان المعلوم عند أهل الله، مجهولًا النعت والصفة عند الغير من جميع العالم، من بشر وجن وملك وحيوان، لا يُعرَف بجد، ولا يفارق العادة فيميز، خامل الذكر، مستور الحال، عام الشفقة على عباد الله، يغرق في رحمته من أُمِرَ برحمته، حتى يجعل له خصوص وصف، عارف بإرادة الحق في عباده قبل وقوع المراد فيريد بإرادة الحق، لا ينازع ولا يقاوم، ولا يقع في الوجود ما لا يريد.

وإن وقع ما لا يرضى وقوعه بل يكرهه، شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق من سفسافها فينـزلها منازلها مع أهلها تنـزيل حكيم، بريء ممن تبرأ الله منه، محسن إليه مع البراءة منه، مصدق، مؤمّن عباد الله من غوائله، مشاهد تسبيح المخلوقات على تنوعات أذكارها، لا يظهر إلا لعارف مثله، إذا تجلى له الحق يقول: أنا هو؛ لقوة الشبه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال: بسم الله كان عن قوله ذلك

=

=

كلما قصده بهمته، لا بقوله: «كن» أدبًا مع الله فيعطي المواطن حقها، كبير بحق، صغير لحق، متوسع مع حق، جامع لهذه الصفات في حق، واحد خبير بالمقادير والأوزان، لا يفرط ولا يفرّط، يتأثر مع الآفات لتغير الأحوال فلا يفوته من العالَم ولا مما هو عليه الحق في الوقت شيء، مما يطلبه العالَم في زمن الحال، يشاهد نشأ الصور من أنفاسه بصورة ما هو عليه الحق في قلبه عند خروج النفس فإذا أورد عليه النفس الغريب من خارج لتبريد القلب، طلع على ذلك النفس خلعة الوقت فيضيء ذلك النفس بذلك النور الذي يجد في القلب، يستر مقامه بحاله، وحاله بمقامه فتجهله أصحاب الأحوال بمقامه وأصحاب المقامات بحاله عن فاعل شهوته؛ إذ لم يجد وجه الحق في طبيعتها يبذل لك لا له، عطاؤه غير معلول، لا يَمُن إذا امتن، ويَمتن بقبول المنّ، لا يؤاخذ الجاهل بجهله فإن جَهلَه له وجه في العلم، لا يُشعر المعطي من عنده حينما يعطيه، يُعرِّفه أن ذلك أمانة عنده أُمِرَ بإيصالها إليه، لا يُعرِّفه أن ذلك من عند الله، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه ومن تحت رجله، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر، ويرسلها إذا شاء من حيث لا تشعر، يملك أزمة الأمور، وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو فيستفل بنظره، وإلى السفل فيعلو ويرتفع بنظره، ويحجر الواسع، ويوسع المحجور، ويسمع كل مسموع منه، لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مُبَصَر، لا من حيث ذلك المبصر، يقضى بين الخصمين بما يرضيهما فيحكم لكل واحدٍ لا عليه مع تناقض الأمر، يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، يغلِّب ذكر النفس على ذكر الملأ من أجل المفاضلة غيرة أن يُفَاضَل الحق، فإنه ذاكر بحق في حق، الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية، يعرف ربه من نفسه، كما عَلِمَ الحق العالَمَ من علمه بنفسه، لا يُؤاخِذ بالجريمة، عظمته في ذلته وصغاره فلا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وأخرى، هو في عمله بحسب علمه، إن اقتضى العمل عمل.

وإن اقتضى أن لا يعمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور بحكمه، ومفاتيحها بيده، يُنَـزِّل بقدر ما يشاء، ويخرج ما يشاء، غوّاص في دقائق الفهوم عند ورود الصلوات، له نعوت الكمال، له مقام الخمسة في حفظ نفسه وغيره، وينظر في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠] فلا يتعداه، يدبر أمور الكون بينه وبين ربه، كالمشير العالِم الناصح في الخدمة، القائم بالحرمة، لا أينية لسره، لا يبخل عند السؤال، ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون؛ ليقابلها مما عنده لما سمع قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣]، يسمع نداء الحق من ألسنة الخلق، يسع الأشياء ولا يسعه سوى ربه، فهو أينه وعينه، مراقب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل، لا تزلزله الحادثات، ليس في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهرُ في أي صورة شاء بصفة الحياة، مع الوقوف عند الحدود، يعرفُ حقه من حق خالقه، يتصور في الأشياء بالاستحقاق، ويُصرِف الحق فيها بالاستخلاف، له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة، لا تنفذ فيه همم الرجال، يحصى أنفاسه بمشاهدة صورها، فيعلم ما زاد وما نقص في كل يوم وليلة، ينظر في المبدأ والمعاد فيرى التقاطر في الدائرة، يلقي الكلمة في المحل القابل فيبدو صورته وحاله في أي صورة كان، ما يطأ مكانًا إلا حيِيَ ذلك المكان بوطئته؛ لأنه وطئته بحياة روحية، إذا قام قام بقيامه ربه، ويغضب لغضبه، ويرضى لرضاه.

فإن حالته في سلوكه كانت هكذا فعادت عليه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، لا

=

الحقيقي هو الله تعالى، وأنهم محل لظهور ذلك فقط.

وأشار المصنف -رحمه الله تعالى- إلى علامة يعرف بها العبد نفسه(١)، فمن علامة كونه

=

يخطر له خاطر في شيء إلا تكوَّن، ولا يعرف ذلك الشيء أنه كونه له، على الأشياء شرف البصر على العماء لا شرف الاستواء فهو وحيد في الكون، غير معروف العين، من لجأ إليه خسر ولا تنقضي حاجته إلا به؛ فإنه ظاهر بصورة العجز وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن، يحسن للمسيء والمحسن، يرجع إلى الله في كل أمر، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلا بأمره الخاص، فإن لم يأمره عفا بحق؛ لشهوده السابقة في الحال، القليل عنده كثير، والكثير قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكًا، يسبح أسماء الله تعالى بتنـزيهها من أن تناله أيدي الغافلين غيرة على الجناب الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمى، إن وُلِّيَ منصبًا يُعطَى العلوم، لم يُرَ فيه متعاليًا بالله فأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم، جامع علوم الشرع من عين الجمع، مستغنٍ عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق، ويعطي ما تحصل به المنفعة، ولا يعطي ما تكون به المضرة، إن عاقب فتطهير، لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي؛ ليكشف غامضها ويجليها في منصتها، يرثُ ولا يورث بالنبوة العامة، يتصرف ويعمل ما ينبغي، يُؤذَى فيحلم عن مقدرة، وإذا أخذ فبطشه شديد؛ لأنه خالص غير مشوب برحمة.

فهذه بعض صفات العارف من بعض ما ذكره في الفتوحات في باب المعرفة.

فينبغي لكل من يدعى المعرفة أن يعرض صفاته عليها؛ ليعلم هل هو متخلق بها أو لا فإن لم يجد نفسه بتلك المثابة كان المناسب له التحقق بالعجز وترك الدعوى والله أعلم.

(١) أي: من عرف صفات نفسه عرف صفات ربه على الضد منها فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء ومن عرف نفسه بالخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء.

وقيل: إنه من تعليق مستحيل على مستحيل؛ لأن معرفة نفسك وكيفيتها على ما هي عليه مستحيلة فكذلك معرفة الرب على ما هو عليه.

وذكر الشيخ أحمد بن غانم المقدسي في ذلك عشرة أوجه:

الأول: إن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقرًا إلى مدبر ومحرك، وهذه الروح تدبره وتحركه عَلِمنا أن هذا العالم لا بدَّ له من محرك ومدبر.

الوجه الثاني: لما كان مدبر الجسد واحدًا وهو الروح علمنا أن مدبر العالم واحد لا شريك له في ملكه.

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسم لا يتحرك إلا بإرادة الروح وبتحريكها له علمنا أنه تعالى مدبر لما هو كائن في كونه لا يتحرك متحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك شيء في الجسد إلا بعلم الروح وشعورها بها، لا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكونه شيء علمنا أنه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس:٦١].

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء، بل هو قريب إلى كل شيء في الجسد علمنا أنه قريب إلى كل شيء، ليس له شيء أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد عنه من شيء لا

=

من القسمين الأولين:

«نقصان الرجاء»[١] أي: رجاؤه في الله تعالى أن يدخله الجنة، وينجيه من العذاب إن

=

بمعنى قرب المساحة؛ لأنه منزّه عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان الروح موجودًا قبل وجود الجسد، ويكون موجودًا بعد عدم الجسد علمنا أنه سبحانه وتعالى موجود قبل كون خلقه، ويكون موجودًا بعد فقد خلقه مازال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا نعلم له كيفية علمنا أنه مقدس عن الكيفية.

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعلم له أينية علمنا أنه تقدس عن الأينية فلا يوصف بأين ولا كيف.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يمس ولا يجس علمنا أنه سبحانه وتعالى منزه عن الحس والجس والمس واللمس.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يُدرك بالبصر، ولا يُمثل بالصور علمنا أنه لا تدركه الأبصار ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قال بعض العلماء: الرجاء تعلق القلب بمطموع يحصل في المستقبل، مع الأخذ في العمل المُحصِل لـه، وأقرب منه طمع يصحبه عمل في سبب المطموع فيه، لأجل تحصيله انتهى.
والأمنية اشتهاء وتمنٍ لا يصحبه عمل، فإن كان مع الحكم والجزم فهو تدبير وهو أتم قبحًا، قاله الشيخ زروق ﷺ.

قلت: فمن رجا أن يدرك النعيم الحسي كالقصور والحور فعليه بالجد والطاعة والمسارعة إلى نوافل الخيرات وإلا كان رجاؤه حمقًا وغرورًا.

وقد قال معروف الكرخي ﷺ: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق.

وقيل: من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح، فكذلك فليزعم أن الربح مع الفقير، ووقد النار من البحر صحيح، ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم وفتح مخازن الفهوم فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين، مع تحليته بالتقوى والورع، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فإن فعل هذا كان طالبًا صادقًا وإلى ما رجا واصلًا، وإلا كان باطلًا وبقي جاهلًا.

وقد قال بعض المحققين: من أعطي كليته في العلم أخذ كليته، ومن لم يعط كليته لم يأخذ بعضه، ولا كليته وفي الحديث عنه ﷺ: «إِنَّما العلمُ بالتَّعَلُّمِ وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ من يطلبِ الخيرَ يُؤْتَهُ ومنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ» انتهى.

والذي تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول، ويشرح الصدور، ويوسع المعقول، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات وتحقيق المنازلات ومواجيد المحبين وأذواق العارفين فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال، بحط رأسه وذبح نفسه، والأخذ فيما كلفوه به من الأعمال مع
=

كان من العباد، وأن يوصله إلى مطلوبه للتقدم إن كان من المريدين «عند وجود الزلل» بأن تصدر منه معصية، كزنا وغفلة عن الله تعالى، وترك أوراد.

ومن علامة كونه من العارفين، فناؤه عن نفسه[1]، فإذا وقع في زلة أو أصابه غفلة شهد

=

الذل والافتقار والخضوع والانكسار، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق في الطلب، فسر الله كله في صدق الطلب، وليستغرق أوقاته في ذكر الله، وليلتزم الصمت والعزلة وليحسن ظنه بالله، وبعباد الله، فإن الله يقيض له من يأخذ بيده: ﴿إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

قال في القواعد قاعدة: طلب الشيء من وجهه وقصده أقرب لتحصيله، وقد ثبت أن حقائق علوم الصوفية مِنح إلهية ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه ذلك، وهو ثلاث:

أولها: العمل بما علم قدر الاستطاعة.

الثاني: اللجأ إلى الله على قدر الهمة.

الثالث: إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأصل السنة، فيجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح.

وقد أشار الجنيد -رحمه الله تعالى- إلى ذلك بقوله: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال، أو كما قال. وفي الخبر عنه ﷺ:

«مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أورثَهُ الله علمَ ما لم يَعْلَمْ».

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا انتهى.

فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة وشرع في أسبابها وتحصيل مبادئها كان علامة على نجح مطلبه، وكان رجاؤه صادقًا. ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد في أسباب تحصيلها كان أمنية أي غرورًا وحمقًا.

وكان الحسن ﷺ يقول: يا عباد الله اتقوا هذه الأماني، فإنها أودية النَّوكى يحلون فيها، فوالله ما أتى الله عبدًا بأمنية خيرًا في الدنيا والآخرة انتهى.

والنوكى بفتح النون جمع أنوك، وهو الأحمق ولما كان من رجا شيئًا وطمع فيه الغالب أنه يطلبه بين الشيخ خير ما يطلبه العبد ويرجوه.

(١) تقول الست عجم: معنى الفناء ظهور الانتقام في حال الاصطلام؛ فإنه لما ظهر عليه هذا الحال وأثر بظهوره أثرًا أفنى بذلك الأثر شيئًا من الوجود الذي يجمعه العارف وصفًا، فإذا أفنى هذا الشيء تيقن العارف أن هذا الفناء من ذاته إذ الواحد مجموع الكل والكل مجموع الآحاد، فمتى فنى شخص فنى الكل إذ كل شخص مختصر من المجموع، لكن إذا فنى هذا الشخص لا يكون الحقيقة المطلقة فانية، وإنما تفنى الحقيقة المقيدة فمراده بهذا الفناء واحد من المقيدين لا واحد في الإطلاق، فإن الإطلاق لا يصدق إلا على واحد والواحد المطلق لا يفنى ولا يطلق عليه الفناء، بل يطلق على المقيدين لأنهم آحاد متكثرة تفنى شيء ويبقى شيء فكأنه لما صدر عنه هذا الأثر فنى به واحدًا من الأشخاص المقيدة، فكان هو الفاني بالنسبة إلى التقييد. وانظر: شرح المشاهد لعجم (بتحقيقنا).

تصريف الحق فيه، وجريان فضائله عليه.

كما أنه إذا صدرت منه طاعة، أو لاح له مشاهدة قلبية، لم ير في ذلك حوله وقوته، فلا فرق عنده بين الحالين؛ لأنه غارق في بحار التوحيد، قد استوي خوفه ورجاؤه، فلا ينقص العصيان خوفه، ولا يزيد الإحسان رجاؤه.

فمن لم يجد هذه العلامة فيه، فليجاهد نفسه بالرياضات والأذكار؛ حتى يصل إلى مقام العرفان.

ومراد المصنف بهذه الحكمة تنشيط السالك، ورفع همته عن الاعتماد على شيء سوى مولاه، لا التزهيد في الأعمال؛ لأنها سبب عادي في الوصول إلى الله تعالى، ولا تحقير ما تنتجه الأحوال وغيرها؛ لأن ذلك منة من الله تعالى لا ينبغي ردها.

الحكمة الثانية

«إرادتُك التَّجرِيد مع إقامة الله إيَّاك في الأسباب من الشهوة الخفيَّة وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهمَّة العليَّة»[1]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التجريد في اللغة هو التكشيط والإزالة تقول: جردت الثوب أزلته عني وتجرد فلان أزال ثوبه وجردت الجلد أزلت شعره وأما عند الصوفية؛ فهو على ثلاثة أقسام:

تجريد الظاهر فقط أو الباطن فقط أو هما معًا.

فتجريد الظاهر: هو ترك الأسباب الدنيوية وخرق العوائد الجسمانية.

والتجريد الباطني: هو ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية.

وتجريدهما معًا: هو ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية أو تقول:

تجريد الظاهر: هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله.

وتجريد الباطن: هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله.

وتجريدهما: هو إفراد القلب والقالب لله.

والتجريد الكامل في الظاهر: هو ترك الأسباب وتعرية البدن من معتاد الثياب وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم وتحليته بكل وصف كريم.

وأما من جرد ظاهره دون باطنه فهو كذّاب كمن كسى النحاس بالفضة: باطنه قبيحٌ وظاهره مليحٌ ومن جرد باطنه دون ظاهره إن تأتّى ذلكَ فهو حسنٌ كمن كسى الفضة بالنحاس وهو قليل إذ الغالب أن من تنشب ظاهره تنشب باطنه ومن اشتغل ظاهره بالحس اشتعل باطنه به والقوة لا تكون في الجهتين ومن جمع بين تجريدي الظاهر والباطن فهو الصديق الكامل وهو الذهب المحرر الصافي الذي يصلح لخزانة الملوك وللتجريد.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : آداب الفقير المتجرِّد أربعة: الحرمة للأكابر والرحمة للأصاغر والإنصاف من نفسك وعدم الانتصار لها وآداب الفقير المتسبب أربعة: موالاة الأبرار ومجانبة الفجار =

=
وإيقاع الصلاة في الجماعة ومواساة الفقراء والمساكين بما يفتح عليه وينبغي له أيضًا أن يتأدَّب بآداب المتجردين إذ هو كمال في حقه.

ومن آداب المتسبب إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقله منها على لسان شيخه إن كان أو بإشارة واضحة كتعذرها من كل وجه، فحينئذ ينتقل للتجريد فإرادته التجريد مع إقامته تعالى له في الأسباب من الشهوة الخفية لأن النفس قد تقصد بذلك الراحة ولم يكن لها من اليقين ما تحمل به مشاق الفاقة، فإذا نـزلت بها الفاقة تـزلزلت واضطربت ورجعت إلى الأسباب فيكون أقبح لها من الإقامة فيها، فهذا وجه كونها شهوة، وإنما كانت خفية؛ لأنها في الظاهر أظهرت الانقطاع والتبتل وهو مقام شريف وحال منيف، لكنها في الباطن أخفت حظها من قصد الراحة أو الكرامـة أو الولاية أو غير ذلك من الحروف، ولم تقصد تحقيق العبودية وتربية اليقين. وفاتها أيضًا الأدب مع الحق حيث أرادت الخروج بنفسها ولم تصبر حتى يؤذن لها وعلامة إقامتها فيها دوامها له مع حصول النتائج وعدم العوائق القاطعة له عن الدين وحصول الكفاية بحيث إذا تركها حصل له التشوف إلى الخلق والاهتمام بالرزق فإذا انخرمت هذه الشروط انتقل إلى التجريد.

قال في التنوير: «والذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك حتى يكون الحق تعالى هو الذي يتولى إخراجك كما تولى إدخالك وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب».

قال بعضهم: تركت السبب كذا وكذا مرة فعدت إليه فتركني السبب فلم أعد إليه قال: ودخلت على الشيخ أبي العباس المرسي وفي نفسي العزم على التجريد قائلًا في نفسي إن الوصال إلى الله تعالى على هذه الحالة التي أنا عليها بعيد من الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس فقال لي: من غير أن أسأله صحبني إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذا الطريق شيئًا، فجاء إليّ فقال لي: يا سيدي أخرج عما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك فقلت له: ليس الشأن ذا ولكن امكث فيما أنت فيه وما قسم الله لك على أيدينا فهو لك واصل ثم قال: الشيخ ونظر إليّ وهكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم فخرجت من عنده، وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى، ولكنهم كما قال رسول ﷺ: «هُمُ القومُ لا يَشْقَى بهم جليسُهم» انتهى.

قال شيخنا ﷺ: وإنما منعه من التجريد لشره نفسه إليه، والنفس إذا شرهت للشيء كان خفيفًا عليها والخفيف عليها لا خير فيه وما خف عليها إلا لحظ لها فيه.

ثم قال: فلا يتجرد المريد في حال القوة حتى تفوت إن أراد أن يستفيد نفسه، فإن جردها في حال القوة أتاه الضعف فيعقبه الخصمان ويشوشونه ويفتنونه، وربما إذا لم يدركه المولى بلطفه سامح في الخلطة ويرجع إلى ما خرج منه حتى يسيء ظنه بأهل التجريد.

ويقول: ليسوا على شيء كلنا دخلنا البلد وما رأينا شيئًا والذي يثقل عليه التجريد أولًا هو الذي ينبغي له أن يتجرد؛ لأنه ما ثقل عليها إلا حيث تحققت أن عنقها تحت السيف مهما حرك يده قطع أوداجها انتهى المقصود منه.

وأما المتجرد إذا أراد الرجوع إلى الأسباب من غير إذن صريح فهو انحطاط من الهمة العلية إلى الهمة
=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إرادتك التجريد» أي: ميل نفسك أيها المريد الصادق إلى التجريد عن الأسباب الظاهرية أي: خروجك عنها وعدم معاناتها، «مع إقامة الله إياك في الأسباب».

وعلامة ذلك أن يهيئها لك، وأن تجد السلامة في دينك عند معاناتها، وينقطع بها طمعك عما بأيدي الناس، ولا يشغلك عما أنت فيه من وظائف العبادات الظاهرة والأحوال الباطنة، «من الشهوة» أي: من شهوات النفوس التي تدعو إليها «الخفية»، وكانت شهوة لعدم وقوفك على مراد سيدك، وموافقتك مراد نفسك، وخفية لأن ظاهر ذلك أن مرادك

الدنيَّة أو سقوط من الولاية الكبرى إلى الولاية الصغرى.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ:

قال لي شيخي سيدي العربي: يا ولدي لو رأيت شيئًا أعلى من التجريد وأقرب وأنفع لأخبرتك به ولكن هو عند أهل هذه الطريقة بمنـزلة الإكسير الذي قيراط منه يغلب ما بين الخافقين ذهبًا كذلك التجريد في هذه الطريق انتهى.

وسمعت شيخ شيخنا ﷺ يقول:

معرفة المتجرد أفضل وفكرته أنصع؛ لأن الصفا من الصفاء والكدر من الكدر: صفاء الباطن من صفاء الظاهر وكدر الباطن من كدر الظاهر وكل ما زاد في الحس نقص في المعنى، وفي بعض الأخبار: إذا أخذ العالم شيئًا من الدنيا نقصت درجته عند الله وإن كان كريمًا على الله.

وأما من أُذن له في السبب، فهو كالمتجرد إذ صار حينئذ سببه عبودية والحاصل: أن التجريد من غير إذن سبب والسبب مع الإذن تجريد وبالله التوفيق.

تنبيـه:

هذا الكلام كله مع السائرين وأما الواصلون المتمكنون فلا ملامة عليهم إذ هم -رضي الله عنهم- مأخوذون عن أنفسهم يقبضون من الله ويدفعون بالله قد تولى الحق تعالى أمورهم وحفظ أسرارهم وحرس قلوبهم بجنود الأنوار فلا تؤثر فيها ظلم الأغيار وعليه يحمل حال الصحابة في الأسباب -رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين.

واعلم أن المتسبب والمتجرد عاملان لله إذ كل واحد منهما حصل له صدق التوجه إلى الله تعالى حتى قال بعضهم: مثل المتجرد والمتسبب كعبدين للملك قال لأحدهما: اعمل وكل، وقال للآخر: الزم أنت حضرتي وأنا أقوم لك بقسمتي. ولكن صدق التوجه في المتجرد أقوى لقلة عوائقه وقطع علائقه كما هو معلوم.

ولما كانت همة الفقير المتجرد لا تخطئ في الغالب لقوله ﷺ: «إنَّ لله رجالًا لو أقسمُوا على الله لأبَرَّهُم في قسمِهِم».

قال شيخنا: ولله رجال إذا اهتموا بالشيء كان بإذن الله، وقال أيضًا ﷺ: **«اتَّقُوا فراسةَ المؤمنِ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله»**.

بالتجرد الانقطاع إلى الله تعالى والتقرب إليه، وباطنه أن مرادك الشهوة بالولاية لتقصدك الناس بالاعتقاد والتقرب إليك، فتنقطع عما أنت بصدده.

فقد قال العارفون: «إقبال الناس على المريد قبل كماله سم قاتل»، وربما انقطعت بذلك عن وظائفك وأورادك، وصرت تتطلع لما بأيدي الناس.

«وإرادتك الأسباب» أي: التسبب والاكتساب «مع إقامة الله إياك في التجريد» أي: بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب، وجعل نفسك مطمئنة عند تعذره متعلقة بمولاها، ودمت على الاشتغال بوظائف العبادات «انحطاط عن الهمة العلية» لإرادتك الرجوع إلى الخلق بعد التعلق بالحق، ولو لم يكن إلا مخالطة أبناء الدنيا فيما هم فيه لكان كافيًا في دناءة الهمة.

فالواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الحق فيه، ويرضى به حتى يتولى الله إخراجه منه، ولا يخرج بنفسه وإرادته وتسويل الشيطان، فيقع في بحر القطيعة، والعياذ بالله تعالى.

الحكمة الثالثة

«سَوابِقُ الهممِ لا تخرقُ أسوارَ الأقدارِ»[1]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: السوابق جمع سابقة وهي المتقدمة والهمم جمع همة والهمة قوة انبعاث القلب في طلب الشيء والاهتمام به فإن كان ذلك الأمر رفيعًا كمعرفة الله وطلب رضاه سميت همة عالية، وإن كان أمرًا خسيسًا كطلب الدنيا وحظوظها سُمِّيَتْ همة دنِيَّة وسوابق الهمم من إضافة الموصوف إلى الصفة أي الهمم السوابق لا تخرق أسوار الأقدار أي إذا اهتم العارف أو المريد بشيء وقويت همته بذلك؛ فإن الله تعالى يكون ذلك بقدرته في ساعة واحدة حتى يكون أمره بأمر الله.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ يقول: المريد الصادق إذا كان فانيًا في الاسم مهما اهتم بالشيء كان وإن كان فانيًا في الذات تَكَوَّن الشيء الذي يحتاجه قبل أن يهتم به أو كلام هذا معناه وهو صحيح.

وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «**عبدي أنا الله الذي يقولُ للشيءِ كُنْ فيكون، فأطعني أجعلْكَ تقولُ للشيءِ كُنْ فيكون**».

وفي الحديث الصحيح أيضًا: «**فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا إن سألني أعطيته...**».

ومع ذلك لا ينفصل بذلك ولا يتكوَّن إلا ما أحاط به قدر الله وقضاؤه؛ فهمة العارف تتوجه للشيء فإن وجدت القضاء سبق به كان ذلك بإذن الله وإن وجدت سور القدر مضروبًا عليه لا تخرقه بل تتأدب معه وترجع لوصفها وهي العبودية فلا تتأسف ولا تحزن بل ربما تفرح لرجوعها لمحلها وتحققها بوصفها.

وقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ يقول:

نحن إذا قلنا شيئًا فخرج فرحنا مرة واحدة وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات وذلك لتحققه بمعرفة الله، =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

هذه الحكمة كالتعليل لما قبلها، وتصلح أيضًا لما بعدها كأنه قال: إرادتك أيها المريد خلاف لما أراده مولاك، لا تجدي نفعًا؛ لأنه إذا كانت سوابق الهمم أي الهمم السوابق أي: سريعة التأثير في الأشياء، وهي قوى النفس التي تنفعل عنها الأشياء، وتكون للوليّ كرامة، يقال: فعل كذا بهمته إذا وجهها إليه، فوجد، ولغيره كالساحر والعائن إهانة لا تنفعل عنها الأشياء إلا بتقدير الله تعالى أي: بإذنه سبحانه.

فالهمم غير السوابق، كهمتك أيها المريد لا أثر لها من باب أولى، ففي هذا تبريد نار الحرص المشتعلة في قلبه حتى يخيل له أن ذلك الشيء طوع يده، وأنه يدركه لا محالة.

والإضافة في قوله: «سوابق الهمم» من إضافة الصفة إلى الموصوف، كما تقرر، وفي قوله: «أسوار الأقدار» من إضافة المشبه به للمشبه.

الحكمة الرابعة

«أَرِحْ نفسَكَ مِنَ التَّدبيرِ فمَا قَامَ بهِ غيرُكَ عنْكَ لا تَقُمْ بِهِ أَنْتَ لنفسِكَ»(١)

=

قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وقد يحصل هذا التأثير للهمة القوية وإن كان صاحبها ناقصًا كما يقع للعاين والساحر عن خبثهما أو لخاصية جعلها الله فيها إذا نظرا لشيء بقصد انفعل ذلك بإذن الله وهذا كله أيضًا لا يخرق أسوار الأقدار بل لا يكون إلا ما أراد الواحد القهّار.

قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

وقال ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ حتَّى العجزُ والكيسُ» أي: النشاط للفعل وأَشْعَرَ قوله: «سوابق» أن الهمم الضعيفة لا ينفعل لها شيء وهو كذلك في الخير والشر وفي استعارته الخرق والأسوار ما يشعر بالقوة في الجانبين لكن الحاصر قاهر فلا عبرة بقوة العبد القاصر وإذا كانت الهمة لا تخرق أسوار الأقدار فما بالك بالتدبير والاختيار.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التدبير في اللغة: هو النظر في الأمور وأواخرها، وفي الاصطلاح: هو كما قال الشيخ زروق رضي الله عنه: تقدير شئون يكون عليها في المستقبل بما يخاف أو يرجى بالحكم لا بالتفويض فإن كان مع تفويض وهو أخروي فنية خير أو طبيعي فشهوة أو دنيوي فأمنية انتهى.

فاقتضى كلامه أن التدبير على ثلاثة أقسام: قسم مذموم، وقسم مطلوب، وقسم مباح.

فأما القسم المذموم: فهو الذي يصحبه الجزم والتصميم سواء كان دينيًّا أو دنيويًّا لما فيه من قلة الأدب وما يتعجله لنفسه من التعب إذ ما قام به الحي القيوم عنك لا تقوم به أنت عن نفسك، وغالب ما تدبره لنفسك لا تساعده رياح الأقدار، وتعقبه الهموم والأكدار، ولذلك قال أحمد بن مسروق: «من ترك التدبير؛ فهو في راحة»، وقال سهل بن عبد الله: ذروا التدبير والاختيار؛ فإنهما يكدران على الناس عيشهم، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله جعلَ الرَّوْحَ والرَّاحةَ في الرِّضا واليقينِ»، وقال الشيخ أبو الحسن

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أرح نفسك» أيها المريد «من التدبير» لأمر دنياك، وهو أن يقدر الشخص في نفسه أحوالًا يكون عليها ما تقتضيه شهوته، ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال ويهتم لأجل ذلك، وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع، فيخيب ظنه، وفي تعبيره بـ «أرح» إشارة إلى المطلوب تركه للمريد هو ما فيه تعب ومعاناة، أما تدبير أمور معاشه على

= الشاذلي ﷺ: لا تختر من أمرك شيئًا واختر أن لا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨] انتهى.

وقال أيضًا: إن كان ولا بدَّ من التدبير فدبر أن لا تدبر، وقيل: من لم يُدَبِّرْ دُبِّرَ له.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ: من أوصاف الولي الكامل ألا يكون محتاجًا إلا إلى الحال الذي يقيمه مولاه في الوقت يعني ما له مراد إلا ما يبرز من عنصر القدرة انتهى؛ فكلام هؤلاء السادات محمول على ما إذا كان بالنفس مع الجزم، وأما ما كان مع التفويض فليس بمذموم ما لم يطل.

وأما القسم المطلوب: فهو تدبير ما كلفت به من الواجبات وما ندبت إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة والنظر للقدرة، وهذا يسمى النية الصالحة، وقد قال ﷺ: «**نِيَّةُ المؤمن خيرٌ من عمله**».

وقال أيضًا حاكيًا عن الله سبحانه: «**إذا هَمَّ عبدي بحسنةٍ فلم يعملْها كتبتُ له حسنةً كاملةً...**».

وهذا القسم هو مفهوم قول الشيخ: «فما قام به غيرك» إذ مفهومه أن ما لم يقم به عنك وهو الطاعة لا يضرك تدبير.

ولذلك قال إبراهيم الخواص ﷺ: العلم كله في كلمتين لا تتكلف ما كفيت ولا تضيع ما استكفيت فقوله: لا تتكلف ما كفيت هو القسم الأول المذموم، وقوله: ولا تضيع ما استكفيت هو القسم الثاني المطلوب.

وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منه شيء إنما هو مختار الله لك واسمعْ وأَطِعْ وهذا محل الفقه الرباني والعلم الإلهامي وهو أرض لتنـزل عليه الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى لمن استوى انتهى.

وأما القسم المباح: فهو التدبير في أمر دنيوي أو طبيعي مع التفويض للمشيئة والنظر لما يبرز من القدرة غير معول على شيء من ذلك وعليه يحمل قوله ﷺ: «**التدبير نصف العيش**»، بشرط ألا يردده المرة بعد المرة، فالقدر المباح منه هو مروره على القلب كالريح يدخل من طاق ويخرج من أخرى، وهذا هو التدبير بالله وهو شأن العارفين المحققين.

وقال في التنوير فائدة: اعلم أن الأشياء إنما تذم وتمدح بما تؤدي إليه، فالتدبير المذموم ما شغلك عن الله وعطلك عن القيام بخدمة الله وصدك عن معاملة الله، والتدبير المحمود، هو الذي يؤديك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاة الله...إلخ.

انظر بقية كلامه فهذا تحرير ما ظهر لي في شأن التدبير، وقد ألف الشيخ ﷺ فيه كتابًا سماه «التنوير في إسقاط التدبير» أحسن فيه وأجاد ومرجعه إلى ما ذكرنا، والله تعالى أعلم.

وجه سهل يستعين به على مطلوبه، فلا بأس به، ولذا ورد: «**التدبير نصف المعيشة**»[١].

«فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك»[٢] يعني: أن الأمر مفروغ منه إذ قد قام به غيرك وهو الله تعالى، وما قام به غيرك لا فائدة في قيامك به، فيكون قيامك به فضولًا لا ينبغي أن يتلبس به ذوو العقول، وأيضًا فيه ترك العبودية ومضادة لأحكام الربوبية ومنازعة القدر.

وإنما خاطب المريد بذلك؛ لأنه إذا توجه لحضرة الرب، واشتغل بأوراد الطريق وأعماله تعطلت عليه أسباب معاشه في الغالب، فيأتيه الشيطان ويوسوس له، ويصير يدبر له في نفسه أمورًا لا يقع أكثرها، وذلك يشغله عما هو بصدده، فيرجع عما هو متوجه له، ودواء ذلك كثرة الذكر والرياضة حتى يرجع عنه الشيطان، وتحصل له الراحة من تعب التدبير.

الحكمة الخامسة

«اجتهادُك فيما ضَمِن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليلٌ على انطماسِ البصيرةِ منكَ»[٣]

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ١٨٠).

(٢) قال الشيخ الكردي: «ينسب إليه تعالى التدبير لا إلى العبد، وإلا فتدبير العبد هو تدبير الحق تعالى، لكن العبد إذا رأى التدبير من نفسه ينسب تدبيره إليه، ويكون الوبال عليه بناء على زعمه، وإذا رآه من مولاه فهو منسوب إليه كما هو الأمر عليه، فينبغي للعبد ترك تدبيره بنفسه لنفسه، ويريح نفسه منه لإقامة الحق تعالى به.

(٣) قال الشيخ ابن عجيبة: الاجتهاد في الشيء استفراغ الجهد والطاقة في طلبه، والتقصير هو التفريط والتضييع والبصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب، فالبصيرة لا ترى إلا المعاني والبصر لا يرى إلا المحسوسات، أو تقول البصيرة لا ترى إلا اللطيف، والبصر لا يرى إلا الكثيف أو تقول البصيرة لا ترى إلا القديم والبصر لا يرى إلا الحادث أو تقول البصيرة لا ترى إلا المكون، والبصر لا يرى إلا الكون، فإذا أراد الله فتح بصيرة العبد أشغله في الظاهر بخدمته، وفي الباطن بمحبته، فكلما عظمت المحبة في الباطن والخدمة في الظاهر قوي نور البصيرة حتى يستولى على البصر، فيغيب نور البصر في نور البصيرة فلا يرى إلا ما تراه البصيرة من المعاني اللطيفة والأنوار القديمة.

وإذا أراد الله خذلان عبده أشغله في الظاهر بخدمة الأكوان وفي الباطن بمحبتها، فلا يزال كذلك حتى ينطمس نور بصيرته فيستولى نور بصره على نور بصيرته فلا يرى إلا الحس ولا يخدم إلا الحس، فيجتهد في طلب ما هو مضمون من الرزق المقسوم ويقصر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم، ولو كان بدل الاجتهاد استغراقًا وبدل التقصير تركًا لكن بدل الطمس عمي وهو الكفر والعياذ بالله؛ لأن الدنيا كنهر طالوت لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده لا من شرب على قدر عطشه؛ فافهم قاله الشيخ زروق ﷺ.

وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: البصيرة كالبصر أدنى شيء يقع فيه يمنع النظر وإن لم ينته إلى العمى، =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ولذا قال: «اجتهادك فيما ضمن لك» أي: تكفل الله لك به وهو الرزق تفضلًا منه وإحسانًا، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[العنكبوت:٦٠] إلى غير ذلك من الآيات، «وتقصيرك فيما طلب منك» وهو العمل الذي تتوصل به عادة إلى مولاك من أذكار وصلوات وأوراد وغير ذلك من أنواع الطاعات.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فالمطلوب من المريد السعي في قوت الأرواح وهو ذكر المولى، وفعل ما يقرب إليه، لا قوت الأشباح لأنه قائم به غيره، وهو مولاه «دليل على انطماس» أي: عمى «البصيرة منك»، وهي عين في القلب تدرك الأمور المعنوية، كما أن البصر يدرك الأمور المحسوسة، وفي تعبيره «بالاجتهاد» إشارة إلى أن طلب الرزق من غير اجتهاد لا بأس به للمريد ولا يدل على انطماس بصيرته.

الحكمة السادسة

«لا يكن تأخر أمدُ العطاء مع الإلحاحِ في الدُّعاءِ مُوجِبًا ليأسكَ؛ فهو ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يختارُ لكَ لا فيما تختارُ لنفسكَ، وفي الوقتِ الذي يريدُ لا في الوقتِ الذي تُريدُ»(١)

=

فالخطرة من الشيء تشوش النظر وتكدر الفكر والإرادة له تذهب بالخير رأسًا والعمل به يذهب عن صاحبه سهمًا من الإسلام فيما هو فيه ويأتي بضده، فإذا استمر على الشر تفلت منه الإسلام فإذا انتهى إلى الوقيعة في الأمة وموالاة الظلمة حبًّا في الجاه والمنزلة وحبًّا للدنيا على الآخرة فقد تفلت منه الإسلام كله ولا يغرنك ما توسم به ظاهرًا فإنه لا روح له إذ الإسلام حبُّ الله وحبُّ الصالحين من عباده انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الإلحاح في الشيء هو تكرره من وجه واحد، والدعاء: طلب مصحوب بأدب في بساط العبودية لجناب الربوبية والموجب للشيء ما كان أصلًا في وجوده واليأس قطع المطامع.

اعلم أن من أسمائه تعالى القيوم، وهو مبالغة في القيام؛ فقد قام تعالى بأمر خلقه من عرشه إلى فرشه وعين لكل مظهر وقتًا محدودًا وأجلًا معلومًا ولكل واحد شكلًا معلومًا ورزقًا مقسومًا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فارجع إلى وعد الله واقنع بعلم الله ولا تحرص ففي الحرص تعب ومذلة.

قال شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ: الناس تقضي حوائجهم بالحرص فيها والجري عليها ونحن نقضي حوائجنا بالزهد فيها والاشتغال بالله عنها انتهى.

وإن كان ولا بدَّ من الدعاء فليكن دعاؤك عبودية لا طلبًا للحظ فإن تركت الحظوظ صبت عليك الحظوظ وإن غلب عليك وارد الطلب وطلبت شيئًا ثم تأخر عنك وقت العطاء فيه فلا تتهم الله في

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم قال: «لا يكن تأخر أمد» أي: زمن «العطاء» بتأخر ما يقع فيه «مع الإلحاح في الدعاء» بزوال أوصاف بشريتك ورفع الحجاب عنك ووصولك إلى مولاك «موجبًا ليأسك» أي: من إجابة الدعاء «فهو ضمن لك الإجابة» بنحو قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] «فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد» فقد يكون دوام الحجاب على المريد خيرًا له ليجتهد في الأعمال ويدوم خوفه من مولاه، لكن الشيطان ربما أتى له، وقال له: لو كنت من أهل الإرادة لأجابك مولاك، وأزال أوصاف بشريتك، وحصل لك مقصودك، وجهل أن عدم إجابته قد يكون خيرًا له، وقد تكون بشريته غليظة، فلا تنقطع إلا بعد مدة طويلة، وما أتي به من المجاهدات والرياضات لا يفيد ذلك في تلك المدة.

وقد شبَّه بعض العارفين الطبيعة بأرض ذات شوك، وقد يكون الشوك غليظًا كثيرًا لا ينقطع إلا بعد مدة ومعاناة تامة، وقد يكون قليلًا ضعيفًا أدنى شيء يزيله، وكذلك أوصاف النفوس، وقد تكون خبيثة كثيرة فتحتاج إلى مدة طويلة وشدة معاناة في قطعها، فإذا حصل المقصود ولو في آخر نفسٍ من عمره، كان هو الغاية القصوى، وكان ما تعب فيه حقيرًا بالنسبة لذلك، وقد تكون بضد ذلك، فلا تحتاج إلى طول مدة وكثرة معاناة.

= وعده حيث قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، ولا تيأس من نواله ورفده؛ فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة، وقد يمنعك لطفًا بك لكون ذلك المطلب لا يليق بك كما قال الشيخ أبو الحسن: اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما علم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم.

وقد قال بعض المفسرين: في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ﴾ [القصص:٦٨]، «ما» موصولة أي: ويختار الأمر الذي لهم فيه خيرتهم، وقد يكون أجابك وعين لذلك وقتًا هو أصلح لك وأنفع فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة والبقاء وهو خير لك وأبقى.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما من داع إلا وهو بين إحدى ثلاث: **إما أن تعجل له طلبته وإما أن يدخر له ثوابها وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها...**» الحديث.

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوي ﷺ: من لم يكن في دعائه تاركًا لاختياره راضيًا باختيار الحق تعالى له، فهو مستدرج ممن قيل له: «**اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته**»؛ فإن كان مع اختيار الحق تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجابًا وإن لم يعط والأعمال بخواتمها انتهى.

الحكمة السابعة

«لا يُشَكِّكَنَّكَ في الوعدِ عدمُ وقوعِ الموعودِ وإنْ تعيَّنَ زمنُهُ لئَلا يكونَ ذلكَ قدحًا في بصيرتِك وإخمادًا لنورِ سريرتِكَ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التشكيك في الشيء: هو التردد في الوقوع وعدمه، والوعد: الإخبار بوقوع الشيء في محله والموعود: المخبر به والقدح في الشيء: التنقيص له والغض من مرتبته والبصيرة: القوة المهيئة لإدراك المعاني والسريرة: القوة المستعدة لتمكن العلم والمعرفة.

واعلم أن النفس والعقل والروح والسر شيء واحد لكن تختلف التسامي باختلاف المدارك فما كان من مدارك الشهوات فمدركه النفس وما كان من مدارك الأحكام الشرعية فمدركه العقل وما كان من مدراك التجليات والواردات فمدركه الروح وما كان من مدارك التحقيقات والتمكنات فمدركه السر والمحل واحد وإخماد الشيء خفاؤه بعد ظهوره.

قلت: إذا وعدك الحق تعالى بشيء على لسان الوحي أو الإلهام من نبي أو ولي أو تجل قوي فلا تشك أيها المريد في ذلك الوعد إن كنت صِدِّيقًا فإن لم يتعين زمنه فالأمر واسع وقد يطول الزمان وقد يقصر فلا تشك في وقوعه وإن طال زمنه وقد كان بين دعاء سيدنا موسى وهارون على فرعون بقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:٨٨]، أربعون سنة على ما قيل، وإن تعين زمنه ولم يقع ذلك عند حلوله فلا تشك في صدق ذلك الوعد فقد يكون ذلك مترتبًا على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى عن ذلك النبي أو الولي لتظهر قهرية عزته وحكمته وتأمل قضية سيدنا يونس عليه السلام حيث أخبر قومه بالعذاب لما أخبر به وفرَّ عنهم وكان ذلك متوقفًا على عدم إسلامهم فلما أسلموا تأخر عنهم العذاب وكذلك قضية سيدنا نوح عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود:٤٥] فوقف مع ظاهر العموم فقال له تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:٤٦]، ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك وإن فهمت العموم فعلمنا متسع.

ولهذا السر الخفي كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأكابر الصديقين لا يقفون مع ظاهر الوعد فلا يزول اضطرارهم ولا يكون مع غير الله فرارهم بل ينظرون لسعة علمه تعالى ونفوذ قهره، ومنه قول سيدنا إبراهيم الخليل: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠]، وقول سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾[الأعراف:٨٩]، أي: في ملة الكفر ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:٨٩].

وقضية نبينا ﷺ يوم بدر حيث دعا حتى سقط رداؤه، وقال: «**اللهم عهدك ووعدك اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد بعد اليوم**»، فقال له الصديق: حسبك يا رسول الله! فإن الله منجز لك ما وعدك فنظر المصطفى ﷺ، أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد ووقف الصديق مع الظاهر فكل على صواب، والنبي ﷺ أوسع نظرًا وأكمل علمًا.

وقد قال عليه السلام لعمر حين قال له: ألم تخبرنا أنا ندخل مكة فقال له: «**أقلتُ لك هذا العام فقال لا، فقال إنَّك داخلُها ومُطَوِّفٌ بها**»، فشد يدك يا أخي على تصديق ما وعدك الله به، وحسن ظنك به وبأوليائه ولا سيما شيخك، فإياك أن تضمر التكذيب أو الشك فيكون ذلك قدحًا في بصيرتك، وقد يكون سببًا =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا يشككنك في الوعد» الذي وعدك به مولاك في منام أو على لسان ملك أو بإلهام روحاني، «عدم وقوع الموعود وأن تعين زمنه» أي: وإن كان زمنه معينًا بأن ألهمت أنه يحصل لك في الوقت الفلاني فتح أو يحصل في العام رخاء أو غير ذلك «لئلا يكون ذلك» الشك «قدحًا في بصيرتك وإخمادًا لنور سريرتك».

فمن وعده مولاه شيئًا وإن كان معين الزمان، ثم لم يقع ذلك الموعود، فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعد ربه لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقًا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد لحكمة يريدها، ومن هذا القسم ما يقع لبعض الأولياء أن يخبر به بأنه يحصل في هذا العام كذا ثم لا يحصل، فيقع بعض الناس في إعراضهم.

ومنه ما وقع له ﷺ عام الحديبية من إخباره للصحابة بالفتح، ثم لم يحصل في ذلك العام، بل في عام بعده، فإذا خطر للمريد خاطر رحماني أو ملكي، ثم لم يحصل مقتضاه، لا ينبغي أن يشك في حصول الموعود، بل ينبغي أن يعرف قدره، ويتأدب مع ربه ويسكن إليه

=

في طمسها ويكون أيضًا إخمادًا أي: إخفاء وإطفاء لنور سريرتك، فترجع من حيث جئت وتهدم كل ما بنيت؛ فانظر أحسن التأويلات والتمس أحسن المخارج.

وقد تقدم قول شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ: نحن إذا قلنا شيئًا فخرج فرحنا مرة وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات وما ذاك إلا لوسع نظره وتمكنه في معرفة ربه وأيضًا قد يطلع الله أولياءه على نـزول القضاء ولا يطلعهم على نـزول اللطف فينـزل ذلك القضاء مصحوبًا باللطف فينـزل خفيفًا سهلًا حتى يظن أنه لم ينـزل وقد شهدنا هذا وما قبله من أنفسنا ومن أشياخنا رضي الله عنهم فلم ينقص صدقنا ولم يخمد نور سريرتنا فلله الحمد ربنا.

تنبيه: كان شيخنَا الفقيه العلامة سيدي التاودي بن سودة يستشكل هذه الحكمة، ويقول: كيف يتصور تعيين الزمان إن كان بالوحي فقد انقطع وإن كان بالإلهام فلا يلزم من الشك فيه القدح في البصيرة إذ لا يجب الإيمان به، قلنا: كلامنا مع المريدين الصديقين السائرين أو الواصلين وهم مطالبون بالتصديق للأشياخ في كل ما نطقوا به إذ هم ورثة الأنبياء فهم على قدمهم فللأنبياء وحي الأحكام وللأولياء وحي الإلهام؛ لأن القلوب إذا صفت من الأكدار والأغيار وملئت بالأنوار والأسرار لا يتجلى فيها إلا الحق فإذا نطقوا بشيء من وعد أو وعيد يجب على المريد تصديقه فإذا دخله تشكيك أو تردد فيما وعده الله على لسان نبيه أو شيخه قدح ذلك في نور بصيرته وأخمد سريرته فإذا لم يعين زمنه انتظر وقوعه وإن طال وإن عين زمنه ولم يقع تأول فيه ما تقدم في حق الرسل من توقفه على أسباب وشروط خفية وبهذا فرقوا بين الصديق والمصادق؛ لأن الصديق لا يتردد ولا يتعجب والصادق يتردد ثم يجزم، وإن رأى خرق عادة تعجب واستغرب، والله تعالى أعلم.

فيما وعده به، ولا يتشكك في ذلك ولا يتزلزل اعتقاده.

فمن كان كذلك، فهو عارف بالله، سالم البصيرة، منور السريرة، وإلا فعلى العكس من ذلك.

الحكمة الثامنة

«إذا فَتح لك وِجهةً من التعرف؛ فلا تبالِ معها إن قلَّ عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك، ألم تَعلم أن التعرف هو مُورِده عليك، والأعمال أنت مُهديها إليه وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورده عليك»[1]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: «فتح» هنا بمعنى هيأ ويسر والغالب استعماله في الخير فأشعر الإتيان به هنا أن جهة التعريف من الأمور الجميلة والوجهة: هي الجهة والمراد هنا الباب والمدخل والتعرف: طلب المعرفة تقول تعرف لي فلان إذا طلب مني معرفته والمعرفة تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن الانفكاك عنه بحل والمبالاة المهتم بفوات الشيء.

قلت: إذا تجلى لك الحق تعالى باسمه الجليل أو باسمه القهار وفتح لك منها بابًا ووجهة لتعرفه منها فاعلم أن الله تعالى قد اعتنى بك وأراد أن يجتبيك لقربه ويصطفيك لحضرته فالتزم الأدب معه بالرضا والتسليم وقابله بالفرح والسرور، ولا تبال بما يفوتك بها معها من الأعمال البدنية فإنها هي وسيلة للأعمال القلبية؛ فإنه ما فتح هذا الباب إلا وهو يريد أن يرفع بينك وبينه الحجاب ألم تعلم أن التعرفات الجلالية هو الذي أوردها عليك لتكون عليه واردًا والأعمال البدنية أنت مهديها إليه لتكون إليه بها واصلًا وفرقٌ كبيرٌ بين ما تهديه أنت من الأعمال المدخولة والأحوال المعلولة وبين ما يورده عليك الحق تعالى من تحف المعارف الربانية والعلوم اللدنية. فَطِبْ نفسًا أيها المريد بما ينزل عليك من هذه التعرفات الجلالية والنوازل القهرية ومثل ذلك كالأمراض والأوجاع والشدائد والأهوال وكل ما يثقل على النفس ويؤلمها كالفقر والذل وأذية الخلق وغير ذلك مما تكرهه النفوس فكل ما ينزل بك من هذه الأمور فهي نعم كبيرة ومواهب غزيرة تدل على قوة صدقك إذ بقدر ما يعظم الصدق يعظم التعرف: «**أشدُّكمْ بلاءً الأنبياءُ فالأمثلُ فالأمثلُ**»، والصدق متبوع.

وإذا أراد الله أن يطوي مسافة البعد بينه وبين عبده سلط عليه البلاء حتى إذا تخلص وتحرر صلح للحضرة كما تصفي الفضة والذهب بالنار لتصلح لخزانة الملك.

ومازالت الشيوخ والعارفون يفرحون بهذه النوازل ويستعدون لها في كسب المواهب كان شيخ شيوخنا سيدي على العمراني ﷺ يسميها ليلة القدر، ويقول: كل الخيرة هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وذلك لأجل ما يجتنيه العبد منها من أعمال القلوب التي الذرة منها أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

واعلم أن هذه التعرفات الجلالية هي اختبار من الحق ومعيار للناس، وبها تعرف الفضة والذهب من النحاس؛ فكثير من المدعين يظهرون على ألسنتهم المعرفة واليقين فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم في مهاوي القنط والإنكار: من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا فتح لك وجهة من التعرف؛ فلا تبال معها إن قَلَّ» -بفتح الهمزة- «عملك» أي: بقلة عملك.

اعلم أن السالك لا بدَّ له في سلوكه من كثرة الأعمال ليقطع عقبات النفوس، ويصل إلى حضرة الرب، فإذا شرع في المجاهدة وطالت عليه المدة، ربما كسل عن بعض أنواع العبادات والأوراد التي رتبت عليها، فيحصل عنده شدة الهم والغم، وربما تسول له نفسه الترك بالكلية مع كونه قد حصل عنده نوع من معرفة الله تعالى، فأرشده الشيخ ﷺ إلى أنه إذا فتح له وجهة من التعرف أي: نوعًا من المعرفة، كأن عرف بطريق الذوق أن الله تعالى حاضر معه، مطلع على حاله، أو عرف ذوقًا أنه لا فاعل إلا الله بأن حصل له تجلي الأفعال الذي هو أول التجليات عندهم، فلا يبال حينئذٍ بقلة العمل؛ لأن القصد من العمل القرب من حضرة الرب، وفتح تلك الوجهة دليل على ذلك.

وعلى أنه معتنى به وأنه سيصير من أهل وده، وقد تكون قلة العمل بسبب مرض

=

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ يقول: العجب كل العجب ممن يطلب معرفة الله، ويحرص عليها فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره.

وقال شيخنا البوزيدي ﷺ: هذه التعرفات الجلالية على ثلاثة أقسام: قسم عقوبة وطرد، وقسم تأديب، وقسم زيادة وترقّ، أما الذي هو عقوبة وطرد: فهو الذي يسيء الأدب فيعاقبه الحق تعالى ويجهل فيها فيسخط ويقنط وينكر فيزداد من الله طردًا وبعدًا، وأما القسم الذي هو تأديب: فهو الذي يسيء الأدب فيؤدبه الحق تعالى فيعرفه فيها وينتبه لسوء أدبه، وينهض من غفلته فهي في حقه نعمة في مظهر النقمة، وأما الذي هي في حقه زيادة وترق: فهو الذي تنـزل به هذه التعرفات من غير سبب فيعرفه فيها ويتأدب معها ويترقى بها إلى مقام الرسوخ والتمكين انتهى بالمعنى.

قلت: ولذلك قال بعضهم بقدر الامتحان يكون الامتكان، وقال أيضًا: اختبار الباقي يقطع التباقي.

فـائـدة:

إذا أردت أن يسهل عليك الجلال فقابله بضده وهو الجمال فإنه ينقلب جمالًا في ساعته وكيفية ذلك أنه إذا تجلى باسمه القابض في الظاهر، فقابله أنت بالبسط في الباطن فإنه ينقلب بسطًا، وإذا تجلى لك باسمه القوي فقابله أنت بالضعف أو تجلي باسمه العزيز فقابله بالذل في الباطن وهكذا يقابل الشيء بضده قيامًا بالقدرة والحكمة.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ يقول: ما هي إلا حقيقة واحدة إن شربتها عسلًا وجدتها عسلًا وإن شربتها لبنًا وجدتها لبنًا وإن شربتهـا حنظـلًا وجدتهـا حنظـلًا فأشـرب يا أخـي المليح ولا تشرب القبيح انتهى، والله تعالى أعلم.

يعوقه عنه، فإذا حصل عنده نوع من المعرفة بأن عرف أن نزول المرض به خير من الصحة لما فيه من ترقيه، وأن الله يفعل به ما يريد، فلا يبال حينئذٍ بقلة العمل «فإنه ما فتحها» أي: تلك الوجهة «إلا وهو يريد أن يتعرف إليك» أي: يواجهك بفضله، ويقرب منك، ويتجلى عليك بصفاته وأسمائه.

ولا شكَّ أن ذلك أعظم من كثرة الأعمال الظاهرة «ألم تر أن التعرف هو مورده عليك» أي: محصله لك بطريق التفضل «والأعمال أنت مهديها إليه» وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك» فإن هدية العبيد، وإن كانت جليلة هي صغيرة بالنسبة إلى هدية السيد وإن كانت قليلة، على أن هدية العبد هنا نفعها عائد عليه لا على السيد.

وحاصل ما ذكر أن قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بدونها؛ فإذا حصل للسالك بعض المعرفة ينبغي أن يوجه قلبه إلى حضرة مولاه ليزيده من معرفته وقربه، ويهتم بذلك أكثر من اهتمامه بالأعمال الظاهرة، ولذا كانت أعمال العارفين الظاهرة قليلة في أواخر أمرهم، وما زالوا يحنون إلى البداية لما فيها من كثرة الأنوار بسبب كثرة الأعمال.

الحكمة التاسعة

«تَنوَّعَتْ أجناسُ الأعمالِ بتنوُّع وارداتِ الأَحْوَالِ»[(١)]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: تنويع الشيء تكثيره والأعمال هنا عبارة عن حركة الجسم والواردات والأحوال عبارة عن حركة القلب فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب لكن ما دام القلب تخطر فيه الخواطر الظلمانية والنورانية سمي ما يخطر فيه خاطرًا، وإذا انقطعت عنه الخواطر الظلمانية سمي ما يخطر فيه واردًا أو حالًا، فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة بيانية وكلاهما يتحولان، فإن دام ذلك سمي مقامًا.

قلت: قد تنوعت أجناس الأعمال الظاهرة بتنوع الأحوال الباطنة أو تقول أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب فإن ورد على القلب قبض ظهر على الجوارح أثره من السكون، وإن ورد عليه بسط ظهر على الجوارح أثره من الخفة والحركة وإن ورد على القلب زهد وورع ظهر على الجوارح أثره وهو ترك وإحجام أي تأخر، وإن ورد على القلب رغبة وحرص ظهر على الجوارح أثره، وهو كد وتعب وإن ورد على القلب محبة وشوق ظهر على الجوارح أثره وهو شطح ورقص، وإن ورد على القلب معرفة وشهود ظهر على الجوارح أثره وهو راحة وركود إلى غير ذلك من الأحوال وما ينشأ عنها من الأعمال.

وقد تختلف هذه الأحوال على قلب واحد فيتلون الظاهر في أعماله وقد يغلب على قلب واحد حال واحد فيظهر عليه أثر واحد فقد يغلب على الشخص القبض فيكون مقبوضًا في الغالب، وقد يغلب عليه البسط كذلك إلى غير ذلك من الأحوال، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: «**إنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه وإذا فَسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه ألا وهيَ القلبُ**».

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم قال: «تنوعت أجناس الأعمال» على العاملين «لتنوع واردات الأحوال» أي: الواردات التي تنتج أحوالًا قائمة بقلوبهم تقتضي ميلهم إلى تلك الأعمال، وواردات هي الأحوال فإن الوارد قد يسمي حالًا كما سيأتي، يعني: إن بعض المريدين نجده مشتغلًا بالصلاة، وبعضهم بالصيام، وهكذا، وسبب ذلك وارد إلهي اقتضى مثل هذا إلى كذا وهذا إلى كذا، وينبغي لكل أحد أن يعمل بمقتضى ميله المذكور إن لم يكن تحت تربية شيخ، وإلا فلا يشتغل بشيء إلا إذنه وإرادته.

وحاصل ذلك أن تنوع الأوراد في حق المريدين الصادقين ناشئ عن تنوع الواردات على قلوبهم، فينبغي لكل مريد أن يعمل بمقتضى وارده بالشرط المتقدم، ولا يعمل بمقتضى وارد غيره، ولا يتعرض على ذلك الغير في عدم اشتغاله بما اشتغل به هو.

الحكمة العاشرة

«الأعمالُ صورٌ قائمةٌ وأرواحها وجود سرِّ الإخلاصِ فيهَا»(١)

=

قلت: ولأجل هذا المعنى اختلفت أحوال الصوفية؛ فمنهم عباد، ومنهم زهاد، ومنهم الورعون والمريدون والعارفون.

قال الشيخ زروق ﷺ: في قواعده: قاعدة: النُّسُك الأخذ بكل مسلك من الفضائل من غير مراعاة لغير ذلك، فإن رام التحقيق في ذلك أي: النسك فهو العابد وإن مال للأخذ بالأحوال فهو الورع وإن آثر جانب الترك طالبًا للسلامة فهو الزاهد وإن أرسل نفسه في مراد الحق فهو العارف وإن أخذ بالتخلق والتعلق فهو المريد انتهى المراد منه.

وقال في قاعدة أخرى: لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقاصد بل يكون متحدًا مع اختلاف مسالكه كالعبادة والزهادة والمعرفة مسالك لقرب الحق على سبيل الكرامة وكلها متداخلة فلا بدَّ للعارف من عبادة وإلا فلا عبرة بمعرفته إذ لم يعبـد معروفـه، ولا بدَّ له من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده إذ لم يعرض عما سواه، ولا بدَّ للعابد منهما إذ لا عبادة إلا بمعرفة أي: في الجملة ولا فراغ للعبادة إلا بزهد والزاهد كذلك إذ لا زهد إلا بمعرفة أي: في الجملة ولا زهد إلا بعبادة وإلا عاد بطالة.

نعم من غلب عليه العمل فعابد أو الترك فزاهد أو النظر لتصريف الحق فعارف والكل صوفية والله أعلم انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الأعمال هنا عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية، والصور جمع صـورة وهو ما يتشخص في الذهن من الكيفيات، والروُح السرُّ المودع في الحيوانات، وهو هنا عبارة عما يقع به الكمال المعتبر في الأعمال، والإخلاص إفراد القلب لعبادة الرب وسره لُبُّهُ وهو الصدق المعبر عنه بالتبري من الحول والقوة إذ لا يتم إلا به وإن صح دونه إذ الإخلاص نفي الرياء والشرك الخفي وسره: نفي العجب وملاحظة النفس والرياء قدح في صحة العمل والعجب قدح في كماله فقط.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

=

قلت: الأعمال كلها أشباح وأجساد وأرواحها وجود الإخلاص فيها فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح وإلا كانت ميتة ساقطة كذلك لا قيام للأعمال البدنية أو القلبية، إلا بوجود الإخلاص فيها وإلا كانت صورًا قائمة وأشباحًا خاوية لا عبرة بها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

وقال ﷺ حاكيًا عن الله تعالى يقول: «أنا أغنى الشركاءَ عنِ الشركِ من أشركَ معيَ غيري تركتُهُ وشريكَه».

وقال ﷺ: «أخوفُ ما أخافُ على أُمَّتِي الشركُ الخفيُّ وهوَ الرِّيَاءُ».

وفي رواية: «اتقوا هذا الشركَ الخفيَّ فإنَّه يَدُبُّ دبيبَ النملِ قيل: وما الشرك الخفي؟ قال: الرياءُ»، انتهى بالمعنى لطول العهد به.

وفي حديث عن النبي ﷺ أنه سئل عن الإخلاص فقال: «حتَّى أسألَ جبريلَ فلما سألَهُ قالَ: حتَّى أسألَ ربَّ العزة فلما سأله قال له: هو سِرٌّ من أسراري أُودِعُهُ قلبَ من أحببتُ من عبادي لا يطَّلع عليه مَلَكٌ فيكتبُهُ ولا شيطانٌ فيُفْسِدُهُ»، قال بعضهم: هو مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

والإخلاص على ثلاث درجات: درجة العوام والخواص وخواص الخواص.

فإخلاص العوام: هو إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور.

وإخلاص الخواص: طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية.

وإخلاص خواص الخواص: إخراج الحظوظ بالكلية فعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية أو محبةً وشوقًا إلى رؤيته.

قال الشيخ أبو طالب ﷺ: الإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الحق وأول الخلق النفس والإخلاص عند المحبين: أن لا يعملوا عملًا لأجل النفس وإلا دخل عليها مطالعة العِوض أو الميل إلى حظ النفس.

والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال.

وقال بعض المشايخ: صحح عملك بالإخلاص وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة انتهى كلامه.

وقال بعض العارفين: لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس، ويسقط الناس من عينه.

قال آخر: كلما سقطت من عين الخلق عظمت في عين الحق وكلما عَظُمَتْ في عين الخلق سقطت من عين الحق يعني مع ملاحظتهم ومراقبتهم.

وسمعت شيخنا يقول: مادام العبد يراقب الناس ويهابهم لا يتحقق إخلاصه أبدًا.

وقال أيضًا: لا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبدًا إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه انتهى.

والحاصل: لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدًا، والله تعالى أعلم.

ثم قال: «الأعمال» الظاهرة «صور قائمة» أي: كالأشخاص التي ليس فيها أرواح، فلا نفع بها «وأرواحها» التي بها حياتها ونفعها «وجود سر الإخلاص» أي: سر هو الإخلاص «فيها»، والإخلاص يختلف باختلاف الناس، فإخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلي والخفي وكل ما فيه حظ النفس، فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلبًا للثواب، وهربًا من العقاب مع نسبة العمل إليهم، والاعتماد عليه في تحصيل ما ذكر، وإخلاص المحبين هو العمل لله إجلالًا وتعظيمًا؛ لأنه تعالى أهل لذلك، لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب.

ولذا قالت رابعة العدوية: «ما عبدتك خوفًا من نارك، ولا طمعًا في جنتك» فنسبت العبادة إليه، وإخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم في ذلك حولًا ولا قوة، فلا يعملون العمل إلا بالله لا بحولهم ولا قوتهم، وهذا أرفع مما قبله.

الحكمة الحادية عشرة
«ادفِن وجودَكَ في أرض الخُمول فما نبتَ مما لم يُدفن لا يتمُّ نَتَاجُهُ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الدفن هو التغطية والستر والخمول سقوط المنـزلة عند الناس ونتائج الشجرة ثمرتها أستعير هنا للحكم والمواهب والعلوم التي يجتنيها العبد من المعرفة بالله وذلك عند موت نفسه وحياة روحه.

قلت: استر نفسك أيها المريد وادفنها في أرض الخمول حتى تستأنس به وتستحليه ويكون عندها أحلى من العسل ويصير الظهور عندها أمر من الحنظل فإذا دفنتها في أرض الخمول وامتدت عروقها فيه فحينئذ تجني ثمرتها ويتم لك نتاجها وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص وأما إذا لم تدفنها في أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول ماتت شجرتها أو أسقطت ثمرتها فإذا جنى العارفون ما غرسوه من جنات معارفهم من العلوم وما دفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم بقيت أنت فقيرًا سائلًا أو سارقًا صائلًا.

قال سيدنا عيسى ﷺ لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض، قال: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب كالأرض انتهى.

وقال بعض العارفين: كلما دفنت نفسك أرضًا أرضًا سما قلبك سماء سماء وقال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أشعثٍ أغبرِ ذي طِمرين لا يؤبه به، تَنْبُوا عنه أعْيُنُ النَّاسِ لو أقسمَ على الله لأبرَّه في قَسَمِه**».

وكان عليه الصلاة والسلام جالسًا مع الأقرع بن حابس كبير بني تميم فمر عليه رجل من فقراء المسلمين فقال ﷺ للأقرع بن حابس: ما تقول في هذا؟ فقال: هذا يا رسول الله! من فقراء المسلمين حقيق إن خطب ألا يزوج، وإن استأذن ألا يؤذن له، وإن قال إن لا يسمع له، ثم مر بهما رجل من المترفين؛ فقال له ﷺ: وما تقول في هذا؟ فقال: هذا حقيق إن خطب أن يزوج، وإن استأذن أن يؤذن له وإن قال أن يسمع له؛ فقال له ﷺ: «**هذا يعني الفقيرَ خيرٌ من مِلءِ الأرضِ منْ هذا**»، وفي مدح الخمول =

=

أحاديث كثيرة وفضائل مشهورة ولو لم يكن فيه إلا الراحة وفراغ القلب لكان كافيًا.
وقال بعض الحكماء: الخمول نعمة والنفس تأباه والظهور نقمة والنفس تهواه.
وقال آخر: طريقتنا هذه لا تصلح إلا بقوم كنست بأرواحهم المزابل.
قلت: ويجب على من ابتلي بالجاه والرياسة أن يستعمل من الخراب ما يسقط به جاهه، وإن كان مكروهًا دون الحرام المتفق عليه بقصد الدواء كالسؤال في الحوانيت أو الديار وكالأكل في السوق وحيث يراه الناس وكالرقاد فيه وكالسقي بالقربة وحمل الزبل على الرأس بوقاية وكالمشي بالحفا وإظهار الحرص والبخل والشح وكلبس المرقعة وتعليق السبحة الكبيرة وكل ما يثقل على النفس من المباح أو المكروه دون الحرام.
قال الشيخ زروق ﷺ: وكما لا يصح دفن الزرع في أرض رديئة لا يجوز الخمول بحالة غير مُرضِيَّة وقياس ذلك بالغصَّة لا يصح لأن فوت الحياة الحسية مانع من كل خير واجبًا ومندوبًا وتفويتها مع إمكان إبقائها محرم إجماعًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] بخلاف الخمول لا يفوت به شيء من ذلك إنما يفوت به الكمال وهو نفي الجاه والمنزلة وأصله الإباحة انتهى.
وأجاب بعضهم بأنه إذا جاز لفوت الحياة الفانية فأولى أن يجوز لفوت الحياة الدائمة وهي المعرفة فتأمله، وقصة لص الحمّام تشهد له والله تعالى أعلم.
ولقد سمعت شيخنا ﷺ يقول: الفقير الصديق: يقتل نفسه بأدنى شيء من المباح.
والفقير الكذاب: يقع في المحرم ولا يقتلها وكان كثيرًا ما ينهى عن الأحوال الظلمانية ويقول: عندنا من المباح ما يغنينا عن المحرم والمكروه وأما السؤال فإنما هو مكروه أو حرام لقصد قوت الأشباح مع الكفاية أما لقصد قوت الأرواح فليس بحرام.
وقد ذكر القسطلاني في «شرح البخاري» عن ابن العربي الفقيه أنه قال: واجب على الفقير في بدايته فانظره وقد ذكره في «المباحث الأصلية» مستوفى فانظره، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله عند قوله: «لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق... إلخ».
فإن قلت: هذا الخراب الذي ذكرت فيه شهرة أيضًا إذ الخمول هو الخفاء عن أعين الناس وهذا فيه ظهور كبير.
قلت: الخمول هو إسقاط المنزلة عند الناس وكتمان السر الولاية وكل ما يسقط المنزلة عندهم وينفي تهمة الولاية فهو خمول وإن كان في الحس ظهورًا.
ولذلك كان شيخنَا ﷺ يقول: طريقتنا منها الخمول في الظهور والظهور في الخمول.
وقال النجيبي في «الإنالة» ما نصه: ومن يقل من الصوفية أن المرقعة شهرة فجوابه أن سلمان الفارسي سافر في زيارة أبي الدرداء من العراق إلى الشام راجلًا وعليه كساء غليظ غير مضموم فقيل له: أشهرت نفسك فقال: الخير خير الآخرة، وإنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد؛ فإذا أعتقت لبست حلة لا تبلى حواشيها انتهى.
ومن ذلك قصة الغزالي ﷺ من حمله جلد الثور على ظهره عند ملاقاة شيخه الخراز وكنسه السوق واستعماله القربة ليسقي الناس كذا سمعتها من الشيخ مرارًا ولم أقف عليها عند أحد ممن عرف به

=

=

وانظر ما جـرى له مع ابن العربي عنـد قوله: رب عمر اتسعت آماده وقلّت أمداده.

وكذلك قصة الششتري ﷺ مع شيخه ابن سبعين لأن الششتري كان وزيرًا وعالمًا وأبوه كان أميرًا فلما أراد الدخول في طريق القوم قال له شيخه: لا تنال منها شيئًا حتى تبيع متاعك وتلبس قشابة وتأخذ بنديرًا وتدخل السوق ففعل جميع ذلك فقال له ما أقول في السوق؟ فقال قل: بدأت بذكر الحبيب فدخل السوق يضرب بنديره ويقول: بدأت بذكر الحبيب فبقي ثلاثة أيام وخرقت له الحجب فجعل يغني في الأسواق بعلوم الأذواق.

وكذلك قصة الرجل الذي كان مع أبي يـزيد البسطامي بقي معه ثلاثين سنـة فكان لا ينقطع عن مجلسه ولا يفارقه؛ فقال له يومًا: يا أستاذ! أنا منذ ثلاثين سنة أصوم النهار وأقوم الليل، وقد تركت الشهوات ولست أجد في قلبي شيئًا من هذا الذي تذكر البتة، وأنا أؤمن بكل ما تقول وأصدقه؛ فقال له أبو يـزيد ﷺ: لو صليت ثلاثمائة سنة وأنت على ما أراك عليه لا تجد منه ذرة، قال: فلِمَ يا أستاذ؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، قال: أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب؟ قال: نعم، ولكنك لا تقبل ولا تعمل، قال: بل أقبل وأعمل ما تقول.

قال له أبو يزيد: اذهب الساعة إلى الحجام وأحلق رأسك ولحيتك وأنـزع هذا اللباس وأتـزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة واملأها جوزًا وأجمع حولك صبيانًا وقُـل بأعلى صوتك: يا صبيان! من يصفعني صفعة أعطه جوزة وادخل سوقـك الذي تعظّـم فيه وأنت على هـذه الحالـة حتى ينـظر إليـك كـل من عرفـك؛ فقـال: يا أبا يـزيد! سبحان الله أيقال لمثلي هذا وتحسب أني أفعله؟ فقال له: قولك سبحان الله شرك، فقال له: وكيف؟ فقال أبو يـزيد: لأنك عظمت نفسك فسبحتها.

قال: يا أبا يـزيد! لست أقدر على هذا ولا أفعله، ولكن دلني على غير هذا حتى أفعله، فقال له أبو يـزيد: ابدأ بهذا قبل كل شيء حتى تسقط جاهك وتذل نفسك ثم بعد ذلك أعرفك بما يصلـح لك، قال: لا أُطيق هذا.

قال: إنك قد قلت: إنك تقبل وتعمل، وأنا أعلم أن لا مطمع لعبد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه، ويخرق عوائد العامة فحينئذٍ تخرق له العوائد، وتظهر له الفوائد انتهى.

وكذلك قصة أبي عمران البردعي مع شيخه أبي عبـد الله التـاودي بفـاس من حَلق رأسه ولبسه جلابية وأخذه خبزة ينادي عليها من يخلصها ففعل جميع ذلك وكذلك قصة شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن المجذوب من أكله التين عند أشجار الناس وغنائه بالأسواق وخرابه بالقصر مشهور حتى طوفوه بها مرارًا.

وكـذلك قصة سيدي علي العمراني فخرابه بفاس مشهور كنارٍ على علم سكن السفليات حتى مات ﷺ وكذلك قصة شيخ شيخنا مولاي العربي من لبسه الغرارة وسقيه بالقربة وغير ذلك مما هو معلوم.

فهذه الحكايات تدل على أن الخمول ليس هو ما يفهمه العوام من لزوم البيوت والفرار إلى الجبال فذلك هو عين الظهور عند المحققين، وإنما الخمول هو كما **قال الشيخ زروق** ﷺ: تحقيق النفس بوصفها الأدنى وشعورها به أبدًا ووصفها الأدنى هو الذل وكل ما يثقل عليها فمرجعه للتحقيق بوصف التواضع، وفائدته: تحصيل العمل وكمال الحقيقة انتهى.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم ذكر ﷺ ما يعين على الإخلاص ويحصله بقوله: «ادفن وجودك في أرض الخمول» أي: في الخمول، وهو عدم الشهرة الشبيه بالأرض، ودفن وجودك فيه ألا تتعاطى أسباب الشهرة بأن تعرض نفسك للمناصب وغيرها مما فيه الصيت، فإن سلكت الطريق بعد شهرتك، فالواجب عليك التواضع، وألا ترى لنفسك مقامًا، ولا ترى ما أنت فيه من المناصب وغيرها شيئًا عظيمًا، بل ترى أن الخير في تركه، لكن لا تتركه إلا بإشارة أستاذك أو بإذن إلهك، ثم ضرب لذلك مثلًا بقوله: «فما نبت» من الحب «مما لم يدفن لا يتم نتاجه»، بل يخرج ضعيفًا مصفرًا لا ينتفع به الانتفاع التام، وإذا لم ينبت فالغالب أن يلتقطه الطائر، فلا ينتفع به أيضًا، وكذلك السالك، وإذا تعاطى أسباب الشهوة في بدايته، قل أن يفلح في نهايته، وبقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الإخلاص، فمبنى أمره في الابتداء على الفرار من الخلق، وإخمال الذكر، وعدم حب الشهرة حتى إذا فنيت أوصافه وبقي بربه، كان مع مولاه إن شاء أظهره وإن شاء ستره.

قال أبو العباس -قدس الله سره: «من أحب الظهور؛ فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء؛ فهو عبد الخفاء، ومن كان عبد الله، فسواء عليه أظهره أو أخفاه».

=

فإن قلت في فعل هذه الأحوال التعرض لكلام الناس وإيقاعهم في الغيبة.

قلت: هذا مبني على القصد والنية، وكل من فعل شيئًا من ذلك؛ فإنما قصده قتل نفسه وتحقيق إخلاصه ودواء قلبه وهم مسامحون لمن قال فيهم عاذرون له، قال سيدي علي في كتابه: نحن نعذر من عذرنا ونعذر من لم يعذرنا.

وقال الشيخ زروق ﷺ: في قواعده قاعدة حكم الفقه عام في العموم؛ لأن مقصوده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلماته وحكم التصوف خاص في الخصوص؛ لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك، فمن ثَمّ صح إنكار الفقيه على الصوفي، ولم يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه في الأحكام لا في الحقائق انتهى.

تنبيـه:

هذه الأدوية التي ذكرنا إنما هي في حالة المرض، وأما من تحقق شفاؤه وكمل فناؤه؛ فهو عبد الله سواء أظهره أو أخفاه.

وفي هذا قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: من أحب الظهور؛ فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء؛ فهو عبد الخفاء وعبد الله سواءٌ عليه أظهره أم أخفاه انتهى.

الحكمة الثانية عشرة
«ما نَفَعَ القلبَ شيءٌ مثلُ عُزلةٍ يدخل بها ميدانَ فِكْرَةٍ»(١)

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النفع: إيصال الفائدة والقلب القوة المستعدة لقبول العلم والعزلة: انفراد القلب بالله وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القالب عن الناس، وهو المراد هنا إذ لا ينفرد القلب في الغالب إلا إذا انفرد القالب، وميدان -بالفتح والكسر في الميم: مجال الخيل استعير هنا للأفكار إذ تردُّدها في مواقعها كتردد الخيل في مجالها والفكرة: سير القلب إلى حضرة الرب وهي على قسمين: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعِيان على ما يأتي.
قلت: لا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة؛ لأن العزلة كالحِمْيَةِ والفكرة كالدواء فلا ينفع الدواء من غير حِمْيَةٍ ولا فائدة في الحمية من غير دواء فلا خير في عزلة لا فكرة فيها ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها؛ إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب والمقصود من التفرغ هو جولان القلب واشتغال الفكرة والمقصود من اشتعال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب وتمكين العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية صحته وهو الذي سماه الله القلب السليم.
قال الله تعالى في شأن القيامة: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]، أي: صحيح.
وقد قالوا: إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت ولا ينفعها إلا الحمية وهي قلة موادِّها ومنعها من كثرة الأخلاط.
وفي الحديث: «المعدةُ بيتُ الدَّاءِ والحِمْيَة رأسُ الدَّوَاء»، وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض وربما مات ولا ينفعه إلا الحمية منها والفرار من مواطنها وهي الخلطة فإذا اعتـزل عن الناس واستعمل الفكرة نجـح دواؤه واستقـام قلبه وإلا بقي سقيمًا حتى يلقى الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة نسأل الله العافية.
قال الجنيد ﷺ: أشرف المجالس الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد.
وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: ثمار العزلة الظَّفَر بمواهب المنة وهي أربعة: كشف الغطاء وتنـزل الرحمة وتحقق المحبة ولسان الصدق في الكلمة.
قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم:٤٩] انتهى.
واعلم أن في الخلوة عشر فوائد: الأولى السلامة من آفات اللسان؛ فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم وقد قال ﷺ: «رحم الله عبدًا سكت فسَلِم أو تكلَّم فغنم»، ولا يسلم في الغالب من آفاته إلا من آثر الخلوة على الاجتماع.
وقال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ: إذا رأيت الفقير يؤثر الخلوة على الاجتماع، والصمت على الكلام، والصيام على الشبع؛ فاعلم أن حبجه قد عسل وإذا رأيته يؤثر الخلطة والكلام والشبع على ضدها فاعلم أن حبجه خاوي.
وقال في القوت: وفي كثرة الكلام قلة الورع وعدم التقوى وطول الحساب ونشر الكتاب وكثرة
=

=

الطالبين وتعلق المظلومين بالظالمين وكثرة الأشهاد من الكرام الكاتبين ودوام الإعراض عن الملك الكريم؛ لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، وفيه الكذب، وفيه الغيبة والنميمة والزور والبهتان.

ثم قال: وفي الخبر: «**أكثر خطايا ابن آدم في لسانه وأكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في ما لا يعني**» انتهى.

الفائدة الثانية: حفظ البصر والسلامة من آفات النظر؛ فإن من كان معتزلًا عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها.

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ [طه:١٣١]، فتمنع بذلك النفس من التطلع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها.

وقال محمد بن سيرين ﷺ: إياك وفضول النظر؛ فإنها تؤدي إلى فضول الشهوة.

وقال بعض الأدباء: من كثرت لحظاته دامت حسراته.

وقالوا: إن العين سبب الحَيْنِ أي الهلاك ومن أرسل طرفه اقتنص حتفه وإن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقة القلب انتهى.

الفائدة الثالثة: حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

قال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق، قال: لا تنظر إلى الخلق؛ فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بدَّ لي، قال: فلا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بدَّ لي، قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بدَّ لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم؛ فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا تنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهالكين، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله هيهات هذا لا يكون أبدًا ثم غاب عني.

وقال القشيري ﷺ: فأرباب المجاهدة إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات أي: من الدنيا.

قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضة.

الفائدة الرابعة: حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف العبد وكماله، وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ: «**ازهدْ في الدنيا يحبُّك الله وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبُّك الناسُ**» انتهى.

ولا شكَّ أن من انفرد عن الناس، ولم ينظر إلى ما هم فيه من الرغبة في الدنيا والانكباب عليها يسلم من متابعتهم في ذلك ويسلم من متابعة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة وقلَّ من يخالطهم أن يسلم من ما هم فيه.

وقد روي عن عيسى ﷺ: لا تجالسوا الموتى؛ فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون في الدنيا الراغبون فيها.

الفائدة الخامسة: السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر

=

=

جسيم؛ ففي بعض الأخبار: «مَثَلُ الجليسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الكِيرِ إذا لم يُحرِقْكَ بشررِهِ عَلِقَ بكَ من رِيحِهِ».
وقال سيدي عبد الرحمن المجذوب ﷺ: الجلسة مع غير الأخيار تُـرذِلُ، ولو تكـون صافيـًا.
أوحى الله تعـالى إلى داود ﵇: «يا داود! ما لي أراك منتبذًا وحدانيًّا؟! فقال: إلهي فليت الخلق من أجلك، فقال: يا داود! كن يقظان وارتدِ لنفسك إخوانًا وكلُّ أخٍ لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبْه؛ فإنه لك عدو يقسِّي قلبك ويباعدك منِّي» انتهى.
فإن أردت الصحبة فعليك بصحبـة الصوفيـة فإن صحبتهم كَنْـزٌ لا نفاد له.
قال الجنيد ﷺ: إذا أراد الله بعبد خيرًا أوقعه إلى الصوفيـة ومنعه صحبة القراء.
وقال آخـر: والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح.
الفائدة السادسة: التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر ولا شكَّ أن العبد إذا كان وحده تفرغ لعبادة ربه وانجمع عليها بجوارحه وقلبه لقلة من يشغله عن ذلك.
قال في القوت: وأما الخَلْوَةُ؛ فإنها تَفَرُّغُ القلب من الخلق وتَجَمُّعُ الهمم بالخالق وتَقَوِّي العزم على الثبات... إلخ كلامه.
الفائدة السابعة: وجدان حلاوة الطاعات، وتمكن لذيذ المناجات لفراغ سره، وهذا مجرب صحيح.
قال أبو طالب: ولا يكون المريد صادقًا حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية وحتى يكون أنسه في الوحدة وروحه في الخلوة وأحسن أعماله في السر انتهى.
الفائدة الثامنة: راحة القلب والبدن؛ فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم وتعب البدن بالسعي في أغراضهم وتكميل مرادهم، وإن كان في ذلك الثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم وهو جمع القلب في حضرة الرب.
الفائدة التاسعة: صيانة نفسه ودينه من التعرض لشرور والخصومات التي توجبها الخلطة؛ فإن للنفس تولعًا وتسارعًا للخوض في مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا وزاحمتهم فيها.
الفائدة العاشرة: التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخَلْوَة.
وفي الخبر: «تَفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سبعينَ سنةٍ»، وكان عيسى ﵇ يقول: «طوبى لمن كان كلامه ذكرًا وصمته تفكُّرًا ونظره عبرةً، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت».
وقال كعب: من أراد شرف الآخرة؛ فليكثر من التفكر.
وكان أفضل عبادة أبي الدرداء التفكر وذلك؛ لأنه يصل به إلى حقائق الأشياء ويَتبين الحق من الباطل ويطَّلع بها أيضًا على خفايا آفات النفوس ومكائدها وغرور الدنيا ويتعرف بها وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها.
قال الحسن ﷺ: الفكرة مرآة تريك حَسَنك من سَيّئك، ويطلع بها أيضًا على عظمة الله وجلاله إذا تفكر في آياته ومصنوعاته، ويطلع بها أيضًا على آلائه ونعمائه الجلية والخفية فيستفيد بذلك أحوالًا سَنية يـزول بها مرض قلبـه ويستقيـم بها على طاعـة ربه قاله الشيخ ابن عباد ﷺ؛ فهذه ثمرات عزلة أهل البداية.
وأما أهل النهاية: فعزلتهم مصحوبة معهم ولو كانوا وسط الخلق لأنهم أقوياء ﷺ محجوبون بالجمع عن

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما نفع القلب» أي: قلب المريد في التطهر من غفلاته، والقرب إلى حضرة مولاه شيء «مثل عزلة» أي: اعتزال عن الناس «يدخل بها ميدان فكرة» شبيهة بالميدان لتردد القلب فيها كتردد الخيول في الميدان، فالمريد إذا كان مخالطًا للناس اشتغل نظره بالمحسوسات، فلا يتفكر قلبه إلا فيها، ولا يزال ناظرًا إلا لعالم الشهادة، فإذا اعتزلهم انعكس الحال وجال القلب في عالم الغيب.

وقد جاء في الخبر: «**تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**»[1].

وقيل لأم الدرداء: **ما كان أفضل أعمال أبي الدرداء؟ قالت: التفكر**[2].

وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء، وإلى تعظيم الله وتعظيم كل ما يرضيه، فيفعله، وتحقير كل ما يسخطه فيجتنبه ويطلع به على خفايا آفات النفس، ومكايد العدو، وغرور الدنيا، ويتعرف به وجوه الحيل في التباعد عنها، ويسلم به من الآفات الناشئة عن مخالطة أهلها، وبالعزلة المذكورة يحصل التمرن على الخلوة التي هي أحد أركان الطريق الأربعة بالنسبة للمريدين، وباقيها: الصمت والجوع والسهر.

وبهذه الأربعة تصير الأبدان أبدالًا، وهذا كله في حق المريد الذي سلك بنفسه؛ فإن كان تحت تربية شيخ، فلا بدَّ من مخالطته ومخالطة الإخوان الذين يعينونه على سلوك الطريق، فإذا ذهبت رعونات نفسه وصار من العارفين؛ فلا تضره مخالطة الخلق أجمعين؛ لأنه حينئذٍ لا يرى غير الله تعالى، واعلم أن الفكرة هي المقصود، والعزلة وسيلة لها ومعينة عليها.

الحكمة الثالثة عشرة

«كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ منطبعةٌ في مرآتِه، أمْ كيفَ يرحلُ إلى الله وهو مُكَبَّلٌ بشهواته النفسية، أمْ كيفَ يطمعُ أن يدخلَ حَضَرةَ الله وهو لم يتطهَّرْ من جَنَابَةِ غفلاته؟ أمْ كيفَ يَرْجُو أنْ يفهمَ دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هفواته»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

=

الفرق، وبالمعنى عن الحس استوي عندهم الخلوة والخلطة؛ لأنهم يأخذون النصيب من كل شيء، ولا يأخذ النصيب منهم شيئًا، فإن أضاف المريد إلى العزلة الصمت والجوع والسهر فقد كملت ولايته وظهرت عنـايته وأشرقت عليه الأنوار وانمحت من مرآة قلبه صـور الأغيار.

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣١٠).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٣٦).

«كيف يشرق قلب صور الأكوان»[1] أي: المكونات من الآدميين وغيرهم «منطبعة في مرآته» باعتقاده أنها تضر وتنفع، وتطلعه لها في حصول أثر ما من الأمور وتعلقه بها «أم كيف يرحل»[2] أي: يسير «إلى الله وهو مكبل» أي: مقيد «بشهواته النفسية» والمقيد لا يمكنه السير

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: جعل الله سبحانه قلب الإنسان كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها كل ما يقابلها، وليس لها إلا وجهة واحدة، فإذا أراد الله عناية عبد أشغل فكرته بأنوار ملكوته وأسرار جبروته، ولم يعلق قلبه بمحبة شيء من الأكوان الظلمانية والخيالات الوهمية، فانطبعت في مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان، أي: وبصقل مرآة قلبك يزول إنكارك للحق فتعرفه في كل شيء، فيصير قلبك قطب فلك الأنوار فيه تبدو أقمار التوحيد وشموس العرفان، وإذا أراد الله تعالى خذلان عبد بعدله وحكمته أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية، فانطبعت تلك الأكوان في مرآة قلبه، فانحجب بظلماتها الكونية وصورها الخيالية عن إشراق شموس العرفان وأنوار الإيمان، فكلما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها واشتد حجابها، فلا ترى إلا الحس ولا تتفكر إلا في الحس، فمنها ما يشتد حجابها وينطمس نورها بالكلية فتنكر وجود النور من أصله، وهو مقام الكفر والعياذ بالله ومنها ما يقل صداها ويرق حجابها فتقر بالنور ولا تشاهده، وهو مقام عوام المسلمين وهم متفاوتون في القرب والبعد وقوة الدليل وضعفه كل على قدر يقينه وقلة تعلقاته الدنيوية وعوائقه الشهوانية وخيالاته الوهمية.

وفي الحديث: «**إنَّ القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ وإن الإيمان يَخْلَقُ**» أي: يبلى، «**كما يخلق الثوب الجديد...**»، الحديث، وفي حديث آخر: «**لكل شيءٍ مَصْقَلَةٌ ومصْقَلَةُ القلوبِ ذكرُ الله**».

وقال أيضًا ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكتت في قلبه نُكتةٌ سوداء؛ فإن هو نزع واستغفر صَقُلَتْ وإن عاد زِيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الرَّان الذي ذكر الله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[المطففين: ١٤]»، أو كما قال ﷺ.

وإذا علمتَ أنَّ القلبَ ليسَ له إلا وجهةٌ واحدةٌ إذا قابلها النور أشرقتْ وإذا قابلتْها الظلمةُ أظلمتْ ولا تجتمعُ الظلمةُ والنورُ أبدًا، علمت وجه تعجب الشيخ بقوله: كيف يشرق قلب بنور الإيمان والإحسان وصور الأكوان الظلمانية منطبعة في مرآة قلبه فالضدان لا يجتمعان، قال الله تعالى: **﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾** [الأحزاب:٤].

فما لك أيها الفقير إلا قلب واحد إذا أقبلت على الخلق أدبرت عن الحق وإذا أقبلت على الحق أدبرت عن الخلق، فترحل من عالم الملك إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى الجبروت، وما دمت مقيدًا في هذا العالم بشهواتك وعوائدك، فلا يمكنك الرحيل إلى ربك.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الرحيل هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن، وهو هنا من نظر الكون إلى شهود المكون أو من الملك إلى الملكوت أو من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب أو من وطن الغفلة إلى اليقظة أو من حظوظ النفس إلى حقوق الله، أو من حال الغفلة الى حال الذكر أو من عالم الأكدار إلى عالم الصفاء، أو من رؤية الحس إلى شهود المعنى، أو من الجهل إلى المعرفة، أو من علم اليقين إلى عين اليقين، أو من عين اليقين إلى حق اليقين، أو من المراقبة إلى المشاهدة، أو من مقام =

«أم كيف يطمع أن يدخل» ذلك القلب «حضرة الرب»(١) بأن يشاهده «وهو لم يتطهر من

=

السائرين إلى وطن المتمكنين، والمكبل هو المقيد والمراد بالشهوات كل ما تشتهيه النفس وتميل إليه.

قلت: الرحيل مع التكبيل لا يجتمعان، فما دام القلب محبوسًا بالميل إلى شيء من هذا العرض الفاني، ولو كان مباحًا في الشرع، فهو مقيد به ومكبل في وطنه، فلا يرحل إلى الملكوت ولا تشرق عليه أنوار الجبروت، فتعلق القلب بالشهوات مانع له من النهوض إلى الله لاشتغاله بالالتفات إليها، وعلى تقدير النهوض معها تكون مثبطة له عن الإسراع بالميل إليها وعلى تقدير الإسراع، فلا يأمن العَثَار معها لأُنس النفس بها ولذلك ترك الأكابر لذتها حتى قال بعضهم: لدغ الزنابير على الأجسام المُقَرَّحة أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة انتهى.

قال الشيخ زروق ﷺ **قلت**: هذا إن تعلق القلب بطلبها قبل حصولها وإلا فلا لعدم تعلق القلب بها، وقد تقدم في حقيقة التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة.

وكان شيخنا ﷺ **يقول**: إن شئتم أن نقسم لكم لا يدخل عالم الملكوت من في قلبه علقة انتهى.

فاقطع عنك يا أخي عروق العلائق، وفر من وطن العوائق تشرق عليك أنوار الحقائق، ولهذا كانت السياحة والهجرة من الأمور المؤكدة على المريد إذ الإقامة في وطنه الحسي لا يخلو معها من التعلقات الحسية، وقد قالوا: الفقير كالماء إذا طال في موطن واحد تغير وإذا جرى عذب، وبقدر ما يسير في الحس يسير في المعنى، وبقدر ما يسير القالب يسير القلب، والهجرة سنة نبوية، ومنذ هاجر النبي ﷺ لم تكن له راحة إلا في السفر للجهاد، حتى فتح الله عليه البلاد، وكذلك الصحابة -رضوان الله عليهم، لم يستقر في وطنه إلا القليل منهم حتى فتح الله على أيديهم سائر البلاد، وهدى الله بهم العباد -نفعنا الله ببركاتهم آمين، وإذا رحل القلب من وطن شهواته وتطهر من لوث غفلاته، وصل إلى حضرة ربه وتنعم بشهود قربه.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: «الحضرة» هي حضور القلب مع الرب، وهي على ثلاثة أقسام: حضرة القلوب، وحضرة الأرواح، وحضرة الأسرار؛ فحضرة القلوب للسائرين، وحضرة الأرواح للمستشرفين، وحضرة الأسرار للمتمكنين، أو تقول حضرة القلوب لأهل المراقبة، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة، وحضرة الأسرار لأهل المكالمة، وسر ذلك أن الروح ما دامت تتقلب بين الغفلة والحضرة كانت في حضرة القلوب، فإذا استراحت بالوصال سميت روحًا وكانت في حضرة الأرواح، وإذا تمكنت وتصفت وصارت سرًّا من أسرار الله سميت سرًّا وكانت في حضرة الأسرار، والله تعالى أعلم.

قلت: الحضرة مقدسة منزهة مرفعة، لا يدخلها إلا المطهرون فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجد الحضرة، وجنابة القلب غفلته عن ربه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:٤٣]، أي: لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا، وشهود السوي حتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون في حضرة الملك ولا جنبًا من جماع الغفلة، وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب، وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها.

هذا الماء الذي هو ماء الغيب هو النازل من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت، فتغرقه

=

جنابة غفلاته» أي: من غفلاته الشبيهة بالجنابة، فكما يمنع الجنب من دخول المسجد، كذلك يمنع من استولت عليه الغفلة من دخول حضرة الرب «أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار»[1]، وهي العلوم الدقيقة التي ترد على قلوب العارفين، «وهو لم يتب عن هفواته»

= سحائب الرحمة، وتثيره رياح الهداية، فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة، فتملأ منه أودية القلوب المنورة وخلجان الأرواح المطهرة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد:١٧]، شبَّه الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فكما أن المطر تعمر منه الأودية والغدران وتجري منه العيون والأنهار كل على قدر سعته وكبره، كذلك العلم النافع نـزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة، فسالت به أودية القلوب كل على قدر طاقته وحسب استعداده، وكما أن المطر يطهر الأرض من الأوساخ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد:١٧]، أي: مرتفعًا على وجه الماء، كذلك العلم النافع يطهر النفوس من الأدناس، والقلوب من الأغيار، والأرواح من الأكدار، والأسرار من لوث الأنوار.

الطهارة الأصلية وهي الغيبة عن السوى لمرض قلبك مع عدم صدقك، فانتقل للطهارة الفرعية التي هي العبادة الظاهرية، أو تقول وإن لم تقدر على الطهارة الحقيقية التي هي الطهارة الباطنية، فانتقل للطهارة المجازية التي هي الطهارة الظاهرية، أو تقول وإن لم تقدر على طهارة المقربين فانتقل لطهارة أهل اليمين أو تقول: وإن لم تقدر على طهارة أهل المحبة فانتقل لطهارة أهل الخدمة: قوم أقامهم الله لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠]؛ فطهارة أهل المحبة الفكرة والنظرة، وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم وغير ذلك، وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضا وتسليم ورحمة وشفقة وغير ذلك مما لا يظهر للعِيان وهذا هو تصوف أهل الظاهر.

وأما تصوف أهل الباطن، فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكون، أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق، وهو الذي عبر عنه الناظم بماء الغيب فكل من لم يدرك تصوف أهل الباطن، فهو من أهل التيمم فإن كان مشغولًا بالعمل الظاهر كالصلاة والصيام ونحوهما، فهو كالمتيمم بالصعيد لظهورها كظهور أثر التراب على الجوارح، وإن كان مشغولًا بالعبادة الخفية، كالزهد والورع ونحوهما، فهو كالمتيمم بالصخر لعدم ظهورها في الغالب، كعدم ظهور أثر الصخر.

وإذا دخل القلب حضرة القدس ومحل الأنس، فهم دقائق الأسرار وملئ بالمواهب والأنوار.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الرجاء تمني الشيء مع السعي في أسبابه، وإلا فهو أمنية والفهم حصول العلم بالمطلوب، ودقائق الأسرار غوامض التوحيد، والتوبة الرجوع عن كل وصف ذميم إلى كل وصف حميد، وهذه توبة الخواص، والهفوات جمع هفوة وهي الزلة والسقطة.

قال أحمد بن أبي الحواري: سمعت شيخي أبا سليمان الداراني ﷺ يقول: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا.

قال أحمد بن حنبل: صدقت يا أحمد وصدق شيخك ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إليَّ من هذه من عمل، بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

=

وهي ما يصدر منه من المعاصي، لا من قصد، وإنما تعجب المصنف ﷺ من ذلك لما فيه من الجمع بين الأضداد، وهو محال، وهذه الأشياء المذكورة متضادة، فإن إشراق القلب بنور الإيمان، واليقين مضاد للظلمة التي استولت عليه بالركون إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها.

والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال في حبس الهوى والشهوات، ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة القلب ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات التي مقتضاها الإبعاد، وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى مضاد للإصرار على المعاصي والهفوات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ومما روي في بعض الأخبار: «**من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم**»[1].

وكل واحد من هذه الأربعة سبب لما بعده، فانطباع صور الأكوان في مرآة القلب سبب في تكبله بالشهوات، والتكبل بها سبب في الغفلة، وهي السبب في كل هفوة، والهفوة سبب في عمى القلب.

الحكمة الرابعة عشرة

«الكونُ كلُّه ظلمةٌ وإنَّما أنارَه ظهورُ الحقِّ فيه، فمَنْ رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده؛ فقد أعوزه وجود الأنوار وحُجِبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بسحبِ الآثارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم شرع ﷺ يتكلم عن شيء من المعارف لينشط المريد حتى يدرك ذلك ذوقًا، فتكلم على وحدة الوجود التي أفردت بالتأليف، فقال: «الكون»[2] أي: المكونات أي: الموجودات

=

وقيل للجنيد ﷺ: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: بتوبة تـزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل، فقيل له: بماذا يصل إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد فيه توحيد مجرد انتهى.

فإذا انفرد القلب بالله وتخلص مما سواه فهم دقائق التوحيد وغوامضه التي لا يمكن التعبير عنها، وإنما هي رموز وإشارات لا يفهمها إلا أهلها ولا تفشى إلا لهم، وقليل ومن أفشى شيئًا من أسرارها مع غير أهلها، فقد أباح دمه وتعرض لقتل نفسه، وهذه الأسرار هي أسرار الذات وأنوار الصفات، التي تجلى الحق بها في مظهر الأكوان.

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الكون ما كونته القدرة وأظهرته للعيان، والظلمة ضد النور، وهي عدمية والنور

=

بأسرها «كله ظلمة» أي: عدم محضٌ لا وجود له في نظر أرباب الشهود «وإنما أناره» أي: أوجده «ظهور الحق» أي: الله «فيه» كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، فليس هناك إلا وجود واحد، وهو وجود الحق وبظهوره في الأشياء وجدت على حسب ما تقتضيه طبائعها وليس لها وجود في ذاتها، وإذا كان كذلك «فمن رأى الكون» أي: شيئًا منه «ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه» أي: فاته «وجود الأنوار» الإلهية التي يدرك بها مشاهدة الله على أي وجه من الوجوه المذكورة.

«وحجبت عنه شموس المعارف» أي: المعارف التي كالشموس «بسحب الآثار»[1] أي:

=

وجودي، و«أناره» أي: صيره نورًا، وظهور الحق تجليه.

قلت: الكون من حيث كونيته، وظهور حسه كله ظلمة؛ لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه، ولأنه سحاب يغطي شمس المعاني لمن وقف مع ظاهر حس الأواني، فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة، وإنما أناره تجلي الحق به وظهوره فيه، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه حسًّا ظلمانيًّا، ومن نفد إلى باطنه رآه نورًا ملكوتيًّا.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، فتحصل أن قول الشيخ: «الكون كله ظلمة» إنما هو في حق أهل الحجاب لانطباع ظاهر صور الأكوان في مرآة قلوبهم، وأما أهل العرفان فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحق، فرأوا الكون نورًا فائضًا من بحر الجبروت فصار الكون عندهم كله نورًا.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، أي: من نور ملكوته وأسرار جبروته أو من أسرار المعاني القائمة بالأواني.

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله احتجب عن أهلِ السماء كما احتجبَ عن أهلِ الأرضِ وإنَّ أهلَ الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم وأنه ما حلَّ في شيءٍ ولا غابَ عن شيءٍ**» انتهى.

وهذه المعاني إنما هي أذواق لا تدرك بالعقل، ولا بنقل الأوراق، وإنما تدرك بصحبة أهل الأذواق؛ فسلم ولا تنتقد.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أهل مقام البقاء يشهدون الحق بمجرد وقوع بصرهم على الكون، فهم يثبتون الأثر بالله ولا يشهدون بسواه، إلا أنهم لكمالهم يثبتون الواسطة والموسوط، فهم يشهدون الحق بمجرد شهود الواسطة، أو عندها بلا تقديم ولا تأخير ولا ظرفية، ولا مظروف.

وقال الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش ﷺ لأبي الحسن ﷺ: يا أبا الحسن حدِّدْ بصر الإيمان تجدِ الله في كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريبًا من كل شيء، ومحيطًا بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته وعد عن الظرفية والحدود وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب بالمسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو هو هو، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان انتهى.

=

بالآثار، وهي الأكوان التي كالسحب، جمع سحاب بجامع أن كلًا يحجب ما وراءه.

وأشار المصنف ﷺ بذلك إلى اختلاف أحوال أرباب المشاهدة في شهودهم؛ فمنهم من يشاهد المكون قبل الأكوان، فإذا وقع بصره على شيء كحيوان يشاهد قيام الحق وظهوره فيه، وأنه المحرك والمسكن له قبل أن يخطر له كونه آدميًّا أو شاه طويلًا أو قصيرًا... إلى غير ذلك.

ومنهم من يشاهده فيه، وهو ظرف متسع، وهذا تقريب للإفهام، وإلا فهذا أمر لا يدرك إلا بالذوق وما كان كذلك تقصر عنه العبارة.

الحكمة الخامسة عشرة

«مما يَدُلُّكَ على وجودِ قهرِهِ سبحانه إن حجبكَ عنه بما ليس بموجود معه»[(١)]

=

وقال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه، ولم أره حديثًا، وإنما هو من قول بعض العارفين؛ فأهل السير من المريدين يشهدون الكون، ثم يشهدون المكون عنده وبأثره فيمتحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه، وهذا حال المستشرفين وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل شهود الخلق، بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلًا إذ لا ثبوت له عندهم؛ لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة، فانون عن الحكمة، غرقى في بحر الأنوار، مطموس عليهم الآثار.

وفي هذا المقام قال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان، إنما يشهدون الكون، ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده، إنما يستدلون على وجوده بوجود الكون، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين قد أعوزهم، أي: فاتهم وجود الأنوار، ومنعوا منها، وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار بعد طلوعها وإشراق نورها، لكن لا بدَّ للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب، ثم احتجابه تعالى في حال ظهوره، مما يدلك على وجود قهره.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من أسمائه تعالى القهَّار، ومن مظاهر قهره احتجابه في ظهوره وظهوره في بطونه وبطونه في ظهوره، ومما يدلك أيضًا على وجود قهره إن احتجب بلا حجاب وقرب بلا اقتراب بعيد في قربه قريب في بعده احتجب عن خلقه في حال ظهوره لهم، وظهر لهم في حال احتجابه عنهم، فاحتجب عنهم بشيء ليس بموجود وهو الوهم، والوهم أمر عدمي مفقود، فما حجبه إلا شدة ظهوره، وما منع الأبصار من رؤيته إلا قهاريَّة نوره فتحصل انفراد الحق بالوجود وليس مع الله موجود.

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، واسم الفاعل حقيقة في الحال، وقال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة:١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، وقال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠].

وقال ﷺ: يقول الله تعالى: «يا عبدي! مرضت فلم تعدني؛ فيقول: يا رب! كيف أعودك، وأنت رب العالمين، فيقول الله: أما أنه مرض عبدي فلان فلم تعده؛ فلو عدته لوجدتني عنده، ثم يقول: يا عبدي! استطعمتك فلم تطعمني، ثم يقول: استسقيتك فلم تسقني...» الحديث.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«مما يدلك على وجود قهره سبحانه، أن حجبك عنه» خطاب لعامة الناس «بما ليس بموجود معه» اتفقت مقالات العارفين وإشارتهم ومواجيدهم على ما ذكر من أن ما سوى الله، عدم محض من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله تعالى.

قال بعض العارفين: «أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية».

ومع كون ما ذكر عدمًا؛ فهو حجاب عن الله تعالى، فإن الناس لا يشهدون عند نظرهم للأكوان إلا هي، ولا يشاهدون مكونها، مع أنها لا وجود لها، والوجود إنما هو له سبحانه، فهذا مما ينفي منه العجب.

الحكمة السادسة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي أظهرَ كلَّ شيءٍ»[(١)]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم ذكر أدلة تدل على أنه لا ينبغي أن يحتجب بتلك الأكوان، وأن الاحتجاب بها إنما هو للعوام؛ فقال: «كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء» بما أشرق عليه من نور الوجود، وقد كان في ظلمة العدم كما تقدم.

فبظهوره في الأشياء ظهرت، وإذا كان ظهور الأشياء متوقفًا عليه، فيستحيل أن تحجبه حتى يكون خفيًا غير ظاهر، فإن الإظهار إنما يفيد ظهور المظهر لا خفاؤه.

الحكمة السابعة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبه شيءٌ وهو الذي ظهر بكل شيءٍ؟»[(٢)]

=

فدل الحديث على أن هذه الهياكل والأشخاص خيالات لا حقيقة لها؛ فهي أشبه شيء بالظلال.

ولا يفهم هذه العبارات إلا أهل الأذواق والإشارات، وحسب من لم يبلغ لها فهمه ولم يحط بها علمه أن يُسَلِّمَ ويَكِلْ فَهمهَا إلى أربابها، وليعتقد كمال التنـزيه وبطلان التشبيه لأن هذه المعاني أذواق لا تنال إلا بصحبة أهل الأذواق.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الظاهر هو الباطن، ما بطن في عالم الغيب هو الذي ظهر في عالم الشهادة فحياض الجبروت متدفقة بأنوار الملكوت، انظر جمالي شاهدًا في كل إنسان، الماء يجري نافدًا، في أُس الأغصان، تجده ماء واحدًا، والزهر ألوان، يا عجبًا! كيف يعرف بالمعارف من به عُرِفَتِ المعارف، عَجِبْتُ لمن يبغي عليك شهادة، وأنت الذي أشهدته كل شاهد.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: أي: تجلَّى بكل شيء فلا وجود لشيء مع وجوده فكيف يحجبه شيء والغرض أن

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء» حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، وذلك لأن الأثر يدل على المؤثر ويعرف به، فهذا مقام المستدلين الضعفاء.

الحكمة الثامنة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي ظهر في كلِّ شيءٍ؟»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء» بذاته كما يقوله أهل الشهود، أو بمحاسن صفاته وأسمائه كما يقول أهل الحجاب، فالأشياء كلها مجالي ومظاهر لظهور معاني أسمائه التي هي تفاصيل معاني صفاته، فيظهر في أهل العزة كونه معزًا، وفي أهل الذلة كونه مذلًا، وفي الأحياء معنى اسمه المحيي، وعند سلب الأرواح معنى اسمه المميت، وعند العطاء معنى اسمه الكريم، وعن إجابة الدعاء معنى اسمه المجيب، وعند تسليطه المضار وجلب المنافع معنى اسمه الضار النافع... إلى غير ذلك.

الحكمة التاسعة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الظاهر لكلِّ شيءٍ؟»(٢)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء» أي: تجلى لكل شيء حتى عرفه، ولذا كان ساجدًا له ومسبحًا بحمده ولكن لا نفقه ذلك، فكل شيء عارف به على قدر تجليه له، وإن كان في الأشياء من لا يقدر الله حق قدره لنقص معرفته وقصورها لا لانتفاء

= لا شيء.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: بقدرته وحكمته القدرة باطنة والحكمة ظاهرة أو تقول: بجمعه وفرقه الجمع باطن والفرق ظاهر؛ فالوجود كله بين قدرة وحكمة وبين جمع وفرق، وقد تقدم قول بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه أي: بقدرته وحكمته فلولا ظهور أنوار الصفات ما عَرَفْتَ الذات ولا الحس ما قبضت المعنى ولولا الكثيف ما عَرَفْتَ اللطيف.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: أي: المتجلي لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته، ولما تجلى لكل شيء وعرفه في الباطن كل شيء وسبح بحمده كل شيء فلم يحجبه شيء عن شيء، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، يقول بلسان حاله: سبحان المتجلي لكل شيء الظاهر بكل شيء يفقهه العارفون ويجهله الغافلون.

أصلها.

الحكمة العشرون

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الظاهر قبل وجود كل شيءٍ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء» لتحقق هذا الاسم له أزلًا وأبدًا، فظهوره تعالى ذاتي له، غير مكتسب ولا مستفاد ولا معلول، وظهور الأكوان ناشئ من تجليه عليها بصفة الظهور، فكيف تكون حاجبة له؟!

الحكمة الواحدة والعشرون

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو أظهر من كلِّ شيءٍ؟»(٢)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر كل شيء؟» لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال، ولأن الظهور الذاتي أقوى من العرضي، والظهور المطلق أقوى من المقيد، والدائم أقوى من المنصرم.

وإنما لم يدرك للعقول مع شدة ظهوره؛ لأن شدة الظهور لا يطيقها الضعفاء، كالخفاش

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: كل ما ظهر فمنه وإليه؛ فكان في أزله ظاهرًا بنفسه ثم تجلى لنفسه بنفسه فهو الغني بذاته عن أن يظهر بغيره أو يحتاجَ إلى من يعرفه غيره فالكون كله مجموع والغير عندنا ممنوع.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: إذ لا وجود للأشياء مع وجوده، ولا ظهور لها مع ظهوره وعلى تقدير ظهورها فلا وجود لها من ذاتها فلولا ظهوره في الأشياء ما وقع عليها أبصار؛ فالعبد في حالة الحجاب تكون نفسه وجودها عنده ضروريًا ووجود الحق تعالى عنده نظريًا، فإذا عرف الحق، وفني عن نفسه، وتحقق بزوالها صار عنده وجود الحق ضروريًا، ووجود نفسه نظريًّا بل محال ضرورة.

قال أبو الحسن الشاذلي ﷺ: إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحدًا من الخلق؛ فهل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولا بدَّ فكالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئًا انتهى.

وزاد في «لطائف المنن»: ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إلى الله فليت شعري، هل لها وجود معه حتى توصل إليه؟! أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له؟ وإن كانت الكائنات موصلةً له؛ فليس ذلك لها من حيث ذاتها لكن هو الذي ولاها رتبة التوصيل فوصلت فما وصل إليه غير إلهيته ولكن الحكيم هو واضع الأسباب، وهي لمن وقف معها ولا ينفذ إلى قدرته عين الحجاب فظهور الحق أجلى من كل ما ظهر إذ هو السبب في ظهور كل ما ظهر وما اختفى إلا من شدة ما ظهر ومن شدة الظهور الخفاء.

يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستنارته، بل لشدة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فيكون شدة ظهور النهار مع ضعف بصره سببًا لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئًا إلا إذا امتزج الظلام بالضوء، وضعف ظهوره فكذلك العقول ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في غاية الإشراق والاستنارة، فصارت شدة ظهوره سببًا لخفائه.

الحكمة الثانية والعشرون

«كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبَه شيءٌ، وهو الواحدُ الذي ليس معه شيءٌ؟»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء» إذ كل شيء سواه عدم لا وجود له على التحقيق، فليس ثم شيء يحجبه، إذ الوجود الحقيقي كله له، ولا شيء منه لغيره.

الحكمة الثالثة والعشرون

«كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبَه شيءٌ وهو أقربُ إليك من كُلِّ شيءٍ؟»(٢)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لتحقق وحدانيته أزلًا وأبدًا كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣]، ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:١٠] فكل ما ظهر للعيان فإنما هو مظاهر الرحمن؛ فالحق تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شيء قبله ولا شيء بعده ولا شيء معه.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢]، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقربه تعالى قرب علم وإحاطة وشهود لا قرب مسافة، إذ لا مسافة بينك وبينه، وتقدم في الحديث: «وإنَّ الله ما حلَّ في شيءٍ ولا غاب عن شيء»، وقال سيدنا علي -كرم الله وجهه: الحق تعالى ليس من شيء ولا في شيء ولا فوق شيء ولا تحت شيء إذ لو كان من شيء لكان مخلوقًا ولو كان فوق شيء لكان محمولًا ولو كان في شيء لكان محصورًا ولو كان تحت شيء لكان مقهورًا انتهى.

وقيل له: يا ابن عم رسول الله ﷺ! أين كان ربنا أو هل له مكان؟ فتغير وجهه وسكت ساعة ثم قال: قولكم أين الله سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان ثم خلق الزمان والمكان، وهو الآن كما كان دون مكان ولا زمان انتهى.

وقال أبو الحسن الشاذلي ﷺ: قيل لي: يا علي بي قل وعليَّ دل وأنا الكل انتهى.

هذا كما في حديث البخاري، يقول الله تعالى: «يسب ابنُ آدمَ الدَّهرَ وأنا الدَّهرُ بيدي الليلُ والنهار».

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء» لثبوت إحاطته بك وقيوميته عليك، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]؛ فهو قريب بعلمه وقدرته وإرادته.. إلى غير ذلك.

الحكمة الرابعة والعشرون

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ ولولاه ما كان وجود كلِّ شيءٍ؟»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء» حتى استدل به المشاهدون على الأشياء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولو أسقط لفظ «كل» لكان أظهر في العموم، أي: أن ابن عطاء الله ﷺ لو كان قال: «إنه لولاه ما كان وجود شيء» لكان معناه استحالة وجود شيء مطلقًا فيكون أظهر في العموم من كلمة «كل شيء» اهـ.

ثم قال الشرقاوي يرحمه الله:

والقصد بهذا الكلام المبالغة في نفي الحجاب، فلا يضر كون هذا الوجه بمعنى الوجه الأول، وبعضهم أثبت التغاير بينهم بما فيه كلفة.

الحكمة الخامسة والعشرون

«يا عجبًا كيف يظهرُ الوجودُ في العدمِ أمْ كيف يثبتُ الحادثُ مع من له وصفُ القِدَمِ؟!»(٢)

= وقال أيضًا ﷺ: «لا تسبُّوا الدهرَ فإنَّ الله هو الدهرُ»، وتفسيره ما في الحديث قبله، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]؛ فكل ما ظهر في عالم الشهادة فهو فائض من عالم الغيب، وكل ما برز في عالم الملكوت؛ فهو فائض من بحر الجبروت فلا وجود للأشياء إلا منه ولا قيام لها إلا به ولا نسبة لها معه إذ هي عدم محض وعلى توهم وجودها؛ فهي حادثة فانية ولا نسبة للعدم مع الوجود ولا للحادث مع القديم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الوجود والعدم ضدان لا يجتمعان والحادث والقديم متنافيان لا يلتقيان وقد تقرر أن الحق واجب الوجود، وكل ما سواه عدم على التحقيق فإذا ظهر الوجود انتفى ضده وهو العدم فكيف يتصور أن يحجبه وهو عدم فالحق لا يحجبه الباطل قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، فلا وجود للأشياء مع وجوده فانتفى القول بالحلول إذ الحلول يقتضي وجود السوي حتى يحل فيه معنى الربوبية والفرض أن السوي عدم محض فلا يتصور الحلول، =

=

والقديم والحادث لا يلتقيان فإذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم.

قال رجل بين يدي الجنيد ﷺ: الحمد لله ولم يقل رب العالمين، فقال له الجنيد: كمله يا أخي، فقال له الرجل: وأي قدر للعالمين حتى يذكروا معه؛ فقال الجنيد: قُله يا أخي فإن الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم انتهى.

فقد تقرر أن الأشياء كلها في حيز العدم، إذ لا يثبت الحادث مع من له وصف القدم، فانتفى القول بالاتحاد إذ معنى الاتحاد هو اقتران القديم مع الحادث فيتحدان حتى يكونا شيئًا واحدًا وهو محال إذ هو مبني أيضًا على وجود السوى ولا سوى؛ فتحصل أن الحق سبحانه واحد في ملكه قديم أزلي باقٍ أبدي منـزه عن الحلول والاتحاد مقدسٌ عن الشركاء والأضداد كان ولا أين ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان.

وسُئل أبو الحسن النوري ﷺ: أين الله من مخلوقاته؟ فقال: كان الله ولا أين والمخلوقات في عدم فكان حيث هو وهو الآن حيث كان، إذ لا أين ولا مكان، فقال له السائل: وهو علي بن ثور القاضي في قصة محنة الصوفية: فما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة؟ فقال: عز ظاهر وملك قاهر ومخلوقات ظاهرة به، وصادرة عنه لا هي متصلة به ولا منفصلة عنه فرغ من الأشياء، ولم تفرغ منه لأنها تحتاج إليه، وهو لا يحتاج إليها قال له: صدقت فأخبرني ماذا أراد الله بخلقها؟ قال: ظهور عزته وملكه وسلطانه، قال: صدقت فأخبرني ما مراده من خلقه؟ قال: ما هم عليه، قال: أو يريد من الكفرة الكفر؟ قال: أفيكفرون به وهو كاره؟ ثم قال: أخبرني ماذا أراد الله باختلاف الشيع وتفريق الملل؟ قال: أراد إبلاغ قدرته وبيان حكمته وإيجاب لطفه وظهور عدله وإحسانه انتهى.

وفيه إشارة إلى أن تجليات الحق على ثلاثة أقسام:

١ - قسم أظهرهم ليظهر فيهم كرمه وإحسانه وهم أهل الطاعة والإحسان.

٢- وقسم أظهرهم ليظهر فيهم عفوه وحلمه وهم أهل العصيان من أهل الإيمان.

٣- وقسم أظهرهم ليظهر فيهم نقمته وغضبه وهم أهل الكفر والطغيان.

وحاصل ما اشتمل عليه هذا الباب من أول الكتاب ثلاثة أمور: عمل الشريعة والطريقة والحقيقة أو تقول: عمل الإسلام والإيمان والإحسان، وهي البداية والوسط والنهاية، ومن علامة النجح في النهاية الرجوع إلى الله في البداية، فأمرك بالرجوع إليه والاعتماد عليه دون الاعتماد على العمل مع وجود العمل ثم دلك على الأدب في حال التجريد والأسباب ثم نهاك في حالة المسير عن شغل باطنك بكد التدبير فإنه سبب التكدير ثم أنهضك إلى الاجتهاد في الأعمال المطلوبة منك مع التقصير فيما هو مضمون لك ليكون سببًا في فتح بصيرتك ومن جملة ما هو مضمون ما تطلبه بدعائك فلا تستعجل ما تأخر عن وقته ولا تيأس من رحمته، وإذا وعدك بشيء فلا تشك في وعده، ولا تتهمه فيما ينـزل بك من تعرفاته وقهره فهذه أعمال أهل البدايات اختلفت أجناسها باختلاف أحوالهم.

فقوله: «من علامة الاعتماد على العمل» إلى قوله: «الأعمال صور قائمة» كله من عمل الشريعة الذي هو مقام الإسلام، وقوله: «الأعمال صور قائمة» إلى قوله: «الكون كله ظلمة» هو من عمل الطريقة الذي هو مقام الإيمان، ومداره على تخليص الباطن وتهذيبه فأمرك بالإخلاص والصدق وهو سر الإخلاص

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«يا عجبًا! كيف يظهر الوجود في العدم؟!»؛ لأن العدم ظلمة والوجود نور، وهما ضدان لا يجتمعان «أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟!»؛ لأن الحادث باطل، والله تعالى حق، والباطل لا يثبت مع ظهور الحق.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

فالظاهر والثابت هو الحق تعالى لا الكون وما بدا إلا وجه الحق؛ فهو المظهر والظاهر والوجود دون كل المظاهر.

والتعجب المذكور ناشئ من غلبة الشهود، فإنه إذا قوي العبد اضمحلت الأكوان وفني عنها بالمرة.

الحكمة السادسة والعشرون
«ما تركَ من الجهلِ شيئًا مَنْ أرادَ أن يحدث في الوقت غير ما أظهرهُ الله فيه»(١)

= والخمول؛ لأنه محله ومظهره والعزلة لتتمكن من الفكرة وتصفية مرآة القلب من صور الأكوان لتتهيأ لإشراق شموس العرفان ثم فتح لك الباب ورفع عنك الحجاب، وقال لك: ها أنت وربك وهو قوله: «الكون كله ظلمة» إلى آخر الباب، فقد قطع لك توهم الحجاب من جميع الوجوه، فجزاه الله أحسن جزائه ومتعه برضوانه مع أنبيائه وأحبائه وخرطنا في سلكهم مع كافة الأحباب آمين.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الجهل هو ضد العلم وقيل: هو عدم العلم بالمقصود، وهو على قسمين: بسيط، ومركب؛ فالبسيط: أن يجهل ويعلم أنه جاهل، والمركب: أن يجهل جهله وأقبح الجهل الجهل بالله وإنكاره بعد طلب معرفته، قلت: من آداب العارف الحقيقي أن يقر الأشياء في محلها ويسير معها على سيرها فكلما أبرزته القدرة للعيان؛ فهو في غاية الكمال والإتقان.

وقال أبو الحسن النوري ﷺ: مراد الله من خلقه ما هم عليه فإذا أقام الله عبدًا في مقام من المقامات فالواجب على العارف أن يقره فيه بقلبه كائنًا ما كان فإن كان لا تسلمه الشريعة رغَّبَه في الخروج عنه بالسياسة وينظر ما يفعل الله.

قال بعضهم: من عامل الخلق بالشريعة طال خصامه معهم ومن عاملهم بالحقيقة عذرهم والواجب أن يعاملهم في الظاهر بالشريعة فيذكرهم وفي الباطن بالحقيقة فيعذرهم ومن أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله تعالى في نفسه أو في غيره فقد جمع الجهل كله ولم يترك منه شيئًا حيث عارض القدر ونازع القادر.

وقد قال تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام : ١١٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وفي بعض الأخبار: «يقول الله تبارك وتعالى: مَنْ لم يرضَ بقضائي، ولم يَصْبِرْ على بلائي؛ فليخرجْ من =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه»، فإذا كان المريد في حال بدني أو قلبي لا يذمه الشرع لزمه حسن الأدب في اختيار بقاؤه عليه ورضاه به حتى ينقله الله عنه؛ فإذا كان متجردًا وتعلق قلبه بالتكسب أو كان في صنعة وأراد الانتقال عنها لغيرها، كان قليل الأدب مع مولاه، جاهلًا بما يناسب حضرته، وكذا إن كان حال قبض وأراد الانتقال عنها إلى البسط.

قال بعضهم: «لي مذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطه».

= تحتِ سمائي وليتَّخِذْ ربًّا سِوايَ».

وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس -رضي الله عنهما: لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان.

وقال أبو عثمان ﷺ: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ في كتابه: من عرف أهل حقائق الظاهر ولم ينكر عليهم شيئًا من أحوالهم يظفر بما في أيديهم ولا يمنع خيرهم قطعًا ومن عرف أهل حقائق الباطن ولم ينكر عليهم شيئًا من أحوالهم يظفر بما في أيديهم على كل حال العارف بالله يجمع بين خير الفرقتين يصطحب معهما جميعًا وكل فرقة يتلون على لونها كشيخ شيوخنا -رضي الله عنهم- سيدي أحمد اليماني -نفعنا الله به- كان ﷺ ممن لا ينكر حالًا من أحوال الخلق أهل الظاهر يتلمذهم في ظواهرهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها وأهل البواطن يتلمذهم في بواطنهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها فحصل له خير الفرقتين بما رزقه الله من المعرفة والحكمة قيل: إن الولي الكامل يتطور بجميع الأطوار يقضي جميع الأوطار انتهى.

قلت: ومن تأمل الأحاديث النبوية وجدها على هذا المنوال؛ لأن النبي ﷺ كان سيد العارفين وقدوة المربين فكان يقر الناس على ما أقامهم الله في حكمتهم ويرغبهم فيها فلذلك تجد الأحاديث متعارضة ولا تعارض في الحقيقة فإذا نظرت في أحاديث الذكر، قلت: لا أفضل منه وإذا نظرت في أحاديث الجهاد، قلت: لا أفضل منه وإذا نظرت في أحاديث فضل العلم، قلت: لا أفضل منه وإذا نظرت في أحاديث الزهد والتجريد من أسباب الدنيا قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث الكسب والخدمة على العيال كذلك فكل حكمة رغّب النبي ﷺ فيها حتى تقول: لا أفضل منها تطييبًا لخاطر أهلها ليكونوا فيها على بينة من ربهم ولم يأمرهم ﷺ بالانتقال عنها إذ مراد الله منهم هو تلك الحكمة فأقرهم ﷺ عليها ورغّبهم فيها حتى يظن من يسمع أحاديثها أنه لا أفضل منها، وهو كذلك إذ لا أفضل منها في حق أهلها، والحاصل: أن العارف لا ينكر شيئًا، ولا يجهل شيئًا.

وقد قال بعض العارفين: ليس في الإمكان أبدع مما كان، وتأويله: أن ما سبق في علم الله يكون لا يمكن غيره فلا أبدع منه، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله والله تعالى أعلم.

وهذا من نتائج العلم بالله ومعرفته ربوبيته، فإن سخط تلك الحال وتشوف إلى الانتقال عنها بنفسه، وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربه وإساءة الأدب في حضرته، وهذا من معارضة حكم الوقت الذي تشير إليه الصوفية، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة.

الحكمة السابعة والعشرون

«إحالتُكَ الأعمالِ على وجودِ الفراغِ من رُعونَاتِ النُّفوسِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الإحالة على الشيء هو: تسليطه وإغراؤه عليه، والمراد هنا توقف الأمر عليه بحيث لا يتوجه له حتى يتيسر وجوده والفراغ من الشيء خلوه منه وفراغ القلب خلوه مما يشغله وفراغ الجوارح خلوها من الأشغال والرعونة نوع من الحمق.
ومن آداب العارف أن يكون كامل العقل ثاقب الذهن، ومن علامة العقل انتهاز الفرصة في العمل ومبادرة العمر من غير تسويف ولا أمل إذ ما فات منه لا عوض له وما حصل لا قيمة له.
وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ألا وإنَّ من علامةِ العقلِ التَّجَافِي عن دارِ الغرورِ والإنَابَةِ إلى دارِ الخلودِ والتَّزَوُّد لسُكْنَى القبورِ والتَّأَهُّبُ ليومِ النُّشُورِ**».
والكيس هو العاقل ودان نفسه حاسبها وفي صحف إبراهيـم ﵇: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه ﷻ وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله ﷻ وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا لثلاث: تـزوَّدْ لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة من غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه مقبلًا على شأنه حافظًا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه انتهى.
فإحالتك الأعمال وتأخيرها إلى وقت آخر تكون فيه فارغ القلب، أو القالب من علامة الرعونة والحمق وهو غرور ومن أين لك أن تصل إلى ذلك الوقت والموت هاجم عليك من حيث لا تشعر وعلى تقدير وصولك إليه لا تأمن من شغل آخر يعرض لك وفراغ الأشغال من حيث هو نادر لقوله ﵇: «**نعمتان مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصحةُ والفراغُ**»، أي: كثير من الناس فقدوهما وغبنوا فيهما إذ كثير منهم لا تجده إلا مشغولا بدنيا أو مفتونًا بهوًى أو مريضًا مبتلى.
ومفهوم الكثير: أن القليل من الناس رزقهم الله الصحة والفراغ فإن عمروهما بطاعة مولاهم؛ فقد شكروا وربحوا ربحًا عظيمًا وإن ضيعوهما فقد خسروا خسرانًا مبينًا وكفروا بهاتين النعمتين فجدير أن تسلبا عنهم وهو أيضًا من علامة الخذلان وسيأتي من كلام الشيخ: الخذلان كل الخذلان أن تقل عوائقك، ثم لا تقبل عليه فالواجب على الإنسان أن يقطع علائقه وعوائقه ويخالف هواه ويبادر إلى خدمة مولاه ولا ينتظر وقتًا آخر إذ الفقير ابن وقته فلا تجده مشغولًا إلا بفكـرة أو نظرة أو ذكر أو مذاكرة أو خدمة شيخ يوصله إلى مولاه وقد قلت لبعض الإخوان: الفقير الصِّدِّيق ليس له فكرة، ولا هدرة إلا في الحضرة، أو ما يوصله للحضرة، والله تعالى أعلم.

«إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس»، فإذا كان المريد مشتغلًا بحال من أحوال دنياه، وكان ذلك يمنعه من الأعمال التي يتوصل بها إلى حضرة مولاه، وأحال ذلك على فراغه من تلك الأشغال، فقال: «إذا تفرغت عملت»، كان ذلك دليلًا على رعونة نفسه، والرعونة ضرب من الحماقة، وذلك لتسويفه العمل إلى فراغ أوانه، وقد لا يجد مهلة، بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله؛ لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض، ولو فرض أنه تفرغ منها، فقد يتبدل عزمه، وتضعف نيته، فالواجب عليه النهوض إلى ما يوصله إلى مولاه قبل الفوت، ولذا قيل: «الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك»[1].

الحكمة الثامنة والعشرون

«لا تطلبْ منهُ أن يخرجَك من حالة ليستعملَكَ فيما سِواها فلوْ أرادَكَ لاستعمَلَكَ من غَيرِ إخراجٍ»[2]

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٤٢).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: من آداب العارف الاكتفاءُ بعلم الله، والاستغناءُ به عما سواه فإذا أقامه الله تعالى في حالة من الأحوال، فلا يستحقرها ويطلب الخروج منها إلى حالة أخرى فلو أراد الحق تعالى أن يخرجه من تلك الحالة ويستعمله فيما سواها لاستعمله من غير أن يطلب منه أن يخرجه بل يمكث على ما أقامه فيه الحق تعالى حتى يكون هو الذي يتولى إخراجه كما تولى إدخاله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] فالمدخل الصدق هو أن تدخل فيه بالله، والمخرج الصدق هو أن تخرج منه بالله وهذا هو الفهم عن الله وهو من علامة تحقق المعرفة بالله فالعارف بالله إذا كان أعزب لا يتمنى التزويج وإذا كان متزوجًا لا يتمنى الفراق وإذا كان فقيرًا لا يتمنى الغنى وإذا كان غنيًّا لا يتمنى الفقر وإذا كان صحيحًا لا يتمنى المرض، وإذا كان مريضًا لا يتمنى الصحة، وإذا كان عزيزًا لا يتمنى الذل وإذا كان ذليلًا لا يتمنى العز وإذا كان مقبوضًا لا يتمنى البسط وإذا كان مبسوطًا لا يتمنى القبض وإذا كان قويًّا لا يتمنى الضعف وإذا كان ضعيفًا لا يتمنى القوة وإذا كان مقيمًا لا يتمنى السفر وإذا كان مسافرًا لا يتمنى الإقامة وهكذا باقي الأحوال ينظر ما يفعل الله به ولا ينظر ما يفعل بنفسه لتحقق زواله بل يكون كالميت بين يدي الغاسل أو كالقلم بين الأصابع.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

وأوحى الله تعالى إلى داوود ﷺ فقال: يا داود! تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لي ما أُريد أتيتك بما تريد وإن لم تسلم لي ما أُريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون ألا ما أريد.

وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: «**جِفَّ القلمَ بما أنت لاقٍ**»، وفي حديث آخر: «**جَفَّتِ الأقلامُ وطُوِيَتِ الصحف**».

وقال شيخ شيوخنا سيدي أحمد اليماني ﷺ: حين سأله أصحابه عن حقيقة الولاية؟ فقال لهم: حقيقة الولاية هو إذا كان صاحبها جالسًا في الظل لا تشتهي نفسه الجلوس في الشمس وإذا كان جالسًا في =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تطلب منه أن يخرجك من حالة» دنيوية كصناعة، أو دينية كطلب علم، «ليستعملك فيما سواها» لتوهمك أن ما أنت فيه عائق عن نهوضك لحضرته.

«فلو أرادك» أي: أحبك وكنت من أهل الإرادة «لاستعملك» استعمالًا محبوبًا عنده، بأن يوفقك للأعمال الصالحة ويشغل قلبك به، «من غير إخراج» أي: مع بقائك على حالتك التي أنت عليها، فإذا كان المريد على حالة لا توافق غرضه، كانت مباحة في الشرع، لا ينبغي أن يروم الخروج عنها بنفسه، ويعارض حكم الوقت كما مر في قوله في الحكمة القائلة: «ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه»، وكذا لا ينبغي له أن يعارض حكم الوقت، ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ويستعمله فيما سواها؛ لأن هذا من التخيير على الله ولا خيرة له في ذلك، بل ينبغي أن يطلب منه حسن الأدب، وإيثار مراده على اختياره، فإذا علم منه مولاه ذلك استعمله استعمالًا محبوبًا عنده مع بقائه على ما هو عليه، فيكون إذ ذاك بمراد الله لا بمراده لنفسه، وهو خير له مما اختاره.

ولو قال: «لحصل لك المطلوب من غير إخراج» لكان أولى، أما لو كان على حالة لا توافق الشرع، يجب عليه المسارعة إلى الانتقال والطلب من مولاه أن ينقله إلى ما يرضيه.

الحكمة التاسعة والعشرون

«ما أرادتْ همَّةُ سالك أن تقفَ عندما كُشفَ لها إلا ونادتهُ هواتفُ: الحقيقة أمامَك ولا تبرَّجتْ ظواهرُ الْمكوِّنات إلا ونادتــهُ حقائقُهَا: إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفرْ»[1]

=

الشمس لا تشتهي نفسه الجلوس في الظل انتهى. وهذا كله مع الاختيار دون الأمر الضروري.

وقد تقدم قول شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ: من أوصاف الولي الكامل ألا يكون محتاجًا إلا على الحال الذي يقيمه مولاه فيه في الوقت يعني ما له مراد إلا ما يبرز من عنصر القدرة لا تشتهي نفسه غيره انتهى.

قلت: فإذا تجلى في العارف شيء من هذه الأمور أعني: الانتقال من حال إلى حال فليتأنّ، وليصبر حتى يفهم أنه من الله بإشارة ظاهرة، أو باطنة أو هاتف حسي أو معنوي ولينصت إلى الهواتف فإن الله تعالى يخاطبه بما يفعل وهذا أمر مجربٌ صحيح عند العارفين حتى أنهم لا يتصرفون إلا بإذن من الله ورسوله إذ لا فرق عند أهل الجمع- جعلنا الله منهم آمين، وهذا كله إذا كان الحال الذي هو فيه موافقًا للشريعة وإلا فليطلب الخروج منه بما يمكن.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: همة السالك: هي القوة الباعثة له على السير ووقوفها مع الشيء هو اعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية أو فيه كفاية، وهواتف الحقيقة: هي لسان حال الكشف عن عين التحقيق وتبرج الشيء ظهوره في حال الزينة لقصد الإمالة، وظواهر المكونات: هو ما كساها من الحسن =

=

والحكمة وتزيُّنُهَا هو خرقُ عوائدها له وانقيادها لحكمه وحقائقها نورها الباطني وهو تجلي المعنى فيها.

قلت: السالك هو الذي يشهد الأثر فإن كان يشهده في نفسه فهو سالك فقط وهو في حالة السير وإن كان يشهده بالله؛ فهو سالك مجذوب، والمقامات التي يقطعها ثلاث: فناء في الأفعال وفناء في الصفات وفناء في الذات أو تقول: فناء في الاسم وفناء في الذات وفناء في الفناء، وهو مقام البقاء ثم الترقي إلى ما لا نهاية له فإذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال، وذاق حلاوته وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء، في الصفات الذي تطلب أمامك وإذا ترقى إلى مقام الفناء في الصفات، وكشف له عن سر توحيد الصفات واستشرف على الفناء في الذات وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء في الذات الذي تطلب أمامك، وإذا ترقى إلى الفناء في الذات، وكشف له عن سر توحيد الذات وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة فناء الفناء، أو حقيقة البقاء الذي تطلب أمامك وإذا وصل إلى البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وقد قال ﷺ: «**لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسك**».

أو تقول: إذا كشف للمريد عن الفناء في الاسم وذاق حلاوة العمل، والذكر وأرادت همته أن تقف معها نادته هواتف حقائق الفناء في الذات الذي تطلب أمامك، فإذا ترقى إلى مقام الفناء في الذات وذاق حلاوته ولم يتمكن وقنع بذلك، وأرادت همته أن تقف مع ذلك نادته هواتف حقيقة التمكين الذي تطلب أمامك وإذا تمكن ولم يطلب زيادة الترقي نادته هواتف الترقي الذي تطلب أمامك وهكذا كل مقام ينادي على ما قبله: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣]، وإذا «تبرجت» أي: ظهرت بزينتها وحُلَلها للسالك أو للعارف ظواهر المكونات بخرق عوائدها، وانقيادها له وتصرفه فيها بهمته كالمشي على الماء والطيران في الهواء ونبع الماء وجلب الطعام، وغير ذلك من الكرامات الحسية وأرادت همة السالك أن تقف مع ظواهرها، وتشتغل بحلاوة حسها نادته هواتف المعاني الباطنة: إنما نحن فتنة لك نختبرك هل تقنع بها دون معرفة مالكها ومنشئها المتجلي فيها؟ أو تعرض عنها وتنفذ إلى نور معانيها وشهود مالكها ومجريها؟ لا تكفر وتجحد المتجلي بها، فتنكره فتكون من الجاهلين.

وقد ضرب الساحلي في البغية مثلًا لهذه المقامات والسير فيها، فقال مثل ذلك كمَلِكٍ ظهر بالمشرق مثلًا وأرسل لنا رسلًا بكتاب من عنده، فقرءوا علينا كتاب الملك وشوقونا إليه غاية التشويق بذكر كرمه ومحاسنه فمن الناس من أعرض عن طاعته، والانقياد إليه وهم الكفار ومن الناس من قبل وآمن ولم يقدر على النهوض إلى حضرة الملك وهم عوام المسلمين ضعفاء المحبة واليقين ومن الناس من تشوق للملك ونهض إلى حضرته، فقالت له الرسل: نحن نسيرك ونعرفك الطريق فتقدموا أمامهم يسيرون بهم ثم إن الملك بنى ديارًا ومنازل ينزلونها كل منزل أعظم من الذي قبله هكذا إلى حضرته فإذا نزلوا أول المنازل ورأوا حسنه وبهجته، أرادوا أن يقيموا فيه، فتقول لهم الرسل الذين جاءوا من عند الملك الذي تطلبون أمامكم فينهضونهم من ذلك المنزل فإذا نزلوا الثاني وجدوه أعظم من الأول، فيريدون أن يقيموا فيه، فترحلهم الرسل إلى ما بعده وهكذا يقطعون بهم المنازل منزلًا منزلًا، حتى يوقفونهم

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما أرادت همة سالك» أي: سائر إلى الله تعالى «أن تقف عند ما كُشِفَ لها» في أثناء السلوك من المعارف والأسرار والأنوار بأن يرى أن ما وصل إليه من المعرفة وذوق الأحوال ومنازلة المقامات، هو الغاية القصوى والنهاية، فتقف همته عنه، ويتعشقه ويحبه، أو يرى أن ما فوقه أعظم منه، لكنه يقنع بذلك، ويرى أن فيه الكفاية فلا يرق بهمته، أو يرى قصور هامته عن الرقي لما فوقه «إلا ونادته هواتف الحقيقة» أي: الهواتف التي تهتف على قلبه من جهة الحقيقة الإلهية، ويحتمل أن المعنى: إلا ناداه لسان الحقيقة التي كشفت له: سِرْ وَجِدَّ فِي السَّير، ولا تقف، فإن الذي تطلب وهو وصولك إلى المولى، وعدم ركون قلبك إلى شيء سواه «أمامك»؛ فلا تقف عند ما كشف لك.

يقول السياجي يغفر الله له:

من المناسب لجملة القول هو تقسيم قول المصنف ﷺفي قوله «إلا ونادته هواتف» أي: هواتف تهتف بالسالك من إلهامات وفواتح تقول له: «الحقيقة أمامك» فاجتهد في سلوكك إليها، واصبر وتحمل معاناة الطريق، فقد بان مطلبك، وتجلت لك الحقائق» اهـ.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ولا تبرجت» أي: أظهرت لك محاسنها «ظواهر المكونات» كتسخير الخلق لك وإقبالهم عليك، والتوسعة في الدنيا، وظهور خوارق العادات كتسخير الحيوانات، والمشي على الماء، والتربع في الهواء، والاطلاع على أسرار الخلائق وخواص الموجود، وتكثير القليل من الطعام، وطي الأرض ونحو ذلك مما تميل النفس له «إلا نادته حقائقها» أي: بواطنها، نداء معنويًا وإن لم تشعر به «إنما نحن فتنة» أي: ابتلاء واختبار «فلا تكفر» أي: فلا تفتتن بنا ولا تقف عندنا، ولا تجعل نفسك رقًا لنا، فتحتجب بنا عن الله؛ لأن ذلك كفر لحق المنعم، وشكر النعم بالإقبال على المنعم؛ فالإعراض عنه بالوقوف مع النعم عكس المطلوب.

=

على الملك، فيقولون لهم: ها أنتم وربكم فيستريحون من التعب ويتمتعون بالمجالسة والنظر.

والمراد بالرسل هنا الأنبياء الذين بعثهم الله وخلفاؤهم ممن كان على قدمهم ممن جمع بين الحقيقة والشريعة وهذه المنازل هي المقامات التي يقطعها المريد انتهى بالمعنى مع الاختصار لطول العهد به.

واعلم أن هذه الآداب التي ذكرها الشيخ في هذا الباب قد تكون خاصة بالعارف، وقد يشاركه فيها غيره، فلذلك يعبر بعبارة واسعة لتكون عامة؛ لأن المريد قد يترقى إلى مقام وقد بقيت عليه بقية مما قبله فيكملها فيه، والله تعالى أعلم.

الحكمة الثلاثون

«طلبُكَ منه اتِّهامٌ له وطلبُكَ له غيبةٌ منك عنه وطلبُكَ لغيره لقلَّةِ حيائكَ منه وطلبُك من غيره لوجودِ بُعدِكَ منه»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: طلبك منه يكون بالتضرع والابتهال وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال، وحاصلها أربعة: طلب الحق، ومنه طلب الباطل، وكلها مدخولة عند المحققين أما طلبك منه فلوجود تهمتك له لأنك إنما طلبته مخافة أن يهملك أو يغفل عنك؛ فإنما هو ينبه من يجوز منه الإغفاء وإنما يذكر من يمكن منه الإهمال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

وقال ﷺ: «مَنْ شغله ذِكري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»، فالسكون تحت مجاري الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهال.

وكان شيخ شيوخنا مولاي العربي ﷺ يقول: الفقير الصادق لم تبق له حالة يطلبها، وإن كان ولا بدَّ من الطلب فليطلب المعرفة انتهى.

قلت: وإذا ورد منهم الدعاء؛ فإنما هو عبودية وحكمة لا طلبًا للقسمة، إذ ما قسم لك واصل إليك ولو سألته أن يمنعكَهُ ما أجابك.

وفي المسألة خلاف بين الصوفية هل السكوت أولى أو الدعاء؟ والتحقيق أن ينظر ما يتجلى فيه وينشرح له الصدر فهو المراد منه وأما طلبك له، فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك، فلو حضر قلبك وغبت عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره، وأما طلبك لغيره أي لمعرفة غيره، فلقلة حيائك منه وعدم أنسك به أما وجه قلة حيائك منه فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة، ومثال ذلك كمن كان في حضرة الملك والملك مقبلٌ عليه ثم يجعل هو يريد الخروج منها ويلتفت إلى غيره؛ فهذا يدل على قلة حيائه وعدم اعتنائه بالملك فهو حقيق بأن يطرد إلى الباب أو إلى سياسة الدواب.

وقد قالوا: أنكر من تعرف ولا تتعرف لمن لا تعرف، وأما وجه عدم أنسك به فلأنك لو أنست به لاستوحشت من خلقه فلا يتصور منك طلب معرفتهم وأنت تفر منهم فإذا آنسك به أوحشك من خلقه وبالعكس والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس: إقبالك على الحق إدبارك عن الخلق وإقبالك على الخلق إدبارك عن الحق، وقد عدوا من أصول الطريق الأعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

وأما طلبك من غيره فلوجود بعدك عنه إذ لو تحققت بقربه منك وهو كريم ما احتجت إلى سؤال غيره وهو لئيم، وسيأتي في المناجاة أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما قطعت عادة الامتنان.

وفي بعض الكتب المنـزلة يقول الله تبارك وتعالى: «إذا أنـزلت بعبدي حاجة فرفعها إليَّ أعلم ذلك من نيته، لو كادته السموات السبع والأرضون السبع لجعلت من أمره فرجًا ومخرجًا وإذا أنـزلت بعبدي حاجة، فرفعها إلى غيري أضحت الأرض من تحته وأسقطت السماء من فوقه وقطعت الأسباب فيما بيني وبينه»، أو كما قال لطول العهد به؛ فتحصَّل أن الأدب هو الاكتفاء بعلم الله والتحقق بمعرفة الله والاستغناء به عما سواه، والله تعالى أعلم.

«طلبك منه اتهام له» يعني: أن المريد ينبغي له أن يشتغل في حال سلوكه بما يقربه من مولاه من الأعمال الصالحة، ولا يشغل قلبه بالطلب لشيء من الأشياء؛ لأن ذلك مذموم قاطع عن الله، فإن طلبك منه أن يرزقك بالقوت الذي يعينك على سيرك، وأن يوسع عليك الرزق تهمة منك له بأنه لا يرزقك، إذ لو وثقت به في إيصال منافعه إليك من غير سؤال، وتيقنت أنه عالم بحالك، قادر على إيصالها لك لما طلبت منه شيئًا.

«وطلبك له» بأن تطلب قربك منه، وزوال الحجاب عنك حتى تشاهده بعين قلبك «غيبة منك عنه» إذ الحاضر لا يُطلب، «وطلبك لغيره» من الأعراض الدنيوية وزخارفها ومناصبها، ومن المكاشفات والكرامات والأحوال والمقامات «لقلة حيائك منه» إذ لو حصل لك حياء منه لما التفتَّ إلى غيره وطلبت شيئًا سواه «وطلبك من غيره» بأن توجهت إلى بعض الناس لتطلب منه شيئًا من أعراض الدنيا غافلًا في حال الطلب عن مولاك «لوجود بعدك عنه» إذ لو كنت قريبًا منه لكان غيره بعيدًا عنك، ولو كنت مشاهدًا لقربه منك لاكتفيت به عن سائر خلقه لكن وجود البعيد قضى عليك بالشعور بالغير حتى توجهت إليه وطلبت منه، فالطلب كله من المريدين معلول، سواء كان متعلقًا بالحق أو الخلق إلا ما كان منه على وجه التعبد والتأدب واتباع الأمر وإظهار الفاقة.

أما العارفون، فلا يرون غير الله تعالى، فطلبهم ليس من المخلوق في الحقيقة، وإن كان منه بحسب الظاهر.

الحكمة الحادية والثلاثون

«ما مِن نفَسٍ تُبديه إلا وله قدرٌ فيك يُمضيه»[1]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما من نفس» بفتح الفاء، وهو جزء من الهواء يخرج من باطن البدن في جزء من الزمن، والمعنى أن كل نفس من أنفاسك «تبديه» أي: تظهره بقدرة الله تعالى، لا تبديه «إلا

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النفَس -بفتح الفاء- عبارة عن دقيقة من الزمان قدر ما يخرج النفس ويرجع وهو أوسع من الطرفة والطرفة أوسع من اللحظة، وهي رمق البصر ورده والقدر هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر وهو أعلم أوقاتها، وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها وما يعرض لها من الكيفيات، وما ينـزل بها من الآفات، فإذا علمت أيها الإنسان إن أنفاسك قد عمها القدر ولا يصدر منك ولا من غيرك إلا ما سبق به علمه وجرى به قلمه لزمك أن ترضى بكل ما يجري به القضاء فأنفاسك معدودة وطرفاتك ولحظاتك محصورة؛ فإذا انتهى آخر أنفاسك رحلت إلى آخرتك وإذا كانت الأنفاس معدودة فما بالك بالخطوات والخطرات وغير ذلك من التصرفات.

وله» تعالى «فيك قدرٌ» أي: أمر مقدر عليك من طاعة أو معصية أو نعمة أو بلية «يمضيه» أي: يبرزه بقدرته في ذلك النفَس؛ فكل نفس يبدو منك ظرف لقدر من أقدار الحق ينفذ فيك كائنًا ما كان.

فينبغي لك الأدب معه ومراقبته في كل نفس من أنفاسك، فتكون في كل نفس سالكًا طريقًا إلى الحق سبحانه وتعالى، وهو معنى قولهم الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

الحكمة الثانية والثلاثون

«لا تترقبْ فراغَ الأغيارِ فإنَّ ذلكَ يقطعُكَ عن وجودِ المراقبةِ له فيما هو مُقيمُكَ فيه»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تترقب» أيها المريد «فراغ الأغيار» الواردة على قلبك، وهو ظلمات تحدث فيه تحول بينه وبين شهود المولى والحضور معه «فإن ذلك يقطعك» «عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه» من الأعمال التي تتوصل بها إليه، فالمطلوب منك المواظبة على ما أنت فيه،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الترقب هو الانتظار والأغيار جمع غير بكسر الغين وهو ما يغير القلب عن حاله والغالب استعماله فيما يغيره من حالة الكمال إلى حالة النقص وعند الصوفية: كل ما يشغل عن الحضرة ويغير القلب عنها فهو غير والمراقبة هي العَسَّةُ على القلب لئلا يخرج من حضرة الرب والمراد بها في كلام الشيخ مُطلق العسة فتصدق بمراقبة القلب كما تقدم وتصدق بمراقبة الروح وهي عسها على دوام الشهود وبمراقبة السر وهي عسته على دوام الترقي والأدب.

قلت: إذا أقامك الحق تعالى في حال يغلب فيها وجود الأغيار لغلبة الحس فيها كما إذا أقامك في شغل دنيوي في الظاهر لا محيد لك عنه فجاهد قلبك في العسة عليه في الحضور لئلا تسرقك الغفلة أو جاهد روحك في العسة عليها في دوام الشهود لئلا يسرقك الحس أو جاهد سرك في استمداد الموهب والعلوم لئلا يحصل في ذلك فتور ولا تترقب أي: تنظر فراغ شغل يدك من تلك الأغيار فتؤخر حضور قلبك إلى تمام شغل يدك فيفوتك وجود المراقبة في تلك الحال التي أقامك الحق فيها فيكون في حقك سوء أدب وفيه أيضًا تضييع ذلك الوقت، وخلوه من معاملة الحق وصرف لأوقات لا يمكن قضاؤها.

ولقد بلغني أن شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ: كان إذا رأى أصحابه في شُغل وخاف عليهم أن يسرقهم الحس نادى عليهم بأعلى صوته: أنت أنت تنبيهًا لهم وإيقاظًا من شهود الحس. وقد ذكر الشعراني في العهود عن بعض أشياخه أنه كان لا يغيب عن الله ولو في حالة الجماع وهذا شأن أهل الاعتناء من العارفين وهذا هو جمع الجمع، والله تعالى أعلم.

تنبيـه: ليس هذا تكرارًا مع ما تقدم في قوله: إحالتك الأعمال على وجود الفراغ... إلخ؛ لأن ذلك في عمل الجوارح وهذا في عمل القلوب يدلك على ذلك تعبيره هنا بالمراقبة وتعبيره ثم بالأعمال والإفادة خير من الإعادة، وبالله التوفيق.

ومراقبة المولى في ذلك، ولا تشتغل بما يورده على قلبك من ظلمة أو نور.

ولو قال: «فإن ذلك يقطعك عما هو مقيمك فيه» لكان أولى، ووجه كونه قاطعًا، أن نفسك تسول لك وتقول لو كنت من أهل الإرادة لما وردت هذه الأغيار عليك مع كثرة عبادتك، فيشتغل قلبك بهذه الوساوس وبما سولت لك الرجوع عما أنت قاصده، وترك الأعمال الصالحة، وسبب هذه الأغيار غالبًا ما يرد عليك من أكدار الدنيا، وذلك أمرٌ لا بدَّ منه.

الحكمة الثالثة والثلاثون

«لا تستغربْ وقوعَ الأكدارِ ما دُمتَ في هذهِ الدَّارِ فإنها ما أبرزتْ إلا ما هو مُسْتَحَقٌ وصفَهَا وواجبُ نعتِهَا»[1]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الاستغراب: تصيير الشيء غريبًا حتى يتعجب منه والأكدار: كل ما يكدر على النفس ويؤلمها ومستحق وصفها ما تستحق أن توصف به وواجب نعتها ما يجب أن تنعت به.

قال بعضهم: الوصف يكون بالأمور اللازمة والنعت يكون بالعوارض الطارئة؛ فالأمور اللازمة كالبياض والسواد والطول والقصر والعوارض كالمرض والصحة والفرح والحزن وغير ذلك والمراد هنا بالأوصاف ما يتكرر وقوعه، كالموت والأمراض وما يقع كثيرًا وبالنعوت ما يقل وقوعه في العادة، كالفتن والهرج والزلازل لأنهم يقولون الأوصاف لوازم والنعوت عوارض، وقيل: شيء واحد وهو الأصح.

وقال: من آداب العارف ألا يستغرب شيئًا من تجليات الحق ولا يتعجب من شيء منها كائنة ما كانت جلالية أو جمالية فإن نـزلت به نوازل قهرية أو وقعت في هذه الدار أكدار وأغيار جلالية، فلا يستغرب وقوع ذلك؛ لأن تجليات هذه الدار جلُّها جلالية لأنها دار أهوال ومنـزل فرقة وانتقال.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «**أيها الناس إن هذه الدار دار التواء أي: هلاك لا دار استواء ومنـزل ترح أي: حزن لا منـزل فرح فمن عرفها لم يفرح لرخائها ولم يحزن لشقائها ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببًا وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي وإنها لسريعة التّوى وشيكة الانقلاب فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها لكربة آجلها ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها ولا تواصلوها، وقد أراد الله منكم اجتنابها فتكونوا لسخطه متعرضين ولعقوبته مستحقين**».

وقال الجنيد -رضي الله عنه: لست أستبشع مما يرد علي من العالم؛ لأني أصلت أصلًا، وهو أن الدار دارهم وغم وبلاء وفتنة، وأن العالم كله شر، ومن حكمه أنه يتلقاني بكل ما أكره فإن تلقاني بما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول.

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد جوعٌ قليل وعريٌ قليل وذلٌّ قليل وصبرٌ قليل، وقد انقضت عنك أيام الدنيا انتهى.

فلا تستغرب أيها العارف ما يقع بك أو لغيرك من الأكدار ما دمت مقيمًا في هذه الدار لأنها ما برز فيها
=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تستغرب وقوع الأكدار» الموجبة للأغيار، بل الأغيار في ذاتها أكدار «مادمت في هذه الدنيا، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها، وواجب نعتها» أي: وصفها المستحق ونعتها الواجب اللازم، فمن ضرورياتها وجود المكاره والمشاق فيها، وسيأتي التنبيه على حكمة ذلك بقوله، وإنما جعلها محلًا للأغيار، ومعدنًا لوجود الأكدار، تزهيدًا لك فيها.

ومن كلام جعفر الصادق ﷺ: «من طلب ما لم يخلق، أتعب نفسه ولم يرزق، قيل له: وما ذاك؟ قال: «الراحة في الدنيا».

فينبغي للمريد الصادق ألا يلتفت لذلك، ويجدّ في السير حتى تطلع عليه شمس المعرفة، فينمحي عن وجوده الأغيار، وتزول عنه الأكدار بمشاهدة العزيز الغفار.

الحكمة الرابعة والثلاثون

«ما توقَّفَ مطلبٌ أنتَ طالبُهُ بربِّكَ ولا تيسَّرَ مطلبٌ أنتَ طالبُهُ بنفسِكَ»[1]

= من التجليات الجلالية إلا ما هو مستحق أن تتصف به وواجبٌ أن تنعت به، فلا تستغرب شيئًا ولا تتعجب من شيء بل الواجب عليك أن تعرف الله في الجلال والجمال والحلوة والمرة، وأما إن كنت لا تعرفه إلا في الجمال فهذا هو مقام العوام والمعرفة في الجلال هو السكون والأدب والرضا والتسليم؛ فينبغي للفقير أن يكون كعشب السمار إذا جاءت حملة الوادي حنى رأسه، وإذا ذهبت رفع رأسه وكما لا تستغرب وقوع الأكدار بحيث لا تحزن، ولا تخف ولا تجزع كذلك لا تتعجب من وقوع المسار وهو الجمال بحيث لا تفرح ولا تبطر، فإن الجلال مقرون بالجمال والجمال مقرون بالجلال يتعاقبان تعاقب الليل والنهار.

والعارف يتلون مع كل واحد منهما لا يستغرب شيئًا، ولا يتعجب من شيء إذ كل ما يبرز من عنصر القدرة كله واحد وبهذا وقع التفريق بين الصادق والصديق؛ لأن الصديق لا يتعجب من شيء ولا يتردد في شيء وعد به بخلاف الصادق فقط فإنه مهما رأى شيئًا مستغربًا تعجب منه وإذا وعد بشيء قد يتردد في امتثاله.

وقد وصف الله تعالى السيدة مريم بالصديقية ولم يصف السيدة سارّة بها لأنها لما بشرت بالولد على وجه خرق العادة استغربت وقالت: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢]، فلذلك قالت لها الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [هود:٧٣]، بخلاف مريم فلم تتعجب وإنما سألت سؤال استفهام فقط أو سألت عن وقت ذلك أو كيفيته هل بالتزوج أو بغيره والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التوقف الحبس والتعذر والمطلب ما يطلب قضاؤه والتيسر التسهيل.

قلت: إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأردت أن تقضى لك سريعًا، فاطلبها بالله ولا تطلبها بنفسك، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها وسهل قضاؤها وإن طلبتها بنفسك صعب قضاؤها وتعسر أمرها ولا يتوقف ويُحبسُ أمرٌ طلبته بربك ولا يتيسر ويسهل أمر طلبته بنفسك. =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما توقف» أي: تعسر «مطلب» من مطالب الدنيا والآخرة «أنت طالبه بربك» أي: ملاحظًا في حال طلبه ربك، حاضر القلب معه، معتمدًا عليه في تيسير ذلك المطلب.

«ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك» بأن كنت غافلًا عنه معتمدًا على حولك وقوتك، فمن أنزل حوائجه إلى الله والتجأ إليه وتوكل في أمره كله عليه، كفاه كل مؤنة، وقرب عليه كل بعيد، ويسر له كل عسير، ومن سكن إلى علمه وعقله، واعتمد على حوله وقوته، وكله الله تعالى إلى نفسه وخذله، فلم تنجح مطالبه، ولم تتيسر مآربه.

ولما كان من أشرف المطالب أخذ المريد في سلوك الطريق خصصه من العموم لزيادة الاعتناء به، كما سوف يعلم من الحكمة التالية.

=

قال تعالى حاكيًا عن سيدنا موسى ﷺ: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له وكان من المتقين، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، أي: كافيه كل ما أهمه.

وعلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه فإذا جاء وقته تكون بإذن الله وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه فإذا تعذر عليه انقبض وتغير عليه فهذا ميزان من كان طلبه بالله وطلبه بنفسه فمن طلب حوائجه بالله قضيت معنىً وإن لم تقض حسًا ومن طلب حوائجه بنفسه خاب سعيه وضاع وقته وإن قضيت نهمته وحاجته.

وهاهنا ضابط يعرف به أهل العناية من أهل الخذلان وأهل الولاية من أهل الخسران؛ ذكره الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ فقال: إذا أكرم الله عبدًا في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله وستر عنه حظوظ نفسه وجعله يتقلب في عبوديته والحظوظ عنه مستورة مع جري ما قدر له ولا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها وإذا أهان الله عبدًا في حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته فهو يتقلب في شهواته وعبودية الله عنه بمعزل وإن كان يجري عليه شيء منها في الظاهر.

وقال: وهذا باب من الولاية والإهانة وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة؛ لأنه بالله فيها يأخذ ويترك انتهى. نقله الشيخ زروق في بعض شروحه.

والحاصل أن تصرفات العارف كلها لله وتصرفات غيره كلها بالنفس ولو كانت بالله فالعمل بالله يوجب القربة والعمل لله يوجب المثوبة، العمل بالله صاحبه داخل الحجاب في مشاهدة الأحباب، والعمل لله يوجب الثواب من وراء الباب، العمل بالله من أهل التحقيق والعمل لله من أهل التشريع، العمل لله من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، والعمل بالله من أهل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

الحكمة الخامسة والثلاثون

«من علامةِ النُّجْحِ في النِّهاياتِ الرجوعُ إلى الله في البداياتِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من علامات النُّجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات»؛ بداية المريد حال سلوكه، ونهايته حال وصوله، فمن صحح بدايته في الرجوع إلى الله والتوكل عليه والاستعانة به أن يوصله إليه لأعلى أعماله المعلولة، نجح في نهايته أي: حصل له الوصول، وأمن عليه من الرجوع من الطريق، ومن لم يصحح ذلك بما ذكرنا انقطع ورجع من حيث جاء، قال بعض العارفين: من ظن أنه يصل إلى الله بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله بنفسه، وكل إلى نفسه.

الحكمة السادسة والثلاثون

«من أشرقت بدايته أشرقت نهايته»(٢)

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النُّجح في الشيء هو بلوغ القصد، والمراد فيه ونجحت مطالبه إذا قضيت وبلغ منها ما أحب ونهاية الشيء تمامه وبدايته أوله.

قلت: إذا توجهت همتك أيها المريد إلى طلب شيء أي شيء كان وأردت أن ينجح أمره وتبلغ مرادك فيه وتكون نهايته حسنة وعاقبته محمودة فارجع إلى الله في بداية طلبه وانسلخ من حولك وقوتك وقل كما قال ﷺ: «إن يكن من عند الله يمضه؛ فلا تحرص عليه ولا تهتم بشأنه فما شاء الله كان وما لم يشأ ربنا لم يكن فلو اجمعت الأنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم يقدره الله لك لم يقدروا على ذلك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقدره الله عليك لم يقدروا على ذلك جفت الأقلام وطويت الصحف»، كما في الحديث: فإذا طلبت شيئًا وكنت فيه معتمدًا على الله ومفوضًا أمرك إلى الله تنظر ما سبق في علم الله، كان ذلك علامة نجح نهايتك وحصول مطلبك قضيت في الحس، أو لم تقض لأن مرادك مع مراد الله لا مع مراد نفسك قد انقلبت حظوظك حقوقًا لا تشتهي إلا ما قضى الله ولا تنظر إلا ما يبرز من عند الله قد فنيت عن حظوظك وشهواتك وإن طلبت شيئًا بنفسك معتمدًا على حولك وقوتك حريصًا على قضائها جاهدًا في طلبها كان ذلك علامة على عدم قضائها وخيبة الرجاء فيها وعدم نجح نهايتها، وإن قضيت في الحس وُكِّلَتْ إليها فتعبت بسببها ولم تعن على شئونها ومآربها وهذا كله مجربٌ صحيح عند العام والخاص وهذه الحكمة تتميم لما قبلها وشرح لها، والله تعالى أعلم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: إشراق البداية هو الدخول فيها بالله، وطلبها بالله والاعتماد فيها على الله مع السعي في أسبابها والاعتناء في طلبها قيامًا بحق الحكمة وأدبًا مع القدرة ويعظم السعي في السبب بقدر عظمة المطلب فبقدر المجاهدة تكون بعدها المشاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن المَجذوب ﷺ: لا تحسبوها رخيصة رآه وأكل المعشوق غالي، ما =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته بإضافة الأنوار والمعارف عليه وزوال كدورات النفوس الحائلة بينه وبين مولاه على وجه أتم، وعكسه بعكسه، فمن كان قليل الاجتهاد في بدايته لم يحصل له إشراق في نهايته، ولو فرض أنه فتح عليه كان على وجه أضعف من غيره، ويحتمل أن المعنى من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والالتجاء إليه، أشرقت نهايته بحصول الوصول إليه، فتكون هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما قبلها، وما قلناه أولًا أولى وأظهر».

الحكمة السابعة والثلاثون

«ما استُودِعَ من غيبِ السَّرائرِ ظهرَ في شهادةِ الظاهرِ»(١)

= تنحصد صابت الصيف، إلا ببرد الليالي، فمن رأيناه في بدايته جادًا في طلب الحق معرضًا عن الأنس بالخلق مستغرقًا في خدمة مولاه، ناسيًا لحظوظه وهواه، علمنا أن نهايته مشرقة وعاقبته محمودة، ومآربه مقضية ومن رأيناه مقصرًا في طلب مولاه، لم يخرج عن نفسه وهواه، علمنا أنه كاذب في دعواه فنهايته الحرمان، وعاقبته الخذلان، إلا أن يتداركه الكريم المنان، هذا في طريق الوصول إلى حضرة الحق، وأما إشراق البداية في طلب حوائج الدنيا أو المقامات أو المراتب أو الخصوصية مثلًا، فهو بالزهد فيها، والإعراض عنها والاشتغال بالله عنها.

قال الشيخ أبو الحسن: كنت أنا وصاحب لي نعبد الله في مغارة، ونقول في هذا الشهر يفتح الله علينا، في هذه الجمعة يفتح الله علينا، فوقف على باب المغارة رجل عليه سمات الخير؛ فقال: السلام عليكم فرددنا عليه السلام، وقلنا له: كيف أنت فنهض علينا، وقال: كيف يكون حال من يقول في هذا الشهر يفتح الله في هذه الجمعة يفتح الله لا فتح ولا فلاح هلا عبدنا الله كما أمرنا ثم غاب عنا ففهمنا من أين أخذنا فرجعنا على أنفسنا باللوم ففتح الله علينا انتهى بالمعنى. ذكره في «التنوير» فمن طلب الخصوصية كان عبد الخصوصية وفاته حظه من الله حتى يتوب ومن كان عبد الله نال حظه من العبودية وأدركته الخصوصية من غير التفات إليها ولا طلب، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ما استودع الله سبحانه في القلوب وجعله فيها من خير أو شر من نور أو ظلمة من علم أو جهل من رحمة أو قسوة من بخل أو شح أو كرم وسخاء وقبض وبسط ويقظة أو غفلة ومعرفة أو نكران أو غير ذلك من الأخلاق المحمودة أو المذمومة، لا بدَّ أن يظهر آثار ذلك على الجوارح من أدب وتهذيب وسكون وطمأنينة ورزانة وبذل وعفو أو طيش وقلق وغضب، وغير ذلك من الأحوال القلبية والأعمال القالبية.

قال ﷺ: «من سَرَّ سريرةً كساهُ الله رِدَاءَها»، فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب فمن أودع في سر غيبه معرفة مولاه لم يطلب من سواه ومن أودع في سر غيبه الجهل بمولاه تعلق بها سواه، وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن كما تقدم في قوله: «تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال»، =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما استودع في غيب السرائر» أي: في القلوب الغائبة أي: غير المشاهدة بالأبصار من المعارف والأنوار الإلهية، «ظهر في شهادة الظواهر» أي: في الظواهر المشاهدة أي: الحاضرة، فما استودعه الله تعالى في القلوب والسرائر من المعارف والأنوار، لا بدَّ أن يظهر أثره على الوجه والجوارح، وهذه علامة يعرف بها حال المريد السالك؛ لأن الظاهر مرآة الباطن، فيستدل بذلك من أراد صحبته والاجتماع به لينتفع به.

الحكمة الثامنة والثلاثون

«شتَّانَ بينَ من يَستدِلُ به أو يُستَدَلُ عليه المُستدلُ به عَرَفَ الحقَّ لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله والاستدلالُ عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه»[1]

=

فالأسرة تدل على السريرة، والكلام صفة المتكلم، وما فيك ظهر على فيك وكل إناء بالذي فيه يرشح وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلى بأسرار ذاته وأنوار صفاته أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزلي، فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها واقتضت الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها، فلما فرغت القدرة نورها في مظاهر الكون أسدلت عليها الحكمة رداء الصون فصارت الأكوان كلها نورًا في حجاب مستور.

ثم إن الحق سبحانه قسم الخلق على قسمين، وفرقهم فرقتين: قسم اختصهم بمحبته وجعلهم من أهل ولايته ففتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب فأشهدهم أسرار ذاته ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته، وقسم أقامهم لخدمته وجعلهم من أهل حكمته أسدل عليهم حجاب الوهم وغيب عنهم نور العلم والفهم فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور مع شدة الظهور فسبحان من أخفى سره بحكمته وأظهر نوره بقدرته.

فأما أهل المحبة وهم أهل الولاية والعرفان من أهل الشهود والعيان؛ فهم يستدلون بالنور على وجود الستور فلا يرون إلا النور وبالحق على وجود الخلق فلا يجدون إلا الحق وبقدرته على حكمته فوجدوا قدرته عين حكمته وحكمته عين قدرته فغابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه وأما أهل الخدمة من أهل الحكمة فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور وبالخلق على وجود الحق غابوا عنه في حال حضوره وحجبوا عنه بشدة ظهوره.

قال بعض العارفين: أثبت الله تعالى للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق وأثبت للخاصة نفسه فأثبتوا به المخلوق انتهى.

وأثبت الأمر وهو الوجود الفرعي من وجود أصله أي: ألحقه بأصله فإذا التحق الفرع بالأصل صار الجميع جبروتيًّا أصليًّا ويحتمل أن يكون معناهما واحدًا ويكون التقدير عرف الوجود الحقيقي لأهله

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«شتان» أي: بعد ما بين من «يستدل به» على الأشياء، وهم المرادون المجذوبون إليه الذين هم من أهل الشهود، إما ابتداء وإما بعد السلوك وهم العارفون، فإنهم لا يشهدون غير مولاهم ويستدلون به على الأشياء، «أو» بمعنى الواو «يستدل عليه»، وهم المريدون السالكون إلى الله تعالى؛ فأهل الله تعالى على قسمين:

١- مريدون.

٢- مرادون، وإن شئت قلت: مجذوبون، وهم أهل الشهود والسالكين.

فالمريدون السالكون في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار والأكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم، والحق غيبٌ عنهم، فلم يروه، فهم يستدلون بها عليه في حال ترقيهم.

والمرادون وهم المجذوبون، واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم، وتعرف إليهم فعرفوه، وانحجبت عنهم الأغيار، فهم يستدلون به عليها في حال تدليهم إن جذبوا ابتداء، أو بعد سلوكهم إن كانوا من أهله، وهم العارفون، فإنهم من أهل الجذب أيضًا لكن لشدة تمكنهم في أحوالهم لا يظهر عليهم، ولذا قيل: «نهاية السالك بداية المجذوب».

وورد: «**أعظم الناس جذبًا، الأنبياء والمرسلون**».

ذلك أن «المستدل به» على غيره «عرف الحق» وهو الوجود الواجب «لأهله» وهو الله تعالى أي: لم يثبت الوجود إلا له سبحانه، وأما الحوادث، فهي عدم محض، «فأثبت الأمر» وهم الحوادث العدمية «من وجود أصله»، وهو الله تعالى أي: جعل وجودهم مستفادًا من وجود الله تعالى الذي قابلهم وظهر فيهم، فوجدوا، وإلا فهم عدم محض في نظر أرباب الشهود، «والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه»، فالمستدل بغيره عليه على العكس مما

= وأثبت ذلك الأمر من أصله كقولك: عرفت هذا الحكم وأثبت به من أصله، والله تعالى أعلم.

وأما من يستدل عليه فلبعده عنه في حال قربه منه ولغيبته عنه في حال حضوره معه بعده الوهم وغيبه عدم الفهم وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه إذ هو أقرب إليك من حبل الوريد ومتى بعد حتى تكون الآثار الوهمية هي التي توصل إليه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، إذ أثر القدرة هو عينها فالصفة لا تفارق الموصوف إذ لا قيام لها إلا به ولا ظهور لها إلا منه وسيأتي له في المناجاة: إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ والله تعالى أعلم.

ذِكر؛ لأنه استدل بالمجهول على المعلوم، وبالعدم على الوجود، وبالأمر الخفي على الظاهر الجلي، وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب، «وإلا» نقل أنه مع عدم الوصول، «فمتى غاب»؟ أي: فلا يصح؛ لأنه: متى غاب «حتى يستدل عليه» بالأشياء الحاضرة؟

«ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟ أي: يستدل بها عليه؛ لأنه لا وجود لها معه عند أهل الشهود حتى توصل إليه، أما المحجوبون، فلا يرون إلا الأكوان، ويستدلون بها عليه وهم قسمان: عامة، وسالكون، لم يصلوا إلى مقام الشهود.

والمراد باستدلال المجذوب الذي حصلت له إفاقة، أنه حينئذ يلاحظ الغير، فيثبت وجوده بوجوده سبحانه، وثبوته بإثباته، وليس المراد أنه يستدل حينئذ بالدليل العقلي والنظر الفكري.

الحكمة التاسعة والثلاثون

«﴿لِيُنفِقْ ذو سعة من سعته﴾ [الطلاق: ٧]: الواصلون إليه[١] ﴿وَمن قُدِرَ عليه رزقه﴾[الطلاق: ٧]: السائرون إليه»[٢]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أما الواصلون إليه فلأنهم لما نفذت أرواحهم من ضيق الأكوان إلى فضاء الشهود والعيان، أو تقول: لما عَرَجَتْ أرواحهم من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت اتسعت عليها دائرة أرزاق العلوم وفتحت لها مخازن الفهوم، فأنفقوا من سعة غناهم جواهر العلم المكنون ومن مخازن كنوزهم يواقيت السر المصون فاتسع لهم ميدان المجال وركبوا أجياد البلاغة وفصاحة المقال فما أسرع الغنى لمن واجهته منهم العناية وما أعظم فتح من لَحَظَتْهُ منهم الرعاية إن لله رجالًا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا وهم أهل السر والحال.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: أما السائرون إلى الله فلأنهم باقون في ضيق الأكوان وفي عالم الأشباح مسجونون في سجن الوهم لم يفتح لهم شيء من مخازن الفهم مشغولون بجهاد نفوسهم ومعاناة تصفية قلوبهم مضيق عليهم في العلوم ومقتر عليهم في سائر الفهوم فإن جدّوا في السير وصلوا وانتقلوا من ضيق الأكوان ورحلوا وتبختروا في رياض العلوم ورفلوا فظفروا بما أملوا واستغنوا بعدها إن ملّوا وإن رجعوا من الطريق أو قصروا فقد خابوا وخسروا.

تنبيه: إن أردت أن يتسع عليك علم الأذواق فاقطع عنك مادة الأوراق فمادمت متّكلًا على كنز غيرك لا تحفر على كنزك أبدًا، فاقطع عنك المادة وافتقر إلى الله تفيض عليك المواهب من الله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك.

وقد قال الشيخ الدباس لتلميذه ابن ميمونة حين تأخر عنه الفتح فرصده فوجده يطالع رسالة القشيري: اطرح كتابك واحفر في أرض نفسك يخرج لك ينبوع وإلا فاذهب عني انتهى وبالله التوفيق.

«لينفق ذو سعة» الواصلون إليه أي: إشارة إلى حال الواصلين إليه تعالى، فإنهم لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد وكمال الاستبصار، اتسعت مسافة نظرهم، وأُفيض عليهم علوم وأسرار إلهية، فصاروا يمدون الغير، ويتصرفون في عوالمهم الباطنة كيف شاءوا، ومن «قدر عليه رزقه» السائرون إليه أي: إشارة إلى حال السائرين إليه، فهم مقدورٌ عليهم أرزاق العلوم والفهوم، محبوسون في مضيق الخيالات والرسوم، ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المقدر الضيق على غيرهم، ويتصرفون في عوالمهم على قدر ما أعطاهم الله تعالى.

يقول السياجي يغفر الله له:

في العبارتين تأخير الفاعل، في الأولى الواصلون إليه وفي الثانية السائرون إليه، وفي توضيح القول كأن يقول: لينفق الواصلون إليه، ذو سعة منهم من سعة، ومن قدر عليه من السائرين إليه رزقه فلينفق مما آتاه الله بإثبات أمر إتيان الله باعتباره مما قدره الله، ولكنه ﷺ اكتفى بحفظ المريد للقرآن وهو نوع من التربية الخاصة لتذكيره وتنمية ملكة حفظه واستنباطه.

الحكمة الأربعون

«اهتدى الراحلون إليه بأنوار التَّوجُّه والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم؛ لأنهم لله لا لشيءٍ دونه: ﴿قُلِ الله ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]» (١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أنوار التوجه: هي أنوار الإسلام والإيمان وأنوار المواجهة: هي أنوار الإحسان أو تقول: أنوار التوجه: أنوار الطاعة الظاهرة والباطنة وأنوار المواجهة هي أنوار الفكرة والنظرة أو تقول: أنوار التوجه: أنوار الشريعة والطريقة وأنوار المواجهة: أنوار الحقيقة أو تقول: أنوار التوجه: أنوار المجاهدة والمكابدة وأنوار المواجهة: هي أنوار المشاهدة والمكالمة.

وبيان ذلك: أن الحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليه أولًا بنور حلاوة العمل الظاهر وهو مقام الإسلام فيهتدي إلى العمل ويفنى فيه ويذوق حلاوته ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأُنس بالله والتوحش مما سواه فيهتدي إليه ويفنى فيه ويذوق حلاوته ويتمكن من المراقبة وهذا النور أعظم من الأول وأكمل ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة وهو عمل الروح وهو أول نور المواجهة فتأخذه الدهشة والحيرة والسكرة فإذا أفاق من سكرته وصحا من جذبته وتمكن من الشهود وعرف الملك المعبود ورجع إلى البقاء كان لله وبالله فاستغنى عن النور بمشاهدة نور النور لأنه صار عين النور فصار مالكًا للأنوار بعد أن كانت مالكة له لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها فلما وصل صار عبدًا لله حرًّا مما سواه ظاهره عبودية وباطنه حرية.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«اهتدى الراحلون» أي: السائرون «إليه بأنوار التوجه» أي: الأنوار الحاصلة من العبادات والرياضات التي توجهوا بها إلى حضرة المولى، فإن المجاهدة بحسب العادة يحصل منها أنوار في القلوب يهتدون بها إلى الله تعالى حتى يصلوا إليه، «والواصلون، لهم أنوار المواجهة» أي: الأنوار التي واجهتهم من حضرة الرب أي: أفيضت عليهم حتى عرفوه سبحانه، «فالأولون للأنوار» أي: عبيد لها، ومحتاجون إليها للتوسل بها إلى مطلوبهم، «وهؤلاء» أي: الواصلون، «الأنوار لهم» أي: ثابتة لهم من غير معاناة ومشقة مع فنائهم عنها بربهم، «لأنهم لله، لا لشيء دونه».

قال تعالى: ﴿قُلِ اللهُ﴾، ولا تحل إلى أنوار ولا غيرها ﴿ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فإفراد التوحيد بعد فناء الأغيار، هو حق اليقين، ورؤية ما سوى الله خوض ولعب، وذلك من صفات المحجوبين.

الحكمة الواحدة والأربعون

«تَشَوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ من العيوب خيرٌ من تشوُّفُكَ إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوبِ»(١)

= والحاصل أن المريد مادام في السير فهو يهتدي بأنوار التوجه مفتقرًا إليها لسيره بها؛ فإذا وصل إلى مقام المشاهدة حصلت له أنوار المواجهة فلم يفتقر إلى شيء؛ لأنه لله لا لشيء دونه.

فالراحلون وهم السائرون للأنوار لافتقارهم إليها وفرحهم بها وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم لاستغنائهم عنها بالله فهم لله وبالله لا لشيء دونه.

ثم تلا الشيخ هذه الآية على طريق أهل الإشارة ﴿قُلِ اللهُ﴾ [الأنعام:٩١]، بقلبك وروحك وغب عما سواه، ﴿ثُمَّ ذَرْهُم﴾ أي: الناس، أي: اتركهم، ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]، أي: يخوضون في السوى لاعبين في الهوى وقد اعترض بعض المفسرين على الصوفية استشهادهم بهذه الآية ولم يفهم مرادهم، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:١٦٠].

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: تشوفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب كالحسد والكبر وحب الجاه والرياسة وهَم الرزق وخوف الفقر وطلب الخصوصية وغير ذلك من العيوب والبحث عنها والسعي في التخلص منها أفضل من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد وما يأتي به القدر من الوقائع المستقبلة وكالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له لأن تشوفك إلى ما بطن من العيوب سبب في حياة قلبك وحياة قلبك سبب في الحياة الدائمة والنعيم المقيم والاطلاع على الغيوب إنما هو فضول وقد يكون سببًا في هلاك النفس كاتصافها بالكبر ورؤية المزية =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«تشوقك» أيها المريد «إلى ما بطن فيك من العيوب» النفسانية، كالرياء، وسوء الخلق، والمداهنة، وحب الرياسة، والجاه أي: توجه همتك إلى زوال ذلك بالرياضة والمجاهدة، وطلب التخلص منه، ولا يكون في الغالب إلا على يد شيخ كامل ناصح «خير من تشوقك إلى ما حجب» عنك «من الغيوب» من خفايا القدر، ولطائف العبر، والأسرار الإلهية، والمعارف اللدنية، والكرامات الكونية؛لأن ذلك حظ نفسك، وليس لمولاك شيء معه، فلا تقصدها بأعمالك، ولا تشغل قلبك بها، ولا تركن إلى ما ظهر لك منها، فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة، ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحق مولاك، أولى بك من أن تكون بحق نفسك.

الحكمة الثانية والأربعون

«الحقُّ ليس بمحجوبٍ عنكَ إنما المحجوبُ أنتَ عنِ النظرِ إليه إذ لو حجبه شيءٌ لستره ما حجبَهُ ولوْ كان له ساترٌ لكان لوجوده حاصرٌ وكل حاصرٍ لشيءٍ فهو له قاهرٌ» ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] (١)

=

على الناس.

اعلم أن العيوب ثلاثة: عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الروح؛ فعيوب النفس: تعلقها بالشهوات الجسمانية كطيب المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح وشبه ذلك.

وعيوب القلب: تعلقه بالشهوات القلبية كحب الجاه الرياسة والعز والكبر والحسد والحقد وحب المنـزلة والخصوصية وشبه ذلك مما يأتي إن شاء الله في أوصاف البشرية.

وعيوب الروح: تعلقها بالحظوظ الباطنية كطلب الكرامات والمقامات والقصور والحور وغير ذلك من الحرف.

فتشوف المريد إلى شيء من ذلك كله قادح في عبوديته مانع له من القيام بحقوق ربوبيته، فاشتغاله بالبحث عن عيوبه النفسانية والقلبية والروحانية وسعيه في التطهير من جميع ذلك أولى من تشوفه إلى ما حجب عنه من علم الغيوب، كما تقدم وبالله التوفيق.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الحق تعالى محال في حقه الحجاب فلا يحجبه شيء؛ لأنه ظهر بكل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء فلا ظاهر معه ولا موجود في الحقيقة سواه فهو ليس بمحجوب عنك وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه لاعتقادك الغيرية وتعلق قلبك بالأمور الحسية فلو تعلق قلبك بطلب المولى وأعرضت بالكلية عن رؤية السوى لنظرت إلى نور الحق ساطعًا في مظاهر الأكوان وصار ما كان محجوبًا عنك بالوهم في معد الشهود والعيان؛ فالناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون وكلهم في البحر ولا يشعرون.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الحق» تعالى «ليس بمحجوب» أي: ليس الحجاب وصفا له سبحانه «وإنما المحجوب» أي: المتصف بالحجاب «أنت» بصفاتك النفسانية «عن النظر إليه»، فإن أردت الوصول إليه والدخول في حضرته، فابحث عن عيوب نفسك وعالجها تصل إليه وتشاهده ببصيرتك، ثم استدل على نفي الحجاب عن الرب بقوله: «إذ لو حجبه شيء، لستره ما حجبه»، ودفع بذلك ما يتوهم من عدم استحالة الحجاب في حقه تعالى؛ لأن الحجاب إنما يتخذه العظماء والرؤساء، فهو ينبأ عن الرفعة ويشعر بالعظمة، فمن أين جاء النقص؟ وحاصل الدفع أنه لو حجبه شيء كما هو شأن العظماء لستره، ولو كان له ساتر «لكان لوجوده» أي: ذاته «حاصر»، لاستلزام الستر انحصار المستور فيه، «وكل حاصر لشيء فهو له قاهر»، لأنه يمنعه مما وراءه ويقصره على محله ويجعله في أسر قبضته وتحت حكمه، وذلك لا يصح في حقه تعالى لقوله في كتابه ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[الأنعام:١٨]، فوقية مكانه وجلاله، لا مكان، إن قلت: كيف جعل الحجاب ملزومًا والستر لازمًا، مع أن الحجب هو الستر؟

قلت: معنى الحجب إنما يشعر في العرف بما تقدم من الرفعة والعظمة، ولا يشعر بحصر المحجوب، ومعنى الستر على العكس، فهو الذي يلزمه مع انحصار المحجوب، فجعل لازمًا في الشرطية الأولى ليجعل ملزومًا في الثانية.

والمعنى: أنا لو نظرنا إلى ما تقتضيه عظمته سبحانه من ثبوت الحجاب لكان له ساتر، فتغاير المقدم والتالي بهذا التأويل.

يقول السياجي غفر الله له: كان أولى من هذا كله لو قال ﷺ: «لحق ليس بمحجوب بحجاب؛ لأنه ليس كمثله شيء».

= وسمعت شيخنا ﷺ يقول: والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم والوهم أمر عدمي لا حقيقة له انتهى.

إذ لو حجبه تعالى شيء حسي لستره ذلك الحجاب ولو كان له ساتر حسي لكان لوجوده حاصر إذ محال أن يستره من جميع الوجوه ولا يحصره وكل حاصر لشيء فهو له قاهر كيف، والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، أي: لأنهم في قبضته وتحت تصريف قدرته وتخصيص إرادته ومشيئته والفوقية عبارة عن رفعة الجلال والمكانة لا المكان كما يقال: السلطان فوق الوزير والسيد فوق عبده والمالك فوق المملوك وغير ذلك مما يثبت الكبرياء وينفي سمات الحدوث، والله تعالى أعلم.

الحكمة الثالثة والأربعون

«اخرُجْ من أوصافِ بشريَّتِكَ عن كلِّ وصفٍ مُناقضٍ لعبوديَّتِكَ لتكونَ لنداءِ الحقِّ مُجيبًا ومن حضرتِهِ قريبًا»[١]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«اخرج» بالرياضات والمجاهدات «من أوصاف بشريتك» المذمومة، سواء كانت تلك الأوصاف ظاهرة وهي القائمة بالجوارح، كغيبة ونميمة، وقتل وصلب، أو باطنة، وهي القائمة بالقلب، ككبر وعجب ورياء وسمعة وحقد وحسد وحب جاه ومال.. إلى غير ذلك.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أوصاف البشرية هي الأخلاق التي تناقض خلوص العبودية ومرجعها إلى أمرين:

الأول: تعلقُ القلب بأخلاق البهائم، وهي شهوة البطن والفرج وما يتبعهما من حب الدنيا وشهواتها الفانية قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

الثاني: تخلُّقه بأخلاق الشياطين كالكبر والحسد والحقد والغضب والحدة، وهي القلق والبطر، وهي خفة العقل والأَشَرُّ وهو التكبر وحب الجاه والرياسة والمدح والقسوة والعطاء والفظاظة والغلظة وتعظيم الأغنياء واحتقار الفقراء وكخوف الفقر وهم الرزق والبخل والشح والرياء والعجب وغير ذلك مما لا يُحصى حتى قال بعضهم: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات، وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي كتابًا في عيوب النفس وأدويتها ونظمه الشيخ زروق في نحو ثمانمائة بيت.

ومن ألقاه الله إلى شيخ التربية فلا يحتاج إلى شيء سوى الاستماع والاتباع فإذا خرج المريد من أخلاق البهائم تخلق بأخلاق الروحانيين كالزهد والورع والقناعة والعفة والغنى بالله والأنس به، وإذا خرج من أخلاق الشياطين تخلق بأخلاق المؤمنين أو بأخلاق الملائكة كالتواضع وسلامة الصدور والحلم والسكينة والرزانة والطمأنينة والسهولة والليونة والخمول والاكتفاء بعلم الله والشفقة والرحمة وتعظيم الفقراء والمساكين وأهل النسبة وجميع الأمة والكرم والسخاء والجود والإخلاص والصدق والمراقبة والمشاهدة والمعرفة، فإذا تخلّق العبد بهذه الأخلاق وتحقق بها ذوقًا بعد أن تخلص من أضدادها كان عبدًا خالصًا لمولاه حرًّا مما سواه وكان لندائه مجيبًا، ومن حضرته قريبًا فإذا قال له ربه: يا عبدي! قال له: يا رب! فكان صادقًا في إجابته لصدق عبوديته بخلاف ما إذا كان منهمكًا في شهواته الظاهرة والباطنة كان عبدًا لنفسه وشهواته، فإذا قال: يا رب كان كاذبًا إذ من أحب شيئًا، فهو عبد له وهو لا يحب أن تكون عبدًا لغيره وإذا تخلص من رق الشهوات والحظوظ كان أيضًا قريبًا من حضرة الحق بل عاكفًا فيها إذ ما أخرجنا عن الحضرة إلا حبُّ هذه الخيالات الوهمية.

واعلم أن هذه الأوصاف البشرية التي احتجبت بها الحضرة إنما جعلها الله منديلًا لمسح أقذار القدر كالنفس والشيطان والدنيا فجعل الله النفس والشيطان منديلًا للأفعال المذمومة وجعل البشرية منديلًا للأخلاق الدنيئة وما ثم إلا مظاهر الحق وتجليات الحق وما ثم سواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كانت أوصاف البشرية شاملة للأوصاف المحمودة كالطاعة والإيمان، وهي غير مرادة، أبدل منها قوله: «عن كل وصف مناقض لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيبًا»؛ لأنك إذا خرجت عن تلك الأوصاف المذمومة اتصفت بمحاسن الصفات، كالتواضع لله، والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والخوف منه، والإخلاص في عبوديته، فحينئذ يناديك نداء معنويًا باسم العبد فيقول لك: يا عبدي، فتجيبه بقولك: لبيك، فتكون صادقًا في إجابتك، لفقد الصفات منك التي تنافي العبودية، وتقتضي الربوبية، وتكون أيضًا «من حضرته قريبًا» فتحفظ من الأوزار، وتتيسر لك الأعمال، وتتلذذ بها.

والفرق بين المحفوظ والمعصوم، أن المعصوم لا يلم بذنب ألبتة، والمحفوظ قد تحصل له زلات، ولكن لا يكون منه إصرار، بل يتوب من قريب.

واعلم أن التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل هو حقيقة السلوك عندهم.

ولا يتم ذلك إلا لمن وفقه الله لمعرفة نفسه، وما ركبت عليه من مذام الصفات؛ لأن من عرف ذلك منها، لا يزال متهمًا لها، مسيئًا ظنه بها، آخذًا حذره منها، وإلا وقع فيها يسخط مولاه من حيث لا يشعر.

الحكمة الرابعة والأربعون

«أصلُ كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ الرضا عن النفسِ، وأصلُ كُلِّ طاعةٍ ويقظةٍ وعِفَّةٍ عدمُ الرضا منكَ عنها، ولأنْ تصحَبَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ من أن تصحبَ عالمًا يرضى عن نفسه، فأيُّ علمٍ لعالمٍ يرضى عن نفسِهِ، وأيُّ جهلٍ لجاهلٍ لا يرضى عن نفسِهِ»[١]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ابحث أيها المريد! عن مساوئك، واتهم نفسك ولا تستحسن شيئًا من أحوالها؛ فإنك إذا رضيت عنها واستحسنت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر وحجبتك عن الحضرة وأنت تنظر.
قال أبو حفص الحداد: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغرورًا، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها؛ فقد أهلكها وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣] انتهى.
وقال السري السقطي: من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يروح ويغدو في لاش، والعاقل عن عيوبه فتّاش، انتهى.
فابحث يا أخي عن عيوبك إن أردت نصح نفسك، فإذا بحثت عن عيوبها وفضحت عوراتها تخلصت وتحررت وتحققت ودخلت الحضرة واتسعت لك النظرة واشتكت لك الفكرة.
وكان شيخ شيخنا يقول: لعنة الله على من ظهرت له عورة فلم يفضحها، وكان أيضًا كثيرًا ما يوصي =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أصل كل معصية» أي: مخالفة لما أمر الله به ونهى، «وغفلة» للقلب عن حضرة الرب، «وشهوة» نفسانية، وهي التعلق بما يشغل عن الله، «الرضا عن النفس»، بإجماع العارفين وأرباب القلوب؛ لأن الرضا عنها يوجب تغطية عيوبها ومساوئها، ويصير قبيحها حسنًا، فمن رضي عن نفسه استحسن حالها وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة عن الله، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور عليه حينئذ دواعي الشهوة وتغلبه، إذ ليس عنده من المراقبة ما يدفعها، ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة.

«وأصل كل طاعة» أي: موافقة للأمر والنهي، «ويقظة» أي: دخول في حضرة الرب وتنبه لما يرضيه، «وعفة» أي: علو همة عن الشهوات، «عدم الرضا منك عنها»، فإن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها، ومن كان بهذا الوصف كان متنبهًا متيقظا للطوارق والعوارض، وبالتيقظ يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة، فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة، فيتصف حينئذ بالعفة، وإذا اتصف بذلك كان متجنبًا لكل ما نهى الله عنه، محافظًا على جميع ما أمر به، وذلك معنى طاعة الله تعالى، ولما كان الرضا عن النفس شأن من يتعاطى العلوم الظاهرية التي لا تدل على عيوب النفس نهى المصنف ﷺ عن صحبتهم ومخالطتهم، فقال: «ولأن» أي: والله لأن «تصحب» أي: المريد

=

بعدم المراقبة للناس وعدم المبالاة بهم إذ لا يتخلص من دقائق الرياء إلا بإسقاطهم من عينه وسقوطه هو من عينهم، ومن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلص.

وقال: إذ صحبة من لا يرضى عن نفسه خير محض لتحققه بالإخلاص فيسري ذلك في الصاحب حتى يتحلى بالإخلاص ويصير من جملة الخواص، وصحبة من يرضى عن نفسه شر محض ولو كان أعلم أهل الأرض؛ لأن الطباع تسرق الطباع إذا لجهل الذي يقرب للحضرة أحسن من العلم الذي يبعد عن الحضرة.

ولذلك قال بعض العارفين: أشد الناس حجابًا عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد لوقوفهم مع علمهم وعبادتهم وزهدهم والجهل الذي يوصل إلى الله علم على الحقيقة والعلم الذي يحجب عن الله جهل على الحقيقة.

وقال: إذ بعدم الرضا عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقها فصار عبدًا حقيقة لله فحينئذ أحبه سيده واصطفاه لحضرته واجتباه لمحبته وأطلعه على مكنون علمه فكان أعلم خلقه والله تعالى أعلم.

وإذا تخلص العبد من حظوظه وأوصاف بشريته قَرُبَ من حضرة ربه لصحة قلبه وإشراقه بنور ربه ثم امتحى وجوده في وجود محبوبه وشهوده في شهود معبوده.

«جاهلًا» بالعلوم الظاهرية «لا يرضى عن نفسه»، بأن يسخط عليه ويعتقد نقصها، «خير لك من أن تصحب عالمًا» بذلك «يرضى عن نفسه»؛ لأن صحبة من يرضى عن نفسه وإن كان عالمًا شر محض لك؛ لأن الصحبة تؤثر فتكتسب منه هذا الوصف الخبيث، فصار علمه غير نافع لك في تهذيب نفسك وجهله الذي أوجب رضاه عن نفسه ضار لك غاية الإضرار، وكأنه إذ فاته العلم بعيوب نفسه حتى رضي عنها لا علم عنده، فإذا قال: «فأي علم لعالم يرضى عن نفسه».

وصحبة من لم يرض عن نفسه، وإن كان جاهلًا خير محض، وفيها كل الفائدة؛ لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله، فصار جهله غير ضار لك، وعلمه الذي أوجب عدم رضاه عن نفسه نافعًا لك غاية النفع، ولأنه إذا علم بعيوب نفسه حتى لم يرض عنها لا جهل عنده، ولذا قال: «وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه!»؛ لأنه إذا حصل له هذا العلم صار لا جهل عنده حتى يتضرر به مخالطة، فتكون صحبته خيرًا محضًا، فالتنوين في قوله علمٌ وجهلٌ للتنويع أي: فأي علمٍ نافعٌ، وأي جهلٍ ضارٌّ.

الحكمة الخامسة والأربعون

«شعاعُ البصيرةِ يُشهدُكَ قربَهُ منكَ وعينُ البصيرةِ تُشْهِدُكَ عدمَكَ لوُجُودِهِ وحقُّ البصيرةِ يُشهدُكَ وجودَهُ لا عدمَكَ ولا وجودَكَ»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: البصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب فالبصيرة ترى المعاني اللطيفة النورانية والبصر يرى المحسوسات الكثيفة الظلمانية الوهمية.

ثم البصيرة باعتبار إدراك نور المعاني اللطيفة على خمسة أقسام: قسم فسد ناظرها فعَمِيَتْ فأنكرت نور الحق من أصله، وهذه بصيرة الكفار قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وقسم صح ناظرها لكنها مسدودة لضعف ناظرها لمرض أصابه؛ فهي تقر بالنور لكنها لا تقوى على مشاهدته ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها، وهي لعامة المسلمين، وقسم صح ناظرها، وقوي شيئًا ما حتى قرب أن يفتح عينه لكن لشدة الشعاع لم يطق أن يفتح عينه فأدرك شعاع النور قريبًا منه وهو العامة المتوجهين ويسمى هذا المقام شعاع البصيرة وقسم قوي ناظرها ففتح عين بصيرته فأدرك النور محيطًا به حتى غاب عن نفسه بمشاهدة النور وهذا لخاصة المتوجهين ويسمى هذا المقام: عين البصيرة وقسم صحت بصيرته واشتد نورها فاتصل نورها بنور أصلها فلم تر إلا النور الأصلي، وأنكرت أن يكون ثَمَّ شيءٌ زائدٌ على نور الأصل كان الله، ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، ويسمى هذا: حق البصيرة.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«شعاع البصيرة»، ويعبر عنه بنور العقل، وبعلم اليقين، «يشهدك قربه منك، وعين البصيرة»، ويعبر عنه بنور العلم وبعين اليقين، «يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة»، ويعبر عنه بنور الحق وبحق اليقين، «يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك»، والحاصل أن السالك يهتف على قلبه أنوار إلهية يعبر عنها بهذه العبارات، ويترتب على كل واحد ثمرات وفوائد.

قال بعضهم: «ولا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه» فعند ذلك تذوب النفس وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها، وسكون وهجها وغبارها، وبين المصنف ﷺ أن الذي ينكشف بالنور الأول قرب الله منك، وثمرة ذلك ونتيجته مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. والذي ينكشف بالثاني عدمية كل موجود في وجود الحق تعالى، فيشهد الأكوان عدمًا فلا يعبأ بها، ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية، والوجود الحقيقي له سبحانه، وثمرة ذلك ألا يبقى في نظرك ما تستند إليه

=

ووجه تسميته بشعاع البصيرة أن صاحبها لما كان يرى وجود الأكوان انطبعت في مرآة بصيرته فحجبته عن شهود النور من أصله لكن لما رقت كثافتها وتنورت دلائلها رأى شعاع النور من ورائها قريبًا منه فأدرك الشعاع، ولم يدرك النور، وهذا هو نور الإيمان وهو مقام علم اليقين ووجه تسمية عين البصيرة أن البصيرة لما صحت وقويت انفتحت عينها فرأت النور محيطًا ومتصلًا بها فسميت عين البصيرة لانفتاحها وإدراكها ما خفي على غيرها وهذا مقام عين اليقين ووجه تسمية حق البصيرة أن البصيرة لما أدركت الحق من أصله وغابت عن نور الفروع بنور الأصول سميت: حق البصيرة لما أدركته من الحق وغابت عن شهود الخلق وهذا مقام حق اليقين فشعاع البصيرة هو نور الإيمان لأهل المراقبة وعين البصيرة هو نور الإحسان لأهل المشاهدة وحق البصيرة هو نور الرسوخ والتمكين لأهل المكالمة أو تقول: شعاع البصيرة نور علم اليقين وعين البصيرة هو نور عين اليقين وحق البصيرة هو نور حق اليقين فعلم اليقين لأهل الدليل والبرهان وعين اليقين لأهل الكشف والبيان وحق اليقين لأهل الشهود والعيان، مثال ذلك كمن سمع بمكة مثلًا ولم يرها فهذا عنده علم اليقين، فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها فهو عين اليقين فإذا دخلها وتمكن فيها فهو حق اليقين وكذلك طالب الحق فمازال من وراء الحجاب فانيًا في الأعمال؛ فهو في علم اليقين فإذا استشرف على الفناء في الذات ولم يتمكن من الفناء فهو عين اليقين فإذا رسخ وتمكن فهو في حق اليقين أو تقول: شعاع البصيرة لأهل عالم الملك وعين البصيرة لأهل عالم الملكوت وحق البصيرة لأهل عالم الجبروت أو تقول: شعاع البصيرة لأهل الفناء في الأعمال وعين البصيرة لأهل الفناء في الذات وحق البصيرة لأهل الفناء في الفناء؛ فشعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك أي: يوجب لك شهود قرب نور الحق منك.

ولا ما تستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام، والذي ينكشف بالثالث الذات المقدسة وثمرة ذلك الفناء الكامل الذي هو دهليز البقاء، فيفنى عن فنائه وعدمه استهلاكًا في وجود سيده، وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الإلهية؛ فإذا ترقى عن ذلك حل في مقام البقاء.

قال صاحب العوارف: «والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق والفاني محجوب بالحق عن الخلق».

الحكمة السادسة والأربعون

«كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كان الله ولا شيء معه»(٢)، يعني أن هذا حال من هو متحقق بمقام الفناء، وهو عدم رؤيته غير مولاه، «وهو الآن على ما عليه كان» أي: إن الأمر الذي حصل لذلك المشاهد وهو أن الوجود الحقيقي له سبحانه وتعالى وغيره لا وجود له، وهو الوصف المتحقق له سبحانه في الواقع، وعدم إدراك ذلك له قبل ذلك، إنما هو لوجود الحجاب.

فقوله: «وهو الآن» أي: عند مشاهدة هذا السالك له على هذا الوصف «على ما عليه كان» أي: هو متصل به في الواقع، وقيل: إدراك هذا المشاهد له، لكن عدم إدراكه ذلك إنما هو للحجاب القائم به.

الحكمة السابعة والأربعون

«لا تَتَعَدَّ نِيَّة هِمَّتِكَ إلى غيرِه فالكريمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمالُ»(٣)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إن عامة المسلمين عميت بصيرتهم والتحقيق هو ما تقدم من التفصيل وأنها مسدودة فقط مع صحة ناظرها بخلاف بصيرة الكفار فإنها عمياء، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده لا وجودك؛ لأنك مفقود من أصلك ولا عدمك إذ لا يعدم إلا ما ثبت له وجود ولم يكن مع الله موجود «**كان الله ولا شيء معه**» وهو الآن على ما عليه كان، وهذه الزيادة وإن لم تكن في الحديث لكن معناها صحيح إذ التغير عليه تعالى محال.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩).

(٣) قال الشيخ ابن عجيبة: إذا تعلقت همتك أيها المريد بشيء تريد تحصيله فردها إلى الله ولا تتعلق بشيء سواه؛ لأنه سبحانه كريم على الدوام ونعمه سحاء على مر الليالي والأيام والكريم لا تتخطاه الآمال.
وقد قالوا في تفسير اسمه تعالى الكريم: هو الذي إذا سُئل أعطى ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى وإذا جفى عفا وإذا عاتب ما استقصى؛ فهذا من كمال كرمه وتمام إحسانه وإنعامه.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تتعدي نية همتك» أيها السالك «إلى غيره»، بأن تتوجه إلى غيره لتحصيل حاجتك، بل اطلب حوائجك منه، «فالكريم لا تتخطاه الآمال»، فالهمة العالية تأنف من رفع حوائجها إلى غير كريم، ولا كريم على الحقيقة إلا الله، إذ الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد أوفى، وإذا أعطى زاد على ما انتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإذا جُفي عاتب، وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، وهذه الصفات لا يستحقها حقيقة إلا هو؛ فينبغي ألا تتخطاه آمال المؤملين إلى غيره.

واعلم أن الطلب من الخلق المنافي للعبودية هو الطلب منهم على وجه الاعتماد عليهم، والاستناد إليهم، والغفلة في حال الطلب عن الله تعالى، أما الطلب منهم من حيث كونهم أسبابًا ووسائط مع الاعتماد في نيل المطلوب على الله ورؤية أنه المعطي فليس منافيًا للعبودية.

الحكمة الثامنة والأربعون

«لا ترفعنَّ إلى غيره حاجةً هُوَ مُورِدُهَا عليكَ، فكيفَ يرفعُ غيره ما كانَ هُوَ له واضِعًا؟ مَنْ لا يستطيعُ أنْ يرفعَ حاجةً عنْ نفسه فكيفَ يستطيعُ أنْ يكونَ لها عن غيرِه رافعًا»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قال الشيخ ابن عجيبة: قد علمتَ أن ما سوى الحق خيال وهمي لا حقيقة لوجوده، فإذا أنزل الله بك حاجة كفاقة أو شدة أو غير ذلك من العوارض فأنزلها بالله واجعلها تحت مشيئة الله وغب عنها في ذكر الله ولا تلتفت إلى ما سواه تعلقًا ولا تملقًا ففي الحديث: «مَنْ لَمْ يسألِ الله يغضبْ عليهِ».

وقال أبو علي الدقاق: من علامة المعرفة ألا تسأل حوائجك كلها إلا من الله.

وقال: من قلة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنـزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره مع علمه تعالى بإحسانه وبره وعدم انفكاك لطفه عن قدره.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: أيست من نفع نفسي لنفسي؛ فكيف لا أيأس من نفع غيري لها ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي؟

وقال بعض العارفين من المكاشفين ﷺ: قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم لا تُبْدِيَنَّ فاقةً فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك وخروجك عن حد عبوديتك، إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع إليَّ منها وتتضرع بها لدي وتتوكل فيها علي سبكتك بالفاقة لتصير بها ذهبًا خالصًا؛ فلا تزيغن بعد السبك وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسي بالغنى، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتي وحسمت أسبابك من أسبابي طردًا لك عن بابي؛ فمن وَكَّلْتُهُ إليَّ مَلَكَ، ومن وَكَّلْتُهُ إليه هَلَكَ.

وقال ابن عجيبة: من عجز عن إصلاح نفسه؛ فكيف يقدر أن يصلح غيره ضعف الطالب والمطلوب.

قال بعضهم: من اعتمد على غير الله؛ فهو في غرور؛ لأن الغرور ما لا يدوم ولا يدوم شيء سواه وهو =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا ترفعن» أيها المريد «إلى غيره حاجة» أي: فاقة أو نازلة نزلت بك أي: لا تتوجه في زوالها إلى غيره وتطلب منه أن يرفعها عنك، فإن تلك الفاقة أو النازلة «هو موردها عليك» أي: منـزلها بك «فكيف يرفع غيره ما كان» هو له «واضعًا»؟ إذ هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، وأيضًا «من لم يستطع أن يرفع حاجة عن نفسه» إذا نزلت به، «فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا» أي: فيستحيل ذلك لثبوت عجزه وضعفه.

وحاصله أن المرفوع إليه له حوائج لم يتوصل إليها، ولو كان ملكًا ولا شك أن نفسه أحب إليه من غيره، فلو كان له قدرة على نفع غيره لنفع نفسه، فلزم عجزه عن نفع غيره، إذ ما بعد العجز عن نفع النفس عجز، فيكون من قلة العقل تعلقك في حاجتك بمن هو محتاج مثلك.

الحكمة التاسعة والأربعون

«إِنْ لم تُحسنْ ظنَّك بهِ لأجلِ وصفه حُسنَ ظنُّكَ به لأجلِ معاملتهِ معكَ فهلْ عَوَّدَكَ إلاّ حُسنًا؟ وهلْ أسدَى إليكَ إلَا مِننًا؟»(١)

= الدائم القديم الذي لم يزل ولا يزال وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد إلا على من يدوم لك منه العطاء والفضل انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الناس في حسن الظن بالله على قسمين: خواص، وعوام.

أما الخواص: فحسن ظنهم بالله تعالى ناشئ عن شهود جماله ورؤية كماله فحسن ظنهم بالله لا ينقطع سواء واجههم بجماله أو بجلاله لأن اتصافه تعالى بالرحمة والرأفة والكرم والجود لا ينقطع فإذا تجلى لهم بجلاله أو قهريته علموا ما في طي ذلك من تمام نعمته وشمول رحمته فغلب عليهم شهود الرحمة والجمال فدام حُسن ظنهم على كل حال.

وأما العوام: فحسن ظنهم بالله ناشئ عن شهود إحسانه وحسن معاملته وامتنانه، فإذا نـزلت بهم قهرية أو شدة نظروا إلى سالف إحسانه وحسن ما أسدى إليهم من حسن لطفه وامتنانه فقاسوا ما يأتي على ما مضى فتلقوا ما يرد عليهم بالقبول والرضا وقد يضعف هذا الظن بضعف النظر والتفكر ويقوى بقوتهما بخلاف؛ الأول: فإنه ناشئ عن شهود الوصف والوصف لا يتخلف، والثاني: ناشئ عن شهود الفعل وهو يتخلف فإن لم تقدر أيها المريد أن تحسن ظنك بالله لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التي لا تتخلف فحسن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه فهل عوَّدك الحق تعالى إلا برًّا حَسنًا ولطفًا جميلًا؟ وهل أسدى إليك أي: أوصل إليك إلا مننًا كبيرةً ونعمًا غزيرةً؟

قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا الله لما يَغْذُوكُمْ بِهِ من نعمهِ وأَحِبُّونِي بحبِّ الله».

وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: إنا لا نحب إلا الله؛ فقال رجل: أبى ذلك جدك يا سيدي بقوله: «جُبِلَتِ القلوبُ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليهَا»؛ فقال الشيخ أبو الحسن: إنا لما لم نر محسنًا غير الله لم نحب سواه. =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه»، لأجل ما هو عليه من النعوت السَّنية والصفات العلية، فإن من كان متصفًا بأسنى الصفات لا يصدر منه إلا الجميل، سيما لمن ظن به الجميل، «فحسن ظنك به لوجود معاملته معك»، من إسباغ النعم وشمول الفضل والكرم، «فهل عودك إلا حسنًا، وهل أسدى إليك إلاّ مننًا» أي: نعمًا.

أشار بذلك إلى أن الناس في حسن الظن على قسمين: خاصة، وعامة.

فالخاصة: حسَّنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السَّنية والصفات العلية.

والعامة: حسَّنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم، وشمول الفضل والكرم، والتفاوت بين المقامين ظاهر، فكأنه قال: ينبغي لك أيها المريد أن تحسن ظنك بالله مطلقًا في إيصال المنافع ودفع المضار، وعدم الالتفات لغيره، فإن لم تقدر على حسن الظن الذي هو مقام الخاصة، فتلبس بمقام العامة وحسن الظن لوصفه ينتج لك محبته، وحسن الاعتماد والتوكل وحسن الظن به لوجود معاملته معك، ينتج لك شكر نعمته، والتشوق لورود فضله ورحمته.

الحكمة الخمسون

«العجبُ كُلَّ العجبِ ممن يهربُ مما لا انفكاكَ لهُ منهُ ويطلبُ ما لا بقاءَ لهُ معهُ ﴿فإنها لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]» [١]

=

وقال أيضًا ﷺ: قرأت ليلة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١]، إلى أن بلغت فيها: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤]، فقيل لي: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤]، يدخل بينك وبين حبيبك يُذَكِّرُكَ أفعالك السيئة وينسيك أفعالك الحسنة، ويكثّر عندك ذات الشمال، ويقلل عندك ذات اليمين ليعدل بك عن حسن الظن بالله وكرمه إلى سوء الظن بالله ورسوله؛ فاحذروا هذا الباب فقد أخذ منه خلق كثير من العباد والزهاد وأهل الطاعة والسداد انتهى.

وقال ﷺ أيضًا: العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءته في إحسان الله إليه: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف٦٩] انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ما لا انفكاك منه هو الحق تعالى وقضاؤه وقدره وما لا بقاء له هو الدنيا أو ما تدبره النفس وتقدره؛ فمن أعجب العجائب: أن يفر العبد من مولاه ويتوجه بالطلب لما سواه مع أنه لا انفكاك له منه ولا محيد له عنه إذ لا وجود له إلا منه ولا قيام له إلا به، فكيف يهرب منه بترك طلب معرفته وبالتقرب به بامتثال أمره واجتناب نهيه ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ الدنيا الفانية التي إن لم تَزُلْ عنها في الحياة زالت عنك بالمات فاطلب ما يبقى دون ما يفنى.

أو تقول: من العجب كل العجب أن يهرب العبد مما لا انفكاك له عن قدر الله وقضائه ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ تدبيره واختياره إذ كل ما تدبره وأبرمه فسخه القضاء وهدمه، وانظر هل فيك بقية

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«العجب كل العجب لمن يهرب مما لا انفكاك له عنه»، وهو الله تعالى، بألا يفعل ما يقربه إليه، «ويطلب ما لا بقاء له معه»، وهو الدنيا، وكل شيء سوى المولى بأن يقبل على شهواته، ويتبع هواه ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]» أي: إن ذلك ناشئ من عمى قلبه، ووجود جهله بربه؛ لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الفاني الذي لا بقاء له، على الباقي الذي لا انفكاك له عنه، ولو كانت له بصيرة، لعكس الأمر.

الحكمة الواحدة والخمسون

«لا ترحلْ من كونٍ إلى كونٍ فتكون كحمار الرحى يسيرُ والذي ارتحلَ إليه هو الذي ارتحلَ عنه، ولكنِ ارحلْ منَ الأكوانِ إلى المُكوِّنِ ﴿وأنَّ إلى ربِّك المُنْتَهى﴾» [النجم: ٤٢][1]

= من الالتفات إلى ما هاجرت منه، أو فيك حظ سوى ما هاجرت إليه من رضوان الله ورسوله أو معرفة الله ورسوله؛ فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه، ولن يوصل إليه من بقي فيه بقية من حظه وهواه.

وهذا كله من عدم فتح البصيرة أو عماها، ولذلك قال: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ [الحج:٤٦] عن إدراك الحس، لأنها أدركته وحجبت به ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾ [الحج:٤٦] عن إدراك المعنى، فلا ترى إلا الحس ولا تحب إلا إياه، ولا تطلب شيئًا سواه، نسأل الله عافيته وهداه.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الرحيل من الكون إلى الكون هو الرحيل من السوى إلى طلب السوى، وذلك كمن زهد في الدنيا وانقطع إلى الله، يطلب بذلك راحة بدنه، وإقبال الدنيا عليه، لقوله ﷺ: «منِ انقطعَ إلى الله كفاهُ كلَّ مؤنةٍ ورزقَهُ من حيثُ لا يحتسبُ»، ولقوله ﷺ أيضًا: «من كانتِ الآخرةُ نيّتَهُ جمعَ الله عليه أمرَهُ، وجعلَ غِنَاهُ في قلبه، وأتَتْهُ الدنيا وهي صاغرةٌ».

وكمن زهد فيها يطلب الخصوصية كإقبال الخلق والعز وتربية المهابة في قلوب الناس، أو زهد فيها يطلب الكرامة وخوارق العادات، أو زهد فيها يطلب القصور والحور فهذا كله رحيل من كون إلى كون، فمثله كحمار الطاحونة يسير الليل والنهار وهو في موضعه، فالذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه، فمن كانت همته الحظوظ النفسانية فحاله حال حمار الساقية في السير دائم، وهو في موضعه قائم يظن أنه قطع مسافة مما طلب، ما زاد إلا نقصًا مع تعب.

فينبغي لك أيها المريد أن ترفع همتك إلى الملك المجيد فترحل من رؤية الأكوان إلى طلب شهود الملك الديان، أو ترحل من الدليل والبرهان إلى رتبة الشهود والعِيان، وهو غاية القصد وبلوغ المنتهى، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢]، ولا ترحل من كون إلى كون، بأن تترك حظا من حظوظ نفسك طلبًا لحظٍّ آخر فتكون كحمار الرحى الذي سار منه هو الذي عاد إليه وتشبيهه بالحمار دليل على بلادته وقلة =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا ترحل من كون إلى كون»، يعني أن العمل المصاحب للرياء ونحوه مذموم غير معتد به شرعًا، فإذا جاهد المريد نفسه حتى خلص من ذلك، ولكن قصد به الدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات، لم يزل مذمومًا أيضًا عند العارفين، والمحمود أن يقصد به وجه الله تعالى.

ثم شبه المصنف ﷺ الرحيل من كون إلى كون بقوله: «فتكون كحمار الرحى» أي: الطاحون، «يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو المكان الذي ارتحل منه»، وكذلك الميل لطلب الجزاء فيه رحيل من كون وهو الرياء ونحوه إلى كون وهو ما ذكر من طلب الجزاء، وسببه بقايا النفس، فتطلب بعملها رتبة عند الله، وكل ذلك من الأكوان، والأكوان كلها متساوية في كونها أغيارًا، «ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون»، بأن تخلص عملك لمولاك وحده دون حظ عاجل أو آجل؛ فمن عمل لأجل الدرجات أو المقامات، فهو عبد لها، ومن عمل لله فهو عبد لله، وهو راحل من الأكوان إلى المكون، ﴿وأن إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]، فقد انتهى سيره إلى الله، وصار متحققًا بمعنى هذه الآية، بخلاف المرتحل من كون إلى كون، فإنه غير منتهي له، ولا واصل إليه.

الحكمة الثانية والخمسون

«وانظر إلى قوله ﷺ: فمنْ كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام: فهجرته إلى ما هاجر إليه، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم»[(١)]

=

فهمه، إذ لو فهم عن الله لرحل عن حظوظ نفسه وهواه قاصدا الوصول إلى حضرة مولاه، فلا ترحل أيها المريد من كون مخلوق إلى كون مخلوق مثلك، ولكن ارحل من الكون إلى المكون ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢].

والرحيل إلى المكون يكون بثلاثة أمور: الأول: قصر همتك عليه دون ما سواه حتى يطَّلع على قلبك فلا يجده محبًّا لسواه، الثاني: الرجعى إليه بإقامة الحقوق والفرار من الحظوظ، الثالث: دوام اللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والاستسلام لما يورده عليك.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: أربعة من كن فيه احتاج الخلق إليه، وهو غني عن كل شيء: المحبة لله، والغنى بالله، والصدق، واليقين، الصدق في العبودية، واليقين في أحكام الربوبية، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الهجرة هي الانتقال من وطن إلى وطن آخر بحيث يهجر الوطن الذي خرج منه ويسكن الوطن الذي انتقل إليه، وهي هنا من ثلاثة أمور: من وطن المعصية إلى وطن الطاعة، ومن

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

انظر إلى قوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله**»[1] أي: بالقصد والنية، «**فهجرته إلى الله ورسوله**» في الواقع ونفس الأمر، فهي محمودة معتد بها، «**ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها** "يتزوجها" **فهجرته إلى ما هاجر إليه**»؛ «فافهم قوله عليه الصلاة والسلام، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم».

يعنى أن في هذا الحديث تنبيهًا على المعنى المذكور، وموضع الاعتبار والتأمل هو الشيء الثاني، أعني فهجرته إلى ما هاجر إليه، فإن معناه أنه لا نصيب له من الوصول والقرب الذي حظي به من هاجر إلى الله ورسوله، وكأنه ﷺ نبه بالدنيا والمرأة على حظوظ النفس بالوقوف معها كائنة ما كانت، فقوله: «**فهجرته إلى الله ورسوله**»، هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون الذي هو مطلوب من العبد، وهو مصرح به، وقوله: «**فهجرته إلى ما هاجر إليه**» وهو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها، وهو مشار به غير مصرح، ولما كان حاصل ما تقدم طلب رفعة الهمة عن الخلق وتعلقها بالملك الحق.

=

وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن عالم الأشباح إلى وطن عالم الأرواح أو تقول: من وطن الملك إلى وطن الملكوت، أو من وطن الحس إلى وطن المعنى أو من وطن علم اليقين إلى عين اليقين أو حق اليقين؛ فمن هاجر من هذه المواطن قاصدًا بهجرته الوصول إلى رضا الله ورسوله، أو الوصول إلى معرفة الله ورسوله فهجرته موصلة إلى الله ورسوله على حسب قصده وهمته، ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه فقد خاب قصده ومسعاه، وغاية هجرته ما هاجر إليه، وكانت هجرته زيادة في جر الوبال إليه؛ فافهم أيها السامع قوله ﷺ: «**فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

قال الششتري ﷺ: تدبر واعرضه على قلبك ونفسك، وانظر هل فيك بقية من الالتفات إلى ما هاجرت منه، أو فيك حظ سوى ما هاجرت إليه من رضوان الله ورسوله، أو معرفة الله ورسوله، فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه، ولن يوصل إليه من بقي فيه بقية من حظه وهواه.

وسمعت شيخنا البزيدي ﷺ يقول: إن أردتم أن تعرفوا هل رحلت أنفسكم من هذا العالم إلى عالم الملكوت أو لم ترحل فاعرضوا عليها الأمور التي كانت تشتهيها، وتميل إليها واحدًا بعد واحدٍ فإن وجدتموها رحلت عنها وخرجت محبتها من قلبها ولم تركن إلى واحد منها؛ فاستبشروا فقد رحلت أرواحكم إلى عالم الملكوت، وإن وجدتموها ركنت أو مالت بالمحبة إلى شيءٍ من هذا العالم فجاهدوها وأخرجوها عنه بالكلية حتى ترحل إلى ربها انتهى بالمعنى.

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (٣٥٣٠).

الحكمة الثالثة والخمسون
«لا تَصْحَبْ منَ لا يُنْهِضُكَ حالُه ولا يَدُلُّكَ على الله مقالُه»[(١)]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

وأبلغ ما يوصل إلى هذه المرتبة «يعنى: المرتبة السابقة في الحكمة السالفة»، صحبة العارفين بالله تعالى، أمر بها ضمن قوله: «لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله»، بألا يكون حاله وهمته متعلقة بالله، ومقاله لا يدل عليه.

وإن كان من العباد والزهاد فصحبته للمريد منهي عنها، بخلاف صحبة من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله، بأن تكون همته متعلقة بالله مرتفعة من المخلوقين، لا يلجأ في

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الذي ينهضك حاله هو الذي إذا رأيته ذكرت الله فقد كنتَ في حال الغفلة فلما رأيته نهض حالك إلى اليقظة أو كنت في حالة الرغبة فلما رأيته نهض حالك إلى الزهد أو كنت في حالة الاشتغال بالمعصية فلما رأيته نهض حالك إلى التوبة، أو كنت في حالة الجهل بمولاك فنهضت إلى معرفة من تولاك وهكذا والذي يدلك على الله مقاله هو الذي يتكلم بالله، ويدل على الله ويغيب عما سواه إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب وإذا سكت أنهضك حاله إلى علاّم الغيوب فحاله يصدق مقاله ومقاله موافق لعلمه فصحبة مثل هذا إكسير يقلب الأعيان، وهو مفهوم من قول الشيخ: «لا تصحب من لا ينهضك حاله... إلخ».

أي: بل اصحب من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله والصحبة في طريق التصوف أمر كبير في السير إلى الله تعالى حسبما جرت به عادة الله تعالى وحكمته حتى قال بعضهم: من لا شيخ له فالشيطان شيخه.

وقال آخر: الإنسان كالشجرة النابتة في الخلاء فإن لم تقطع وتلقم كانت دكارة.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: كل من لا شيخ له في هذا الشأن لا يفرح به، ومن شروط الشيخ أربعة:

علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة مرضية.

فالعلم الصحيح هو ما يتقن به فرضه ولا بدَّ أن يكون عالمًا بالمقامات والمنازل التي يقطعها المريد وبغرور النفس ومكائدها قد سلك ذلك على يد شيخ كامل وذاق ذلك ذوقًا لا تقليدًا، وهو المراد بالذوق الصريح والهمة العالية هي المتعلقة بالله دون ما سواه والحالة المرضية هي الاستقامة بقدر الاستطاعة، ولا بدَّ أن يكون جامعًا بين حقيقة وشريعة وبين جذب وسلوك فيجذبه بجذب القلوب وبسلوكه يخرجها من حالة الجذب إلى البقاء؛ فالسالك فقط ظاهري لا يجذب، ولا يحقق والمجذوب فقط لا يسير، ولا يوصل وفساد صحبته أكثر من نفعها.

وقال في «أصول الطريقة»: ومن فيه خمس لا تصح مشيخته: الجهل بالدين وإسقاط حرمة المسلمين، ودخول ما لا يعني، واتباع الهوى في كل شيء، وسوء الخلق من غير مبالات انتهى.

حوائجه إلا إلى الله تعالى، ولا يتوكل في أموره إلا عليه سبحانه وتعالى، قد سقط الناس من عينه، فلا يرى فيهم ضرًّا ولا نفعًا، وسقطت نفسه من عينه، فلا يشاهد لها فعلًا ولا يقضي لها حظًّا، ويكون في جميع أعماله جاريًا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط، وهذه صفات العارفين بالله تعالى.

فصحبة من هذه حاله، وإن قلت عبادته ونوافله مأمور بها للمريد؛ لأنها جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية. إن الطبع يسرق من الطبع بخلاف من لم يكن على هذا الوصف، وكان شأنه المعاملة الظاهرة لا غير، فلا فائدة في صحبته.

الحكمة الرابعة والخمسون

«رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فأراكَ الإحسانَ منكَ صُحْبَتُكَ إلى منْ هُوَ أسوأُ حالاً مِنْكَ»[١]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إذا صحبت من هو أسوأ حالًا منك أراك أي: أبصرتك صحبتك إلى من هو أسوأ حالًا منك، الإحسان منك لما ترى ما يصدر منها من الإحسان، ومن المصحوب من التقصير والنقصان، فتعتقد المزية عليه لأن النفس مجبولة على رؤية الفضل لها ومشاهدة التقصير من غيرها علمًا أو عملًا أو حالًا، بخلاف ما إذا صحبت من هو أحسن حالًا منها؛ فإنها لا ترى من نفسها إلا التقصير وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبًا من معصية الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينًا وقليلٌ ما هم.

وقال له أيضًا: لا تصحب من يُؤْثِرُ نفسه عليك فإنه لئيم ولا من يؤثرك على نفسه؛ فإنه قلّما يدوم واصحب من إذا ذكر ذكر الله فالله يغني به إذا شهد، وينوب عنه إذا فقد ذكره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب انتهى.

وحاصله: لا تصحب من تتكلف له فوق جهدك، ولا من يتكلف لك كذلك، وخير الأمور أوساطها، وهذا والله أعلم في صحبة الإخوة، وأما صحبة الشيخوخة فكل ما أمر به الشيخ أو أشار إليه أو فهمت أنه يحب ذلك فلا بدَّ أن تبادر إليه بقدر الإمكان، ولو كان محالًا عادة لأخذت في التهيؤ للفعل.

قال شيخ شيوخنا سيدي العربي بن أحمد بن عبد الله الفقير: الصديق هو الذي إذا قال له شيخه ادخل في عين المخياط لا يتردد ويقوم يبادر في امتثال ما أمر ولو كان لا يتأتى منه ذلك.

وقال أيضًا: صاحبي هو الذي نفتله بشعره انتهى.

وقال سيدي علي ﷺ في كتابه: اعلم أنه لا يقرب طالب الله إلى الله شيء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده وإن لم يجده فعليه بذكر الله ليلًا ونهارًا قائمًا وقاعدًا مع العزلة عن أبناء الدنيا بعدم الجلوس معهم وعدم الكلام كذلك وعدم النظر فيهم؛ لأنهم سُمٌّ خارق ولا يبعد من الله شيء مثل جلوسه مع فقير جاهل والفقير الجاهل أقبح من العامي الغافل بألف ضعف والجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين والجلوس مع العامي الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل لا شيء في الوجود يسوِّد قلب المريد مثل جلسة مع الفقير الجاهل كما أن العارف بالله =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم لا يخلو إما أن يكون «يعنى: الصاحب المقصر ذاك»، مثلك، فلا يحصل لك من صحبته ضرر، وإما أن يكون دونك وهو ما أشار إليه بقوله: «ربما كنت مسيئًا فأراك الإحسان صحبتك من هو أسوأ منك حالًا»، يعني أن صحبة من هو دونك ضرر محض؛ لأنه تغطي عنك عيوبك وتبين لك كمالك وتقنع بأحوالك، والرضا عن النفس، ورؤية إحسانها أصل كل شيء، فإن أردت ولا بدَّ أن تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، فاصحب مثلك حتى تكون في صحبته لا لك ولا عليك.

ثم اعلم أن صحبة العارفين على قسمين: صحبة إرادة، وصحبة تبرك، فصحبة الإرادة هي التي يشترط لها الشروط المعروفة التي حاصلها أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدي الغاسل.

وصحبة التبرك هي التي يكون القصد بها الدخول مع القوم والتزيي بزيهم والانتظام في سلك عقدهم، وهذا لا يلزم بشروط الصحبة وإنما يؤمر بلزوم حدود الشرع، ولعله

= يجمع بين العبد ومولاه بنظرة أو بكلمة كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها يرحم الله المجذوب حيث يقول في بعض كلامه: الجلسة مع غير الأخيار، ترذل ولو تكون صافيًا انتهى.

وقال سهل بن عبد الله ﷺ: احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين انتهى.

وزاد الشيخ زروق علماء الظاهر قال: لأن نفوسهم غالبة عليهم انتهى.

قلت: الجلوس معهم اليوم أقبح من سبعين عاميًا غافلًا، وفقيرًا جاهلًا؛ لأنهم لا يعرفون إلا ظاهر الشريعة، ويرون أن من خالفهم في هذا الظاهر خاطئ أو ضال، فيجهدون في رد من خالفهم يعتقدون أنهم ينصحون وهم يغشون؛ فليحذر المريد من صحبتهم والقرب منهم ما استطاع فإن توقف في مسألة ولم يجد من يسأل عنها من أهل الباطن فليسأله على حذر ويكون معه كالجالس مع العقرب والحية والله ما رأيت أحدًا قط من الفقراء قرب منهم وصحبهم فأفلح أبدًا في طريق الخصوص، ورحم الله أبا ذر الغفاري ﷺ حيث قال: والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين انتهى.

قال هذا في علماء الصحابة الأخيار ﷺ فما بالك اليوم حين اشتغلوا بجمع الدنيا، وتزيين الملابس، وتكبير العمائم، وتحسين المآكل والمساكن والمراكب، ورأوا ذلك سنة نبوية؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان يحيى بن معاذ الرازي ﷺ يقول لعلماء وقته: يا معشر العلماء! دياركم هامانية، ومراكبكم قارونية، وأطعمتكم فرعونية، وولائمكم جالوتية، ومواسمكم جاهلية، وقد صيرتم مذاهبكم شيطانية؛ فأين الملة المحمدية؟

بمخالطة الطائفة تعود عليه بركتهم، ويصل إلى ما وصلوا إليه.

يقول السياجي يغفر الله له: «هم القوم لا يشقي بهم جليسهم»[١].

الحكمة الخامسة والخمسون

«مَا قَلَّ عملٌ بَرَزَ مِنْ قلبٍ زاهدٍ، ولا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قلبِ راغبٍ»[٢]

---

(١) رواه مسلم (٤٨٥٤).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الزهد في الشيء هو خروج محبته من القلب وبرودته منه، وعند القوم: بغض كل ما يشغل عن الله، ويحبس عن حضرة الله، ويكون أولًا في المال.

وعلامته: أن يستوي عنده الذهب والتراب، والفضة والحجر، والغنى والفقر، والمنع والعطاء، ويكون ثانيًا في الجاه والمراتب.

وعلامته: أن يستوي عنده العز والذل، والظهور والخمول، والمدح والذم، والرفعة والسقوط، ويكون ثالثًا في المقامات والكرامات والخصوصيات.

وعلامته: أن يستوي عنده الرجاء والخوف، والقوة والضعف، والبسط والقبض، يسير بهذا كما يسير بهذا أو يعرف في هذا كما يعرف في هذا ثم يكون الزهد في الكون بأسره بشهود المكون وأمره، فإذا تحقق المريد بهذه المقامات في الزهد أو جُلِّها كان عمله كله عظيمًا كبيرًا في المعنى عند الله، وإن كان قليلًا في الحس عند الناس، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «عملٌ قليلٌ في سُنَّةٍ خيرٌ من عملٍ كثيرٍ في بدعةٍ»، وأي بدعة أعظم وأشنع من حب الدنيا والانكباب عليها بالقلب والقالب الذي لم يكن في زمنه ﷺ ولا في زمن الصحابة حتى ظهرت الفراعنة فبنوا وشيدوا وزخرفوا؛ فهذه هي البدعة الحقيقة فعمل هؤلاء قليل في المعنى، وإن كان كثيرًا في الحس إذ لا عبرة بحركة الأشباح، وإنما العبرة بخضوع الأرواح، عبادة الزاهد بالله لله، وعبادة الراغب بالنفس للنفس، عبادة الزاهد حية باقية وعبادة الراغب ميتة فانية، عبادة الزاهد متصلة على الدوام، وعبادة الراغب منقطعة بلا تمام، عبادة الزاهد في مساجد الحضرة التي أذن الله أن ترفع وعبادة الراغب في مزابل القذارات التي أذن الله أن توضع، ولذلك قال بعضهم: عبادة الغني كالمصلي على المزبلة، وما مثل عبادة الزاهد مع قلتها في الحس وكثرتها في المعنى، وعبادة الراغب مع كثرتها في الحس وقلتها في المعنى إلا كرجلين أهديا للملك أحدهما: أهدى ياقوتة صافية صغيرة قيمتها ستون قنطارًا، والآخر: أهدى ستين صندوقًا خاوية فارغة فلا شكَّ أن الملك يقبل الياقوتة ويكرم صاحبها ويرد الصناديق ويهين صاحبها، ويغضب عليه لكونه استهزأ بالملك حيث أهدى له خشبًا خاوية شهرتها أعظم من منفعتها.

وسمعت شيخنا ﷺ يقول: الراغب في الدنيا غافل، ولو كان يقول: الله الله بلسانه على الدوام إذ لا عبرة باللسان والزاهد في الدنيا ذاكر على الدوام، ولو قلَّ ذكره باللسان انتهى.

وقال سيدنا علي -كرم الله وجهه: كونوا لقبول العمل أشدَّ منكم اهتمامًا للعمل؛ فإنه لم يقِلْ عمل مع التقوى وكيف يقلُّ عمل يتقبل انتهى.

وقال ابن مسعود ﷺ: ركعتان من زاهدٍ عالمٍ خيرٌ وأحبُّ عند الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدًا سرمدًا.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما قل عمل برز من قلب زاهد»[1] أي: غير متعلق في الدنيا، بل هو وإن كان قليلًا في

=

وقال بعض السلف: لم يفتكم أصحاب محمد ﷺ بكثرة صلاة ولا صيام إلا أنهم كانوا أزهد في الدنيا انتهى.

وفي بعض الأخبار أن سيدنا عيسى عليه السلام مرَّ برجل نائم والناس يتعبدون؛ فقال له عيسى عليه السلام: قم فتعبد مع الناس فقال: تعبدت يا رَوح الله، فقال له: وما عبادتك؟ قال: تركت الدنيا لأهلها، فقال له: نم نعمت العبادة هذه أو كما قال عليه السلام.

وقال رجل للشيخ أبي الحسن رضي الله عنه: ما لي أرى الناس يعظمونك، ولم أر لك كبير عمل؟ فقال: بسُنَّةٍ واحدةٍ افترضها الله على رسوله تمسكت بها، فقال له: وما هي؟ قال: الإعراض عنكم وعن دنياكم انتهى.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وإنما كانت للزهاد هذه الفضلية لثلاثة أوجه:

أحدها: ما فيه من فراغ القلب عن الشواغل والشواغب.

الثاني: لأنه شاهد بوجود الصدق في المحبة إذ الدنيا محبوبة لا تترك إلا بما هو أحب قال عليه السلام: «**الصدقة بُرهان**» قيل: على حب العبد ربه.

الثالث: لأنه دليل على المعرفة بالله والثقة به؛ لأن بذل الموجود من الثقة بالمعبود ومنع الموجود من سوء الظن بالمعبود انتهى.

(١) الزهد يختلف باختلاف المقام، فللعوام زهد بمعنى ترك الحرام، وللخواص زهد أيضًا وهو ترك الفضول من الحلال، ولأخصهم زهد وهو ترك ما يشغلك عن مولاك، والكل خير وممدوح على ما ورد به الحديث حيث قال النبي ﷺ: «**الزهد خير كله**»، والكامل الأخير؛ لأن حقيقة الزهد أن تترك نفسك دنياك وروحك عُقباك، ويبقى سرّك مع مولاك.

وقال الشيخ الجيلي -قُدِّس سرَّه- في الإنسان الكامل: «زهد المسلمين والمؤمنين والمحسنين في الدنيا ولذاتها، وزهد الشهداء في الأولى والعقبى، وزهد الصديقين في سائر المخلوقات، فلا يشهدون إلا الحق تعالى مع الأسماء والصفات، وزهد المقربين في البقاء معهما فهم في الحقيقة الذات»، ويمكن أن يكون مراد الشيخ هذا الأخير وهو الظاهر من إطلاقه، ويمكن أن يكون مراده زهد الصدِّيقين، لكن بتقدير معطوف بعد الجبار أي: وأسمائه وصفاته.

والمعنى ليس الزاهد الكامل الذي يعمل الزهد في الدُّنيا والدرهم المستعبدين للناس والمهلكين لهم حيث ورد: «**أهلك الناس الدينار والدرهم**» بأن يترك الالتفات إليهما بحيث لا يخطران لا هما ولا وجودهما بباله، بل الزاهد الكامل الذي زهد فيما سوى الجبار من الدنيا، والآخرة وما يتعلق بهما حتى العلوم والمعارف بأن يشهد الحق وأسمائه وصفاته، بل لا يشهد إلا الذات بدون اعتبار الأسماء والصفات وهذا هو الطي الحقيقي، ومن هنا يقال: المسافة إلى خطوتين، وإليه يشير قوله عليه ﷺ: «**الدنيا خطوة مؤمن**» أي: يتخطاها بالزهد؛ فافهم.

فيدلُّ هذا على أن المسافة يومان في اليوم الأول يترك الدُّنيا، وفي الثاني يترك الآخرة، وفي اليوم الثالث

=

الحس كثير في المعنى لسلامته من الآفات القادحة في قبول الأعمال من الرياء والتصنع للناس وطلب الأعراض الدنيوية، وعدم حضور القلب مع المولى في حال فعله لقلة الوساوس الشيطانية الناشئة من حب الدنيا، «ولا كثر عمل برز من قلب راغب»(١) في الدنيا، بل هو وإن كان كثيرًا في الحس قليلًا في المعنى لعدم سلامته مما ذكر.

وقد روي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدًا سرمدًا.

الحكمة السادسة والخمسون

«حُسْنُ الأعمالِ نتائجُ حُسْنِ الأحوالِ، وحسنُ الأحوالِ مِنَ التَّحقُّق في مقاماتِ الإنـــزال»(٢)

=

واصل؛ لأنه يكون لربِّه حقًّا بلا علل، وأمَّا طي الأيام بلا طعام وشراب، وقطع الأرض في أقرب مدة بلا مشي، وتعب؛ فهو رسمي لا اعتداد به.

(١) قال الشيخ الشعراني: قد منَّ الله تعالى عليَّ بالزهد في الدنيا من حداثة سِنِّي إلى وقتي هذا، حتى لو أمطرت السماء ذهبًا، ومكتوب على كلِّ دينارٍ من أخذ هذا لا يحاسبه الله تعالى عليه في الدنيا ولا في الآخرة، لكنت لا أجد عندي داعية إلى أخذ شيءٍ منه إلا لدَينٍ أُوَفيه به، أو لسدِّ فاقةٍ في ذلك الوقت الذي أنا فيه فقط، ومن شكَّ في وصولي إلى هذا المقام فالله تعالى يغفر لي وله إن شاء الله. [انظر: الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع (ص٣٢) بتحقيقنا].

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الأعمال حركة الجسم بالمجاهدة والأحوال حركة القلب بالمكابدة والمقامات سكون القلب بالطمأنينة.

مثال ذلك: مقام الزهد مثلًا فإنه يكون أولًا عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالًا ثم يسكن القلب، ويذوق حلاوته فيصير مقامًا وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار ثم يصير حالًا ثم يسكن القلب فيه ويذوقه فيصير مقامًا وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل في الظاهر كخرق العوائد من نفسه ثم تكون مكابدة بالمعرفة والإقرار عند التعرفات ثم تصير حالًا فإذا سكنت الروح في الشهود وتمكنت صارت مقامًا؛ فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب يعني أن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقامًا فالأحوال تتحول تذهب وتجيء فإذا سكن القلب في ذلك المعنى صار مقامًا وهو مكتسب من دوام العمل.

واعلم أن المقام والحال لكل واحد علم وعمل فالمقام يتعلق به العلم أولًا ثم يسعى في عمله حتى يكون حالًا ثم يصير مقامًا وكذلك الحال يتعلق به العلم أولًا ثم العمل ثم يصير مقامًا حالًا والله تعالى أعلم.

فعلامة التحقق بمقامات الإنـزال هو حسن الحال وعلامة حسن الحال هو حسن العمل فإتقان الأعمال وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال وحسن الأحوال وإتقانها هو نتيجة التحقق بمقامات

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«حسن الأعمال»، بخلوها مما يعوقها عن القبول من الرياء وغيره وحضور القلب مع الله في حال فعلها وعدم اشتغاله بغيره من الوساوس الشيطانية، «نتائج حسن الأحوال»، القائمة بالقلوب من الزهد في الدنيا والإخلاص لله بأن يقصد بعمله عبوديته لله تعالى، لا لطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل.

«وحسن الأحوال» ناشئ «من التحقق في مقامات الإنزال» أي: في المقامات التي تنـزل في قلوب العارفين، وهي معارف إلهية يوردها الله تعالى على القلوب تكون سببًا في ترك الدعوى وعدم الالتفات إلى جنة أو هرب من نار، فإن المريد إذا حصل له ذلك راقب مولاه بقلبه، فلا يقصد بعمله غيره، وإذا حصل ذلك، تخلص العمل مما يعوقه عن القبول، وهذه الحكمة كالدليل لما قبلها.

الحكمة السابعة والخمسون

«لا تَتْرُكْ الذِّكْرَ لعدمِ حضورِ قلبكَ مع الله فيه؛ لأن غفلتَكَ عن وجودِ ذِكْرِه أشدُّ من غفلتِكَ في وجودِ ذكرِه، فعسى أن يرفعَكَ من ذكرٍ مع وجودِ غفلةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ، ومن ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ، ومن ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ إلى ذكرٍ مع غيبةٍ عمَّا سوى المذكورِ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]»(١)

= الإنـزال أي التحقق بالإنـزال في المقامات أو تقول: حُسنُ الأحوال دليلٌ على التحقق بالمقامات التي يُنـزلُ الله عبده فيها وحسن الأعمال دليل على حسن الأحوال والتحقق بالحال والسكون في المقام أمر باطني ويظهر أثره في عمل الجوارح.

والحاصل: أن حركة القالب تدل على صلاح القلب أو فساده لقوله ﷺ: «**إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسدُ كُلُّهُ وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كُلُّهُ ألا وهيَ القلبُ**» فإذا تحقق القلب بالزهد مثلًا وصار له حالًا أو مقامًا ظهر ذلك على جوارحه من الثقة بالله والاعتماد عليه وقلة الحركة عند الأسباب المحركة لقوله ﷺ: «**ليسَ الزهدُ بتحريمِ الحلالِ ولا بإضاعةِ المالِ إنَّما الزهدُ أن تكونَ بما في يدِ الله أوثقَ مما في يدكَ**».

وقال الصِّدِّيقُ ﷺ لأبي الحسن الشاذلي في النوم: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ووجود الراحة منها عند الفقد، وعلامة التحقق بالإنـزال في مقام التوكل السكون والطمأنينة عند محركات الأسباب، وعلامة التحقق بالإنـزال في مقام المعرفة، هو الأدب ظاهرًا وباطنًا، وحسن الخلق مع كل مخلوق.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الذكر ركن قوي في طريق القوم، وهو أفضل الأعمال قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي =

=

أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١]، والذكر الكثير أن لا ينساه أبدًا.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما: كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتًا مخصوصًا وعذر العباد في غير أوقاتها إلا الذكر لم يجعل الله له وقتًا مخصوصًا قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

وقال رجل: يا رسول الله! كثرت عليَّ شعائر الإسلام فأوصني بأمر أدرك به ما فاتني وأَوْجِزْ؟ فقال: «لا يزالُ لسانُكَ رَطِبًا بذكرِ الله».

وقال ﷺ: «لو أنَّ رجلًا في حِجْرِهِ دراهمُ يقسِّمُهَا وآخرَ يذكرُ الله لكان الذاكرُ لله أفضلَ».

وقال ﷺ: «ألا أُنَبِّئكُمْ بخيرِ أعمالِكُمْ وأزكاها عندَ مليكِكُمْ وأرفعِهَا في درجاتِكُمْ، وخيرٍ لكم من إنفاقِ الذهبِ والوَرِقِ، وخيرٍ لكم من أن تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فتَضْرِبُوا أعناقَهُمْ ويَضْرِبُوا أعناقَكُمْ، قَالُوا: وما ذاكَ يا رسولَ الله؟ قال: ذكر الله».

وعن علي -كرم الله وجهه- قلت: يا رسول الله! أي الطرق أقرب إلى الله، وأسهلها على عباد الله، وأفضلها عند الله تعالى؟ قال ﷺ: «يا عليُّ عليكَ بِمُدَاوَمَةِ ذِكْرِ الله»، فقال علي: كل الناس يذكرون الله، فقال ﷺ: «يا عليُّ لا تقومُ الساعةُ حتَّى لا يبقى على وجهِ الأرضِ مَنْ يقولُ الله»، فقال له علي: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال له ﷺ: «غَمِّضْ عَيْنَيْكَ واسمعْ مِنِّي ثلاثَ مَرَّاتٍ» ثم قل مثلها، وأنا أسمع؛ فقال ﷺ: «لا إله إلا الله ثلاث مراتٍ مُغَمِّضًا عينيه» ثم قالها علي كذلك ثم لقنها علي للحسن البصري ثم الحسن لحبيب العجمي ثم حبيب لداود الطائي ثم داود لمعروف الكرخي ثم معروف للسري ثم السري للجنيد ثم انتقلت إلى أرباب التربية فلا مدخل على الله إلا من باب الذكر؛ فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته ويبذل فيه جهده، فإن الذكر منشور الولاية ولا بدَّ منه في البداية والنهاية فمن أعطي الذكر فقد أعطي المنشور، ومن ترك الذكر فقد عزل.

فبقدر ما يفنى في الاسم يفنى في الذات وبقدر ما يَتَقَرَّرُ في الفناء في الاسم يكون مُتَقَرِّرًا في الفناء في الذات فليلتزم المريد الذكر على كل حال ولا يترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه بل يذكره بلسانه ولو كان غافلًا بقلبه فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره؛ لأن غفلتك عن ذكره إعراض عنه بالكلية، وفي وجود ذكره إقبال بوجه ما وفي شغل اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله وفي فقده تعرض لاشتغالها بالمعصية.

قيل لبعضهم: ما لنا نذكر الله باللسان والقلب غافل؟ فقال: اشكر الله على ما وفق من ذكر اللسان، ولو أشغله بالغيبة ما كنت تفعل فليلزم الإنسان ذكر اللسان حتى يفتح الله في ذكر الجنان فعسى أن ينقلك الحق تعالى من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، أي انتباه لمعاني الذكر عند الاشتغال به ومن ذكر مع يقظة إلى ذكر مع وجود حضور المذكور وارتسامه في الخيال حتى يطمئن القلب بذكر الله ويكون حاضرًا بقلبه مع دوام ذكره وهذا هو ذكر الخواص والأول ذكر العوام، فإن دمت على ذكر الحضور رفعك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور لما يغمر قلبك من النور وربما يعظم قرب نور المذكور فيغرق في النور حتى يغيب عما سوى المذكور حتى يصير الذاكر مذكورًا والطالب مطلوبًا

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تترك» أيها المريد «الذكر»[1]، بل لازمه وداوم عليه، فإنه أقرب الطرق إلى الله

=

والواصل موصولًا ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٧] أي: بممتنع فقد يرفع في أعلى الدرجات من كان في أسفل الدركات، وهاهنا يسكت اللسان وينتقل الذكر للجنان فيصير ذكر اللسان غفلة في حق أهل هذا المقام.

وقال الواسطي مشيرًا إلى هذا المقام: الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره؛ لأن ذكره سواه انتهى.

يعني أن الذاكرين الله بالقلوب هم في حال ذكرهم لله بلسانهم أكثر غفلة من التاركين لذكره؛ لأن ذكره باللسان وتكلفه يقتضي وجود النفس وهو شرك، والشرك أقبح من الغفلة، وهذا معنى قوله: «لأن ذكره سواه» أي: لأن ذكر اللسان يقتضي استقلال الذاكر والفرض أن الذاكر محو في مقام العيان.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور، وعن كل شيء سواه لقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨].

ولذلك قال الشيخ أبو العباس ﷺ: أوقاتنا كلها ليلة القدر أي عبادتنا كلها مضاعفة مع خفائها وتحقيق الإخلاص فيها إذ لا يطلع عليها ملكٌ فيكتبه ولا شيطان فيفسده.

ولما كان الذكر هو سبب حياة القلب، وتركه سبب موته، وفي الحديث: «مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّه والذي لا يذكرُ ربَّه كمَثَلِ الحَيِّ والمَيِّتِ».

(١) قال الشيخ الباني الكردي: الذاكر لله حي وإن مات، وتارك الذكر ميت وإن كان في الدنيا حيًّا بالحياة الحيوانية، والشهيد الذاكر له حياتان حياة الشهادة وحياة الذكر، وفضيلة الذكر كثيرة، والأخبار فيها جليلة ويحرم معاداة أهله؛ لأن لهم من الله تعالى الولاية العامة؛ لأنهم مؤمنون بالله وكل مؤمن ولي، ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته هذا كله في أصل الذكر سواء كان لاسم الجلالة أو لغيره، وأمَّا البلوغ إلى غاية الجلالة في المراتب فإنما يكون بذكر الجلالة مع أن أفضل الذكر لا إله إلا الله الحديث: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله**»؛ ولأن زيادة العلم لجمعها بين النفي والإثبات حاوية عليه؛ لأن الكمال لا يحصل إلا بالفناء وهو إنما يكون بذكر الجلالة؛ لأنه ذكر القلب كما أن هو ذكر السر ولا إله إلا الله ذكر اللسان، فمن اشتغل قلبه بذكر الله في جميع الأحوال ليستنير قلبه بنور الذكر، فيرزقه النور الكشف، ويفيده الكشف شهود الأمور على ما هي عليه، فيخرج عن الشركين، ويرفع السوى عن البين، ويرى الوجود المطلق بلا كم ولا كيف ولا أين، وهذا هو الغاية وليست لها نهاية.

وقد عُلم مما مرَّ أن الذكر لساني وقلبي وسري: الأول قشر، والثاني لبّ، والثالث لبُّ اللبّ؛ ففي الأول يكون الذاكر والذكر والمذكور أي: يشهد صاحب الذكر اللساني هذه الثلاثة، وفي الثاني لا يكون إلا المذكور، وفي الثالث الأولين عين المذكور.

وقد يذكر الشخص باللسان، ويكون غافلًا عما يذكر فلا يكون تارك الذكر؛ لأنه يصدق أنه ذاكر لكن غافل عن ذكره، فإذا عرفت هذا المذكور فالمناسب للمبتدئ لا إله إلا الله؛ إذ به تُنفى الأغيار وتضمحل عنده الإكثار، فينوي به أنه لا أُريد شيئًا أو لا أحب، أو لا أقصد شيئًا إلا الله، وغايته أنه لا موجود إلا

=

تعالى،وعلامة على وجود ولايته؛ فمن وفق للذكر أعطي منشور الولاية، فلا تتركه «لعدم حضورك»أي: حضور قلبك «مع الله فيه»، بأن كان مشتغلًا بالوساوس الشيطانية والأغراض الدنيوية، «لأن غفلتك عن وجود ذكره» بأن تتركه «أشد من غفلتك» الحاصلة «في وجود ذكره»؛ لأن ترك الذكر فيه بعد عن الله بالقلب واللسان، بخلاف الذكر، فإنك إن بعدت عنه بقلبك فأنت قريب بلسانك، فعليك أن تذكر الله به، وإن كان قلبك غافلًا حال الذكر، «فعسى أن يرفعك» أي: يرقيك «من ذكر مع وجود غفلة» عن المولى، «إلى ذكر مع وجود يقظة» أي: تيقظ لما يناسب حضرته سبحانه من الأدب وعدم الاشتغال عنه بغيره، «ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور»، بأن يدخل القلب حضرة الرب فيراقبه حال ذكره ولا يغفل عنه، «ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور»، وهو الله بأن يفنى حتى عن الذكر فيصير يخرج من الذكر من غير قصد، وحينئذ يكون الحق لسانه الذي به ينطق، فإن بطش هذا الذاكر كان يده التي يبطش بها، وإن سمع كان سمعه الذي يسمع به.

وهذه المعالم والمراقي لا يعرف حقيقتها إلا السالكون وجدانًا والعلماء إيمانًا وتصديقًا، فإياك والتكذيب بشيء من ذلك فتهلك مع الهالكين، ولما كان المريد ربما يستبعد الوصول إلى ذلك نهاه بقوله: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ لأنه قادر على كل شيء؛ فعلى المريد القيام بالأسباب، ومن الله الوصول ورفع الحجاب.

الحكمة الثامنة والخمسون

«من علاماتِ موتِ القلبِ عدمُ الحُزْنِ على ما فاتَكَ منَ الموافقاتِ وتركُ النَّدمِ على ما فعلتَ من وجودِ الزَّلاتِ»(١)

= الله، فإذا انتفت الأغيار بحصر إرادته أو حبِّه أو قصده في الواحد القهار يشرع في ذكر الجلالة إلى أن يُفنى عن وجوده، فيشرع في ذكر السر أي: هو الدال على هوية الحق تعالى التي لا يعرفها إلا هو، ولهذا صار أعرف أسماء الله من الضمائر المستعملة فيه تعالى التي هي أقوى في الدلالة من الأعلام لكونها مفتقرة إلى النعوت بخلاف الضمائر؛ فإنه لا افتقار لها. [انظر: شرح حكم الشيخ الأكبر للكردي (ص ٣٥٦) بتحقيقنا].

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا والغفلة عن ذكر الله وإرسال الجوارح في معاصي الله، وسبب حياته ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا والاشتغال بذكر الله وصحبة أولياء الله.
وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فعلت من الزلات، وصحبتك للغافلين الأموات، وذلك لأن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة، وصدور المعصية =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من علامات موت القلب» أي: قلب المريد «عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات» أي: الطاعات، «وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات» أي: من الزلات التي توجد منك وعلامة حياته بالأنوار الإلهية، وإن لم تدركها لغلظ حجابك.

أما حزنك على ما فاتك من الطاعات، وندمك على ما فعلت من الزلات، فتفرح بصدور الأعمال منك فرحًا شديدًا، وتغتم على صدور المخالفات، فذلك دليل على أنك من أهل الإرادة المحبوبين لله، فجد في السير ولا تكسل.

الحكمة التاسعة والخمسون

«لا يعظمُ الذنبُ عِنْدَكَ عظمةً تصدُّكَ عن حُسْنِ الظنِ بالله تعالى[1]»

=

علامة الشقاوة؛ فإن كان القلب حيًّا بالمعرفة، والإيمان آلمه ما يوجب شقاوته وأفرحه ما يوجب سعادته، أو تقول: صدور الطاعة من العبد علامة على رضا مولاه وصدور المعصية علامة على غضبه، فالقلب الحي يحس بما يرضيه عند مولاه فيفرح وما يسخطه عليه فيحزن، والقلب الميت لا يحس بشيء قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية، لا يفرح بطاعة وموافقة ولا يحزن على زلة ولا معصية كما هو شأن الميت في الحس، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ سَرَّتْهُ حسناتُهُ وسَاءَتْهُ سيئاتُهُ؛ فهوَ مُؤمنٌ».

وقال عبد الله بن مسعود: المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، والفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه؛ فقال: به هكذا فأطاره انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الناس في الخوف والرجاء على ثلاثة أقسام: أهل البداية: ينبغي لهم تغليب جانب الخوف، وأهل الوسط: ينبغي لهم أن يعتدل خوفهم ورجاؤهم، وأهل النهاية: يغلبون جانب الرجاء.

أما أهل البداية: فلأنهم إذا غلَّبُوا جانب الخوف جدوا في العمل، وانكفوا عن الزلل فبذلك تشرق نهايتهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وأما أهل الوسط: فلأنهم قد انتقلت عبادتهم إلى تصفية بواطنهم؛ فعبادتهم قلبية فلو غَلَّبُوا جانب الخوف لرجعوا إلى عبادة الجوارح والمطلوب منهم عبادة البواطن على رجاء الوصول وخوف القطيعة فيعتدل خوفهم ورجاؤهم.

وأما الواصلون فلا يرون لأنفسهم فعلًا ولا تركًا فهم ينظرون إلى تصريف الحق وما يجري به سابق القدر فيتلقونه بالقبول والرضا فإن كان طاعة شكروا وشهدوا منة الله، وإن كان معصية اعتذروا وتأدبوا ولم يقفوا مع أنفسهم إذ لا وجود لها عندهم، وإنما ينظرون إلى ما يبرز من عنصر القدرة فنظرهم إلى حلمه وعفوه وإحسانه وبره أكثر من نظرهم إلى بطشه وقهره، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

=

فإنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ استصغرَ في جنبِ كرمِه ذَنْبَهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله»، بأن يوقعك في اليأس والقنوط، فهذه غفلة مذمومة قادحة في الإيمان، وهي شر عليك من ذنوبك، وسببها جهلك بصفة مولاك ووقوفك مع نفسك، «فإنه من عرف ربه»[1] معرفة حقيقية «استصغر في جنب

=

وتأمل قضية الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ثم سأل راهبًا، فقال له: هل لي من توبة؟ فقال له: لا توبة لك، فكمل به المائة ثم أتى عالمًا، فسأله فقال له: من يحول بينك وبينها، ولكن اذهب إلى قرية كذا؛ ففيها قوم يعبدون الله فكن فيهم حتى تموت فلما توسط الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إليهم أن قيسوا القرية التي خرج إليها والقرية التي خرج منها فإلى أيهما كان أقرب؛ فهو من أهلها فأوحى الله إلى القرية التي يريد أن تقاربي وإلى القرية التي خرج منها أن تباعدي فوجد أقرب إلى القرية التي يريد بشبرٍ فأخذته ملائكة الرحمة، والحديث في الصحيحين نقلته بالمعنى.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: العامة إذا خُوِّفُوا خافوا، وإذا رُجُّوا رَجَوا، والخاصة متى خُوِّفُوا رَجَوا، ومتى رُجُّوا خافوا.

قال في «لطائف المنن»: ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر فإذا خُوِّفُوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله، وأهل الله إذا خُوِّفُوا رَجَوا عالمين أن من وراء خوفهم وما خوفوا به أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من مِنَّتِهِ فاحتالوا على أوصاف كرمه علمًا منهم ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك إليه، وإذا رجوا يخافون غيب مشيئته الذي هو من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما ظهر من الرجاء اختبارًا لعقولهم هل تقف مع الرجاء أو تنفذ إلى ما بطن في مشيئته فلذلك أثار الرجاء خوفهم انتهى.

ودخل الجنيد ﷺ على شيخه السري فوجده مقبوضًا فقال له: ما لك أيها الشيخ مقبوضًا؟ فقال: دخل عليَّ شاب فقال لي: ما حقيقة التوبة؟ فقلت له: أن لا تنسى ذنبك، فقال الشاب: بل التوبة أن تنسى ذنبك ثم خرج عني، قال الجنيد: فقلت الصواب ما قاله الشاب؛ لأني إذا كنت في حالة الجفاء ثم نقلني إلى شهود الصفاء فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: بل من عرف ربه غاب عن رؤية ذنبه لفنائه عن نفسه بشهود ربه فإن صدر منه فعل يخالف الحكمة غلب عليه شهود النعمة، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾[الحجر: ٥٠] فإنما هو لمن لم يتب.

وقال رسول الله ﷺ: «لو أذنبتُمْ حتَّى تبلغَ خطاياكُمْ عَنَانَ السماءِ ثُمَّ تُبْتُمْ لتابَ الله عليكُمْ، ولو أنَّ العبادَ لم يذنِبُوا لذهبَ الله بهم ثم جاءَ بقومٍ آخرينَ يُذْنِبُونَ فيستغفرونَ فيغفرُ لهم، وهو الغفورُ الرحيمُ»، «والله أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ من الظَّمْآنِ الواردِ، ومنَ العقيمِ الوالدِ، ومن الضالِّ الواجدِ لكن لا ينبغي أن يَصْغُرَ عنده ذنبُه حتى يغترَّ بِحِلْمِ الله».

=

كرمه ذنبه»، فأي ذنب لا يسعه عفوه سبحانه؟!

أما عظمة الذنب التي تحمل مرتكبه على التوبة منه والإقلاع عنه، وصدق العزم على ألا يعود إلى مثله؛ فهي عظمة محمودة، وهي من علامات إيمان العبد.

قال ابن مسعود: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل خاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، قال به هكذا فأطاره».

ويقال: إن الطاعة كل ما استصغرت، كبرت عند الله، وإن المعصية كل ما استعظمت صغرت عند الله.

الحكمة الستون

«لا صَغِيرةً إذا قابلَكَ عَدْلُهُ، ولا كبيرةً إذا واجَهَكَ فَضْلُهُ»[1]

=

وقد أوحى الله إلى داود ﷺ: يا داود! قل لعبادي الصِّدِّيقين: لا يغتروا؛ فإني إن أُقم عليهم عدلي وقسطي أعذِّبْهُم غيرَ ظالمٍ لهم، وقل لعبادي المذنبين: لا يقنطوا؛ فإنه لا يعظم عليَّ ذنب أغفره لهم انتهى.

وقال الشيخ أبو العباس ﷺ في حزبه: إلهي معصيتك نادتني بالطاعة وطاعتك نادتني بالمعصية؛ ففي أيها أخاف، وفي أيها أرجو؟ إن قلت بالمعصية قابلتني بفضلك فلم تدع لي خوفًا، وإن قلت بالطاعة قابلتني بعدلك فلم تدع لي رجاء؛ فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك؟! انتهى.

ومعنى كلام الشيخ ﷺ: أن العبد إذا كان في المعصية شهد قهرية الحق وعظمته وضعف نفسه وعجزه اكتسب من المعصية انكسارًا وذلًا لنفسه وتعظيمًا وإجلالًا لربه، وهذا أفضل الطاعات فقد نادته معصيته التي هو فيها بالطاعة التي يجتنيها منها، وإذا كان في الطاعة ربما شهد فيها نفسه وقصد متعته وحظه فأشرك بربه وأخلّ بأدبه، وهذه معصية فإذا كان في الطاعة نادته بهذه المعصية التي يجتنيها منها؛ فلا يدري من أيها يخاف وأيها يرجو؟ وقوله: «إن قلت بالمعصية... إلخ».

أي: إن نظرت إلى صورة المعصية قابلتني بفضلك فامتحى اسمها واندرس رسمها، وإن نظرت إلى صورة الطاعة قابلتني بعدلك فاضمحلت وامتحت، وبقي محض الرجاء من الكريم الوهاب الذي يعطي بلا سبب، ويغطي بحلمه المناقشة والعتاب، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الصغيرة هي الجريمة التي لا وعيد فيها من القرآن، ولا من الحديث والكبيرة هي التي توعَّد عليها بالعذاب أو الحد في القرآن أو في السنة، وقيل غير ذلك هذا كله بالنظر لظاهر الأمر. وأما باعتبار ما عند الله من أمر غيبه وبالنظر إلى حلمه وعدله؛ فقد يبرز خلاف ما يظن، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]، فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:٧٠]، إن كانت الأعمال علامات فقد تختلف في بعض المقامات فوجب استواء الرجاء والخوف في بعض المقامات والتسليم لله في كل الأوقات إذ قد تمت كلمات ربك صدقًا وعدلًا لا مبدل لكلماته؛ فإذا قابلك الحق سبحانه وتعالى بعدله وجلاله لم تبق لك صغيرة =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا صغيرة» من ذنوبك، بل كلها كبائر «إذا قابلك عدله»، وهو تصرفه في ملكه من غير هجرة عليه، فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه الله تعالى ومقته بطلب حسناته، عادت صغائره كبائر، «ولا كبيرة إذا واجهك فضله»، وهو إعطاء الشيء بغير عوض، بل جميع ذنوبك حينئذ صغائر، فإذا ظهرت صفة الفضل لمن أحبه، اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر.

ولذا قال الشاذلي -قدس الله سره: واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت.

الحكمة الواحدة والستون

«لا عملَ أرجى للقبولِ من عملٍ يغيبُ عنك شهودُهُ ويَتَحَقَّرُ عندك وجودُهُ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا عمل أرجى للقبول» أي: لقبول الله له «من عمل يغيب عنك شهوده»، بأن تشهد بأن الذي وفقك له هو الله تعالى، ولولاه ما صدر منك ذلك العمل، «ويحتقر عندك وجوده»، بألا تعتمد عليه في تحصيل أمر من الأمور كالوصول إلى الله والقرب منه، ونيل الدرجات والمقامات لرؤيتك والتقصير فيه وعدم سلامة من الآفات المانعة من قبوله.

وفي بعض النسخ «يقول الشرقاوي»: أرجى للقلوب(٢) أي: لصلاحها.

=

وعادت صغائرك كبائر وإذا واجهك الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه وجماله لم تبق لك كبيرة وعادت كبائرك صغائر.

قال يحيى بن معاذ الرازي ﷺ: إذا أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة، وإذا وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة انتهى.

وقيل: لو وُزِنَ رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما على الآخر بل المؤمن كالطائر بين جناحين أو كما قيل.

وحديث الرجل الذي تمد له تسع وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر ثم تخرج له بطاقة قدر الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتطيش تلك السجلات يدل على عظيم حلمه ورحمته وشمول كرمه ومنته.

(١) قال النهرجوري -رحمه الله: من علامات من تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهدته، وقلة المراعاة في فقره؛ فتكون جميع أحواله عنده مرضية، ويزداد فقرًا إلى الله في قصده وسيره حتى يغنى عن كل شيء دونه انتهى.

(٢) فيه نظر؛ إذ في كثير من النسخ بلفظ «القبول»، وهو أرجح بسياق الجمع بين الرجاء والقبول، وكون كلمة القلوب بصيغة الجمع، ولو كان بالمفرد لكان أوجه فيه.

يقول السياجي يغفر الله له:

«لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده» أي: يعمل في الخفاء، فلا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك، فتتجنب آفة الرياء والسمعة، وكالصلاة بالليل والناس نيام، فلا شهود على صلاتك إلا من صليت له وطرقت في أنوار السحر أبوابه حتى يفتح لك من أنوار قدسه، وفيوضات كراماته.

الحكمة الثانية والستون

«إنَّما أوردَ عليكَ الواردَ لتكونَ بهِ عليهِ وارِدًا»[1]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إنما أورد عليك» أيها المريد «الوارد»، يطلق الوارد على ما يتحف الله عبده من العلوم الوهبية والأنوار العرفانية التي ينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه، فيري الحق حقًّا والباطل باطلًا، ويطلق على تجل إلهي يرد على القلب، وإن لم يشعر به العبد لغلظ بشريته.

وقد يعبر عنه بالحال، وهذا هو المراد هنا «لتكون به عليه واردًا» أي: مقبلًا على الدخول في حضرته، ومعلوم أن الدخول في تلك الحضرة لا يكون إلا لقلب خالص مما يكدره.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الوارد نور إلهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده، وهو على ثلاثة أقسام على حسب البداية والوسط والنهاية أو تقول على حسب الطالبين والسائرين والواصلين.

القسم الأول: وارد الانتباه وهو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، وهو لأهل البداية من الطالبين فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه طالبًا لربه، فيقبل عليه بقلبه وبقالبه، وينجمع عليه بكليته.

القسم الثاني: وارد الإقبال، وهو نور يقذفه الله في قلب عبده؛ فيحركه لذكر مولاه ويغيبه عما سواه فلا يزال مشتغلًا بذكره غائبًا عن غيره حتى يمتلأ القلب بالنور، ويغيب عما سوى المذكور، فلا يرى إلا النور فيخرج من سجن الأغيار، ويتحرر من رق الآثار.

القسم الثالث: وارد الوصال، وهو نور يستولى على قلب العبد ثم يستولى على ظاهره وباطنه، فيخرجه من سجن نفسه، ويغيبه عن شهود حسه.

وقد أشار إلى القسم الأول وهو وارد الانتباه بقوله: «إنما أورد عليك... إلخ» أي: إنما أشرق عليك نور اليقظة والانتباه، وهو الوارد لتكون بسببه واردًا عليه وسائرًا إليه، ولو لم يورد عليك هذا الوارد لبقيت في وطن غفلتك نائمًا في سكرتك دائمًا في حسرتك.

الحكمة الثالثة والستون

«أورد عليكَ الواردَ ليَتسلَّمَكَ من يَدِ الأغيارِ، وليُحَرِّرَكَ من رِقِّ الآثارِ»[١]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار».

الأغيار والآثار هي الأغراض الدنيوية وشهوات النفوس؛ فهي غاصبة لك لحبك لها، وسكونك إليها، واعتمادك عليها.

فأورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك، ويحررك من ملكية من استرقك، فلا يكون للمخلوق فيك نصيب ولا شركة، وتكون سالمًا لله ﷻ، فتصلح للحضور معه.

الحكمة الرابعة والستون

«أوردَ عليكَ الواردَ ليُخْرِجَكَ من سِجنِ وجودِكَ إلى فضاءِ شُهُودِكَ»[٢]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك»، أي: صفاتك القائمة به، المانعة لك من شهود مولاك، كالسجن المانع للمسجون من الخروج «إلى فضاء شهودك» أي: شهودك للمولى الشبيه بالفضاء لعدم وجود شيء يحول عن الرؤية.

---

(١) قال الشيخ جمال الدين الوفائي: الواردات وارد بتنـزيه الرب وتوحيده فرباني، ووارد يحرك لطاعة معينة بقوة وعزم فقلبي، ووارد يحرك لأنواع الطاعات فملكي، وربما يكون وارد الخير من القلب والملك والأكثر للأكثر من الملك، والأقل للأقل من القلب؛ لأن طهارة القلوب قليلة جدًّا، والطوارق طارق يطرق القلب باضطراب، ومسارعة لمعصية فشيطاني، وطارق يطرق بقصد جهة معينة فنفساني، وربما يكون من النفس والشيطان وعنهما تتولد المعصية؛ فافهم.

فإذا ورد وارد الخير عقب الطاعة فخير، وإذا طرق طارق الشر عقب المعصية فشر، وإذا جهل الفرق بين الوارد والطارق فيعرض على ما أمر به شرعًا، فإن وافق حكم الله فنور وإلا فظلمة.

الوارد يرد كفيله، العطاس لا يرد إذا ورد ولا يستجلب بالالتماس، الوارد يرد من حضرة اسمه القهَّار، لهذا يمحق الأوصاف والآثار، الوارد يكون للسالك مع الأوراد، ولأهل العناية بلا اختيار ولا مراد، الوارد يكون من الملك والجان، ومن الحق في حضرة العيان، الوارد ما أفاد الفوائد، وعلم غرائب الفرائد. [انظر: قوانين حكم الإشراق ص (١٢٧)].

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما أورد عليك وارد الوصال بعد أن أهبَّ عليك نفحات الإقبال ليخرجك من سجن رؤية وجودك إلى فضاء: أي اتساع شهودك لربك فرؤيتك وجودك مانعة لك من شهود ربك إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه، وجودك ذنب لا يقاس به ذنب؛ فالفناء عن النفس وزوالها أصعب من الفناء عن الكون وهدمه فمهما زالت النفس وهدمت انهدم الكون ولم يبق له أثر، وقد يهدم الكون، وتبقى في النفس بقية؛ فلذلك قدم الشيخ رق الأكوان على سجن وجود الإنسان، والله تعالى أعلم.

قال بعضهم: سجنك نفسك، إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد، وهي الدخول في حضرة الرب، ويصح أن يكون المعنى: أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا أي: مقبلًا عليه بالاشتغال بالطاعة وأنواع المجاهدات، فتشتغل بذلك مع بقائك بأوصاف نفسك وشهواتها المقتضية عدم الإخلاص في العبادة فيرد عليك وارد آخر ليخلصك من ذلك ويحصل لك الإخلاص.

فإذا حصل لك ربما تركن إليه وتعتمد عليه في قبول أعمالك ووصولك بها إلى حضرة قربه، وذلك باطل، فيرد عليك وارد ثالث تغيب به عن رؤية نفسك، وتشاهد به مولاك بسرك، وتكون سالمًا لله ﷻ، فتصلح للحضور معه.

الحكمة الخامسة والستون

«الأنوارُ مَطَايَا القلوبِ والأسرارِ»[(١)]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الأنوار» الإلهية التي ترد على قلب المريد من حضرة الرب وتحصل غالبًا من الأذكار والرياضات «مطايا القلوب» توصلها إلى مطلوب التي هي متوجهة له وهو دخولها حضرة

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النور نكتة تقع في قلب العبد من معنى اسم أو صفة يسري معناها في كليته حتى يبصر الحق والباطل إبصارًا لا يمكنه التخلف معه عن موجبه، قاله الشيخ زروق.

والمطايا جمع مطية وهي الناقة المهيئة للركوب، والقلوب جمع قلب، وهو الحقيقة القابلة للمفهومات، والأسرار جمع سر وهو الحقيقة القابلة للتجليات، والسر أدق وأصفى من القلب، والكل اسم للروح، فإن الروح مادامت متظلمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفسًا، فإذا انزجرت وانعقلت انعقال البعير سميت عقلًا فمازالت تتقلب في الغفلة والحضور؛ لذلك سميت قلبًا فإذا اطمأنت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سميت روحًا فإذا تصفت من غبش الحس سميت سرًّا لكونها صارت سرًّا من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها، وهو سر الجبروت فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أُنسه، أمده بواردات الأنوار كالمطايا فيحمل عليها في محفة العناية مروحًا عليه بنسيم الهداية محفوفًا بنصرة الرعاية، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سرًّا من أسرار الله لا يعلمها إلا الله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، فالأنوار التي هي الواردات مطايا القلوب تحملها إلى حضرة علام الغيوب، وهي أيضًا مطايا الأسرار تحملها إلى جبروت العزيز الجبار فالسلوك هداية، والجذب عناية فوارد الانتباه والإقبال حمله سلوك ووارد الوصال حمله جذب، فالأنوار التي هي مطايا القلوب تحملهم على وجهة السلوك إلا أنهم محمولون فيه بحلاوة نور الانتباه والإقبال فصار سلوكهم كأنه جذب، وأما الأنوار التي تحملهم على مطايا الأسرار؛ فإنها تحملهم على جهة الجذب ممزوجًا بسلوك فيكونون بين جذب وسلوك وهذا الحمل أعظم، والله تعالى أعلم.

الرب، والقرب منه كتوصيل المطية راكبها إلى مطلوبه، «والأسرار» أي: مطايا الأسرار أيضًا جمع سر، وهو باطن القلب عند الصوفية ولا التفات لمن جعله عين القلب؛ لأنه خلاف اصطلاحهم.

الحكمة السادسة والستون

«النُّورُ جُنْدُ القلبِ كمَا أنَّ الظُّلمةَ جُنْدُ النَّفسِ فإذا أرادَ الله أنْ ينصرَ عبدَهُ أَمَدَّهُ بجنودِ الأنوارِ وقطعَ عنهُ مَدَدِ الظُّلَمِ والأغيارِ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الظلمة نكتة تقع من الهوى في النفس عن عوارض الوهم، فتوجب العمى عن الحق لتمكن الباطل من الحقيقة، فيأتي العبد ويذر على غير بصيرة قاله الشيخ زورق.

وقد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر أسماء لمسمى واحد، وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة في هذا القالب الجسماني الظلماني، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها، وتنقل أطوارها، ومثال ذلك كماء المطر النازل في أصل الشجر ثم يصعد في فروعها فيظهر ورقًا، ثم نورًا وأزهارًا، ثم يعقد ثمرة، ثم ينمو حتى يكمل، فالماء واحد واختلفت أسماؤه باختلاف أطواره، هكذا قال الساحلي في بغيته.

وقد نظمت في ذلك قصيدة ذُكرت في غير هذا الكتاب، فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة التي هي محل النفس إلى وطن النور، الذي هو القلب وما بعده، فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها، وهي تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها، فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى الحضرة التي هي أصله، وفيها كان وطنه وكأنها جنود له من حيث أنه يتقوى بها وينتصر على ظلمة النفس.

وهذه الأنوار هي الواردات المتقدمة، والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحلتها صارت كأنها جنود لها، وهي ظلمة من حيث أنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شموس العرفان، فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة رحل إليها القلب بجنود أنواره، فيلتحم بينهما القتال فإذا أراد الله عناية عبده ونصره أمد قلبه بجنود الأنوار، وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار، فيستولى النور على الظلمة وتولي النفس منهزمة، وإذا أراد الله خذلان عبده أمد نفسه بالأغيار، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار فيأتي المنصور بالأمر على وجهه والمخذول بالشيء على عكسه.

قال الشيخ زروق ﷺ: وأمداد الأنوار ثلاثة: أولها: يقينٌ لا يخالطه شك ولا ريب، الثاني: علم تصحبه بصيرة وبيان، الثالث: إلهام يجري بعد العيان.

وأمداد الظلم ثلاثة: أولها: ضعف اليقين، الثاني: غلبة الجهل على النفس، الثالث: الشفقة على النفس وذلك كله أصله الرضا عن النفس وعدمه ومظهره الثلاث المرتبة عليه، وهي المعاصي والشهوات والغفلات وأضدادها المتقدمة في الباب الثالث؛ فافهم انتهى.

ولما كان النور هو جند القلب، لأنه يكشف عن حقائق الأشياء؛ فيتميز الحق من الباطل، فيحق الحق ويبطل الباطل، فينتصر القلب بإقباله على الحق على بينة واضحة، وتنهزم النفس بانهزام جند ظلماتها، إذ لا بقاء للظلمة مع وضوح النور.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«النور جند القلب» أي: يتوصل به إلى ما يقصده ويتوجه إليه، وهو حضرة الرب كما يتوصل الأمير بجنده إلى ما يقصده من غلبة عدوه، وهذا مستفاد مما قبله، وإنما أتي به توطئة لقوله: «كما أن الظلمة» وهي طبيعة العبد «جند النفس» تتوصل بها إلى مقصودها وهي الشهوات والأغراض العاجلة، ومازالت الحرب واقعة بين القلب والنفس «فإذا أراد الله أن ينصر عبده» أي: يعينه على نفسه وقمع شهواتها، «أمده» أي: أمد قلبه «بجنود الأنوار» أي: بجنود هي الأنوار، أو بالأنوار الشبيهة بالجنود، فإنها إذا حصلت له أدرك قبح الشهوات العائقة عن الوصول إلى الله تعالى، «وقطع عنه مدد الظلم والأغيار» أي: مددًا هو الظلم والأغيار، وهما بمعنى واحد، وإذا أراد خذلانه فعلى العكس من ذلك، فإذا مال القلب إلى عمل صالح كصوم غد ومالت النفس إلى شهوة كالفطر وتنازعًا وتقاتلًا، سارع النور الذي هو من الله تعالى ورحمة إلى نصرة القلب، والظلمة إلى نصرة النفس، وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجنديين، لا سبيل للعبد إلا فزعه إلى الله وتوكله عليه، وهكذا في كل عمل صالح إلى أن يصل إلى الله تعالى فينقطع حينئذ حكم النفس وتصير مقهورة مغلوبة.

الحكمة السابعة والستون

«النورُ له الكشفُ والبصيرةُ لها الحُكْمُ والقلبُ له الإقبالُ والإدبارُ»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النور من حيث هو من شأنه أن يكشف الأمور ويوضحها حتى حسنها من قبيحها، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يقبل على ما يثبت حسنه ويدبر عن ما يثبت قبحه، أو تقول: يقبل على ما فيه نفعه ويدبر عما فيه ضرره، ومثال ذلك: رجل دخل بيتًا مظلمًا فيه عقارب وحيات، وفيه سبائك ذهب وفضة، فلا يدري ما يأخذ ولا ما يذر ولا ما فيه نفع ولا ضرر فإذا أدخل فيه مصباحًا رأى ما ينفعه وما يضره وما يأمنه وما يحذره كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرِّق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره، وما ينفعه وفرق بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، أي: نورًا يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وهذا النور الذي يكشف الأمور هو نور الواردات المتقدمة الذي هو مطايا القلوب إلى علام الغيوب.

أولها: نور وارد الانتباه ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة، ويظهر نور اليقظة فتحكم البصيرة بقبح الغفلة وحسن اليقظة، فيقبل القلب حينئذ على ذكر ربه ويدبر عما يغفله عن ربه، وهذا هو نور الطالبين.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«النور» الذي يفيضه الله على قلب المريد «له الكشف» أي: كشف المعاني والمغيبات كحسن الطاعة وقبح المعصية، «والبصيرة» التي هي نظر القلب «لها الحكم» أي: إدراك ذلك ومشاهدته، فكما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات إلا بالأنوار الظاهرية كسراج أو شمس؛ فإنه لا يمكن إدراك البصرية لشيء من المعاني إلا بالأنوار الباطنية، «والقلب له

=

الثاني: نور وارد الإقبال ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار ويظهر بهجة المعارف والأسرار، فتحكم البصيرة بضرر الأغيار وحسن الأسرار، فيقبل القلب على بهجة الأسرار، ويدبر عن ظلمة الأغيار وهذا هو نور السائرين.

الثالث: نور وارد الوصال ومن شأنه أن يكشف ظلمة الكون ورداء الصون، ويظهر نور تجليات المكون، فيقبل القلب على مشاهدة مولاه، ويدبر عن الالتفات إلى ما سواه، وهذا هو نور الواصلين، وهو نور المواجهة ونور ما قبله نور التوجه، وإن شئت هو نور الإسلام والإيمان والإحسان؛ فنور **الإسلام يكشف**: ظلمة الكفر والعصيان، ويظهر نور الانقياد والإذعان فتحكم البصيرة بقبح الكفر والعصيان وحسن نور الإسلام والإذعان فيقبل القلب على طاعة ربه ويعرض عما يبعده من ربه.

ونور الإيمان يكشف: ظلمات الشرك الخفي ويظهر بهجة الإخلاص والصدق الوفي، فتحكم البصيرة بقبح الشرك وضرره وحسن الإخلاص، وخيره فيقبل القلب على توحيد ربه، ويعرض عن الشرك وشره ونور.

الإحسان يكشف: ظلمة السوى، ويظهر نور وجود المولى، فتحكم البصيرة بقبح ظلمة الأثر وحسن نور المؤثر فيقبل القلب على معرفة مولاه، ويغيب بالكلية عما سواه، وإن شئت قلت: هذا النور هو نور الشريعة والطريقة والحقيقة.

فنور الشريعة يكشف: ظلمة البطالة والتقصير ويظهر نور المجاهدة والتشمير، فتحكم البصيرة بقبح البطالة وحسن المجاهدة فيقبل القلب على مجاهدة الجوارح في طاعة مولاه ويدبر عن متابعة حظوظه وهواه.

ونور الطريقة يكشف: ظلمة المساوئ والعيوب ويظهر بهجة الصفاء، وما يثمره من علم الغيوب، فتحكم البصيرة بقبح العيوب وحسن الصفا وعلم الغيوب، فيقبل القلب على ما يوجب التصفية ويدبر عما يمنعه من التخلية والتحلية.

ونور الحقيقة يكشف: ظلمة الحجاب ويظهر له محاسن الأحباب أو تقول: نور الحقيقة يكشف له ظلمة الأكوان ويظهر نور الشهود والعيان، فيقبل القلب على مشاهدة الأحباب داخل الحجاب، ويدبر عما يقطعه عن الأدب مع الأحباب جعلنا الله معهم على الدوام في هذه الدار، وفي دار السلام آمين.

ولما كان أصل كل نور وسر وخير هو طاعة الله، وأصل كل ظلمة وحجاب وبُعد هو معصية الله، ومن علامة حياة القلب؛ فرحه بالطاعة وحزنه على صدور المعصية نبَّهك الشيخ على وجه الفرح بالطاعة التي هي سبب نور القلوب، ومفاتيح الغيوب.

الإقبال والإدبار» على ما كشف للبصيرة، فإذا كشف لها عن حسن الطاعة وقبح المعصية، أقبل القلب على الطاعة وأحبها، فتتبعه الجوارح وأدبر عن المعصية؛ فلا تتلبس بها الجوارح.

هذا ويحتمل أن المعنى أن النور له الكشف عن المغيبات كأسرار القدر، وأنه يحصل في العالم كذا، «والبصيرة لها الحكم» أي: إدراك ذلك، ثم هذا الكشف والإدراك قد لا يكونان تامين، فينبغي للمكاشف أن يثبت في كشفه ولا يعمل بمقتضى ما كشف له ولا يخبر بشيء حتى يستفتي قلبه، إما أن يقبل وإما أن يدبر، ولذا تجد بعض الأولياء يخبر عن أمور لا تقع، وذلك لعدم تثبته في كشفه.

الحكمة الثامنة والستون

«لا تُفْرِحُكَ الطَّاعةُ؛ لأنها برزتْ منْكَ، وافرحْ بها لأنها برزتْ مِنَ الله إليكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تفرحك الطاعة؛ لأنها برزت منك» أي: من حيث صدورها عنك باختيارك وحولك وقوتك؛ فهذا فرح مذموم منهي عنه محبط لها، ولكن «افرح لأنها برزت من الله إليك» أي: من حيث شهودها من الله نعمة منه وفضلًا، فهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد وهو مقتضى شكرها، ثم استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، [يونس: ٥٨] فإيصال تلك الطاعة إليه وإظهارها على يده، اعتناءً من الله سبحانه وتعالى؛ فينبغي أن يفرح بها من تلك الحيثية، لا من حيثية صدورها منه وفعله لها.

الحكمة التاسعة والستون

«قطعَ السائرينَ لهُ والوَاصلينَ إليه عن رُؤْيَة أعمالِهِمْ وشُهُودِ أحوالِهِمْ، أمَّا السائرونَ، فلأنَّهُمْ لم يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ معَ الله فيهَا، وأما الواصلونَ فلأنَّه غَيَّبَهُمْ بشُهُودِهِ عَنْهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«قطع» أي: حجب ومنع «السائرين له، والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم»، الظاهرية، «وشهود أحوالهم» القلبية، لكن السبب في انقطاع الطائفتين عن ذلك مختلف. «أما السائرون، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها»، وذلك لرؤيتهم نقصها بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها، فهم دائمًا متهمون نفوسهم في توفية أعمالهم حقها، وفي صفاء أحوال قلوبهم،

فكان ذلك سببًا في البراءة من رؤيتها وشهودها، «وأما الواصلون، فلأنه غيبهم بشهوده عنها» أي: لأنهم نسبوها إليه تبرؤا من حولهم وقوتهم، فقطعهم عن ذلك شهودهم له في حضرة قربه، ومن شاهد لم يشاهد معه غيره، وقد أسبغ الله النعمة على الفريقين، حيث عافاهم من التعلق بأعمالهم وأحوالهم، إلا أنه فعل ذلك بالسالكين كرهًا، وبالواصلين طوعًا، ولا شك أن هذا المقام أرقى من الأول، ولهذا لما سأل الواسطي أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها، قال لهم: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود منشئها ومجريها! يريد بذلك ترقي همتهم إلى مقام العرفان، لا تحقير ما هم عليه، فإنه من الإحسان.

الحكمة السبعون

«ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلا على بِذْرِ طَمَعٍ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: البسوق هو الطول قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق:١٠]، أي: طويلات والبذر الزريعة والطمع تعلق القلب بما في أيدي الخلق وتشوف القلب إلى غير الرب، وهو أصل شجرة الذل فما بسقت أغصان شجرة الذل إلا على زريعة الطمع.

ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق، وإنما كان الطمع هو أصل الذل؛ لأن صاحب الطمع ترك ربًّا عزيزًا وتعلق بعبدٍ حقيرٍ، فاحتقر مثله ترك ربًّا كريمًا وتعلق بعبدٍ فقيرٍ فافتقر مثله ترك رفع همته إلى الغني الكريم وأسقط همته إلى الدني اللئيم إن الله يرزق العبد على قدر همته وأيضًا كان عبد الله حرًّا مما سواه صار عبدًا للمخلوق وعبدًا لنفسه وهواه؛ لأنك مهما أحببت شيئًا وطمعت فيه إلا كنت عبدًا له ومهما أيست من شيءٍ ورفعت همتك عنه إلا كنت حرًّا منه.

قال في التنوير: وكن أيها العبد إبراهيميًّا فقد قال أبوك إبراهيم -صلوات الله عليه وسلامه: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]، وكل ما سوى الله آفل إما وجودًا وإما إمكانًا، وقد قال سبحانه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل ﷺ فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، قال: فاسأله؟ قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

فانظر كيف رفع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ﷺ ومن سؤله فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله وأنعم عليه بنواله وإفضاله وخصه بوجود إقباله ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة بالود إلى الله لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٧٧]، والغني إن أردت الدلالة عليه؛ فهو في اليأس.

وقد قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: أيست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لها ورجوت
=

=

الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي؟ وهذا هو الكيمياء والإكسير الذي من حصل له حصل له غنى لا فاقة فيه وعز لا ذل معه وإنفاق لا نفاد له وهو كيميا أهل الفهم عن الله تعالى.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: صحبني إنسان وكان ثقيلًا علي فباسطته فانبسط، وقلت: يا ولدي ما حاجتك ولم صحبتني؟ قال يا سيدي قيل لي: إنك تعلم الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك فقلت له: صدقت وصدق من حدثك ولكن إخالك أي: أظنك لا تقبل؛ فقال: بل أقبل، فقلت: نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين: أعداء وأحباء فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشيكوني بشوكة لم يردني الله بها فقطعت نظري عنهم ثم تعلقت بالأحباء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعوني بشيء لم يردني الله به فقطعت يأسي منهم وتعلقت بالله فقيل لي: إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمنا لك في الأزل.

وقال مرة أخرى: لما سئل عن الكيمياء؟ قال أَخْرِجِ الخلق من قلبك، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك، وليس يدل على فهم العبد كثرة علمه، ولا مداومته على ورده إنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشُه إليه بقلبه وتحرزه من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال وتـزكوا الأحوال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]، فحسن الأعمال إنما هو الفهم عن الله والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه والدوام بين يديه، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه وتطهر من الطمع في الخلق فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحرٍ ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم وقدم عليٌّ ﷺ البصرة فدخل جامعًا فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصري، فقال: يا فتى! إني سائلك عن أمر فإن أجبت عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتًا وهديًا؛ فقال الحسن: سل عما شئت؟ فقال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع قال: اجلس فمثلك يتكلم على الناس.

قال: **وسمعت شيخنا أبا العباس المرسي ﷺ يقول:** كنت في ابتداء أمري بالإسكندرية فجئت إلى بعض من يعرفني منه حاجة بنصف درهم فقلت في نفسي: لعله لا يأخذه مني فهتف بي هاتف: السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين.

وسمعته يقول: صاحب الطمع لا يشبع أبدًا ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة الطاء والميم والعين فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق، ولا تذل لهم في شأن الرزق؛ فقد سبقت قسمته وجودك وتقدم ثبوته ظهورك.

واسمع ما قال بعض المشايخ: أيها الرجل ما قدر لماضغيك أن يمضغاه؛ فلا بدَّ أن يمضغاه فكلـه ويحك بعز ولا تأكله بذل انتهى.

وقال أبو الحسن الوراق -رحمه الله: من أشعر نفسه محبة شيء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ومن طمع في شيء ذل له وبذله هلك.

وقال أبو بكر الوراق: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال الشك في المقدور؛ فلو قيل له: ما حرفتك؟ لقال:

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما بسقت»، يقال: بسقت النخلة بسوق، إذا طالت أي: ما طالت «أغصان ذل إلا على بذر طمع»، شبه الذل بشجرة ذات أغصان وفروع، استعارة بالكناية، والأغصان تخييل باقٍ على حقيقته، أو مستعار لأنواع الذل، وبسقت ترسيخ باقٍ على حقيقته، أو بمعنى وجدت وحصلت، وشبه الطمع بالنواة التي تنشأ عنها الشجرة، فإضافة بذر له من إضافة المشبه به للمشبه أي: طمع شبيه بالبذر أي: المبذور الذي تنشأ عنه الشجرة ذات الأغصان، فكأنه يقول: لا تغرس بذر الطمع في قلبك فيخرج منه شجرة الذل وتتشعب أغصانها وفروعها، ولو قال: ما بسقت شجرة الذل لكان أولى؛ لأن الذي يتصف بالطول وينشأ عن البذر هو أصل الشجرة، ووصف الأغصان بذلك بطريق التبع؛ فالطمع من أعظم العيوب القادحة في العبودية، بل هو أصل جميع الآفات؛ لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه.

وسببه الشك في المقدور، ولذا قال بعضهم: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان، فالطامع لا محالة فاسد الدين.

ولذا دخل عليٌّ بن أبي طالب ﷺ جامع البصرة فوجد القصاصين يقصون، فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصري، فقال: يا فتى! إني أسألك عن أمر، فإن أجبتني فيه أبقيتك، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتًا وهديًا، فقال الحسن: سل عما شئت، قال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع، قال: اجلس، فمثلك من يتكلم على الناس.

والورع الذي يقابل الطمع هو ورع الخاصة، هو صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وطمأنينة القلب به، لا ورع العامة، وهو ترك الشبهات، وعلى هذا، فيقال قياسًا على ما قاله المصنف ﷺ: «ما بسقت أغصان عزٍّ إلا على بذر ورع».

الحكمة الواحدة والسبعون

«ما قَادَكَ شيءٌ مِثلُ الوهمِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

=

اكتساب الذل، فلو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان انتهى.

«ما قادك شيء مثل الوهم»، يعني: أن الوهم سبب في الطمع في الناس، وذلك كاف في قبحه؛ لأن الوهم الذي أصله شيء عدمي، إذ هو عبارة عن التخيل والحسبان التقديري، لكن النفوس منقادة له أتم من انقيادها إلى العقل.

ألا ترى إلى الطبع ينفر من الحية لتوهم الضرر فيها، بل من الحبل المبرقش لكونه على صورتها، ولو انقادت للعقل لم تنفر لأن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، فلا يسلم من الطمع في الخلق والرغبة فيما بأيديهم إلا أهل الورع الخاص، وهم أهل القناعة والتوكل الذين سقط من قلوبهم علاقات الخلق، فلا يهتمون للرزق.

الحكمة الثانية والسبعون

«أنتَ حُرٌّ مما أنتَ عنه آيِسٌ وعبدٌ لما أَنْتَ فيهِ طَامِعٌ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان الإنسان حرًّا مما أيس منه؛ لأنه لما أيس من ذلك الشيء رفع همته عنه وعلقها بالملك الحق فلما علق همته بالملك الحق سخر الحق له تعالى له سائر الخلق فكانت الأشياء كلها عبيدًا له ومسخرةً لأمره، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك. فمن كان عبدًا لله كان حرًّا مما سواه وإنما كان الإنسان عبدًا لما طمع فيه لأن الطمع في الشيء يقتضي المحبة له والخضوع والانقياد إليه فيكون عند أمره ونهيه لأن حبك الشيء يعمي ويصم وهذه حقيقة العبودية وفي هذا المعنى قيل: العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع، وما أقبح الإنسان الذي يريد سيده منه أن يكون ملكًا، وهو يريد أن يكون مملوكًا يريد سيده أن يجعله حرًّا وهو يريد أن يكون عبدًا خلق له سيده الكون بأسره خادمًا له عند نهيه وأمره فجعل هو يخدم الكون بنفسه ويتعبد لأقل شيء وأخسه.

يقول المصنف في التنوير في مناجاة الحق تعالى على ألسنة الهواتف: إنا أجللنا قدرك أيها العبد أن نشغلك بأمر نفسك، فلا تضعن قدرك يا من رفعناه ولا تذلـن بحوالتـك على غيري يا من أعززناه ويحك أنت أجل عندنا من أن تشتغل بغيرنا لحضرتي خلقتك وإليها طلبتك وبجواذب عنايتي لها جذبتك، فإن اشتغلت بنفسك حجبتك وإن اتبعت هواها طردتك وإن أخرجت عنها قربتك، وإن توددت لي بإعراضك عما سواي أحببتك انتهى.

فتحصل أن محبة الأشياء والطمع فيها هو سبب الذل والهوان والتعبد لسائر الأكوان وأن الإياس من الأشياء ورفع الهمة عنها هو سبب العز والحرية والتيه على الأقران.

قلت: وهذا هو الغنى الأكبر والإكسير عند الأكياس، ويسمى في اصطلاح الصوفية الورع أعني: الورع الخاص وهو رفع الهمة عن السوى.

قال في «لطائف المنن»: واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل فإن من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغيره أو يميلوا بالحب لغيره، أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره، ومن ورعهم ورعهم عن الخوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب، ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون إلى أنوار التجليات، ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا، أو توقفهم الآخرة: تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الآخرة صفاء.

=

=

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء ﷺ: خرجت من بغداد أريد الموصل، فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت علي بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها فعرضت علي الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها، فقيل لي يا عثمان: لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك.

قال الشيخ عبد الرحمن المغربي ﷺ: وكان مقيمًا بشرقي الإسكندرية: حججت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية فإذا النداء علي إنك العام القابل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت العام القابل ها هنا فلا أعود إلى الإسكندرية. فخطر عليَّ الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن فأنا يومًا على ساحلها أمشي، وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادة على البحر ومشى على الماء فقلت في نفسي لم أصلح للدنيا ولا للآخرة فإذا عليَّ يُقال: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

وقال أبو الحسن ﷺ: الورع نعم الطريق لمن عُجِّلَ ميراثُهُ وأُجِلَّ ثوابُه، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم، لا يُدَبِّرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فهم مجموعون في عين الجمع لا يفترقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى.

وأما أدنى الأدنى فالله يورعهم عنه ثوابًا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث، فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى وميراثه التعززُ لخلقه والاستكبار على مثله والدلالة على الله بعلمه، فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقارًا لربه واحتقارًا لنفسه وتواضعًا لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيرًا من الصالحين بصلاحهم عن مُصلِحِهِم، كما قطع كثيرًا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦] انتهى.

فانظر فهَّمك الله سبيل أوليائه ومن عليك بمتابعة أحبائه هذا الورع الذي ذكره هذا الشيخ ﷺ، هل كان فهمك يصل إلى هذا النوع من الورع؟ ألا ترى قوله: قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة، والبصيرة الفائقة، فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المتنطعين الذي ينشأ عن سوء الظن وغلبة الواهم انتهى.

قلت: هذا الورع الذي ذكره الشيخ هو ورع الخواص أو خواص الخواص، وهو الذي يقابل الطمع كما تقدم في قول الحسن البصري ﷺ: صلاح الدين الورع وفساد الدين الطمع لا ورع العوام الذي هو ترك المتشابه والحرام، فإنه لا يقابل الطمع كل المقابلة، وحاصله صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون إليه وعكوف الهم عليه وطمأنينة القلب به حتى لا يكون له ركون إلى شيء من السوى؛ فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع المفسد وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد.

قال يحيى بن معاذ ﷺ: الورع على وجهين ورع في الظاهر، وهو ألا تتحرك إلا لله وورع في الباطن، وهو

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أنت حر مما أنت عنه آيس» أي: من كل ما أنت آيس منه، «وعبد لما أنت فيه طامع» أي: من كل ما أنت طامع فيه، فعز بمعنى من، وفي هذا دليل آخر لقبح الطمع ومدح الإياس من الخلق، والقناعة بالرزق المقسوم، وبيانه أن الطمع في الشيء عبودية، كما أن اليأس في الشيء حرية منه؛ لأنه يدل على فراغ القلب منه وغناه عنه.

فالطامع عبد واليائس حر، ولذلك قيل: «العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع»، والقناعة هي السكون عند عدم المألوف وهي أول الزهد.

الحكمة الثالثة والسبعون

«مَنْ لمْ يُقْبِلْ على الله بِمُلاطَفَاتِ الإحسانِ قُيِّدَ إليه بسلاسلِ الامتحانِ»[1]

=

ألا يدخل قلبك إلا الله.

ذُكِرَ أن بعضهم كان حريصًا على أن يرى أحدًا ممن هذا صفته، فجعل يجتهد في طلبه ويحتال على التوصل إليه بأن يأخذ الشيء بعد الشيء من ماله، ويقصد به الفقراء والمساكين، ويقول لمن يعطيه: خذ لا لك فكانوا يأخذون، ولا يسمع من أحد منهم جوابًا مطابقًا لما أراده إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته، وحصل على مقصوده ومنيته، وذلك أنه قال لأحدهم: خذ لا لك، فقال: له آخذه لا منك فإن كان للعبد استشراف إلى الخلق، أو سبقية نظر إليهم قبل مجيء الرزق أو بعده؛ فمقتضى هذا الورع والواجب في حق الأدب ألا يُنيل نفسه شيئًا مما يأتيه على هذا الحال عقوبة لنفسه في نظره إلى أبناء جنسه كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن حنبل -رضي الله عنهما، وهي معروفة.

وكما روي عن الشيخ أبي مدين ﷺ أنه أتاه حمال بقمح فنازعته نفسه، وقالت: يا تُرى من أين هذا؟ فقال: أنا أعرف من أين هو يا عدوة الله وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لها لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى، وقد قيل: إن أحل الحلال ما لم يخطر على بال ولا سَأَلْتَ فيه أحدًا من النساء والرجال.

قال الشيخ عبد العزيز المهدوي ﷺ: الورع ألا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله في الحركات والسكون فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقي مع الله، فالحركة ظرف لما فيها كما قال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه فإذا رأيت الله ذهبت.

وقال أيضًا: أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط، وهذا مقام التوكل، ولهذا قال بعضهم: الحلال هو الذي لا يُنْسَى الله فيه انتهى على نقل ابن عباد ﷺ، وإذا أراد الله تعالى أن يعز عبده ويرفعه إلى هذا المقام قطع عنه زِمام الوهم والجزع وحرره من رق الطمع، فقاده إليه بملاطفة الإحسان أو بسلاسل الامتحان.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد قسّم الله تعالى عباده ثلاثة أقسام: أهل الشمال، وأهل اليمين، والسابقون، أما أهل الشمال فلا كلام عليهم إذ لا إقبال لهم على الله أصلًا، وأما أهل اليمين فلهم إقبال بوجه ما لكن لا

=

=

خصوصية لهم؛ لأنهم قنعوا بظاهر الشريعة ولم يلتفتوا إلى سلوك طريقة، ولا حقيقة وقفوا مع الدليل والبرهان، ولم ينهضوا إلى مقام الشهود والعِيان، ولا كلام معهم أيضًا، وأما السابقون فقد أقبلوا على الله متوجهين إليه طالبين الوصول إلى معرفته، وهم في ذلك على قسمين:

قسم: أقبل على الله بملاطفة إحسانه وقيامًا بشكر إنعامه وامتنانه، وهم أهل مقام الشكر.

وقسم: أقبل على الله بسلاسل الامتحان، وضروب البلايا والمِحَن وهم أهل مقام الصبر.

فأهل المقام الأول أقبلوا على الله طوعًا، وأهل المقام الثاني أقبلوا على الله كرهًا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[الرعد:١٥].

قال أبو مدين ﷺ: سنة الله استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون؛ لأن مراده ﷻ رجوع العباد إليه طوعًا وكرهًا انتهى.

فقوم بسط الله عليهم النعم وصرف عنهم البلايا والنقم ورزقهم الصحة وأمدهم بالأموال والعافية، فأدوا حقها وقاموا بشكرها وتشوقوا إلى معرفة المنعم بها، فكانت مطية لهم على السير إليه، ومعونة لهم على القدوم عليه أخرجوها من قلوبهم وجعلوها في أيديهم وقليل ما هم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «نِعْمَتِ الدُّنْيَا مَطِيَّةِ المؤمنِ عليها يبلغُ الخيرَ وبها يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ» أو كما قال ﷺ.

قال بعض أصحابنا: جعل ﷺ الدنيا مطية للمؤمن حاملة له ولم يجعل المؤمن مطية لها حتى يتكلف حملها فهذا يدل على أنها في يده يستعين بها على السير إلى ربه لا أنها في قلبه حتى يرتكب المشقة في طلبها، والله تعالى أعلم.

وقد مدح الله الغني الشاكر والفقير الصابر بمدح واحد فقال تعالى في حق سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ﴾[ص:٣٠]، وقال في حق أيوب ﷺ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

وكان الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ يرجح الغني الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله الترمذي الحكيم ﷺ يقول: الشكر صفة أهل الجنة والفقر ليس كذلك قاله في «لطائف المنن».

قال بعض المشايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا، ومن أهل الجد والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوَّت ببعضه فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب، فقال له هذا الزاهد: إذا دخلت على بلدة كذا فاذهب إلى أخي فلان فاقرئه مني السلام، واطلب منه الدعاء فإنه وليٌّ من أولياء الله تعالى، قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة، فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبته قيل لي: هو عند السلطان فازداد تعجبي فبعد ساعة وإذا هو قد أتى في أفخر مركب وملبس وكأنما هو ملك في مركبه قال: فازداد تعجبي أكثر من الأوَّلَين فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنني مخالفة الشيخ فاستأذنت فأذن لي فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان» أي: بملاطفاته إياه بأنواع الإحسان، «قيد إليه بسلاسل الامتحان» أي: بالامتحانات والمصائب الشبيهة بالسلاسل، يعني أن المقتضي لإقبال المريد وغيره على الرب بأنواع الطاعات والتضرع إليه، وجمعية القلب عليه أمران:

الأول: إيراد النعم عليه، فيشكر الله عليها ويقبل على خدمته.

والثاني: إنزال المصائب في بدنه وماله، فيرجع إلى الرب ويتضرع إليه برفعها، وربما كان ذلك سببًا في ترك الاشتغال بالدنيا والتعلق به سبحانه، ومراد الرب من العبد رجوعه إليه طوعًا أو كرهًا.

الحكمة الرابعة والسبعون

«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فقدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ومَنْ شَكَرَهَا فقدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا»(١)

= فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك. قال لي: جئت من عنده؟ قلت: نعم. قال: إذا رجعت إليه فقل له إلى كم اشتغالك بالدنيا وإلى كم إقبالك عليها وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟ فقلت: والله هذا أعجب من الأولى فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم، قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء قال: لا بدَّ أن تقول لي فأعدت عليه ما قال فبكى طويلًا، وقال: صدق أخي فلان هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي ولي إليها بقايا التطلع انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى، وأن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقالوا أيضًا: من أعطي ولم يشكر سلب منها ولم يشعر فمن شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ومن كفرها فقد تعرض لزوالها قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، أي: أن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الشكر وتغييرهم الشكر هو اشتغالهم بالمعاصي والكفر، ولذلك قال الجنيد ﷺ: الشكر ألا يُعصى الله بنعمه، وقيل: الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر وتنكف عن الزواجر.

وقال في «لطائف المنن»: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان؛ فشكر اللسان: التحدث بنعم الله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وشكر الأركان: العمل بالطاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً﴾ [سبأ:١٣]، وشكر الجنان: بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله تعالى، قال الله تعالى:﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[النحل:٥٣].

ومن القسم الأول: قول النبي ﷺ: «التَّحَدُّثُ بالنِّعَمِ شُكْر»، ومن الثاني: أنه ﷺ قام حتى تورمت قدماه فقيل له: أتتكلف كل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكونُ عبدًا شَكُورًا**».

وسئل أبو حازم ﷺ: ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإذا رأيت بهما شرًا سترته، قال: =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها»، يعني أن شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١] أي: إذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات وهي شكر النعم غير الله ما منه من الإحسان والكرم والشكر إما بالقلب بأن تعلم أن النعم كلها من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾، [النحل: ٥٣]، وإما باللسان بأن تتحدث بنعمة الله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وإما بالجوارح بأن تصرفها في طاعة الله، وتكفها عما لا يرضيه.

الحكمة الخامسة والسبعون

«خَفْ مِنْ وُجُودِ إحسانه إليكَ ودوامِ إساءتكَ معه أن يكونَ ذلكَ استدراجًا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[القلم: ٤٤] »[1]

= فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بها خيرًا وعيته، وإذا سمعت بها شرًّا دفنته، قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك، ولا تمنع حقًّا هو لله فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله صبرًا، وأعلاه علمًا، قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿... غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون٥:٦]، قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت شيئًا غبطته استعملتهما، وإن رأيت شيئًا مقته كففتهما انتهى.

واعلم أن الناس في الشكر على ثلاث درجات: عوام وخواص وخواص الخواص؛ فشكر العوام على النعم فقط، وشكر الخواص على النعم والنقم، وشكر خواص الخواص الغيبة في المنعم عن شهود النعم والنقم، والنعم التي يقع الشكر عليها ثلاثة أقسام: دنيوية كالصحة والعافية والمال الحلال ودينية كالعلم والعمل والتقوى والمعرفة وأخروية كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل، وأجلُّ النعم الدينية التي يتأكد الشكر عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة وشكرها هو اعتقاد أنها منة من الله تعالى بلا واسطة ولا حول ولا قوة قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧] ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٨].

قال أبو طالب المكي ﷺ: بعد كلام: فلو قلّب قلوبنا في الشك والضلال كما يقلب نياتنا في الأعمال أي شيء كنا نصنع؟ وعلى أي شيء نُعَوِّل؟ وبأي شيء كنا نطمئن ونرجو؟ فهذا من كبائر النعم ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة، وادِّعاء الإيمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوة وحول هو كفر نعمة الإيمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان لأنه بدَّل شكر نعمة الإيمان كفرًا انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الاستدراج هو كُمون المحنة في عين المنَّة، وهو مأخوذ من درج الصبي أي: أخذ =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«خف من وجود إحسانه إليك ودوام» أي: مع دوام «إساءتك معه» أي: مخالفتك له «أن يكون ذلك استدراجًا» أي: تدريجًا شيئًا فشيئًا حتى يأخذك بغتة، وهذا جواب سؤال ناشئ مما قبله حاصله، إنا نرى كثيرًا من الناس لا يشكر النعم ولا تزول عنه؟ فأجاب بأن ذلك ربما كان استدراجًا ومكرًا من الله به، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ ،أي ندرجهم في ذلك شيئًا فشيئًا حتى نأخذهم بغتة ﴿مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] ، [القلم: ٤٤] أي: أنه استدراج ومكر أي: لا يشعرون بذلك؛ لأنه يأخذهم بغتة، وقيل: نمدهم بالنعم وننسيهم

= في المشي شيئًا بعد شيء، ومنه الدَّرَجُ الذي يُرتقى عليه إلى العلو، وكذلك المُسْتَدْرَجُ هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئًا بعد شيءٍ، وهو لا يشعر، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، أي: نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم، وهم لا يشعرون، قاله الشيخ زروق ﷺ.

فخف أيها المريد من دوام إحسان الحق إليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق ودوام الأمداد الحسية أو المعنوية مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير، وعدم شكرك للملك الكبير أن يكون ذلك استدراجًا منه تعالى؛ قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤].

قال سهل بن عبد الله ﷺ: نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا.

وقال ابن عطاء ﷺ: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ونَسَّيْنَاهم الاستغفار من تلك الخطيئة ثم قال الحق تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم:٤٥]، أي: نمدهم بالعوافي والنعم حتى نأخذهم بغتة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، أي: فلما غفلوا عما ذكّروا به من العقوبة والعذاب فتحنا عليهم أبواب النعم وبسطنا عليهم الأرزاق الحسية ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام:٤٤]، من النعم وتمكنوا منها ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ بالهلاك ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير، وهكذا عادة الله في خلقه أن يرسل إليهم من يُذَكِّرهم بالله، ويدلهم على الله فإذا أعرضوا عنه وردوا عليه قوله بسط عليهم النعم الحسية حتى إذا اطمأنوا وفرحوا بها دمرهم الله، وأخذهم بغتة ليكون ذلك أشد في العقوبة.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، فالواجب على الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة حسية أو معنوية أن يعرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقًا واعتقادًا وعملًا فالنطق الحمد والشكر باللسان والاعتقاد شهود المنعم في النعمة وإسنادها إليه والغيبة عن الواسطة بالقلب مع شكرها باللسان «مَنْ لم يَشْكُرِ النَّاسَ لم يَشْكُرِ الله»، «أَشْكَرُكُمْ لله أَشْكَرُكُمْ للنَّاسِ»، فإذا قال له: جزاك الله خيرًا؛ فقد أدى شكرها والشكر بالعمل صرفها في طاعة الله كما تقدم فإن لم يقم بهذا الواجب خيف عليه السلب والاستدراج وهو أقبح.

الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعم وحجبوا عن الشكر، أخذوا، وقيل: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة.

الحكمة السادسة والسبعون

«مَنْ جَهْلِ المريدِ أنْ يُسِيءَ الأدبَ فَتُؤَخَّرُ العقوبةُ عنه فيقولُ: لو كانَ هذا سوءُ أدبٍ لَقَطَعَ الأمدادَ وأوجبَ البُعَادَ فقد يُقْطَعُ المددُ عنه من حيثُ لا يشعرُ ولو لم يكنْ إلا منعُ المزيد، وقد تُقَامُ مقامَ البُعْد وأنتَ لا تَدْرِي ولوْ لم يَكُنْ إلا أن يُخَلِّيكَ وما تُرِيدُ»[١]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من جهل المريد أن يسيء الأدب»[٢]، إما مع الله تعالى كالاعتراض عليه وتعاطي

---

(١) قال الشيخ الكردي: من تأدب ظاهرًا وباطنًا مع الحق والخلق تهذب ظاهرًا وباطنًا، فإن أساء الأدب في الظاهر عوقب ظاهرًا، وإن أساء الأدب باطنًا عوقب في الباطن، فكل من الأوقات والأحوال والمقامات لها آداب، فمن ضيعها فهو بعيد ومردود، ومن لازمها بلغ غاية المقصود قال الرسول ﷺ: «إن الله أدبني وأحسن أدبي» فهو ﷺ مؤدب ظاهرًا وباطنًا أصالة؛ لأن أدبه بتأديب الحق وغيره، وإن تأدب بتأديب الله تعالى فلا يكون أدبه إلا تبعًا، والأدب الظاهري ألا يرى ميزان الشريعة عن يده والباطني التجلي بمحاسن الأخلاق، بل هو عدم الغفلة طرفة عين من الملك الخلاق.
وقال أبو العباس: «كل سوء أدب يثمر لك الأدب؛ فهو أدب»، فالنفس مجبول على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب فلا يخرج عن عهدة الأمر إلا بمخالفة النفس، ولا يمكن مخالفتها إلا بعد معرفتها بأنها مجبولة على الإساءة هذا لمن سلك الطريق البعيد المسلسل المعوج الذي يوجد الحق في نهايته، وأما صاحب الدائرة؛ فليس له نفس حتى يخالفها فلا كلام معه في كل ما يفعل إلا من أهل الإنكار والعناد والجدال [انظر: شرح حكم الشيخ الأكبر ص (٤٦٩) بتحقيقنا].

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: أما الآداب مع الله باعتبار العوام فبامتثال أمره، واجتناب نهيه، ومع رسوله باتباع السنة، ومجانبة أهل البدعة؛ فإذا قصروا في الأمر أو خالفوا في النهي عوقبوا عاجلًا في الحس أو آجلًا في المعنى والحس، وباعتبار الخواص مع الله بالإكثار من ذكره ومراقبة حضوره، وإيثار محبته، زاد الشيخ زروق: وحفظ الحدود، والوفاء بالعهود، والتعلق بالملك الودود، والرضا بالموجود، وبذل الطاقة والمجهود، انتهى.
ومع رسوله ﷺ بإيثار محبته والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه فإذا قصروا في ذكره أو جالت قلوبهم في غير حضرته أو مالت محبتهم إلى شيء سواه أو قصروا في شيء مما تقدم أو حلوا عقدة عقدوها مع الله عوقبوا في الحس بالضرب أو السجن أو الإذاية باللسان أو في المعنى، وهو أشد كقطع المدد وإيجاب الطرد والإقامة مقام البعد، وباعتبار خواص الخواص، وهم الواصلون يكون مع الله بالتواضع معه في كل شيء، والتعظيم لكل شيء ودوام معرفته في تجليات الجلال والجمال أو مع اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار ومع رسوله ﷺ بالتحقق بحسبه وتعظيم أمته وشهود نوره.

=

=

كما قال أبو العباس المرسي: لي ثلاثون سنة ما غاب عني رسول الله ﷺ طرفة عين، ولو غاب عني ما أعددت نفسي من المسلمين، فإذا قصر العارف فيما تقدم في حقه أو في حق غيره من الآداب عوقب في الحس أو في المعنى والغالب تيقظه في الحين فيستدرك ما فات، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]؛ فهذه جملة الآداب التي تكون مع الله من العوام والخواص وخواص الخواص أو تقول: من الطالبين والسائرين والواصلين، والله تعالى أعلم.

وأما الآداب التي تكون مع الشيخ، فمرجعها إلى ثمانية أمور: أربعة ظاهرة وأربعة باطنة.

فأما الظاهرة: فأولها: امتثال أمره وإن ظهر له خلافه واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه فخطأ الشيخ أحسن من صواب المريد.

وثانيها: السكينة والوقار في الجلوس بين يديه، فلا يضحك بين يديه، ولا يرفع صوته عليه، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام، أو يفهم عنه بقرائن الأحوال، كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين، ولا يأكل معه ولا بين يديه، ولا ينام معه أو قريبًا منه.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ في كتابه: ومن آداب المريد مع الشيخ ألا يأكل معه، ولا ينام معه، ولا يضحك بين يديه، ولا ينام في فراشه، ولا يجلس في موضع جلوسه، ولا يتكلم في مجلس الشيخ ولو كلمة واحدة والكلام فيه سوء الأدب أكثر من كل شيء وكل ما يشبه هذه الأوصاف يؤدي لعدم التعظيم والازدراء بجانب الشيخ وذلك هو الخسران المبين والعياذ بالله من السلب بعد العطاء والطرد بعد الإقبال.

وثالثها: المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله، فخدمة الرجال سبب الوصال لمولى الموالي.

ورابعها: دوام حضور مجلسه، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه، إذ بقدر تكرير الوصال إليه يقرب الوصال، فمدد الشيخ جار كالساقية أو القادوس، فإذا غفل عن الساقية أو القادوس تحزم وانقطع الماء إلى غيره، وأيضًا تكرير الوصول يدل على شدة المحبة وبقدر المحبة تكون الشربة.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل ﷺ في كتابه: اعلم أنه لا يقرب طالب الوصول إلى الله تعالى شيء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده ثم قال: الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين، والجلوس مع العاميّ الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل، كما أن العارف بالله يجمع بين المريد ومولاه بنظرة أو بكلمة، كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها.

وأما الآداب الباطنية: فأولها: اعتقاد كماله وأنه أهل للشيخوخة والتربية، لجمعه بين شريعة وحقيقة، وبين جذب وسلوك، وأنه على قدم النبي ﷺ.

وثانيها: تعظيمه، وحفظ حرمته غائبًا وحاضرًا، وتربية محبته في قلبه، وهو دليل صدقه، وبقدر التصديق يكون التحقيق، فمن لا صدق له لا سير له، ولو بقي مع الشيخ ألف سنة.

وثالثها: انعزاله عن عقله ورياسته وعلمه وعمله، إلا ما يرد عليه من قبل شيخه كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلي ﷺ عند ملاقاته بشيخه فهي سنة في طريقه، فكل من أتى شيخه في هذه الطريقة الشاذلية فلا بدَّ

=

=

أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن يصل إلى شيخه لينال الشراب الصافي من بحر مدده الوافي.

ورابعها: عند الانتقال عنه إلى غيره، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح وأشنع كل شنيع، وهو سبب تسويس بذرة الإرادة، فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها، وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم.

وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم، ولا يحتاج إلى إذن، والله تعالى أعلم.

وأما الآداب مع الإخوان فأربعة:

أولها: حفظ حرمتهم غائبين أو حاضرين، فلا يغتاب أحدًا ولا ينقص أحدًا، فلا يقول أصحاب سيدي فلان كُمَّل، وأصحاب سيدي فلان نُقّص، أو فلان عارف أو فلان ليس بعارف، أو فلان ضعيف وفلان قوي، أو غير ذلك فهذه عين الغيبة، وهي حرام بالإجماع لاسيما في حق الأولياء، فإن لحومهم سموم قاتلة كلحوم العلماء والصالحين، فليحذر المريد جهده من هذه الخصلة الذميمة وليفر ممن هذا طبعه فراره من الأسد، فمن أولع بهذا فلا يفلح أبدًا، فالأولياء كالأنبياء، فمن فرق بينهم حرم خيرهم وكفر نعمتهم.

وثانيها: نصيحتهم بتعليم جاهلهم وإرشاد ضالهم، وتقوية ضعيفهم ولو بالسفر إليه، فإن فيهم أهل بدايات ونهايات والقوي والضعيف، فكل واحد يذكره بما يليق بمقامه خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون كما في الحديث.

وثالثها: التواضع لهم والاستنصاف من نفسك معهم وخدمتهم بقدر الإمكان، فخديم القوم سيدهم فمن عرض له شغل لا ينفك عنه فالواجب إعانته ليتفرغ منه إلى ذكر الله إن كان خفيفًا، قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾ [المائدة:٢]؛ فكل ما يشغل قلب الفقير فدفعه جهاد وبر.

ورابعها: شهود الصفا فيهم واعتقاد كمالهم فلا يُنَقِّصُ أحدًا ولو رأى منه ما يوجب النقص في الظاهر، المؤمن يلتمس المعاذير، فَلْيَلْتَمِسْ له سبعين عذرًا، فإن لم يزل عنه موجب نقصه؛ فليشهده في نفسه، فـ «المؤمنُ مِرْآةُ أَخِيهِ»، ما كان في الناظر يظهر فيه، فأهل الصفا لا يشهدون إلا الصفا، وأهل التخليط لا يشهدون إلا التخليط، وأهل الكمال لا يشهدون إلا الكمال، وأهل النقص لا يشهدون إلا النقص، وتقدم في الحديث عنه ﷺ: «**خَصْلَتَانِ ليسَ فوقَهُمَا شيءٌ منَ الخيرِ: حُسْنُ الظَّنِ باللهِ، وحسنُ الظَّنِّ بعبادِ اللهِ، وخَصْلَتَانِ ليسَ فوقَهُمَا شيءٌ من الشرِّ: سُوءُ الظنِّ باللهِ، وسوءُ الظنِّ بعبادِ اللهِ**»، وبالله التوفيق.

فهذه من جملة الآداب التي يجب على الفقير مراعاتها، والتحفظ عليها سواء كان طالبًا أو سائرًا أو واصلًا، وقد تقدمت في أول الباب الأول ثمانية آداب بعضها في حق العارف، وبعضها في حق السائر، فليراجعها وليعمل بمقتضاها، فإن الطريق كلها آداب حتى قال بعضهم: اجعل عملك ملحًا وأدبك دقيقًا.

وقال أبو حفص السرَّاج -رحمه الله: التصوف كله آداب لكل وقت آداب، ولكل حال آداب، ولكل مقام آداب، فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب مردود من حيث يظن القبول.

وقال أيضًا: الناس في الآداب على ثلاث طبقات: أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل

=

التدبير معه، والتضرر بأحكامه المؤلمة له في نفسه أو غيره وتصريح لسانه بالشكوى إلى الخلق، أو مع المشايخ كالاعتراض عليهم وعدم قبول إشارتهم فيما يشيرون به عليه، فقد قالوا: عقوق الأستاذين لا توبة له، وقالوا أيضًا: من قال لأستاذه «لِمَ» فإنه لا يفلح.

وقال القشيري: من صحب شيخًا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة وإن بقي من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده؛ فليعلم أن موجب حجبه اعتراض من خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته، فإن الشيوخ بمنـزلة السفراء للمريدين(١)، وإما مع بعض الناس بالاعتراض عليهم، كما وقع للجنيد، أنه رأى فقيرًا يسأل الناس فقال في نفسه: لو عمل هذا عملًا يصون به نفسه لكان أجمل به، فثقلت عليه أوراده في تلك الليلة ورأى جماعة أتوا له بهذا الفقير على خوان وقالوا له: كل لحمه، فقد اغتبته، فأصبح يفتش عليه حتى وجده فسلم عليه، فقال له: تعود يا أبا القاسم؟ فقال: لا، فقال: غفر الله لك، وإما مع نفسه، كأن يتعاطى شهواته المباحة ولا ينهض إلى ما يقربها من مولاها، «فتؤخر العقوبة عنه»، بألا يعاقب في ظاهره بالبلايا والأسقام، ولا في باطنه بحسب زعمه، «فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد» الوارد عليَّ من حضرة الحق، «وأوجب الإبعاد» أي: بعدي عنه بعدم حضوري معه، وهذا لازم لما قبله، «فقد» أي: إنما كان ذلك من الجهل؛ لأنه قد «يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن» من قطع المدد عنه، «إلا منع المزيد» أي: الزيادة من المدد لكان ذلك كافيًا في قطع الإمداد وقطعه مبدأ الحجاب.

فإذا ابتدأ به المريد ولم تتداركه رحمة الله تعالى في الحال، إن ذلك موجب لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه وتبدل الأنس بالوحشة، «وقد يقام مقام» أي: في مقام «البعد وهو لا يدري ولو لم يكن» من إقامته مقام البعد، «إلا أن يخليك وما تريد»، بأن يسلط

=

الدين؛ فأما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في البلاغة وأخبار الملوك وأشعار العرب وأما أهل الدين فأكثر آدابهم حفظ العلوم ورياضة النفوس، وتأديب الجوارح وتهذيب الطباع، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، والمسارعة إلى الخيرات، وأما أهل الخصوصية من أهل الدين، فآدابهم حفظ القلوب، ومراعاة الأسرار واستواء السر والعلانية؛ فالمريدون يتفاضلون بالعلم، والمتوسطون بالآداب، والعارفون بالهمم انتهى.

(١) لا ينكر هذه الآداب إلا معاند لا يفقه، وأعداء التصوف مازالوا يشنعون على الصوفية لقولهم بأن يكون المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي مغسله، وانظر آداب التلميذ في «البيان في آداب حملة القرآن» تجد كل هذه الآداب وزيادة عليها.

عليك نفسك ويمنع نصرتك عليها، لكان ذلك كافيًا في البعد، فإن ذلك مبدأ للحجاب ومانع للقلب عن الدخول في حضرة الرب.

الحكمة السابعة والسبعون

«إذا رأيتَ عبدًا أقامَهُ الله بوجودِ الأورادِ، وأدامَهُ عليها معَ طُولِ الإمداد، فلا تستحقِرَنَّ ما منحَهُ مولاهُ؛ لأنَّكَ لم ترَ عليهِ سماتِ العارفينَ، ولا بهجةَ الْمُحبِّينَ، فلولا واردٌ ما كَانَ وِرْدٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى» أي: جعله قائمًا «بوجود الأوراد»، بأن أخطرها منه، «وأدامه عليها» أي: جعله مداوما عليها «مع طول الإمداد» أي: المعونة والتيسير وصرف الشواغل التي تشغله عن القيام بها. والمراد بطول ذلك تواليه عليه مع طول الزمان، فطوله بطول الزمان الذي يحصل فيه، وهذه صفة العباد والزهاد «فلا تستحقرن ما منحه» أي: أعطاه «مولاه»، وعلل الاستحقار بقوله: «لأنك» أي: لكونك «لم تر عليه سمات العارفين» أي: علامتهم، من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والإيرادات ودوام الحضور بين يدي الله. «ولا بهجة المحبين»، وهي ما يعلوهم من شواهد المحبة وآثارها، فإن محبة الله إذا تمكنت من القلب خطرت آثارها على الجوارح، كدوام ذكره والمسارعة لامتثال أمره، والنهي عن غيره، فيجتهد في خدمته، ويتلذذ بمناجاته، ويؤثره على كل ما سواه.

ثم علل الاستحقار بقوله: «فلولا وارد» إلهي أورده الله على قلبه أي: تجلي إلهي «ما كان ورد»، وهو ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات كصلاة وصيام وذكر.. إلى ما غير ذلك. أي فيكون احتقارك له بقلة الأدب معه.

والحاصل أن عباد الله المخصوصين ينقسمون قسمين: مقربين وأبرارًا، فالمقربون هم الذين أخذوا من حظوظهم وإرادتهم وقاموا بحقوق ربهم عبودية له وطلبًا لمرضاته، وهؤلاء هم العارفون والمحبون، والأبرار هم الباقون مع حظوظهم وإرادتهم وقاموا بعبادة ربهم طمعًا في جنته وهربًا من ناره، وكل واحد منهم ممدود في مقامه الذي هو فيه بمدد إلهي اقتضى منه القيام بحقوق ذلك المقام.

الحكمة الثامنة والسبعون

«قومٌ أقامَهُمْ الحقُّ لخدمَته وقومٌ اخْتَصَّهُمْ بمحبَّته: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] »[1]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«قوم أقامهم الحق» أي: اختارهم «لخدمته»، بطاعته الظاهرية حتى صلحوا لجنته وهم الزاهدون والعابدون، كما مرَّ، «وقوم اختصهم بمحبته» حتى صلحوا لقربه والدخول في حضرته، وهم المحبون والعارفون، والكل مشتركون في الانتساب إليه وخدمته، لكن خدمة الأولين أكثرها بالجوارح والآخرين أكثرها بالقلب ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾» [الإسراء: ٢٠] أي: ممنوعًا فإذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الإقامة والتخصيص، منعه ذلك عما ذكر من الاحتقار.

قال أبو يزيد: «اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه؛ فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة».

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العباد المخصوصون بالعناية على قسمين:

قسم: وجههم الحق لخدمته وأقامهم فيها، وهم أنواع: فمنهم من انقطع في الفيافي والقفار لقيام الليل وصيام النهار وهم العباد والزهاد ومنهم من وجهه الحق لإقامة الدين وحفظ شرائع المسلمين، وهم العلماء والصلحاء ومنهم من أقامه الحق لنصرة الدين وإعلاء كلماته، وهم المجاهدون في سبيل رب العالمين، ومنهم من أقامه الحق لتمهيد البلاد وتسكين العباد وهم الأمراء والسلاطين.

وقسم: أقامهم الحق لمحبته واختصهم بمعرفته، وهم العارفون الكاملون سلكوا سواء الطريق ووصلوا إلى عين التحقيق، وبينهما فرق كبير؛ لأن أهل الخدمة طالبون الأجور، وأهل المحبة رفعت عنهم الستور أهل الخدمة يأخذون أجورهم وراء الباب، وأهل المحبة في مناجاة الأحباب أهل الخدمة مسدول بينهم وبينه الحجاب، وأهل المحبة مرفوع بينهم وبينه الحجاب، أهل الخدمة من أهل الدليل والبرهان، وأهل المحبة من أهل الشهود والعِيان، أهل الخدمة لا تنفك عنهم الحظوظ، وأهل المحبة تصب عليهم الحظوظ أهل الخدمة محبتهم مقسومة، وأهل المحبة محبتهم مجموعة، فلذلك دام أهل الخدمة في خدمتهم، ونفذ المحبون إلى شهود محبوبهم، فلو تركوا الحظوظ وحصروا محبتهم في محبوب واحد لنفذوا إلى محبوبهم وشهدوه ببصر إيقانهم واستراحوا من تعب خدمتهم، ولكن حكمة الحكيم أقامتهم في خدمتهم فوجب تعظيمهم في الجملة، ولا يلزم منه عدم تفضيل أهل المعرفة والمحبة عليهم انظر كيف قال تعالى بعد ذلك: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١]، فدل على تفضيل بعضهم على بعض، لكن عبيدَ الملك كلهم مُعَظَّمُون في الجملة، ولا يحب الملك أن نحقر له عبدًا من عباده وإن كانوا متفاوتين عنده، والله تعالى أعلم.

الحكمة التاسعة والسبعون

«قَلَّمَا تأتِي الوارداتُ الإلهيَّةُ إلا بغتةً صِيانَةً لها لئلا يَدَّعِيهَا العبادُ بوجوبِ الاسْتِعْدَادِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«قلما تكون الواردات الإلهية» أي: قل حصولها «إلا بغتة» أي: غير بغتة، والمراد بها العلوم الوهبية والأسرار العرفانية التي يتحف الله بها عباده، ولا تكون في الغالب إلا بغتة أي: فجأة من غير استعداد لها بعبادة من صلاة وصيام وغيرها «لئلا يدعيها العباد» أي: يرون أنهم أهل لها «بوجود الاستعداد» لها بالاجتهاد في الأوراد والعبادات تمسكًا بنحو قوله ﷺ: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»(٢)، وغفلوا عن كون همتهم متعلقة بالدار الآخرة لا به، فلا تحصل لهم معرفته الخاصة ولا واردات إلهية، وحاصله أن الواردات هدايا من الله تعالى وفتح منه، فلا تحصل عقب العبادات الصادقة وبنورها، بل تحصل بعد ذلك بغتة، وحصولها عقب العبادات نادر قليل.

الحكمة الثمانون

«منْ رأيتَهُ مُجِيبًا عنْ كُلِّ ما سُئِلَ ومُعَبِّرًا عن كلِّ ما شَهِدَ، وذَاكِرًا لكلِّ ما عَلِمَ، فاسْتَدِلَّ بذلكَ على وجودِ جهلِه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من رأيته» من المريدين أو العارفين «عن كل ما سئل مجيب» أي: سئل عنه من العلوم التي يفيضها الله على قلوب السالكين والمواهب اللدنية التي يخص بها العارفين، «ومعبرًا عن كل ما شهد» أي: شهده وذاقه بباطنه وهي تلك العلوم والمواهب، «وذاكرًا لكل ما علم» من تلك العلوم «فاستدل بذلك على وجود جهله»، لأن إجابته على كل سؤال تقتضي إحاطته بكل المعلومات، وذلك محال في حقه قال تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا**﴾، [الإسراء:

---

(١) قال القشيري ﷺ: الوارِدُ هو ما يَرِدُ على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد فيه تَحَمُّلٌ والواردات أعمُّ من الخواطر، لأن الخواطر تختصُّ بنوع خطاب، أو ما تضمن معناه والواردات تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط إلى غير ذلك من المعاني، وهو قريب من الحال.
وسئل الشيخ عبد القادر الجيلاني -نفعنا الله بذكره- عن صفات الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية، فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستعداد، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد، ولا في وقت واحد، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالبًا انتهى. [انظر: إيقاظ الهمم ص (١٧٠)]

(٢) رواه البخاري (٦٠٢١).

٨٥]، ولأنه يجب مراعاة حال السائل فقد لا تكون في بعض السائلين أهلية للمسئول عنه، فتكون إجابته مثله من الجهل وتعبيره عن كل مشهود له فيه نوع من إفشاء السر الذي يجب كتمانه.

وقد قالوا: «قلوب الأحرار قبور الأسرار»، والسر أمانة الله تعالى عند العبد، فإفشاؤه بالتعبير عنه خيانة وأيضًا فالأمور المشهودة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والإيماء، واستعمال العبارة فيها إشهار لها، وفيه ابتذالها، ثم إن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضًا وانغلاقًا؛ لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراكها بالعبارات النطقية، وذكره «لكل معلوم له» دليل على عدم تفرقته بين المعلومات، وقد يكون فيها ما لا يصح ذكره لما يلزم عليه من الضرر والإفساد وإنكار الناس له.

قال ﷺ: **«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله؛ فإذا أظهروه أنكره أهل الغرة بالله»**[1].

وقال علي بن الحسين بن علي ﷺ:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتون حسنا

إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقال أبو هريرة ﷺ: «حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من العلم، أما أحدهما فبثثته للناس، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم مني هذا الحلقوم»[2].

ولذا قُتل الحلاج بإفشاء شيء من ذلك حيث قال: «ما في الجبة إلا الله»، وذلك أن أهل الله يدركون وجود الله في الأشياء أي: قيامه بها وظهوره فيها، وهذا غاية ما يمكن أن يعبر به عن مقصودهم.

يقول السياجي يغفر الله له:

المقصود والمعنى في قولهم وجود الله في الأشياء أي: تجلي الله في إيجاد الأشياء وقيامه وآلائه في حسنها وإبداعها، وليس المقصود هو المعنى الحسي الملموس المادي.

يقول الشرقاوي يرحمه الله مستدركًا:

---

(١) رواه الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (١/ ٢١٠).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٦٢).

وإلا فهو أمر لا يدرك بالذوق وقد ذقناه بحمد الله؛ فمصدوق ما سئل وما شهد وما علم واحد، وإنما يختلف باعتبار السؤال عنه وإفشائه بالعبارة وعموم ذكره.

الحكمة الواحدة والثمانون

«إِنَّما جعلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلاً لجزاءِ عِبَادِه المؤمنينَ؛ لأنَّ هذه الدَّارَ لا تسعُ ما يريدُ أنْ يُعْطِيَهُمْ، ولأنَّه أجلُّ أقدارِهِمْ عَنْ أن يجازِيَهُمْ في دارٍ لا بقاءَ لهَا»[1]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إنما جعل» تعالى «الدار الآخرة محلًا لجزاء عباده المؤمنين؛ لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم» من أنواع النعيم حسًّا ولا معنى، أما الأول فلأنها ضيقة الأقطار، ويعطي الله لآحاد المؤمنين في الدار الآخرة في ملك واحد منهم مسيرة سبعمائة عام كما ورد في الخبر، فما ظنك بخواصهم فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم، أما الثاني فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والأشياء التي يتنعم بها أهل الجنة أمور شريطة رفيعة كما جاء في الأخبار: «**إن موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وإن نور سوار حوراء**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لا شكَّ أن الله تعالى وسم هذه الدار بدار الغُرور، وحكم عليها بالهلاك والثبور؛ فهي دار دَنِيَّةٌ دَانِيَةٌ زائلةٌ فانيةٌ، فلذلك سميت الدنيا إمَّا لدنوها، وإما لدناءتها فهي ضيقة الزمان والمكان، ووسم الآخرة بدار القرار ومحل ظهور الأنوار، وانكشاف الأسرار، محل النظرة والحبور، ودوام النعمة والسرور، محل شهود الأحباب، ورفع الحجاب، نعيمها دائم، ووجودها على الدوام قائم، فلذلك جعلها الحق تعالى محلًا لجزاء عباده المؤمنين، ومقعد صدق للنبيين والصديقين، ولم يرض سبحانه أن يجازيهم في دار لا بقاء لها ضيقة الزمان والمكان ومحل الأكدار والأغيار والذل والهوان؛ لأنها ضيقة لا تسع ما يريد أن يعطيهم، أي: لا يسع فيها ما يريد أن يكرمهم به تعالى زمانًا ولا مكانًا؛ لأن أدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات؛ فكيف بأعلاهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وقالﷺ: يقول الله تبارك وتعالى: «**أَعْدَدْتُ لعباديَ الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ**»، ولأنه جل وعلا أجل أي عظم أقدار عباده المؤمنين والمقربين، أن يجازيهم في دار لا بقاء لها فعمارتها خراب، ووجودها سراب، ففي بعض الأخبار لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذي يبقى على الذي لا يبقى انتهى.

لاسيما بالعكس، فالآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى، فلا يختارها إلا من حكم الله عليه بالشقاء والعناء، والخزف بالخاء والزاي والفاء المحركات: الطين المصنوع للبناء وهو الآجُر، وفي حديث آخر: «**ألا وإنَّ السعيدَ منِ اختارَ باقيةً يدومُ نعيمُهَا على فانيةٍ لا يَنفَكُّ عذابُهَا، وقدَّم لما يَقدم عليه مما هُوَ الآن في يدِهِ قبلَ أنْ يُخَلِّفَهُ لمن يسعدُ بإنفاقِهِ، وقد شقيَ هو بجمعِهِ واحتكارِهِ**» انتهى.

يطمس نور الشمس»[1].

وما أشبه هذا «ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها»؛ لأن كل ما يفني وإن طالت مدته كلاشيء، بل أعطاهم الخلود في النعيم، والبقاء الدائم في الملك المقيم.

الحكمة الثانية والثمانون

«مَنْ وجدَ ثمرةَ عملِه عاجلاً فهو دليلٌ على وجُودِ القَبُول آجلاً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من وجد» من المريدين «ثمرة عمله» أي: من الحلاوة فيه والنعيم به «عاجلًا»، «فهو دليل على وجود القبول» أي: قبول الله له.

قال أبو تراب: «إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل، والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله، وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل، وذلك علامة وجود الجزاء عليه في الدار الآخرة كما سيأتي، وإذا وجد تلك الحلاوة لا ينبغي أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها، وكذا لا ينبغي أن يقصد بعملها حصولها لما فيها من اللذة والحظ، فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه بها لتكون ميزانًا لأعمال وتصحيحًا لأحواله فقط.

الحكمة الثالثة والثمانون

«إنِ أردتَ أنْ تعرفَ قَدْرَكَ عنده فانظر في ماذا يُقيِمَكَ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إن أردت أن تعرف قدرك عنده»، هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الأشقياء، «فانظر في ماذا يقيمك» من طاعة أو ضدها، فمن كان من أهل السعادة والقبول استعمله مولاه فيما يرضيه عنه من أنواع الطاعات، ومن كان من أهل الشقاوة استعمله فيما يسخطه عليه من أنواع المخالفات، وهذا يناسب العامة، وأما الخاصة، فيقال فيه: إن أردت أن تعرف قدرك أي: منـزلتك عنده، هل أنت من المقربين أو لا، فانظر في ماذا يقيمك؟ أي: يورده على قلبك من إدراك جلالته وعظمته.

قال عليه الصلاة والسلام: «من أراد أن يعلم منـزلته عند الله؛ فليعلم منـزلة الله من

(١) رواه البخاري (٢٧٣٥) بنحوه.

قلبه»[1].

الحكمة الرابعة والثمانون

«مَتَى رزقَكَ الطاعةَ والغِنَى به عنها، فاعلمْ أنَّه قد أسبغَ عليكَ نعمَةُ ظاهرةً وباطنةً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى رزقك الله الطاعة» أي: امتثال الأوامر واجتناب النواهي في ظاهرك، «والغنى به عنها»، بألا تركن إليها في نيل مطلوبك، بل تعلق قلبك بمولاك، وغيب عن كل شيء سواه، «فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة»، وهي تلك الطاعة، «وباطنة»، وهي معرفتك التي أوجبت لك الغيبة عنها وعدم رؤيتها.

الحكمة الخامسة والثمانون

«خيرُ ما تطلبُهُ مِنْهُ ما هُوَ طالبُهُ مِنْكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«خير ما تطلبه منه» أي: أفضل الأشياء التي تطلبها منه «ما هو طالبه منك»، من الاستقامة على سبيل العبودية له، فهذا أخير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك، دنيوية كانت أو أخروية، فإن في ذلك حظًا لنفسك.

الحكمة السادسة والثمانون

«الحزنُ على فُقدانِ الطاعةِ معَ عدمِ النهوضِ إليها من علامةِ الاغْتِرَارِ»[2]

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٦٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٥٧).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الحزن هو التحسر على شيء، فإن لم تحصله وندمت على تحصيله أو التوجع على شيء منعت منه ولم تقدر على تحصيله، فإن كان حزنك على شيء منعت منه ونهضت إلى أسبابه الموصلة إليه، فهو حزن الصادقين.

قال أبو علي الدقاق ﷺ: يقطع صاحب الحزن في شهر ما لا يقطعه غيره في سنين، وإن لم تنهض إلى أسبابه فهو حزن الكاذبين. وإن كان على ما فات ونهضت إلى استدراك ما يمكن استدراكه فهو حزن الصادقين. وإن لم تنهض إلى استدراكه فهو حزن الكاذبين، وقد سمعتْ رابعة العدوية رجلًا يقول: واحزناه، فقالت له قل: واقلة حزناه فلو كان حزنك صادقًا لم يتهيأ لك أن تتنفس انتهى.

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: ليس البكاء بتعصير العيون، إنما البكاء أن تترك الأمر الذي تبكي عليه، وقيل: لا يغرنك بكاء الرجل، فإن إخوة يوسف، ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:١٦]، وقد فعلوا ما فعلوا انتهى.

فالحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إلى استدراك ما فات منها، أو إلى تحصيل ما حضر منها من علامة الاغترار، أي الغرور وهو الركون إلى ما لا حقيقة له؛ فالاغترار قبول الغار، والانقياد إلى غروره =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الحزن على فُقدان الطاعة»، بضم الفاء وكسرها أي: عدم وجودها في الحال، «مع عدم النهوض إليها» في المستقبل «من علامات الاغترار» أي: التعويل على ما لا حقيقة له، وهذا هو الحزن الكاذب الذي يكون معه البكاء الكاذب كما قيل: «كم من عين جارية وقلب قاس»، وهو من مكر الله الخفي، حيث منعه ما ينفعه وأعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء؛ فإنه قد يستحسن بذلك حاله، ويعد نفسه شيئًا، أما الحزن الصادق وهو الذي يبعث على الطاعات، ويكون معه البكاء الصادق، فهو من مقامات السالكين.

قال أبو علي الدقاق: «صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين».

الحكمة السابعة والثمانون

«ما العارفُ منْ إذا أشارَ وجدَ الحقَّ أقربَ إليه من إشارتِه بل العارفُ منْ لا إشارةَ له لفنائِه في وُجودِه، وانطوائِه في شُهودِه»(١)

=

وخدعه، فالحزن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حزن الكاذبين، والصادقين، والصديقين السائرين.

فحزن الكاذبين: هو ما تقدم من عدم النهوض والاستدراك لما فات، وحزن الصادقين: هو الحزن المصحوب بالجد والاجتهاد والتوسط في العمل والاقتصاد مع اغتنام ما بقي من الأوقات لاستدراك ما فات، وحزن الصديقين من السائرين: هو الحزن على فوات الأوقات أو حصول شيء من الغفلات أو وقوع ميل أو ركون إلى الحظوظ والشهوات، إلا أن حزنهم لا يدوم إذ لا يقفون مع شيء ولا يقبضهم شيء، وأما الواصلون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، إذ الحزن إنما يكون على فقد شيء، أو فوات غرض وماذا فقد من وجد الله: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

وفي هذا المقام ينقطع البكاء إذ لا بكاء في الجنة، وقدر رأى الصديق قومًا يقرأون ويبكون، فقال كذلك كنا ثم قست القلوب، فعبر بالقسوة عن التمكين أدبًا وتسترًا لأن القلب في بدايته رطب يتأثر بالمواعظ وتحركه الأحوال. فإذا استمر معها، وتصلب لم يتأثر بشيء ويكون كالجبل الراسي: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨].

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الإشارة أرق وأدق من العبارة، والرمز أدق من الإشارة فالأمور ثلاثة: عبارات، وإشارات، ورموز. وكل واحدة أدق مما قبلها، فالعبارة توضح والإشارة تلوح والرمز يفرح أي يفرح القلوب بإقبال المحبوب، وقالوا: علمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي، أي خفي سره، أي فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان، فإشارة الصوفية هي تغزلاتهم وتلويحاتهم بالمحبوب كذكر سلمى وليلى، وذكر الخمرة والكيسان، والنديم وغير ذلك مما هو مذكور في أشعارهم وتغزلاتهم وكذكر الأقمار والنجوم والشموس والبدور واللوائح والطوالع، وكذكر البحار والإغراق، وغير ذلك

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

=

مما هو مذكور في اصطلاحاتهم.

وأما الرموز فهي إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها غيرهم، ومنها في القرآن فواتح السور، ومنها في الحديث كقول رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أريدُ أنْ أَدْعُوكَ لأمرٍ قالَ: وما هو يا رسول الله؟ قال: هو ذاك»؛ فرمز لأمر بينهما لا يعرفه غيرهما، وقال له أيضًا: «يا أبَا بكرٍ أتعلمُ يومَ يومَ» بتكرير لفظ يوم «قال: نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير»، فهذه رموز بين الصديق وحبيبه.

قال الشيخ زروق ﷺ في شرح الحزب الكبير: وقد حارت العقول في رموز الحكماء، فكيف بالعلماء؟ فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف يطمع في حقائق رب العالمين؟ انتهى.

وأما الإشارات فيدركها أربابها من أهل الفن. والناس في إدراكها وعدمه على أقسام، فمنهم من لا يفهم منها شيئًا، ولا يعرف إلا ظاهر العبارة وهم الجهال من عموم الناس، ومنهم من يفهم المقصود، ويجد الحق بعد الإشارة أي بعد سماع الإشارة وهم أهل البداية من السائرين، ومنهم من يفهم الإشارة ويجد المشار إليه وهو الحق أقرب إليه من إشارته وهم أهل الفناء في الذات قبل التمكين، ولهذا تجدهم يتواجدون عند السماع ويتحركون وتطيب أوقاتهم وتهيم أرواحهم، أكثر مما يتواجدون عند الذكر؛ لأن الإشارة تهيج أكثر من العبارة، بخلاف المتمكنين قد رسخت أقدامهم واطمأنت قلوبهم وتحقق وصولهم فاستغنوا عن الإشارة والمشير ولذلك قيل للجنيد ﷺ: ما لك كنت تتحرك عند السماع وتتواجد واليوم لا نراك تتحرك بشيء؟ قال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، انتهى.

وهذا هو العارف الذي لا إشارة له لفنائه في وجود الحق وانطوائه في شهوده، أو تقول لتحقق وصوله وتمكنه في شهوده، فصار المشير عين المشار إليه لفناء وجوده في وجود محبوبه، وانطواء ذاته في ذات مشهوده، أو تقول لـزوال وهمه وثبوت علمه فتحققت الوحدة وامتحقت الغيرية.

قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: إن لله عبادًا محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته وحملهم من أسراره ما تعجز عنه الأولياء.

وقال القطب الشيخ ابن مشيش ﷺ ونفعنا ببركاته: وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال انتهى. وأطلق المزج على التبديل مناسبة للشراب.

وقال إمام الطريقة أبو القاسم الجنيد ﷺ في وصف العارف: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقه ناظر إليه بقلبه أحرقت قلبه أنوار هدايته، وصفا شرابه من كأس وده تجلى له الجبار عن أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن سكت فمن الله، وإن تحرك فبإذن الله، وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله ومن الله وإلى الله انتهى.

فهذه صفات العارف الحقيقي الراسخ المتمكن قد كلّ لسانه عن التعبير، واستغنى عن الإشارة والمشير، فإذا صدرت منه إشارة أو تعبير، فإنما ذلك لفيضان وجد أو هداية فقير، وقد صدرت إشارات من المتمكنين فتُحْمَل على هذا القصد.

«ما العارف من إذا أشار» إلى شيء من أسرار الحق سبحانه، «وجد الحق أقرب إليه من إشاراته»، بأن كان حاضرًا معه لم يغب عنه، بل هو ملاحظه في حال إشاراته، وأقرب إليه منها، فهذا ليس بعارف حقيقة لبقائه مع نفسه؛ لأنه حينئذ ملاحظ أن هناك مشيرًا ومشارًا إليه، ومشارًا به، وما دام يتعقل أنه مشير والحق مشار إليه، وذلك الكلام الذي صدر منه إشارة، فهو إلى الآن لم يفن عن نفسه، ولم يخرج عن دائرة حسه، والإشارة ألطف من العبارة؛ لأنها إيماء فقط وتلويح لا تصريح، وهي التي يستعملها أهل الطريق ﷺ فيما بينهم عند ذكرهم لما يفتح الله به عليهم من الأسرار التوحيدية، والعلوم اللدنية، والمواجيد والأذواق.

فالمشير إلى شيء من الملاحظ لإشارته وإن وجد الله تعالى أقرب إليه منها بأن لم يغب عنه في حال الإشارة غير عارف على التحقيق؛ لأنه بوصف التفرقة بشهوده للأغيار، «بل العارف» حقيقة «من لا إشارة له» أي: من لا يشهد أن له إشارة، وإن وقعت منه «لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده»، الضمير لذلك العارف وفي بمعنى عن أي: لفنائه عن وجود نفسه وانطوائه عن شهودها، ويحتمل عوده للحق سبحانه وتعالى أي: إن العارف حقيقة هو الذي غاب عن الإشارة، والمشير والمشار به، فإذا وقعت منه إشارة لا يشهدها ولا يشعر بها لكون المشير والمشار إليه حينئذ هو الله تعالى؛ لأن العارف حينئذ في مقام الجمع، ومن كان كذلك فهو غائب عن رؤية نفسه.

قال الشيخ أبو يوسف العجمي -قدس الله سره: «من تكلم في مقام الجمع فليس بمتكلم وإنما الحق سبحانه على لسان عبده، وهو قوله في الخبر المقدس: «**فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق**»[1].

وسُئل بعضهم عن الفناء، فقال: هو أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والدرجات والأحوال والمقامات والأذكار، وتفنيه عن كل شيء، وعن عقله، وعن نفسه، وفنائه عن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء فيغرق في التعظيم.

الحكمة الثامنة والثمانون

«الرَّجاءُ ما قارنه عملٌ، وإلا فهوَ أَمْنِيَّةٌ»[2]

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٢٦٥).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: من رجا أن يدرك النعيم الحسي كالقصور والحور فعليه بالجد والطاعة والمسارعة إلى نوافل الخيرات وإلا كان رجاؤه حمقًا وغرورًا.

وقد قال معروف الكرخي ﷺ: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الرجاء» أي: الحقيقي «ما قارنه عمل» أي: ما كان باعثًا على الاجتهاد في الأعمال كما مر في الحزن؛ لأن من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه، «وإلا» يقارنه عمل، بل

=

من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق.

وقيل: من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح، فكذلك فليزعم أن الربح مع الفقير، ووقد النار من البحر صحيح، ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم وفتح مخازن الفهوم فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين، مع تحليته بالتقوى والورع، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فإن فعل هذا كان طالبًا صادقًا وإلى ما رجا واصلًا، وإلا كان باطلًا وبقي جاهلًا.

وقد قال بعض المحققين: من أعطى كليته في العلم أخذ كليته، ومن لم يعط كليته لم يأخذ بعضه، ولا كليته، وفي الحديث عنه ﷺ: «إِنَّما العلمُ بالتَّعَلُّمِ وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ من يطلبِ الخيرَ يُؤْتَهُ ومنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ» انتهى.

والذي تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول، ويشرح الصدور، ويوسع المعقول، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات وتحقيق المنازلات ومواجيد المحبين وأذواق العارفين فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال، بحط رأسه وذبح نفسه، والأخذ فيما كلفوه به من الأعمال مع الذل والافتقار والخضوع والانكسار، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق في الطلب، فسر الله كله في صدق الطلب، وليستغرق أوقاته في ذكر الله، وليلتزم الصمت والعزلة وليحسن ظنه بالله، وبعباد الله، فإن الله يقيض له من يأخذ بيده، ﴿إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال:٧٠]، قال في القواعد قاعدة: طلب الشيء من وجهه وقصده أقرب لتحصيله، وقد ثبت أن حقائق علوم الصوفية مِنح إلهية ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه ذلك، وهو ثلاث:

أولها: العمل بما علم قدر الاستطاعة.

الثاني: اللجأ إلى الله على قدر الهمة.

الثالث: إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأصل السنة، فيجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح.

وقد أشار الجنيد -رحمه الله تعالى- إلى ذلك بقوله: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال، أو كما قال، وفي الخبر عنه ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أورثَهُ الله علمَ ما لم يَعْلَمْ».

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا انتهى.

فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة وشرع في أسبابها وتحصيل مبادئها كان علامة على نجح مطلبه، وكان رجاؤه صادقًا. ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد في أسباب تحصيلها كان أمنية أي غرورًا وحمقًا.

وكان الحسن ﷺ يقول: يا عباد الله اتقوا هذه الأماني، فإنها أودية النَّوكى يحلون فيها، فوالله ما أتى الله عبدًا بأمنية خيرًا في الدنيا والآخرة انتهى.

كان يفتر صاحبه عن العمل، ويجرئه على المعاصي والذنوب «فهو أمنية» أي: فليس برجاء حقيقة عند العلماء، بل هو أمنية واغترار بالله تعالى، ويقال له أيضًا رجاء كاذب.

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، والخلف: الرديء من الناس.

وقال ﷺ: «**الكَيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**»[1].

الحكمة التاسعة والثمانون

«مطلبُ العارفينَ منَ اللهِ الصدقُ في العبوديَّةِ، والقيامُ بحقوقِ الرُّبُوبِيَّةِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«مطلب العارفين من الله تعالى»، أعلى من مطلب غيرهم، سواء كان عابدًا أو زاهدًا أو عالمًا؛ لأن مطلبهم هو «الصدق في العبودية»، وهو التزام آدابها والتخلق بأخلاقها، والقيام بحقوق الله فيها، كالشكر على ما أولاه والصبر على ما ابتلاه ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه، وترك الاختيار عليه، والتدبير معه، ودوام المراقبة له، والوقوف ببابه لابسًا ثوب التواضع والذلة، باسطًا يد الفقر، ماسكًا حبل الرجاء، مرتديًا برداء الخشية.. إلى غير ذلك من أوصاف العبودية وأخلاقها، فمن صدق في ذلك كان موفيًا بما عاهد الله عليه، «والقيام بحقوق الربوبية» في ظاهرهم بالطاعة، وفي باطنهم بالمراقبة له، ودوام الحضور معه أي: أنهم لا يطلبون منه إلا هذين الأمرين من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس، بخلاف من عداهم، فإنه لم يفارق الحظوظ والأغراض في مطلبه، فلذا كان مطلبهم أعلى المطالب.

قال أبو مدين -قدس الله سره: «شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور».

الحكمة التسعون

«بَسَطَكَ كي لا يُبْقِيكَ مع القبضِ وقَبَضَكَ كي لا يَتْرُكَكَ معَ البَسْطِ وأخرجَكَ عنهما كي لا تكونَ لشيءٍ دُونَهُ»[2]

(١) رواه أحمد في مسنده (١٦٥٠١)، والترمذي (٢٣٨٣)، وابن ماجه (٤٢٥٠).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: البسط فرح يعتري القلوب أو الأرواح، إما بسبب قرب شهود الحبيب أو شهود جماله أو بكشف الحجاب عن أوصاف كماله وتجلي ذاته، أو بغير سبب والقبض حزن وضيق يعتري القلب، إما بسبب فوات مرغوب، أو عدم حصول مطلوب، أو بغير سبب وهما يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار. فالعوام إذا غلب عليهم الخوف انقبضوا، وإذا غلب عليهم الرجاء =

=

انبسطوا، والخواص إذا تجلى لهم بوصف الجمال انبسطوا، وإذا تجلى لهم بوصف الجلال انقبضوا وخواص الخواص استوى عندهم الجلال والجمال، فلا تغيرهم واردات الأحوال؛ لأنهم بالله ولله لا لشيء سواه. فالأولون مَلَكَتْهُم الأحوال، وخواص الخواص مالكون الأحوال، فمن لطفه بك أيها السالك أخرجك من الأغيار، ودفعك إلى حضرة الأسرار، فإذا أخذك القبض وتمكن منك الخوف، وسكنت تحت قهره، وأنست بأمره أخرجك إلى البسط لئلا يحترق قلبك، ويذوب جسمك، فإذا حبسك البسط وفرحت به وأنست بجماله قبضك لئلا يتركك مع البسط، فتسيء الأدب وتجر إلى العطب إذ لا يقف مع الأدب في البسط إلا القليل، هكذا يسيرك بين شهود جلاله وجماله، فإذا شهدت أثر وصف الجلال انقبضت، وإذا شهدت أثر وصف الجمال انبسطت.

واعلم أن القبض والبسط لهما آداب، فإذا أساء فيهما الأدب طرد إلى الباب أو إلى سياسة الدواب؛ فمن آداب القبض الطمأنينة والوقار والسكون تحت مجاري الأقدار، والرجوع إلى الواحد القهار، فإن القبض شبيه بالليل، والبسطَ شبيه بالنهار، ومن شأن الليل الرقاد والهدوء والسكون والحنو، فاصبر أيها المريد واسكن تحت ظلمة ليل القبض حتى تشرق عليك شموس نهار البسط، إذ لا بُدَّ لليل من تعاقب النهار ولا بُدَّ للنهار من تعاقب الليل: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦].

هذا أدب القبض الذي لا تعرف له سببًا، وأما إن عرفت له سببًا فارجع فيه إلى مسبب الأسباب، ولُذْ بجانب الكريم الوهاب، فهل عودك إلا حسنًا وهل أسدى إليك إلا مننًا، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار فالذي أنـزل الداء هو الذي بيده الشفاء، يا مهمومًا بنفسه لو ألقيتها إلى الله لاسترحت، فما تجده القلوب من الأحزان فلأجل ما منعته من الشهود والعِيان.

والحاصل: أن سبب القبض إنما هو النظر للسوى والغفلة عن المولى، وأما أهل الصفا فلا يشهدون إلا الصفا ولذلك كان ﷺ يقول: «**مَنْ أصابَهُ هَمٌّ أو غَمٌّ فليَقُلْ الله الله لا أشركُ به شيئًا فإنَّ الله يُذْهِبُ همَّه وغَمَّه**»، أو كما قال ﷺ والحديث صحيح؛ فانظر كيف دل ﷺ المقبوض إلى الدواء وهو شهود التوحيد والغيبة عن الشرك فدلنا ﷺ على القول والمراد منه المعنى فكأنه قال: اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطًا ونقمتكم نعمةً.

وكذلك في حديث آخر قال: «**ما قالَ أحدٌ اللهمَّ إنِّي عبدُك وابنُ عبدِك وابنُ أَمَتِكَ ناصيتي بيدكَ ماضٍ فيَّ حكمُكَ عدلٌ فيَّ قضاؤُك أسألُكَ بكلِّ اسم هو لك سمَّيتَ به نفسك أو أنـزلته في كتابك أو علَّمته أحدًا من خلقك أو استأثرتَ به في علم الغيْبِ عندك أن تجعلَ القرآن العظيمَ ربيعَ قلبي ونورَ بصري وجلاء حُزْنِي وذهابَ همِّي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدل مكان همه فرحًا وسرورًا**»، فدلهم أولًا في الحديث الأول على شهود الربوبية، وفي الحديث الثاني على القيام بوظائف العبودية، وهو الصبر والرضا إذ من شأن العبد أن يصبر على أحكام سيده ويسلم ويرضى لما يجريه عليه من أوصاف قهره.

ومن آداب البسط: كف الجوارح عن الطغيان، وخصوصًا جارحة اللسان، فإن النفس إذا فرحت بطرت وخفت ونشطت، فربما تنطق بكلمة لا تلقي لها بالًا فتسقط في مهاوي القطيعة بسبب سوء أدبها، ولذلك كان البسط مزلة أقدام، فإذا أحس المريد بالبسط، فليلجم نفسه بلجام الصمت، وليتحل

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«بسطك» أيها العارف «كي لا يبقيك مع القبض»، الذي فيه قهر لنفسك، وإن كان فيه نفع لك كما سيأتي، «وقبضك كي لا يتركك مع البسط» الذي فيه حظ لها، «وأخرجك عنهما» بفنائك عن نفسك وبقائك به «كي لا تكون لشيء دونه»، فلا تكون باقيًا مع شيء من أوصافك المؤلمة ولا المؤنسة، فإن ذلك حجاب لك عن ربك، ويسمي حالك حينئذ اعتدالًا لا قبضًا ولا بسطًا، والمعنى لون عليك الأحوال لتتمكن وتفني عنها، فالقبض لأهل البدايات من العارفين ولولاه لما انجمعت حقائقهم وانكفت عن العوائد والشهوات، والبسط لأهل الإشراق على مبادئ الفتح كي تسترسل قواهم وتستعين عوالمهم بما ترتاح إليه من نسمات الحق وشواهد رضاه، والاعتدال لأهل النهايات كي تستقيم أحوالهم، وتصفو أعمالهم، ويدومون بين يدي مولاهم بلا علة.

ويؤخذ من ذلك أن القبض والبسط وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما لأنهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده، لكنهما يتوصل بهما إلى التمكن، فمن لطف الله تعالى بعبده تلوينه فيهما، ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه؛ فهي أحوال المبتدئين من العارفين يتلونون فيهما كما يتلون المبتدئون من المريدين في الرجاء والخوف مصحوبان بتوقع أمر يحصل في المستقبل، فما معه توقع أمر محذور، فخوف أو محبوب، فرجاء، وما لا توقع معه فقبض في الأول، وبسط في الثاني، وسببهما الواردات التي ترد على باطن العارف وقوتها وضعفهما بحسب قوة الوارد وضعفه، فإذا تجلى في القلب وارد الجلال حصل فيه القبض.

وإذا تجلى فيه وارد الجمال حصل فيه البسط، فالقبض بوارد حاصل في الوقت وكذلك البسط؛ لأن العارف لا يهتم لنفسه حتى يراعي مستقبلات الأمور.

الحكمة الواحدة والتسعون

«العارفون إذا بُسِطُوا أخوفُ منهم إذا قُبِضُوا، ولا يقِفُ على حُدودِ الأدبِ في البَسْطِ إلا قليلٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

=

بحلية السكينة والوقار وليدخل خلوته وليلتزم بيته، فمثل الفقير في حالة البسط والقوة كقدر غَلَى وفار، فإن تركه يغلي إهراق إدامة وبقي شاحتًا، وإن كفه وأخمد ناره بقي إدامه تامًا كذلك الفقير في حالة القوة والبسط، يكون نوره قويًّا وقلبه مجموعًا، فإذا تحرك وبطش وتتبع قوته برد ورجع لضعفه، وما ذلك إلا لسوء أدبه، والله تعالى أعلم.

«العارفون إذا بسطوا أخوف منهم» أي: أكثر خوفًا من أنفسهم «إذا قبضوا»، وذلك لملائمة البسط لهوى نفوسهم، فيخافون حينئذ من الوقوع فيما تدعو إليه من التحدث بالأحوال والكرامات وغيرها، وربما كان في ذلك الطرد والبعد، وأيضًا قد يصدر منه في ذلك الوقت كلام لا يليق بحضرة الرب جل جلاله، وحينئذ فيتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار، وذلك أمر عسير في هذا الحال.

الحكمة الثانية والتسعون

«البسطُ تأخُذُ النفسُ مِنْهُ حظَّهَا بوجودِ الفرحِ، والقبضُ لا حظَّ للنفسِ فيهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح، والقبض لا حظ للنفس فيه».

في هذا إشارة لما تقدم من أن مراعاة الأدب في البسط من الأمر اليسير، فلذا كان لا يقف عند حدود الأدب فيه إلا القليل بخلاف القبض، فكأنه يقول: إنما كان كذلك لأن النفس تأخذ منه حظها، ومن شأن النفس إذا وجدت حظها الغفلة ونسيان الحقوق والدعوى بإظهار ما عندها من العلوم والفهوم والأحوال والأسرار والتحدث بالخصوصية والتلذذ بنسبة الخوارق، والإشارة إلى الكرامات وإدراك المقامات، كل على حسب حاله، وكل ذلك مناف للعبودية، بخلاف القبض، فإنه لا حظ للنفس فيه، فلا تتمالك أن تظهر شيئًا من ذلك، فهو أقرب للسلامة، ووجود القدرة على الوفاء بآداب العبودية، ولذا آثره العارفون على البسط.

الحكمة الثالثة والتسعون

«رُبَّمَا أعطاكَ فمنعَكَ ورُبَّمَا مَنَعَكَ فأعطاكَ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الغالب على النفس الأمارة واللوامة أن تنبسط بالعطاء تنقبض بالمنع لأن في العطاء متعتها وشهوتها فلا جرم أنها تنبسط بذلك، وفي المنع قطع موادها وترك حظوظها ولا شكَّ أنها تنقبض بذلك وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع، كما يأتي؛ فافهم أيها الفقير عن مولاك، ولا تتهمه فيما به أولاك فربما أعطاك ما تشتهيه النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس، وربما منعك ما تشتهيه نفسك فيتم بذلك حضورك وأنسك. ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها فمنعك جمال الحضرة وبهجتها، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها، فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها. ربما أعطاك قوت الأشباح فمنعك قوت الأرواح، وربما منعك من قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح، وربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق، وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق، ربما أعطاك العلوم وفتح لك مخازن الفهوم فحجبك =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما أعطاك» شيئًا من الدنيا ولذاتها «فمنعك» التوفيق لطاعته والإقبال عليه والفهم منه، «وربما منعك» من الأول «فأعطاك» الثاني، فمنع الله لك من نيل شهواتك ولذاتك، وقطعك عن سيئ عاداتك عطاء جزيل منه؛ لأنه أبقاك معه واقتطعك عن حظوظك وأغراضك، وعكس ذلك هو المنع الحقيقي، وإن كان عطاء في الظاهر، فلا تنظر لظاهر العطاء والمنع، بل لحقيقة الأمر، وحينئذ فيجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمولاه.

الحكمة الرابعة والتسعون

«متى فَتَحَ لكَ بابَ الفهمِ في المنعِ عادَ المنعُ عينَ العطاءِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى فتح لك باب الفهم في المنع»، بأن فهمت أن ذلك المنع رحمة منه بك ولولا يعلم أنه يعلم أنه خير لك من العطاء ما أنزله بك «عاد المنع» أي: صار «عين العطاء»، ومن الفهم في المنع ما سيأتي قوله: «ومتى منعك أشهدك» قهره.. إلخ.

الحكمة الخامسة والتسعون

«الأكوانُ ظاهِرُهَا غِرَّةٌ وباطنُها عِبْرَةٌ، فالنفسُ تنظرُ إلى ظاهرِ غِرَّتِهَا، والقلبُ ينظرُ إلى باطنِ عِبْرَتِهَا»[1]

=

بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيوم، وربما منعك من كثرة العلوم وأعطاك الأنس بالحي القيوم فأحطت بكل مجهول ومعلوم، ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة، وربما منعك من عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة، ربما أعطاك التعزز بالخلق ومنعك من التعزز بالحق، وربما منعك من التعزز بالخلق وأعطاك التعزر بالملك الحق، وربما أعطاك خدمة الكون فمنعك من شهود المكون، وربما منعك من خدمة الكون وأعطاك شهود المُكَوِّن، وربما أعطاك التصرف في الملك ومنعك دخول الملكوت، وربما منعك من التصرف في الملك ومنحك شهود الملكوت، وربما أعطاك أنوار الملكوت فمنعك الترقي إلى بحر الجبروت، وربما حجب عنك أنوار الملكوت فأعطاك الدخول إلى حضرة الجبروت، وربما أعطاك القطبانية ومنعك التمتع بشهود الفردانية، وربما منعك القطبانية ومتعك بشهود سر الوحدانية إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا علام الغيوب.

قال ابن العربي الحاتمي ﷺ: إذا منعت فذلك عطاؤه، وإذا أعطيت فذاك منعه، فاختر الترك على الأخذ انتهى. وشاهده قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] فإذا فهمت هذا علمت أن المنع هو العطاء.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الغِرة بكسر الغين وقوع الغرور وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لوجهين:

أحدهما: ما جعل الله سبحانه على ظاهر حسها من البهجة وحسن المنظر وما تشتهيه النفوس من أنواع =

=

المآكل والمشارب والملابس والمراكب وشهوة المناكح والمساكن والبساتين والرياضات وكثرة الأموال والبنين وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر، وغير ذلك من بهجتها وزهرتها وزخرفها، فانكب جُلُّ الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها والجري عليها الليل والنهار والشهور والأعوام، حتى هجم عليهم هادم اللذات فأعقبهم الندم والحسرات، ولم ينفع الندم، وقد جف القلم سافروا بلا زاد وقدموا على الملك بلا تأهب ولا استعداد، فاستوجبوا من الله الطرد والبعاد ولأجل هذا حذر الله سبحانه من غرورها وزخرفها والوقوف مع ظاهرها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤]، ثم قال: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]، أي: لنختبرهم أيهم أزهد فيها، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، لنفتنهم فيه.

وسئل رسول الله ﷺ عن: ﴿أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فقال: «الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناسَ إلى ظاهرها، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم، فما عارضهم من نائلها عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه خلقت الدنيا في قلوبهم فلم يجددوها وخربت بنيانهم فما يعمرونها وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها، فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها ليشتروا بها ما يبقي لهم، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم المثلات فما يرون أمانًا دون ما يرجون، ولا خوفًا دون ما يحذرون» انتهى.

وقال علي -كرم الله وجهه- فيما كتبه إلى سلمان الفارسي ﷺ: إنما مثل الدنيا كمثل الحية لينٌ مسُّها قاتلٌ سُمُّها فأعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها، وكن أسرَّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه انتهى.

فقد جعل الحق سبحانه هذه الأكوان وهي الدنيا وما اشتملت عليه ظاهرها فتنة، وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان مغرورًا، ومن نفذ إلى باطنها كان عند الله مبرورًا، فأهل الغفلة والبطالة وقفوا مع متعة عاجلها وبهجة ظاهرها، فغرتهم بزخرفها وخدعتهم بغرورها حتى أخذتهم بغتة، وأهل اليقظة والحزم نفذوا إلى باطنها فعرفوا سرعة ذهابها وقلة بقائها، فاشتغلوا بجمع الزاد، وتأهبوا ليوم المعاد أولئك الذين ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وكان السلف الصالح إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين.

الوجه الثاني: إنما جعل الله سبحانه الأكوان ظاهرها غِرَّةً تغطيةً لسرّه، وإظهارًا لحكمته، وذلك أن الحق سبحانه لما تجلى في مظاهر خلقه غطى سره بظهور حكمته، أو تقول: الأكوان ظاهرها ظلمة، وباطنها نور، فمن وقف مع الظلمة كان محجوبًا، ومن نفذ إلى شهود النور كان عارفًا محبوبًا، أو تقول: الأكوان ظاهرها حس وباطنها معنى، فمن وقف مع الحس كان جاهلًا، ومن نفذ إلى المعنى كان عارفًا، أو

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الأكوان» أي: المكونات التي للنفس فيها حظ من متاع الدنيا وزهرتها «ظاهرها غِرَّة»، بكسر الغين أي: سبب في الاغترار بها لحسنها وبهجتها «وباطنها عِبرة» بكسر العين أي: سب في الاعتبار بها، والانكفاء عنها لقبحها وخستها والنظر إلى عاقبتها وهي الفناء، فهي حسنة الظاهر، قبيحة الباطن، فمن نظر إلى ظاهرها وجدها حلوة نضرة، فيغتر بها ويميل إليها، ومن نظر إلى باطنها وجدها جيفة قذرة، فيعتبر بها، وينكف عنها، «فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها» أي: زينتها الظاهرة، فتغتر بها وتهلك صاحبها، «والقلب ينظر إلى باطن عبرتها» أي: إلى قبائحها الباطنة، فيعتبر بها ويسلم من شرها.

الحكمة السادسة والتسعون

«إنْ أردتَ أن يكونَ لكَ عِزٌّ لا يفنَى فلا تَسْتَعِزَّنَّ بعزٍ يفنى»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى»، بأن تستغني بها مع الغيبة عن مسببها، لأنها فانية، فيكون تعلقك بها عزًا لا يبقى، بل يزول بزوالها، فإن اعتززت بغيره من مال أو جاه أو نحوهما بأن ركنت إليه وجعلته معتمدك وغفلت عن مولاك، فلا بقاء لعزك، إذ لا بقاء لمن أنت به تعتز.

ولذا سمع بعض العارفين شخصًا يبكي فقال له: ما شأنك؟ قال: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك يموت؟

الحكمة السابعة والتسعون

«الطيُّ الحقيقيُّ أن تَطْوِي مسافةَ الدنيا عنكَ حتَّى تَرى الآخرةَ أقربَ إليكَ مِنْكَ»[1]

=

تقول الأكوان ظاهرها ملك وباطنها ملكوت، فمن وقف مع الملك كان من عوام أهل اليمين، ومن نفذ إلى شهود الملكوت كان من خواص المقربين، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الطي هو اللف والضم بحيث يصير الطويل قصيرًا والكبير صغيرًا، يقال: طويت الثوب أي: ضممته، وينقسم عند الصوفية إلى أربعة أقسام: طي الزمان، وطي المكان، وطي الدنيا، وطي النفوس.

فأما طي الزمان: فهو أن يقصر في موضع ويطول في موضع آخر كمن مر عليه سنون في موضع، وفي موضع آخر ساعة أو يوم، كالرجل الذي خرج يغتسل في الفرات يوم الجمعة قرب الزوال، فلما فرغ من غسله لم يجد ثيابه فسلك طريقًا حتى دخل مصر فتـزوج فيها، وولد له أولاد وبقي سبع سنين، ثم ذهب يغتسل يوم الجمعة بنيل مصر، فلما فرغ فإذا ثيابه الأولى فسلك طريقًا فإذا هو ببغداد قبل صلاة الجمعة

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الطي الحقيقي أن تطوي» أيها المريد «مسافة الدنيا عنك» بألا تشتغل بلذاتها وشهواتها ولا تركن إليها، بل تغيب عنها «حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك» أي: تكون نصب عينيك، ليست غائبة عن قلبك، فهذا هو الطي الحقيقي الذي يكرم الله به أولياءه، وبه تتحقق عبوديتهم لربهم، لا طي مسافة الأرض بأن تكون من أهل الخطوة؛ لأنه ربما كان استدراجًا ومكرًا ولا طي الليالي والأيام بالقيام والصيام؛ لأنه ربما قارنه رياء أو عجب، فتكون عاقبته

= من ذلك اليوم الذي خرج فيه والحكاية مطولة للفرغاني في «شرح التائية».

وأما طي المكان: فمثاله أن يكون بمكة مثلًا، فإذا هو بغيرها من البلدان وهذا مشهور لأولياء الله.

قال الشيخ أبو العباس ﷺ: والله ما صار الأولياء من قاف إلى قاف حتى يلقوا رجلًا مثلنا، فإذا لاقوه كان بغيتهم.

وأما طي الدنيا: فهو أن تطوي عنك مسافتها بالزهد فيها، والغيبة عنها وحصول اليقين التام في قلبك حتى يكون الآتي عندك واقعًا أو كالواقع، وسيأتي للشيخ: لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها، وسيأتي تتمة الكلام على هذه الحكمة ثَمَّ إن شاء الله.

وأما طي النفوس: فهو بالغيبة في الله عنها، ولذلك يتحقق الزوال وتمام الوصال. وقد ذكره الشيخ بقوله فيما يأتي: ليس الشأن أن تُطْوَى لك الأرض، فإذا أنت بمكة، أو غيرها من البلدان، إنما الشأن أن تُطْوَى عنك أوصاف نفسك، فإذا أنت عند ربك انتهى. وهذا هو الطي الحقيقي المعتبر عند المحققين لا طي الزمان أو المكان، إذ قد يكون استدراجًا أو مكرًا أو تخيلًا وسحرًا، فالطي الحقيقي هو أن تُطْوَى عنك مسافة الدنيا كلها حتى يكون الموت أقرب إليك من نفسك التي بين جنبيك.

وحتى ترحل عنها بالكلية فلا تبقى فيك منها بقية هنالك ترحل إلى عالم الملكوت، وتُكشف لك أسرار الجبروت، وقد قيل: في قوله ﷺ: «الدُّنْيَا خُطْوَةُ مُؤْمِنٍ» بمعنى أنه يتخطاها بالزهد فيها، وقال بعضهم: لا تتعجبوا ممن يدخل يده في جيبه فيخرج ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع يده في جيبه ولم يجد شيئًا، ولم يتغير. وقيل لأبي محمد المرتعش ﷺ: إن فلانًا يمشي على الماء. قال: عندي من مكنه الله من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي على الماء في الهواء انتهى. ومخالفة الهوى إنما تكون بالزهد في كل شيء والغيبة عن كل شيء.

وكان شيخ شيخنا ﷺ يقول: لا تفرحوا للفقير إذا رأيتموه يصلي كثيرًا أو يذكر كثيرًا أو يصوم كثيرًا أو يعتزل كثيرًا حتى تروه زَهِدَ في الدنيا ورحل عنها، ولم يبق له التفات إليها، فحينئذ يُفْرَحُ به ولو قلت صلاته وصيامه وذكره وعزلته. قلت: ومثل هذا تقدم في قوله: ما قل عمل برز من قلب زاهد، وكذلك قال في «التنوير»: لا تدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع وبذلك تحسن الأعمال وتزكوا الأحوال انتهى.

الخسران.

ولا يمكن أن تطوى عن العبد مسافة الدنيا إلا إذا أشرق نور اليقين في قلبه، فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره، ويرى الآخرة حاضرة لديه، موجودة عنده، ومن كانت هذه مشاهدته لا يتصور منه حب الفاني، وهو الدنيا واستبداله بالباقي وهو الآخرة.

أما إذا لم يشرق نور اليقين في قلبه، كان راغبًا في الدنيا، مؤثرًا لها على الآخرة، راكنًا إليها، وغائبًا عن مولاه لضعف يقينه وتقواه.

الحكمة الثامنة والتسعون
«العطاءُ منَ الخَلْقِ حِرْمَانٌ، والْمَنْعُ مِنَ الله إِحْسَانٌ»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان العطاء من الخلق حرمانًا لثلاثة أوجه:

أحدها: ما في ذلك من حظها وفرحها والتوصل إلى شهواتها وحظوظها وفي ذلك موت القلب وقسوته.

الوجه الثاني: ما في ذلك من نقص الدرجات، والغض عن كمال المراتب والمقامات، ولذلك ترك الأكابر التمتع بالشهوات لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠]، وقد يتعرض المريد للسؤال لأجل موت نفسه وحياة روحه، فإذا كثر عليه العطاء من الخلق فرحت النفس وأنست فلا تموت به سريعًا بخلاف ما إذا واجهه المنع، فإنها تموت سريعًا إذ لا حظَّ لها فيه؛ فالجهاد الذي لا غنيمة فيه أعظم من الجهاد الذي فيه الغنيمة، فقد ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا خرجتْ طائفةٌ للغزوِ فجَاهَدُوا وغَنِمُوا فقد تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِم وإِذَا لم يَغْنَمُوا رَجَعُوا بِأَجْرِهِمْ كامِلًا**»، أو كما قال ﷺ.

الوجه الثالث: ما في ذلك من الركون إليهم، وميل القلب بالمحبة لهم إذ النفس مجبولة على حب من أحسن إليها فتسترق لهم، وتكون أسيرة في أيديهم. وفي وصية سيدنا علي كرم الله وجهه: لا تجعل بينك وبين الله مُنْعِمًا وعُدَّ نعمة غيره عليك مغرمًا.

قال شيخ شيوخنا ومادة طريقنا بعد نبينا مولاي عبد السلام بن مشيش ﷺ لأبي الحسن ﷺ: يا أبا الحسن أهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خيرٌ من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك انتهى.

وقال بعضهم: عز النزاهة أكمل من سرور الفائدة، ولأجل هذا المعنى قال ﷺ: «**إذا أَسْدَى إليكُمْ أحدٌ مَعْرُوفًا فكَافِئُوهُ**»، أي لتسقطوا منته عليكم وتقطعوا رقبته لكم، والله تعالى أعلم.

وإنما كان المنع من الله إحسانًا لوجهين:

أحدهما: ما تقدم من أن الله سبحانه ما منعك بخلًا، ولا عجزًا، وإنما هو حُسْنُ نَظَرٍ لك، إذ لعل ما طلبته لا يليق بحالك في الوقت، وأخرَّه لوقت هو أولى لك وأحسن أو ادخر لك ذلك ليوم فقرك.

الثاني: ما في ذلك من دوام الوقوف ببابه واللياذ بجنابه، وفي ذلك غايةُ شرفك ورفعٌ لقدرك، وفي =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«العطاء من الخلق» أي: إذا أعطوك شيئًا فأخذته غافلًا عن مولاك، فهو وإن كان إعطاءً ظاهرًا «حرمانٌ» باطنًا أي: في الحقيقة ونفس الأمر لما فيه من رؤيتك لغير الله، ووقوفك مع حظوظك، «والمنع من الله» أي: منع الله لك وعدم إعطائك «إحسانٌ»، حيث لم يغب قلبك عنه، فهو وإن كان منعًا ظاهرًا، إعطاءً باطنًا؛ لأنه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه، وإن شئت قلت: العطاء من الخلق حرمانٌ لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك، وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم، والمنع من الله إحسان؛ لأنه حبيبك، وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

وفي وصية علي -كرم الله وجهه: «لا تجعل بينك وبين الله منعمًا، واعدد نعمةَ غيره عليك مغرمًا»[1]، وهو يناسب المعنى الأول.

الحكمة التاسعة والتسعون

«جَلَّ رَبُّنَا أنْ يُعَامِلَهُ العبدُ نقدًا فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«جل ربنا أن يعامله العبد نقدًا» أي: حالًا بأنواع الطاعات «فيجازيه نسيئة» بألا يعطيه شيئًا من جزاء عمله في الحال، فإن ذلك ليس شأن الكريم القادر، فجزاء العمل لا يختص بالدار الآخرة، ربما أظهر الله منه لبعض أوليائه شيئًا في الدنيا يحملهم على الاجتهاد في الأعمال ويتحققون به قبولها.

الحكمة المائـــة

«كَفَى منْ جزائهِ إيَّاكَ على الطاعةِ أنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلاً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كفى من جزائه» أي: مجازاته «إياك على الطاعة أن رضيك أهلًا لها» أي: توفيقك لها وأقدارك عليها، وإلا فصفتك الذاتية للتكاسل عن الطاعة وعدم الاعتناء بها، فإذا وفقك مولاك للقيام بها، كان ذلك معجلًا لك في الدنيا لما يترتب عليه من مزيد الزلفى، وأيضًا فأنت عبد حقير لا تستحق خدمة ملك الملوك، فكونه قربك لخدمته ورضيك أهلًا لها، نعمة عظيمة

= الحديث «إذا دعا العبدُ الصالحُ يقولُ الله تعالى للملائكة: أخِّرُوا حاجَتَهُ فإنِّي أُحِبُّ أنْ أسمعَ صوتَهُ وإذا دعا الفاجِرُ قالَ للملائكة: اقضُوا حاجَتَهُ فإنِّي أكرهُ صوتَهُ»، أو كما قال ﷺ لطول العهد به.

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٠٨)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٣٨٠).

منه عليك.

الحكمة الواحدة بعد المائة

«كَفَى العاملينَ جزاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ على قُلُوبِهِمْ في طاعتِهِ، ومَا هُوَ مُورِدُهُ عليهِمْ منْ وُجُودِ مؤانستِهِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته» أي: في حال طاعته من المواهب الإلهية والإلهامات اللدنية وحلاوة التملق بين يدي ملك الملوك.

قال بعضهم: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، وهذه الحلاوة هي التي يعبر عنها أهل الطريق بالأحوال والمواجيد والأذواق، «وما هو مورده عليهم» أي: على قلوبهم «من وجود مؤانسته» أي: الأنس به بعد حصول العمل وانقضائه.

قال بعضهم: الأنس هو سرور القلب بشهود جمال الحبيب، وهو حالة توجب التماس المحب وصفاء وقته، ويخاف فيه غوائل الأدلال.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه المؤانسة التي يجدها العامل بعد العمل على ثلاثة أقسام: مؤانسة ذكر، وهو لأهل الفناء في الأفعال، ومؤانسة قرب، وهو لأهل الفناء في الصفات، وهم أهل الاستشراف، ومؤانسة شهود، وهو لأهل الفناء في الذات، فالأول لأهل الإسلام، والثاني لأهل الإيمان، والثالث لأهل الإحسان؛ فمؤانسة الأول: توجب له الفرار من الناس والوحشة منهم، ومؤانسة الثاني: توجب القرب لهم على حذر منهم، ومؤانسة الثالث: توجب الصحبة لهم، ومخالطتهم لأنه يأخذ منهم ولا يأخذون منه، فالأول لا تليق به إلا العزلة لضعفه، والثاني تليق به الصحبة مع العفة ليتعلم القوة، فهو يشرب منهم ولا يشربون منه لبعده منهم بقلبه، والثالث لا تليق به إلا الصحبة لتحققه بالقوة، فهو يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منه شيء يصفو به كدر كل شيء، ولا يكدر صفوه شيء، ومؤانسة الذكر توصل لمؤانسة القرب، ومؤانسة القرب توصل لمؤانسة الشهود، فمن صعد عقبة أفضت به إلى راحة ما بعدها.

قال بعض العارفين: ليس شيء من الطاعات إلا ودونه عقبة كئود يحتاج فيها إلى الصبر فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة وإنما هي مجاهدة النفس ومخالفة الهوى، ثم والله مكابدة في ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم أي: ثم تكون لذة الطاعة وتنعم المعرفة، ثم ينبغي لك أيها المريد ألا تقصد شيئًا من هذه الأمور التي يجازيك الحق تعالى بها كانت معجلة أو مؤجلة؛ فإن ذلك نقص في إخلاصك، وناقض لصدق عبوديتك.

الحكمة الثانية بعد المائة

«مَنْ عَبَدَهُ لشيءٍ يَرْجُوهُ منْهُ أو ليدفَعَ بطاعته وُرُودَ العُقُوبَة عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من عبده تعالى لشيء يرجوه منه» وهو الثواب، «أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة» أي: حصولها في الدار الآخرة، وقوله: «عنه» متعلق بـ «يدفع»، «فما قام بحق أوصافه»، بل هو قائم بحظ نفسه من جلب الثواب أو دفع العقاب، بخلاف ما إذا عبده لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التي لا يشارك فيها، إذ من كان كذلك يستحق أن يخدم بالعبادة، فإنه حينئذ يكون قائمًا بحق أوصافه أي: موفيًا لها حقها.

فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: **«إن أود الأدواء إليّ من عبدني لغير نوال، لكن ليعطي الربوبية حقها»**.

وفي الحديث: **«لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير إن لم يعط الأجرة لم يعمل»**[1].

الحكمة الثالثة بعد المائة

«متى أعطاكَ أشهدَكَ بِرَّهُ ومتى منعَكَ أشهدَكَ قهرَهُ؛ فهُوَ في كُلِّ ذلكَ مُتَعَرِّفٌ إليْكَ، ومُقْبِلٌ بوجودِ لُطْفِهِ عليكَ»[2]

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٥٤).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: من أسمائه تعالى «اللطيف والرحيم»؛ فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه في كل وقت وعلى كل حال سواء أعطاهم أو منعهم وسواء بسطهم أو قبضهم فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم بره وإحسانه فعرفوا أنه سبحانه بارٌّ بعباده لطيف بخلقه رحيم كريم جواد محسن فتعظم محبتهم فيه، ويكثر شوقهم واشتياقهم إليه، ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم، وفي هذا ما لا مزيد عليه من البر والإحسان والجود والامتنان، وإن منعهم أو قبضهم أشهدهم قهره وكبرياءه فعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل فخافوا من سطوته وذابوا من خشيته وخضعوا تحت قهره فدامت عبادتهم، وقلّت ذنوبهم ومحيت مساوئهم واضمحلت خطيئتهم فوردوا يوم القيامة خفافًا مطهرين فرحين مبهجين إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين فمن أخافه في الدنيا أمّنه يوم القيامة ومن أمنه في الدنيا فاغتر أخافه يوم القيامة كما في الحديث.

فلا تتهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء؛ فإنه متى أعطاك أشهدك بره ورحمته وكرمه فعرفت بذلك أنه بر كريم رءوف رحيم فتتعلق بكرمه وجوده دون غيره فتتحرر من رق الطمع ويذهب عنك الغم والجزع وتتخلق أيضًا بوصف الكرم والرحمة والإحسان فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى أعطاك» أيها العارف المتيقظ «أشهدك بره» أي: صفات بره من الجود والكرم والإحسان واللطف والعطف وغير ذلك، «ومتى منعك أشهدك قهره» أي: صفة قهره أي: التي تقتضي القهر والغلبة من الجبروت والكبرياء والعزة والاستغناء، «فهو في كل ذلك» أي: في كلتا الحالتين «متعرف إليك» أي: مقبل عليك ومريد منك أن تعرفه، فإن الواحد منا إذا أراد أن يعرفه غيره، فإما أن ينعم عليه، وإما أن يعاقبه، فكل منهما سبب في معرفة ذلك الغير له، «ومقبل بوجود لطفه عليك»؛ لأن مشاهدته لصفات بره وقهره لطف عظيم منه سبحانه ونعمة منه عليك، فينبغي لك أن تشكره عليها، والحاصل أن المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هم عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى، ولا سبيل لهم بمعرفته إلا بتعرفه لهم وتعرفه لهم إنما يكون بما ينزل بهم من النوازل، ويورده عليهم من الأحكام، سواء كان الحكم موافقًا لطبعهم وهو الإعطاء، أو مخالفًا له وهو المنع، فمن كان عارفًا بربه ولم يستغرق حظ نفسه لم يفرق بين العطاء والمنع؛ لأن كلا منهما طريق توصله إلى معرفة صفات البرية من الجود ونحوه، والقهرية، وهذا من جملة فتح باب الفهم كما مر.

=

وفي الحديث: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الرَّحمنِ»، وقالت عائشة -رضي الله عنها: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن والقرآن فيه أوصاف الرحمن؛ فكأنها قالت كان خلقه خلق الرحمن إلا أنها احتشمت الحضرة، وتأدبت مع الربوبية ومتى منعك أو قبضك أشهدك قهره وكبرياءه فعرفت أنه قهار جبار فيعظم خوفك وتشتد هيبتك وحياؤك منه فلا جرم أن الله يعظمك ويكرمك ويحفظك ويستحيي منك كما استحييت منه؛ فإن الله ينـزل عبده على قدر منـزلته منه وإنما يطيع العبد ربه على قدر معرفته به وخوفه منه فهو سبحانه في كل ذلك من إعطاء ومنع وقبض وبسط متعرف إليك أي طالب منك أن تعرفه بصفاته وأسمائه، وما من اسم من أسمائه تعالى إلا اقتضى ظهور ما يطلبه؛ فاسمه «الكريم» اقتضى الإعطاء والإحسان وهو ظاهر في خلقه، واسمه «المانع» اقتضى ظهور المنع فظهر في عباده أيضًا، واسمه «المنتقم» اقتضى ظهوره في قوم وجههم لمخالفته، واسمه «القهار» اقتضى ظهوره في قوم يقهرهم على ما يريد من منع أو غيره وظهر قهره أيضًا في عباده بالموت؛ فهو من مقتضى اسمه القهار وهكذا كل اسم يقتضي ظهوره في الوجود وكلها في بني آدم فإذا تحققت هذا في حالة الإعطاء والمنع علمت أيضًا أنه تعالى مقبل بوجود لطفه وإبراره عليك إذ هو متعرف إليك في كل شيء ومقبل عليك في كل وجه فاطلب أيضًا أنت معرفته في كل حال واعرف منته عليك في الجمال والجلال وأقبل عليه بكليتك واستسلم لقهره بروحك وبشريتك تكن عبده حقًا وهو ربك حقًا وصدقًا، والله تعالى أعلم.

ويؤخذ من هذه الحكمة أن المدار إنما هو على قوة الروحانية التي هي المعرفة في الجلال والجمال لا على قوة البشرية لأن بمنعه يحصل للعبد الكمال، وبالله التوفيق.

الحكمة الرابعة بعد المائة

«إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ المنعُ لعدمِ فهمِكَ عنِ الله فيهِ»[١]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إنما يؤلمك المنع» أيها المريد، «لعدم فهمك عن الله فيه» أي: في حال المنع، إذ لو فتح باب الفهم حينئذ لتلذذت به، فمن جملة الفهم في المنع أن تفهم أنه يريد بذلك المنع أن يوقفك ببابه ويعلقك به ويصيرك من جملة أحبابه، فإنه إذا أحب عبدًا حماه من الدنيا، ومن جملته أن تفهم أنه سلك بك مسلك المقربين.

كما ورد عن الفضيل أنه كان يقول: «إلهي أجعتني وأجعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، وإنما تفعل هذا بخواص عبادك، فبأي سبب استجوب منك هذا» أي: من أعمال البر والخير، ومن جملته أن تفهم أن الدنيا فانية ولذاتها منقضية فتفرح بما ادخر لك في الآخرة، إلى غير ذلك مما يفتح الله به على قلبك المريد الصادق، إذا فتح عليه ذلك تلذذ بالمنع فعاد المنع عين العطاء.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الفهم عن الله يقتضي وجود المعرفة به ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه في الجلال والجمال والمنع والعطاء والقبض والبسط وأما إن كان لا يعرفه إلا في الجمال فهذه معرفة العوام الذين هم عبيد أنفسهم فإن أعطوا رضوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون وأيضًا من ثمرات المعرفة التسليم، والرضا لما يجري به القضاء ومن ثمرات المحبة والهوى الصبر عند الشدائد والبلوى؛ فلا يكون المحب صادقًا في محبته ولا العارف صادقًا في معرفته حتى يستوي عنده المنع والعطاء والقبض والبسط والفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم والفقد والوجد والحزن والفرح فيعرف محبوبه في الجميع كما قال القائل: حبيبي ومحبوبي على كل حالة، ويرضى ويسلم له في الجميع فإن لم يجد دلك عنده سواء فلا يدعي مرتبة العشق والهوى فيعرف قدره، ولا يتعدى طوره، ولا يترامى على مراتب الرجال من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

وقال إبراهيم الخواص ﷺ: لا يصح الفقر للفقير حتى تكون فيه خَصلتان إحداهما: الثقة بالله، والأخرى: الشكر لله فيما زُوي عنه مما ابتليَ به غيره من الدنيا، وقيل لبعضهم: ما الزهد عندكم؟ قال: إذا وجدنا شكرنا وإذا فقدنا صبرنا فقال هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، فقال: وما الزهد عندكم أنتم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا وإذا وجدنا آثرنا فهذا هو الفهم عن الله حيث شكر حين الفقد فقد عد الفقد نعمة والفاقة غنى لما يجد فيها من المواهب والأسرار ولما يترقب بعدها من ورود الواردات والأنوار ولو لم يكن إلا التفرغ من الشواغل والأغيار وبهذا تزكوا الأحوال، وتعظم الأعمال، ويتأهل صاحبها للقبول والإقبال وإلا فلا عبرة بصور وجودها مع عدم قبولها.

الحكمة الخامسة بعد المائة

«رُبَّمَا فَتَحَ لكَ بابَ الطاعةِ ومَا فَتَحَ لكَ بابَ القَبُولِ، وربما قَضَى عليكَ الذَّنْبَ سببًا في الوُصُولِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول»، الإضافة فيهما بيانية، أو من إضافة المشبه به للمشبه، «وربما قضي عليك بالذنب سببًا في الوصول».

وذلك أن الطاعة قد يقارنها آفات قادحة في الإخلاص فيها كالإعجاب بها والاعتماد عليها واحتقار من لم يفعلها، وذلك مانع من قبولها، والذنب قد يقارنه الالتجاء إلى الله والاعتذار إليه واحتقار نفسه وتعظيم من لم يفعله، فيكون سببًا في مغفرة الله له ووصوله إليه، فينبغي ألا ينظر العبد إلى صور الأشياء، بل إلى حقائقها، فيخاف إن كان مطيعًا ويرجو إن كان عاصيًا.

الحكمة السادسة بعد المائة

«رب معصية أورثتْ ذُلاً وافتقارًا خيرٌ منْ طاعةٍ أورثتْ عزًّا واستكبارًا»(٢)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لا عبرة بالطاعة إذا لم يصحبها قبول كما لا عبرة بالسؤال حيث لم يحصل به مأمول إذ الطاعة إنما هي وسيلة لمحبة المطاع، وإقباله على المطيع بحيث يفتح في وجهه الباب، ويرفع عن قلبه وجود الحجاب ويجلسه على بساط الأحباب فإذا فتح لك باب العمل وبلغت في تحصيله غاية الأمل غير أنك لم تجد له ثمرة، ولم تذق له حلاوة من الأنس بالله والوحشة مما سواه، ومن الغنى به والانحياش إليه والاكتفاء بعلمه والقناعة بقسمته؛ فلا تغتر بذلك أيها المريد فربما فتح لك باب طاعته وأنهضك إلى خدمته ولم يفتح لك باب القبول ومنعك بها من الوصول حيث اعتمدت عليها وركنت إليها وأنست بها وأشغلتك حلاوتها عن الترقي إلى حلاوة شهود المنعم بها.

ولذلك قال بعضهم: احذروا حلاوة الطاعات؛ فإنها سموم قاتلة لأنها تقبض صاحبها في مقام الخدمة ويحرم من مقام المحبة، وفرق كبير بين من شغله بخدمته وبين من اصطفاه لمحبته واجتباه لحضرته فإجراء الذنب على العبد أحسن من مثل هذه الطاعة التي تكون سبب الحجاب.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: العبد إذا كان سائرًا لمولاه قاصدًا لوصول حضرة حبيبه ورضاه قد يحصل له كلل أو يصيبه ملل أو يركبه كسل فسلط الحق عليه ذنبًا أو تغلبه نفسه فيسقط فإذا قام من سقطته جد في سيره ونهض من غفلته ونشط من كسله، فلا يزال جادًّا في طلب مولاه غائبًا عما سواه حتى يدخل حضرته ويشاهد طلعته، وهي الحضرة التي هي تجليات الحق وأسرار ذاته، ومثال ذلك: رجل مسافر أصابه في الطريق نوم أو كسل فيسقط فيضربه حجر فإذا قام ذهب كسله وجد في سيره.

وفي الحديث: «رُبَّ ذَنْبٍ أدخلَ صاحِبَهُ الجَنَّةَ»، **قالوا: وكيفَ ذلكَ يا رسولَ الله؟ قال:** «لا يزال تائبًا فارًّا منه خائفًا من ربه حتَّى يموتَ فيدخلَ الجَنَّةَ» **أو كما قال ﷺ، وفي حديث آخر عن أبي هريرة ﷺ**

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«رب معصية أورثت ذلًا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا»، ولا شك أن الذل والافتقار من أوصاف العبودية، فالتحقق بهما مقتضي للخذلان وعدم القبول.

قال أبو مدين -قدس الله سره: «انكسار العاصي خير من صولة المطيع».

الحكمة السابعة بعد المائة

«نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما ولا بدَّ لكلِّ مُكَوَّنٌ منهما: نعمةُ الإيجادِ ونعمةُ الإمدادِ»(١)

=

قال: قال رسول الله ﷺ: «والذِي نفسِي بيدِهِ لوْ لمْ تُذْنِبُوا لذهبَ الله بِكُمْ ولجاءَ بقوم يُذْنِبُونَ فيَسْتَغْفِرُونَ فيغفرُ لهُمْ» انتهى، وقال ﷺ في شأن الطاعة التي لم تقبل: «رُبَّ صائمٍ ليسَ لَهُ منْ صيامِهِ إلا الجوعُ، وقائِمٍ ليس له من قيامِهِ إلا السهر»؛ فمثل هذه الطاعة المعصية التي يصحبها الانكسار أحسن منها بكثير.

وقال أيضًا: إنما كانت المعصية التي توجب الانكسار أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلل والانكسار أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني، واتصفت بأضدادها فالمعصية التي توجب هذه المعاني، وتجلب هذه المحاسن أفضل منها إذ لا عبرة بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية، وإنما العبرة بما ينتج عنهما: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ ولا إلى أعمالِكُمْ وإنَّما ينظرُ إلى قلوبِكُمْ»؛ فثمرة الطاعة هي الذل والانكسار وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق صارت الطاعة معصية والمعصية طاعة، ولذلك قال المحاسبي ﷺ: إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم فإذا تكبر العالم أو العابد وتواضع الجاهل والعاصي وذل هيبةً لله ﷻ وخوفًا منه فهو أطوع لله ﷻ من العالم والعابد بقلبه انتهى.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: كل إساءة أدب تثمر أدبًا فليست بإساءة أدب، وكان ﷺ كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان ﷺ يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله حتى أنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالي به، وربما دخل عليه عاص فأكرمه؛ لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله وناظر لفعله وذلك العاصي دخل بكثرة معصيته وذلته ومخالفته.

وقال أبو يزيد ﷺ: نوديت في سري خزائني مملوءة بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار، وقال رسول الله ﷺ: «لوْ لمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عليكم ما هو أَشَدُّ من ذلك: العُجْبُ» كذا في الصحيحين، وقال ﷺ «لولا أنَّ الذنبَ خيرٌ من العُجْبِ ما خَلا اللهُ بَيْنَ مُؤمِنٍ وذَنْبٍ أبدًا».

وقيل للجنيد ﷺ: أيزني العارف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] لكن معصية الولي حدها الظاهر، ولذلك قال ابن عطاء الله: ليت شعري لو قيل له: أتتعلق همة العارف بغير الله لقال لا.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أما نعمة الإيجاد فهي الإظهار من عالم الغيب إلى عالم الشهادة أو من عالم الأمر إلى عالم الخلق أو من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح أو من عالم القدرة إلى عالم الحكمة أو من عالم التقدير إلى

=

=

عالم التكوين، وأما نعمة الإمداد فهي قيامه تعالى بالأشياء بعد وجودها وإمداده إياها بما تقوم به بنيتها، وهاتان النعمتان عامَّتان واختص الإنسان بما اجتمع فيه من الضدين وهما النور والظلمة واللطافة والكثافة فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم في عالم القدم لم تتمتع بنعمتين نعمة الأشباح ونعمة الأرواح، ولو تجلى فيك بوجهة واحدة لكنت ناقصًا في شهود المعرفة؛ لأن مَزِيَّةَ الآدمي في المعرفة أعظم إذ بقدر المجاهدة يكون الترقي في المشاهدة لما فيه من الكثافة واللطافة فكلما لطف من كثافة ترقى في مشاهدة ربه ولما فيه من النور والظلمة فكلما انتفت الظلمة قوي النور بخلاف غيره من الجن والملائكة غير المقربين، قال الله تعالى في حق الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فما مثل الآدمي إلا كياقوتة سوداء وهي أعظم اليواقيت كلما صقلتها أشرقت وزاد نورها وجمالها، ومثل الملائكة كالزجاج إذا صقل مرة كفاه ولا يزيد نوره على أصله فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم أو من اللطافة بعد قبضة القدم لم يكن لك مزية على غيرك.

ومما يدلك على أن تجلي الآدمي أعظم اختصاصه بالجنة والنظر، قال تعالى:﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥]، والكلام إنما هو مع الخواص فخواص الآدمي أعني الأنبياء أعظم من خواص الملائكة وخواص الملائكة أعني المقربين أعظم من خواص الآدمي -أعني: العارفين- والعارفون أعظم من عوام الملائكة وعوام الملائكة أعظم من عوام بني آدم، والله تعالى أعلم.

فأنعم الحق سبحانه عليك أيها الإنسان أولًا بنعمة الإيجاد وأصحبك الرأفة والوداد لتظهر مزيتك وتكمل نعمتك ثم أنعم عليك ثانيًا بنعمة الإمداد حسية ومعنوية أما المدد الحسي فغذاء البشرية من أول النشأة إلى منتهاها وأما المدد المعنوي فغذاء الروح من قوت اليقين والعلوم والمعارف والأسرار ثم إن هذا المدد المعنوي من حيث هو ينقسم على ثلاثة أقسام: منه ما لا يزيد ولا ينقص، وهو مدد الملائكة، قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤]، ومنه ما يزيد وينقص وهو مدد عوام بني آدم، ومنه ما يزيد ولا ينقص وهو مدد خواصهم كالرسل والأنبياء وأكابر الأولياء ومن تعلق بهم ممن دخل تحت حضانتهم ولزم عشهم من الفقراء والمريدين السائرين فمددهم في الزيادة على الدوام، وهذا المدد ثابت للروح قبل اتصالها بالبشرية فلذلك أقرت بالربوبية في عالم الذر.

قال في «التنوير»: اعلم أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك وقام لك في كل ذلك بوجود أبرارك فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير يوم:﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأحزاب:١٧٢]، ومن حسن تدبيره لك أن عرفك به فعرفته، وتجلى لك فشهدته، واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته؛ فوحدته ثم أنه جعلك نطفة مستودعة في الأصلاب تولاك بتدبيره هنالك حافظًا لك وحافظًا لما أنت فيه موصلًا لك المدد بواسطة ما أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم ثم قذفك في رحم الأم فتولاك بحسن التدبير وجعل الرحم قابلة لك أرضًا يكون نباتك ومستودعًا تعطي فيها حياتك ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما فكنت عنهما لما بنيت عليه الحكمة الإلهية من أن الوجود كله مبنيٌّ على سر الازدواج ثم جعلك بعد النطفة علقة مهيئة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه ثم بعد العلقة مضغة ثم فتق سبحانه في المضغة صورتك، وأقام فيها بنيتك ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك ثم غذاك بدم الحيض في رحم الأم فأجرى عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود ثم أبقاك في رحم الأم حتى قويت أعضاؤك،

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«نعمتان ما خرج موجود عنهما» أي: هما عامتان لكل موجود، «ولا بدَّ لكل مكون» أي: موجود «منهما» أي: هما لازمتان لكل موجود لا ينفك عنهما موجود من الموجودات، «نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد»، الإضافة للبيان فيهما، فكل موجود في ذاته معدوم متلاش، فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق، فصار موجودًا،ولولا ذلك لم يزل معدومًا، والمعدوم ليس بشيء، ولما كان دوام وجوده يحتاج إلى إمداد إلهي له يقتضي بقاء صورته وهيكله، أمده بجلب المنافع له ودفع المضار عنه، فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق، ونعمة الإمداد لم يخرج شيء من العدم إلى الوجود، ولم يزل معدومًا، ولولا نعمة الإمداد لم يتم وجود الموجود، ولم يصح بقاء موجود، بل يختل في أقرب مدة، ويضمحل، ولا فرق في هذا بين المكونات العلوية والسفلية.

الحكمة الثامنة بعد المائة

«أنعمَ عليكَ أولاً بالإيجادِ وثانيًا بتوالي الإمدادِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أنعم عليك» أيها الإنسان «أولًا بالإيجاد، وثانيًا بتوالي الإمداد»، فإذا علم العبد أن ابتداء وجوده من الله ودوام وجوده كذلك، علم أن فاقته ذاتية. وأنه لا غنى له عن مولاه

=

واشتدت أركانك ليهيئك إلى البروز إلى ما قسم لك أو عليك، وليبرزك إلى دار يتعرف فيها بفضله وعدله إليك ثم لما أنزلت إلى الأرض علم سبحانه أنك لا تستطيع أن تتناول خشونات المطاعم، وليس لك أسنان ولا أرحى تستعين بها على ما أنت طاعم فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف، ووكل بهما مستحث الرحمة التي جعلها في قلب الأم فكلما وقف اللبن على البروز استحثته الرحمة التي جعلها لك في الأم مستحثًا لا يفتر، ومستنهضًا لا يقصر ثم أنه شغل الأب والأم بتحصيل مصالحك والرأفة عليك والرحمة والنظر بعين المودة منهما إليك، وما هي إلا رأفته ساقها للعباد في مظاهر الآباء والأمهات تعريفًا بالوداد، وفي حقيقة الأمر ما كفلتك إلا ربوبيته، وما حضنتك إلا ألوهيته ثم ألزم الأب القيام بك إلى حين البلوغ، وأوجب عليه ذلك رأفة منه بك ثم رفع قلم التكليف عنك إلى أوان تكمل الأفهام، وذلك عند الاحتلام ثم إلى أن صرت كهلًا لم يقطع عنك نوالًا، ولا فضلًا ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة ثم إذا قدمت عليه ثم إذا حشرت إليه ثم إذا أقامك بين يديه ثم إذا سلمك من عقابه ثم إذا أدخلك دار ثوابه ثم إذا كشف عنك وجود حجابه وأجلسك مجالس أوليائه وأحبابه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر٥٥-٥٤]، فلأيِّ إحسانه تشكر؟ ولأيِّ أياديه تذكر؟ واسمع قوله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] تعلم أنك لم تخرج عن إحسانه، ولن يعدوك وجود فضله وامتنانه.

لافتقاره بعد وجوده في كل وقت إلى الإمداد، ثم هذه الإمدادات المتوالية عليه منها ما يكون قوتًا لشبحه تقوم بنيته به كالأقوات، ومنها ما يكون قوتًا لمعناه وروحه كالإيمان والعلوم والمعارف؛ فإن الإنسان شيئان: روح وجسد، والإمداد الأول عام بالمؤمنين والعارفين كنعمة الإيجاد، والثاني بالمؤمنين خاصة.

الحكمة التاسعة بعد المائة

«فاقتُكَ لكَ ذاتيَّةٌ وورودُ الأسبابِ مُذَكِّرَةٌ لكَ بمَا خَفِيَ عليكَ منها والفاقةُ الذاتيَّةُ لا ترفَعُهَا العوارِضُ»[1]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الفاقة الذاتية هي الأصلية الحقيقة والأسباب المحركة لها هي العوارض الجلالية، وهي كل ما يقهر النفس، ويزعجها عن حظوظها، وتصرفاتها العادية، وإنما كانت فاقتنا ذاتية لا تفارقنا ساعة واحدة؛ لأن نشأتنا مركبة من حس ومعنى ولا يقوم الحس إلا بالمعنى، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء فأشباحنا مفتقرة في كل لحظة إلى نعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد ولا الحكمة إلا بالقدرة ولا البشرية إلا بالروحانية، والروح سر من أسرار الله قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[الإسراء: ٨٥]؛ فالبدن قائم بالروح والروح أمر من أمر الله، وكل شيء قائم بأمر الله؛ فافتقار البشرية للروحانية حاصل على الدوام قال تعالى في نعمة الإيجاد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فهذا هو الافتقار إلى نعمة الإيجاد ثم قال في نعمة الإمداد: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٦]، وهذا هو افتقارنا إلى نعمة الإمداد، وقال تعالى في افتقار بقية العالم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١] فالكون كله قائم بأمر الربوبية مظهر من مظاهرها لا قيام له بدونها.

قال الشيخ أبو مدين ﷺ: الحق سبحانه مستبد والوجود مستمد والمادة من عين الجود فإذا انقطعت المادة انهد الوجود انتهى.

والمراد بالوجود: ظهور الحس وعين الجود هو المعاني اللطيفة القديمة يعني أن الحق تعالى مستبد أي: قائم بنفسه، وظهور تجلياته مستمدة من باطن صفاته، ومادة الأشياء كلها من عين الجود وهي نعمة الإيجاد والإمداد؛ فإذا انقطعت المادة أي مادة المعنى من الحس اضمحل الحس واضمحلت الأكوان فلو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته ففاقتك أي: افتقارك أيها الإنسان لك ذاتية أي: أصلية حقيقية لكنها خفية وورود الأسباب المحركة لظهور تلك الفاقة، وهي الشدة والحيرة وكل ما يلجئك إلى مولاك مذكرة لك ما خفي عنك منها يعني أن فاقتك لا تفارقك؛ إذ كل لحظة تفتقر إلى من يمدك بالوجود في الساعة الثانية إلا أنها خفية لا تذكرها حتى يتحرك عليك أسباب ظهورها كالفتن والمرض وغيرهما، والفاقة الأصلية الذاتية لا ترفعها العوارض وهي الصحة والعافية؛ فما دام العبد في العافية ففاقته خفية لا يتفطن لها إلا العارفون؛ لأنه لا يزول اضطرارهم فإذا قام عليه جلال أو محرك ظهر افتقاره، وتحقق اضطراره مع أنه دائم في الفاقة حسه ومعناه، والله تعالى أعلم.

«فاقتك لك ذاتية» أي: إذا ثبت أن نعمتي الإيجاد والإمداد لازمتان لك وأنك في ذاتك عدم لولاهما، فالفاقة إذا ذاتية لك، والاضطرار لازم لوجودك لاحتياجك إلى المولى في ابتداء وجودك وفي إدامته عليك، لكن هذا الاضطرار يخفي على غالب الناس ويغفلون عنه إذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم، فيغيبون حينئذ عن صفتهم الذاتية وعن مولاهم فيورد عليهم أسباب الاضطرار ليذكرهم ذلك كما قال: «وورود الأسباب» أي: أسباب الاضطرار، وهي الأمور القهرية من مرض وجوع وعطش وحر وبرد وغير ذلك «مذكرات لك بها»، الباء زائدة أو بمعنى اللام، «خفي عليك منها» أي: الفاقة والاضطرار.

فإذا كنت في غفلة عن اضطرارك الذاتي وأورد عليك مرضًا أو فقرًا، اضطررت إليه وظهرت لك صفتك الذاتية بعد أن كانت مغطاة عنك بالصحة والجدة، فتقوم حينئذ بحق العبودية، وتدعوه سبحانه برفع ذلك عنك.

قال بعضهم: «إنما حمل فرعون على قول ﴿أَنَا رَبُّكُم الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] طول العافية والغنى، لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولم يحم جسمه، ولم يضرب عليه عرق، فادعى الربوبية، ولو أخذته شقيقة ساعة واحدة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية»، وهذا في حق غالب الناس، وإلا فالعارفون لا يفارقهم مشاهدة فقرهم الذاتي كما سيأتي في قوله: «العارف لا يزال اضطرار».. إلخ، فهؤلاء لا يحتاجون إلى مذكر، وإنما يسلط الله عليهم هذه الأسباب القهرية ليظهر عليهم علامات الصدق في العبودية إذ لا يزيدهم البلاء إلا تعلقًا بربهم وطاعة له ورجوعًا إليه، وليكترثوا بهم، وتعظم منزلتهم عند الله تعالى بما يظهر عليهم من الرضا عن الله والتسليم إليه «والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض»، وهذا متعلق بقوله: «فاقتك لك ذاتية» أي: إن الاضطرار لازم لوجودك، وإن كنت غنيًا بوجود النعمتين المذكورتين، فإن ذلك أمر عرضي، والأمور الذاتية لا تزيلها الأمور العرضية، فما يحصل للعبد من الصحة والغنى والقدرة حتى تصير الأشياء كأنها طوع يده لا يزيل الفاقة الذاتية؛ لأنه لا يجوز في حقه تعالى أن يزيل ذلك، ويبدله بضده للافتقار والاضطرار.

يقول السياجي يغفر الله له: وما كان من حق الله تعالى، لا تدفعه أو تمنعه مكاسب العباد، بل هو من أمره سبحانه، إن شاء دفع وإن شاء منع.

الحكمة العاشرة بعد المائة

«خيرُ أوقاتِكَ وقتٌ تشهدُ فيهِ وجودَ فاقتِكَ وتَرِدُ فيهِ إلى وجودِ ذِلَّتِكَ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان شهود الفاقة هو خير أوقاتك لوجهين:

=

=

أحدهما: ما في ذلك من تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية وفي ذلك شرف العبد وكماله؛ إذ بقدر تحقيق العبودية في الظاهر يعظم شهود الربوبية في الباطن أو تقول: بقدر العبودية في الظاهر تكون الحرية في الباطن أو تقول: بقدر الذل في الظاهر يكون العز في الباطن أو تقول: بقدر وضع الظاهر يكون رفع الباطن من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره ونظر أشرف خلق الله وهم الأنبياء بماذا خاطبهم الله تعالى فما خاطبهم إلا بالعبودية، قال الله تعالى:﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ﴾ [ص:١٧] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١]، وقد اختارها نبينا ﷺ حين خُيِّر بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عبدًا فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا فدلَّ على أن أشرف حال الإنسان هو العبودية فبقدر ما يتحقق بها في الظاهر يعظم قدره في الباطن، ومهما خرج منها في الظاهر بإظهار الحرية أدبته القدرة وردته القهرية حتى يرجع إلى أصله ويعرف ماله وعليه.

الوجه الآخر: ما في الفاقة من مزيد المدد، وطلب الاستمداد: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك كما يأتي إن شاء الله، وقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذلة وتحقيق الضعف والقلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]، وجعل الخذلان وعدم النصر والمعونة في إظهار الحرية والقوة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]، وذلك لما وقع من بعض الصحابة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام فأدبهم الله بإظهار الحرية لكن عمت الفتنة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] وهذا وجه ذكر الآية قبل ذكر القضية، والله تعالى أعلم.

فإذًا خير أوقاتك أيها المريد وقت تشهد فيه وجود فاقتك أي ظهورها وإلا فهي كامنة فيك كما تقدم وتسمى عند المتأخرين الحيزة وهي الشدة فهي خير لك من ألف شهر إن عرفت فيها ربك والمعرفة فيها أن تسكن عن التحرك والاضطراب وتقطع النظر عن التعلق بالأسباب وترجع فيها إلى مسبب الأسباب وتعلق همتك برب الأرباب وتكتفي بعلم الله الكريم الوهاب.

ولقد سمعت شيخنا اليزيدي ﷺ يقول: العجب من الإنسان يرى الخير أو الفتح واصلًا إليه وقادمًا عليه ثم يقوم يبادر بسد الباب في وجهه وهو أن يرى الفاقة قادمة عليه فيبادر إلى الأسباب التي تقطعها عنه قبل وصولها فقد كان الربح واصلًا إليه فقام فرده أو ما هذا معناه وخير أوقاتك أيضًا وقت تشهد فيه وجود ذلتك كما تقدم؛ لأنه سبب عزك ونصرك؛ إذ الأشياء كامنة في أضدادها العز في الذل والغنى في الفقر والقوة في الضعف والعلم في الجهل أي في إظهار الجهل إلى غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥]، وقال تعالى في حق الصحابة رضي الله عنهم حين كانوا في حالة الاستضعاف والإذاية تسلية لهم: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٥]، ومما جرت به العادة الإلهية أن الفرج على قدر الضيق فبقدر الفقر يكون الغنى وبقدر الذل يكون العز

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«خير أوقاتك» أيها المريد الصادق، «وقت تشهد فيه وجود فاقتك»، بأن يزوي عنك الدنيا وشهواتها، «وترد إلى وجود ذِلتك»، بكسر الذال أي: فقرك، وإنما كانت هذه خير الأوقات لك لوجود حضورك فيها مع ربك، وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك عنه، بخلاف الوقت الذي تشهد فيه وجود غناك وعزك، فإن ذلك شر أوقاتك.

حكي عن عطاء السلمي أنه بقي سبعة أيام لم يذق شيئًا من الطعام، ولم يقدر على شيء، فسر قلبه بذلك، وقال: «يا رب! إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة».

وقيل: إن فتح الموصلي ﷺ رجع إلى بيته فلم يجد عشاءً ولا سراجًا ولا حطبًا، فأخذ يحمد الله ويتضرع إليه، ويقول: «إلهي، بأي سبب، وبأي وسيلة واستحقاق عاملتني بما عاملت به أولياءك».

وكذا وقع للفضيل بن عياض، فقال: «بأي عمل أستحق هذا منك حتى أداوم عليه» إلى غير ذلك مما وقع لأهل الله تعالى.

ولذا قال ابن عطاء ﷺ كما سيأتي: «ورود الفاقات أعياد المريدين».

الحكمة الحادية عشرة بعد المائة

«متى أوحشكَ من خلقِهِ؛ فاعلمْ أنّه يريدُ أن يفتحَ لكَ بابَ الأُنْسِ بِهِ»(١)

= وبقدر العسر يكون اليسر والحاصل بقدر الجلال يكون الجمال عاجلًا وآجلًا، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥ - ٦]، ولن يغلب عسر يسرين كما في الحديث حيث قال ﷺ لابن عباس ﷺ: «واعلمْ أنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العسرِ يُسرًا» انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه سنة الله تعالى في خلقه إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره ويتحفه بمعرفته أوحشه من خلقه وشغله بخدمته وألهمه ذكره حتى إذا امتلأ قلبه بالأنوار، وتمكن من حلاوة الشهود والاستبصار رده إليهم رحمة لهم؛ لأنه حينئذ لقوته يأخذ منهم ولا يأخذون منه ومثاله في الحس كفتيلة شعلتها فمادامت ضعيفة لا بدَّ أن تحفظها من الريح وتقصد بها المواضع الخفية؛ فإذا اشتد نورها وأشعلتها في الحطب صعدت بها إلى ظهور الجبال فبقدر ما يصيبها الريح يعظم اشتعالها كذلك الفقير ما دام في البداية لا يليق به إلا الوحشة من الخلق والفرار منهم فإذا تمكن في الشهود فلا يليق به حينئذ إلا الخلطة معهم لأنهم لا يضرونه فمتى أوحشك أيها الفقير من خلقه وعزلك عنهم في قلبك فاعلم أنه تعالى أراد أن يؤنسك به ويغنيك بمعرفته فقد كان ﷺ حين قرب أوان النبوة والرسالة حبب إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء، وحكمة ذلك تصفية البواطن من الشواغل والشواغب لتتهيأ لقبول ما تتحمله من الأسرار والمواهب فإذا تطهر من الأكدار مُلِئَ بالأنوار فأشرقت فيه شموس العرفان وتمكن من حضرة الشهود والعِيان؛ فهذه سنة الله في أوليائه وأصفيائه يفرون أولًا من الناس حتى يحصل لهم =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى أوحشك من الخلق» أي: ما عدا الله تعالى بأن تشمئز منهم بقلبك، وتنقبض عنهم بسرك، ولا يكون للأشياء وقع عندك، ولا تجد فيها مقنعًا عن مولاك، «فاعلم أنه يريد أن يفتح باب الأنس به»، فإذا فتح لك ذلك الباب وآنسك بالخطاب، صرت له وحده، وغبت عن غيره، كما وقع لأبي يزيد قدس الله سره، أنه اطلع على أنواع العجائب، وكشف له عن المكونات العلا، فقيل له: «وهل استحسنت منها شيئًا؟ فقال: لم أر شيئًا أستحسنه، فقيل له: أنت عبد الله حقًّا».

الحكمة الثانية عشرة بعد المائة

«متى أطلقَ لسانَكَ بالطلبِ؛ فاعلمْ أنَّه يريدُ أنْ يُعْطِيَكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى أطلق لسانك بالطلب» أي: بأن حل عنه عقدة الصمت التي أوجبها الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الافتقار، فإذا حل عنه هذه العقدة بأن أشهدك فقرك وفاقتك حتى دعوته كنت إذ ذاك داعيًا بلسان الاضطرار، «فاعلم أنه يريد أن يعطيك» أي: يحصل لك مطلوبك لصدق الوعد بإجابة الدعاء من المضطر، والله لا يخلف الميعاد.

ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة**»[1] أي: إما بعين المطلوب أو بغيره، عاجلًا أو آجلًا.

قال بعضهم: هذا إذا كان الدعاء صادرًا عن اختيار وقصد، أما إذا جرى على لسانه من غير قصد، فإن الإجابة بعين المطلوب لا تكاد تتخلف.

الحكمة الثالثة عشر بعد المائة

«العارفُ لا يزولُ اضطرارُهُ ولا يكونُ مع غيرِ الله قرارُهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«العارف لا يزول اضطراره» أي: احتياجه، بل هو دائم مستمر لشهوده قبضة الله الشاملة المحيطة، ولمعرفته بنفسه وما هي عليه من الفاقة، وتحققه بذلك في كل نفس، بخلاف غيره فإنه تارة يضطر فيدعو وتارة يدعو من غير اضطرار، وذلك أن اضطرار العامة بمثيرات

= منهم الإياس ثم يردهم الحق إليهم رغمًا على أنفهم لمقام الدلالة والإرشاد فينتفع بهم العباد وتحيا بوجودهم البلاد.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧/ ١١٨)، و«المعجم الصغير» (٢/ ١٩٨).

الأسباب لغلبة الحس على مشهدهم، فإذا زالت زال اضطرارهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة، لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم، «ولا يكون مع غير الله قراره» أي: لا يركن ولا يستند بقلبه لغير الله تعالى لوجود وحشته من الأشياء، ونفوره بقلبه منها، كما تقدم، فكأنه يقول: إن ما تقدم من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب نعتان من نعوت العارفين.

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائة

«أنارَ الظواهرَ بأنوارِ آثارِه وأنارَ السرائرَ بأنوارِ أوصافه، لأجلِ ذلكَ أفلتْ أنوارُ الظواهرِ ولم تأفلْ أنوارُ القلوبِ والسَرائرِ[1]

إنَّ شمسَ النهارِ تغربْ بليلٍ وشمسَ القلوبِ ليستْ تغيبُ

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أنوار الظواهر هي ما ظهر على تجليات الأكوان من تأثير قدرته، وإبداع حكمته كتزيين السماء بالكواكب والقمر والشمس وما فيها من إبداع الصنع وتمام الإتقان وكتزيين الأرض بالأزهار والثمار والنبات وسائر الفواكه وكتزيين الإنسان بالبصر والسمع والكلام وسائر ما فيه من عجائب الصنعة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:٦]؛ فهذه أنوار الظواهر وأنوار الأوصاف هي العلوم والمعارف والأسرار والمراد بالأوصاف أوصاف الربوبية كالعظمة والعزة والجلال والجمال والكبرياء والكمال وغير ذلك من أوصاف الذات العلية والذات لا تفارق الصفات فإذا أشرقت السرائر بأنوار معرفة الصفات؛ فقد أشرقت بأنوار معرفة الذات للتلازم الذي بين الصفات والذات ثم الناس في شهود هذه الأنوار الباطنة التي هي أنوار الأوصاف على ثلاثة أقسام: قسم يشهدونها على البعد وهم أهل مقام الإسلام وقسم يشهدونها على القرب وهم أهل المراقبة من مقام الإيمان، وقسم يشهدونها على الاتصال، وهم أهل المعرفة من مقام الإحسان فأهل مقام الإسلام أنوارهم ضعيفة كأنوار النجوم وأهل مقام الإيمان أنوارهم متوسطة كنور القمر وأهل مقام الإحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس؛ فتحصل أن أنوار الباطن ثلاثة: نجوم الإسلام وقمر التوحيد وشمس المعرفة.

وقال الشيخ ابن عجيبة أيضًا: النور عبارة عن اليقين الذي يحصل في القلب يثمر حلاوة العمل فإذا قوي اليقين قوي النور واشتدت الحلاوة حتى يتصل بحلاوة الشهود، فيغطي حلاوة العمل فلذلك يقلّ عمل الجوارح عند العارف؛ إذ حلاوة الشهود تغني عن كل شيء ليس الخبر كالعيان.

وفي بعض الأحاديث: «سُئِلَ رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلمُ بالله» قالوا: يا رسول الله! سألناك عن العمل، قال: العلم بالله، ثم قال في الثالثة: عملٌ قليلٌ كافٍ مع العلم بالله»»، وحقيقة النور في الأصل كيفية تنبسط من النيرين على سطح الجسم فينكشف ما عليه بواسطة البصر ثم شبه به العلم واليقين والمعرفة لما بينهما من الشبه في كشف حقيقة الأشياء وتمييزها فالنور الحسي ينقطع بانقطاع أصله والنور المعنوي الذي هو نور القلوب لا ينقطع أبدًا.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أنار الظواهر» أي: المكونات من السماوات والأرضين أي: جعلها منيرة «بأنوار آثاره» أي: آثار أوصافه أي: بأنوار الكواكب من شمس وقمر ونجوم، التي هي آثار لأوصافه من قدرة واردة وغيرها، فتلك الظواهر صارت مكشوفة لنا بأنوار الكواكب، وحينئذ نرى المكونات، ونأخذ منها ما ينفع، ونحترز عما يضر، «وأنار السرائر» جمع سر، وهو باطن القلب كما مرَّ.

«بأنوار أوصافه» أي: بالعلوم العرفانية والأسرار الربانية الناشئة عن تجلي أوصافه على قلوب العارفين، فتلك السرائر أي: سرائر العارفين صارت مكشوفة لهم بأنوار العلوم والمعارف الناشئة عن أوصافه سبحانه أي: تجليها على قلوبهم، وحينئذ يشاهدون ما في سرائرهم من الأوصاف، فيحترزون عما يضرهم منها، ويتصفون بما ينفعهم، «لأجل ذلك» أي: كون الظواهر نارت بأنواره آثاره، والسرائر نارت بأنوار أوصافه، فالأنوار الأولى ناشئة عن الحادث، والثانية عن القديم، «أفلت» أي: غابت وذهبت، «أنوار الظواهر» أي: الكواكب، فيذهب نور الشمس في الليل ونور القمر والنجوم في النهار، ونسبة ذلك النور إلى الظواهر باعتبار كونه منورًا لها، وإلا فهو قائم بالكواكب، «ولم تأفُل» بضم الفاء أي: تغيب وتذهب «أنوار القلوب والسرائر» أي: الأنوار الناشئة عن مشاهدة الصفات القديمة التي لا تزول وما ينشأ عن القديم لا يزول، وإنما يطرأ عليه تغطية بالأوصاف البشرية بالنسبة للعارفين، ثم تزول، وذلك النور ثابت في قلوبهم، «ولذلك» أي: لأجل أفول أنوار الظواهر وعدم أفول أنوار السرائر، «قيل» أي: قال الشاعر: «إن شمس النهار تغرب بالليل» أي: وإذا غربت ذهب ضوؤها، «وشمس القلوب ليس تغيب»، وهو بيت مدور ونصفه بالياء وقبله:

طلعت شمس من أحب بليل ... واستنارت فما تلاها غروب

وفي هذا تنبيه على أن الأمور الباقية هي التي ينبغي أن يغتبط بها ويفرح بحصولها ويعتني بترتيبها ومراعاة حالها، بخلاف الأمور الفانية الآفلة، وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائة

«ليخففَ ألمَ البلاءِ عنك علمُكَ بأنَّه سُبْحَانَهُ هوَ الْمُبْلي لكَ فالذي واجهتْكَ منه الأقدارُ هو الذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إذا أصابتك أيها الإنسان مصيبة أو نزلت بك بلية في بدنٍ أو أهلٍ أو مالٍ فاذكر =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ليخفف ألم البلاء عليك، علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك» أي: استحضارك أنه سبحانه هو المبلي دون غيره وأنه أعلم بمصالحك من نفسك، فإن ذلك سبب في تسليك وتسليمك ووجود صبرك، «فالذي» أي: لأن الذي «واجهتك منه الأقدار» أي: الأمور المقدرة عليك من المرض وذهاب المال والولد ونحوها، «هو الذي عودك حسن الاختيار» أي: اختيار الأمر الحسن الذي يلائمك، فإن من كانت له عليك نعمة من المخلوقين وجرت عادته أنه يحب الخير لك على تقدير أنه أساء إليك في بعض الإحسان تتحمله؛ لأنه ربما كانت إساءته إحسانًا في الباطن، وكذلك العبد إذا علم أنه سبحانه وتعالى رحيم به ومتعطف عليه وناظر له، فكل ما يورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له ألا يبالي به، فإنه لم يتعود منه إلا خيرًا، فيحسن ظنه به، ويعتقد أن ذلك اختيارٌ له، وأن له في ذلك مصالح خفية لا يعلمها

=

من أنزل ذلك عليك وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك والمحبة والعطف عليك لعلك تفهم ما في طي ذلك من النعم، وما يعقبه من سوابغ الفضل والكرم، ولو لم يكن إلا تطهيرك من الذنوب وتمحيصك من العيوب وتقريبك من حضرة علام الغيوب لكفى فهل تعودت منه إلا الإحسان؟ وهل رأيت منه إلا غاية المبرة والامتنان؟ فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار فالذي واجهتك منه أحكام قهره هو الذي عودك تمام إحسانه وبره فالذي واجهتك منه ظواهر المحن هو الذي أسبغ عليك بواطن المنن فالذي واجهتك من حضرة قهاريته الرزايا هو الذي أتحفك بأنواع الكرامات والهدايا.

قال الجنيد ﷺ: كنت نائمًا بين يدي السريّ فأيقظني وقال لي: يا جنيد رأيت كأني وقفت بين يديه فقال لي: يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم ولا الآخرة أخذتم ولا من النار هربتم فما تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد، فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي أتصبرون؟ قالوا :إن كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت هؤلاء عبادي حقًا.

قال في «التنوير»: وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام، وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل البلايا واردات العطايا، وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره، وإن شئت قلت: وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه، وإن شئت قلت: إنما يصبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود إجماله، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على القضاء علمهم بأن الصبر يورث الرضا، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره انتهى.

إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال أبو طالب المكي في هذه الآية: «فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضرَّ، وهو خير له في الآخرة، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة، وهو شر له عند الله وأسوأ عاقبة».

الحكمة السادسة عشرة بعد المائة

«مَنْ ظَنَّ انْفِكاكَ لُطْفِهِ عنْ قدرِهِ فذلكَ لقُصُورِ نَظَرِهِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من ظن انفكاك لطفه عن قدره» أي: عما قدره الله عليه من البلايا والمحن، «فذلك لقصور نظره»، إذ لو كمل نظره لوجد نفسه قد حصل له في تلك البلايا ألطاف كثيرة منها إقباله على المولى بتلك البلية، فإن البلايا التي يبتلي الله بها عباده مناقضة لإرادتهم ومنغصة لشهواتهم، وكل ما أزعج النفس أو نغصها وآلمها، فهو محمود العاقبة من قبل أنه يرد العبد إلى الله ويلزمه بابه، فيلتجئ إليه، وهذا أعظم فوائد البلايا، ويجد ذلك في نفسه كل ما نزلت به بلية أو أصابته رزية.

ومنها أن في البلايا ضعف النفوس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها التي توقع العبد في الذنوب والمعاصي وتقوي رغبته في الدنيا.

ومنها أن العبد يحصل له عندها غالبًا طاعة القلوب كالصبر والرضا والتوكل والزهد وحب لقاء الله تعالى، وذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، ومنها أنه يحصل بها كفارة الذنوب والخطايا إلى غير ذلك من الألطاف الإلهية.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه وبهذا حكم النقل والعقل، أما العقل فما من مصيبة تنـزل بالعبد إلا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها، وقد وجد ذلك فإذا نزلت بك أيها الإنسان مصيبة فاذكر من هو أعظم منك بلاءً فكم من إنسان يتقطع بالأوجاع! وكم من إنسان مبتلى بالجذام والبرص والجنون والعمى! وكم من إنسان مطروح في الفنادق لا يجد من يبريه إلا من ابتلاه! وكم من إنسان أعمى أو مقعدًا أو محموم إلى ما لا يتناهى! نسأل الله عافيته الدائمة في الدارين.

وأما من جهة النقل؛ فقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة، وآيات قرآنية في مدح الصابرين منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦] إلى غير ذلك، وقوله ﷺ: «مَا يُصيبُ المؤمنَ من وصبٍ ولا نصبٍ ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ حتَّى الشوكةُ يُشَاكُهَا وحتَّى الهمُّ يُهِمُّهُ إلا كَفَّرَ به سيئاتِهِ»، وورد في الحمى أحاديث كثيرة وأنَّ حمى ساعة تكفر سنة إلى غير ذلك.

الحكمة السابعة عشرة بعد المائة

«لا يُخَافُ عليكَ أن تلتبسَ الطرقُ عليكَ، وإنَّمَا يُخَافُ عليكَ من غلبةِ الهوى عليكَ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا يخاف عليك»، إذا كنت متلبسًا بحال من الأحوال كطاعة أو معصية أو نعمة أو بلية، «أن تلتبس الطرق عليك» أي: طرق العبودية التي توصلك إلى ربك عند تلبسك بحال من تلك الأحوال؛ لأن الشريعة مبنية لذلك، فإن من نظر في الكتاب والسنة وجد ما يرشده، فعبوديتك في الطاعة أن تشهد منته بها عليك، وفي المعصية الاستغفار والتوبة منها، وفي النعمة الشكر عليها وفي البلية الصبر عليها، «وإنما يخاف عليك» في هذه الأحوال «من غلبة الهوى عليك»، حتى يعميك من رؤية طريق قصدك مما ذكر بأن تعجب الطاعة وتصر على المعصية

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لا شكَّ أن الله سبحانه بين لنا طريق الوصول على لسان الرسول ﷺ فبين لنا أعلام الشريعة ومنار الطريقة وأنوار الحقيقة فقرر لنا شرائع الإسلام وقواعد الإيمان ومقام الإحسان فما ترك ﷺ شيئًا يقربنا إلى الله إلا دلنا عليه ولا شيئًا يبعدنا عنه إلا حذرنا منه لم يألُ جهدًا في إرشاد العباد وإظهار طريق السداد فما رحل إلى الله تعالى حتى ترك الناس على الدين القويم والمنهاج المستقيم على طريقٍ بيضاء لا يضل عنها إلا من كان أعمى، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال ﷺ: «لقدْ تركْتُكُمْ على الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»، وفي رواية: «على المِلَّةِ البيضاءِ نهارُهَا كلَيْلِهَا» أو كما قال ﷺ.

وسمعت رابعة العدوية صالحًا المري يقول: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له فقالت له: الباب مفتوح وأنت تفر منه كيف تصل إلى مقصد أخطأت الطريق إليه في أول قدم انتهى كلامها -رضي الله عنها.

فلا يخاف عليك أيها المريد أن تلتبس الطرق الموصلة إلى الله تعالى عليك لأنها في غاية الوضوح وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصمك ويعميك.

فلا يخاف عليك التباس الهدى إنما يخاف عليك اتباع الهوى فلا يخاف عليك التباس الحق وإنما يخاف عليك جهلة الخلق ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

فلا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق وإنما يخاف عليك قُطَّاع الطريق لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق إنما يخاف عليك من قلة الصدق ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١].

والله ما حجبهم عنك إلا من عدم صدقك فلو حسنت ظنك بالله وبأولياء الله لرفع الله الحجاب بينك وبينهم ووجدتهم أقرب إليك من أن ترحل إليهم فسبحان من سترهم في حال ظهورهم وأظهرهم في حال خفائهم.

وتستقل النعمة فلا تشكرها وتجزع في البلية.

ويحتمل أن المعنى لا يخاف عليك أيها المريد الصادق أن تلتبس عليك الطرق أي: الأعمال الموصلة إلى الله كالصلاة والصيام، والذكر أي: يلتبس عليك الأولى منها فتصير تعمل هذا تارة وهذا أخرى، وتتنقل في أنواع العبادات لكونك لا تعرف الأولى منها من غيره إذا لم تكن تحت تربية شيخ، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصدك عن سلوك أي طريق من تلك الطرق فترجع عن التوجه إلى مولاك، بل يلزمك أن تستعمل طرق القربات وإن لم تعرف الأولى منها حتى يجمعك الله على شيخ ناصح يريك ذلك وتكون تحت تربيته.

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائة

«سبحانَ مَنْ سترَ سرَّ الخُصُوصِيَّةِ بظهورِ وصفِ البشريَّةِ وظَهرَ بعظمةِ الربوبِيَّةِ في إظْهارِ العُبُودِيَّةِ»(١)

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الخصوصية هي نور الحق يشرقه الله في قلوب خواص عباده المقربين بعد تطهيرها من الأكدار وتنزيهها عن المساوئ والأغيار يغيبون به عن شهود أنفسهم بشهود محبوبهم وسرها: هو ما احتوى عليه ذلك النور من الكمالات العلية والنعوت القدسية والصفات السنية التي تليق بالمتحلى به: كالكبرياء والعز والقوة والعظمة والإجلال وكالاتصاف بالقدرة التامة والعلم المحيط وسائر أوصاف الكمال ثم إن الحق سبحانه من عظيم حكمته وباهر قدرته أن ستر تلك الأوصاف اللازمة لذلك النور بظهور أضدادها التي هي أوصاف العبودية فستر كبرياءه وعظمته بظهور الذل والفقر والضعف على العبد وستر قدرته وإراداته بظهور العجز والقهرية عليه وستر علمه المحيط بظهور الجهل والسهو إلى غير ذلك من أوصاف العبودية المقابلة لأوصاف الربوبية.

ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: لو كشف عن نور الولي لعبد من دون الله.

وثبت عن الشيخ أبي يزيد ﷺ أنه لما تجلى له هذا النور قال: سبحاني ما أعظم شأني.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية انتهى. إذ الربوبية تقتضي مربوبًا موصوفًا بضد ما اتصف به ربه من الكمالات الإلهية والنعوت القدسية فما ظهرت أوصاف الربوبية التي هي الغنى والعز والقدرة وغير ذلك من الكمالات إلا في أضدادها من الفقر والذل والضعف وغير ذلك فالفقر الحقيقي شامل لسائر الموجودات والغنى المطلق واجب لمن تجلى في الأرض والسماوات: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] فإذا تقرر هذا علمت أن الإضافة في سر الخصوصية ليست هي للبيان بل هي للتخصيص فسر الخصوصية غيرها إذا الخصوصية هي النور الذي يقذفه الله سبحانه في قلوب أوليائه وسرها هو الكمالات التي تلازم ذلك النور كما تقدم.

واعلم أن سر الخصوصية الذي جعله الله في بواطن أوليائه وستره بظهور وصف بشريتهم قد يظهره عليهم على وجه خرق العادة فقد يظهر على وليه من قدرته وعلمه وسائر كمالاته ما تحار فيه العقول وتذهل فيه الأذهان لكن لا يدوم ذلك لهم بل يكون على سبيل الكرامات وخرق العادات يشرق عليهم شموس أوصافه فيتصفون بصفاته ثم يقبض ذلك عنهم فيردهم إلى حدودهم فنور الخصوصية =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«سبحان من ستر سر الخصوصية» أي: سر هو الخصوصية، هو العلوم والمعارف والأسرار الإلهية التي يعطيها الله لأوليائه، يفيضها على قلوبهم «بظهور البشرية» أي: الأحوال التي تعرض للبشر والأمور الدنيوية التي يتعاطاها الناس، فإن بعض الأولياء قد يكون حمَّارًا أو خوَّاصًا أو حيَّاكًا، فلا يعرفه غالب الناس ليستر خصوصيته بهذه الصنعة التي يتعاطاها ومخالطته للناس في حال معاملته معهم، وقد يظهر الله تعالى آثار الخصوصيات على بعض الناس وهم الدعاة إلى الله تعالى ليكتمل بهم غيرهم، «وظهر» للعباد «بعظمة الربوبية» أي: بربوبيته العظيمة «في إظهار» آثار «العبودية» عليهم، وهي الأحوال التي تطرأ على العبيد فتقتضي افتقارهم للرب، كالمرض والفقر؛ فإن العبد إذا قام به حال من تلك الأحوال التجأ إلى الرب في إزالته وظهر له عظمة ربوبيته أي: ربوبيته العظيمة أي: أن له ربًا مالكًا يزيل عنه ما قام يهن، ولولا ذلك لم يعرفه، فعظمة الربوبية إنما ظهرت للعباد من وراء حجاب العبودية، ولولا ذلك لكان باطنًا لا يظهر.

ولذا قال الشاذلي -قدس الله سره: «العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية، فسبحان اللطيف الخبير».

=

وهي المعرفة ثابت لا يزول ساكن لا يحول وسرها وهو كمالاته تعالى تارة يشرق على أفق بشريتهم فيستنير بأوصاف الربوبية وتارة ينقبض عنهم فيردون إلى حدودهم وشهود عبوديتهم فالمعرفة ثابتة والواردات مختلفة، والله تعالى أعلم.

واعلم أيضًا أن أوصاف البشرية التي ستر الله بها سر الخصوصية إنما هي الأوصاف الذاتية اللازمة للبشر كالأكل والشرب والنوم والنكاح لا الأوصاف المذمومة المناقضة للعبودية كالكبر والعُجب والحسد والغضب وغير ذلك؛ فإن تلك أوصاف ذهبت بظهور نور العناية وسابق الهداية إذ لا تثبت الخصوصية إلا بعد محوها بخلاف الأوصاف الذاتية فإنها تجامع الخصوصية كما سيأتي إن شاء الله بل هي حجابها وصوانها وبوجودها وقع الستر والخفاء لأولياء الله تعالى غيرة عليهم أن يعرفهم من لا يعرف قدرهم.

تنبيه: هذا النور الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه كان كامنًا في الروح في أصل بروزها؛ فأصلها نورانية عالمة بأسرار الغيب دراكة للأشياء على حقيقتها وإنما حجبها عن ذلك سجنها في هذا البدن الطيني واشتغالها بحظوظه وشهواته فمن أدبها وريضها على يد شيخ كامل رجعت إلى أصلها.

فإذا كمل تطهير الروح من الأغيار وأشرقت عليها شموس الأنوار كوشفت بأسرار الذات وأنوار الصفات فغرقت في بحر التوحيد الذي تكل عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة وهو التوحيد الخاص.

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائة

«لا تُطَالِبْ ربَّكَ بتأخُّرِ مَطْلَبِكَ، ولكنْ طَالِبْ نفسَكَ بتَأَخُّرِ أَدَبِكَ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تطالب ربك» أي: تعترض عليه وتسيء الظن به «ب» سبب، «تأخر مطلبك» أي: ما طلبته منه باطنيًّا كان كالخصوصيات، أو ظاهريًّا كالأغراض الدنيوية، فإذا طلبت منه شيئًا ولم يسرع لك الإجابة؛ فلا تسيء به ظنك، ولا تطالبه بالوفاء بذلك، فإنه يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل، «ولكن طالب بنفسك بتأخر أدبك» أي: عدم وجوده حيث طلبت منه إسراع إجابتك، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب.

وأيضًا مطالبتك له بالإجابة دليل على أنك دعوت لتجاب في دعائك، فيكون دعاؤك لغرض، وهذا مما يقدح في كل عبوديتك، وأيضًا اعتقادك أنه لم يستجب لك إساءة أدب، إذ ليس من شرط الإجابة أن تظهر لك بأن يجيبك بعين ما طلبت في الحال، بل له أن يخفيها عنك لما في ذلك من المصالح، فيجيبك بغير ما طلبت أو بعينه، لكن يؤخر ذلك لمصلحة يعلمها.

الحكمة العشرون بعد المائة

«متى جعلَكَ في الظاهرِ مُمْتَثلاً لأمرِه، وفي الباطنِ مُسْتَسْلِمًا لقهرِه؛ فقدْ أعظَمَ المنَّةَ عليكَ»(٢)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه قاعدة عامة وإن كانت مناسبتها خاصة؛ فإذا طلبت شيئًا ثم تأخر ظهور ذلك المطلب، فإنما ذلك لما فاتك من حسن الأدب ولو لم يكن إلا قصد خصوص ذلك الطلب فلا تطالب ربك أن يعجل مطلبك بسبب تأخره عنك ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك فلو أحسنت الأدب في الطلب لقضيت حاجتك معنى، وإن لم تقض حسًّا وحسن الأدب هنا هو اكتفاؤك بعلمه ورضاك بحكمه واعتمادك على ما أختاره لك دون ما اخترته لنفسك لقلة علمك؛ فقد ضمن لك الإجابة فيما يريد لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد.

وقال وهب بن منبه ﷺ: قرأت في بعض الكتب يا بن آدم أطعني فيما أمرتك، ولا تعلمني بما يصلحك إني عالم بخلقي إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري، ولست بناظر في حق عبدي حتى ينظر عبدي في حقي.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان من أعظم المنة؛ لأنه شاهد المعرفة التي هي منتهى الهمم وأقصى غاية النعم؛ فامتثال الأمر في الظاهر يدل على كمال الشريعة، وتحقيق العبودية والاستسلام للقهر في الباطن يدل على كمال الطريقة، ونهاية الحقيقة والجمع بينهما هو غاية الكمال؛ إذ منتهى الكمالات الشرائع فمتى جعلك أيها الإنسان في الظاهر ممتثلًا لأمره ومجتنبًا لنهيه، وفي الباطن مستسلمًا لقهره؛ فقد أعظم المنة عليك حيث أراح ظاهرك من عنت المخالفة، وأراح باطنك من تعب المنازعة أو تقول: حيث زين ظاهرك بالطاعة وزين باطنك بالمعرفة؛ فالواجب عليك أن تشكر هذه النعمة، وتعرف قدرها حتى =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره»، بأن وفقك للقيام بطاعته ويسرها لك، «ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره» أي: الرضا بما يجري عليك من مولاك، «فقد أعظم المنة عليك»، حيث جمع لك بين عبودية الظاهر وعبودية الباطن.

فهذان الأمران هما اللذان يلزمانك في إقامة العبودية لربك لا غير، فلماذا تتشوق، وما الذي تلتمس بعد حصولهما إن كنت عبدًا حقيقيًا، وهل درجات أهل الكمال إلا التقلب في عبودية الظاهر وعبودية الباطن.

الحكمة الواحدة والعشرون بعد المائة

«ليسَ كُلُّ مَنْ ثبتَ تخصيصُهُ كَمُلَ تخليصُهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ليس كل من ثبت تخصيصه» بإظهار أمر خارق للعادة على يده كطي الأرض والطيران في الهواء والمشي على الماء، «كمل تخليصه» من آفات النفوس وغوائلها وما تدعو إليه من الشهوات والمخالفات، فكان يقول ليس كل مخصص بالآيات والكرامات مخلصًا من الآفات، بل قد يكون بعض من خصص بالكرامة لم تثبت له الاستقامة.

فالكرامة الحقيقية هي الاستقامة التي تضمنها ما تقدم بخلاف الكرامات التي هي خوارق العادات؛ فإنها قد تحصل على يد من لم يكن مستقيمًا استقامة تامة، وكثيرًا ما تظهر على أيدي المبتدئين ولا تظهر على أهل التمكين، والكل من أهل الله تعالى، فينبغي احترامهم وتعظيمهم، لكن يعظم أهل الاستقامة أكثر من أهل الكرامة.

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائة

«لا يستحقرْ الوِرْدَ إلا جَهُولٌ»(١)

=

تعظم محبة الله في قلبك وذلك أقصى مرادك وقصدك: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، ومتى أثبت لك هذا الأمر؛ فقد خلصك من نفسك وحررك من رق حظك فلا تبالِ معها ما فاتك من تخصيص الكرامات الحسية؛ لأنها أمور وهمية.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الورد في اللغة هو الشرب قال تعالى: ﴿بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، وفي الاصطلاح: ما يرتبه العبد على نفسه أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات.

والوارد في اللغة هو الطارق والقادم يقال: ورد علينا فلان، أي: قدم، وفي الاصطلاح: ما يتحفه الحق تعالى قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة، وربما يدهشه أو يغيبه عن حسه ولا يكون إلا بغتة، ولا يدوم على صاحبه.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

=

ثم إن الورد ينقسم على ثلاثة أقسام: ورد العباد والزهاد من المجتهدين، وورد أهل السلوك من السائرين، وورد أهل الوصول من العارفين.

فأما ورد المجتهدين؛ فهو استغراق الأوقات في أنواع العبادات وعبادتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وصيام، وقد ذكر في الإحياء والقوت أوراد النهار وأوراد الليل وعَيَّن لكل وقتٍ وردًا معلومًا.

وأما ورد السائرين؛ فهو الخروج من الشواغل والشواغب وترك العلائق والعوائق وتطهير القلوب من المساوئ والعيوب وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل وعبادتهم ذكر واحد وهو ما يعينه له الشيخ لا يزيد عليه مع جمع القلب وحضوره مع الرب.

وأما ورد الواصلين فهو إسقاط الهوى ومحبة المولى وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف في الحضرة فكل من أقامه مولاه في ورد فليلتزمه ولا يتعدى طوره ولا يستحقر غيره إذ العارف لا يستحقر شيئًا بل يصير مع كل واحد في مقامه، ويقرر كل شيء في محله فلا يستحقر الورد، ويطلب الوارد إلا جهول أو معاند، وكيف يستحقر الورد وبه يكون الورود على الملك المعبود؟

الورد يوجد ثوابه وثمرته في الدار الآخرة والوارد الذي تطلبه ينطوي بانطواء هذه الدار، قال تعالى: **﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الزخرف:٧٢]، وجاء في الأثر: «**إنَّ الله يقولُ ادخلوا الجنةَ برحمتي وتقاسموها بأعمالكم**».

وأيضًا المراد من الواردات ثمراتها ونتائجها، وهو ما يعقبها من اليقين والطمأنينة والرضا والتسليم وغير ذلك من المحاسن؛ فإذا أعطتك نتائجها وجنيت ثمراتها فلك في الله غنى عنها، فلا يستحقر الورد ويطلب الوارد إلا من كان عبد الوارد، وأما من كان عبد الله؛ فلا يلتفت إلى ما سواه بل يلزم ما هو مكلف به من وظائف العبودية قيامًا بحق عظمة الربوبية، فهو الذي يدوم وبه يتوصل إلى رضا الحي القيوم، وأولى ما يعتني به الإنسان ما ينقطع وجوده بانقطاع موته، وهو ورده فيغتنم وجوده ما دام في هذه الدار؛ فليس في تلك الدار عمل، وإنما هي دار جزاء، وحصول أمل فالدنيا دار عمل لا جزاء فيها، والآخرة دار جزاء لا عمل فيه؛ فليغتنم الإنسان عمره قبل الفوات فما من زمن يخلو عنه إلا وهو فائت منه.

وقد جاء في الحديث: «**لا تأتي على العبدِ ساعةٌ لا يذكرُ الله فيها إلا كانتْ عليه حسرةً يوم القيامةِ**» انتهى.

وقال الحسن ﷺ: أدركت أقوامًا كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم.

وفي بعض الأحاديث عنه ﷺ: «**مَنِ استوى يومَاهُ؛ فهوَ مغبونٌ، ومَنْ كانَ يومُهُ شرًّا من أمسِهِ؛ فهو محرومٌ، ومَنْ لم يكنْ في الزيادةِ؛ فهو في النُّقْصَانِ، ومَنْ كانَ في النُّقْصَانِ؛ فالموتُ خيرٌ له**».

وأولى ما يعتني به العبد أيضًا ما هو طالبه منه الحق تعالى، وهو الورد دون ما يطلبه هو منه وهو المراد فالورد من وظائف العبودية وهو الذي طلبه منا الحق تعالى والوارد من وظائف الحرية، ولذلك تطلبه النفس وتتعشق إليه، وأين ما هو طالبه منا مما هو مطلبنا منه؟ بينهما فرق كبير.

فتحصل أن الاعتناء بالورد أفضل وأكمل من الاعتناء بالوارد؛ لأن الورد من وظائف العبودية، وهي لا تنقطع ما دام العبد في هذه الدار كما أن حقوق الربوبية لا تنقطع كذلك حقوق العبودية لا تنقطع.

«لا يستحقر الورد» وهو الأعمال الصالحة التي تعمر بها الأوقات وتنكف بها عن الجوارح عن الوقوع في المكروهات بأن لا يعتني به ولا يواظب عليه «إلا جهول» لما فيه من العبودية لله تعالى والحضور بين يديه والتنعم بذكره، ولأنه يورث تصفية الباطن وجلب الأنوار، وهي الواردات، فالتشوف لها مع عدم الاعتناء بها يجليها من الجهل والحمق.

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائة

«الواردُ يوجدُ في الدارِ الآخرَةِ، والوِرْدُ ينطوي بانطواءِ هذه الدارِ وأولى ما يعتني به ما لا يَخْلِفُ وجودُهُ الوردُ هو طالبُهُ منك والواردُ أنتَ تطلبُهُ منه، وأينَ ما هو طالبُهُ منك مما هو مَطْلَبُكَ منه؟»(١)

---

(١) قال النقشبندي -رحمه الله: ولهذا لم يترك العبادة سيد هذا المقام ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: كيف تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شَكُورًا»، فأفاد ﷺ أن شكر النعمة تمام الخدمة وهو موجب المزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٨].

وهذا سبيل طائفة الجنيد ﷺ لم يترك أوراده في حال نزاعه فقيل له في ذلك؛ فقال: ومن أولى مني بذلك وهذه صحائفي تطوى فلم يترك الخدمة ﷺ في مثل هذه الحالة فكيف بسواها قيل له إن جماعة يزعمون أنهم يصلون إلى حالة يسقط عنهم التكليف قال: وصلوا ولكن إلى سَقَر، وقال في كلام آخر: هذا كلام من يقول بالإباحة والسرقة والزنا عندنا أهون حالًا ممن يقول بهذه المقالة، ولقد صدق ﷺ في قوله هذا فإن الزاني والسارق عاص بزناه وسرقته ولا يصل إلى حد الكفر، وأما القائل بسقوط الفرائض المعتقد، لذلك فقد انسلَّ من الدين كانسلال الشعرة من العجين؛ فعض على هذا الأصل بالنواجذ يا أخي، ولا تسمع كلام من أخذ الحقائق من الكتب وصار يتكلم بالزندقة والإلحاد وإسقاط الأعمال على حسب فهمه وهواه.

قال ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتَّى يكونَ هواهُ تابِعًا لما جئتُ به»، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:٣١].

فعليك بمتابعته ﷺ ومتابعة السلف الصالح في الأقوال والأفعال والأحوال تحز مقامهم وتكن معهم؛ فالمرء مع من أحب انتهى كلام النقشبندي، وهو حسن لأن من أخذ الحقائق من الكتب لا ذوق عنده وإنما يترامى على الحقيقة بالعلم فيتبع الرخص ويسقط في مهاوي الهوى.

وأما من كان من أهل الأذواق فسره مكتوم وأمره محزوم عبادته أدب وشكر، وهو أحق بدوام الشكر، وكيف ينكر الواسطة، ولولا الواسطة لذهب الموسوط.

فالشريعة باب، والحقيقة بيت الحضرة، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] ثم قال: فلا دخول للحقيقة إلا من باب الشريعة.

قلت: وقد رأيت كثيرًا من الفقراء قصروا من الشريعة فخرجوا من الطريقة، وسلبوا نور الحقيقة، ورأيت آخرين طال أمدهم في صحبة القوم ولم يظهر عليهم بهجة المحبين ولاسيما العارفين، وما ذلك إلا لعدم التحفظ على مراسم الشريعة.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ذكر ﷺ أن «الوارد» وهو ما يرد على باطن العبد من المعارف الربانية واللطائف الروحانية، وهي الأنوار التي ينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه وسره، «يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار» أي: يفني بفنائها، «وأولى ما يعتني به ما لا يتخلف وجوده» أي: فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها، إذ لا يمكنه خلف ما فات منها.

«أما الوارد هو طالبه منك، والوارد أنت تطلبه منه، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه»، يعني أن الورد هو حق الله منك، والوارد هو حقك منه وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلبك حظوظك ووقوفك معها، وأتي ﷺ بذلك إرشادًا للمريدين الذين يتشوقون إلى الواردات ويتركون الأوراد ويستحقرونها، وذلك من الجهل بثمراتها، ولذا لم يترك العارفون أورادهم مع تمكنهم في أحوالهم أكثر من المريدين.

يقول السياجي يغفر الله له:

«إن الورد الذي يعنيه ابن عطاء الله ﷺ ويفصل شرحه شيخ الإسلام عبد الرحمن الشرقاوي يرحمه الله مقصوده هو الأعمال الصالحة المداوم عليها من فرائض ونوافل وأذكار جاءت بها الشريعة في كتاب الله وسنة رسوله المعصوم ﷺ».

ولقد كانوا يفهمون ذلك ويفقهونه من قوله ﷺ عن ربه ﷻ في الحديث القدسي؛ فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ، قال: من عادى لي وليًا؛ فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء، أحب مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته»(١) رواه البخاري.

والمساءة، كما تحتمل في معناها، حمل المؤمن على ما يكره، وهو الموت، تكون كذلك بأنه لو ترك لأرذل العمر، فإنه مساءةٌ له.

والورد بهذا الشمول في المعنى هو العبادة المطلوبة من العبد المتحققة فيه صفة العبودية لله وحده، ومن هذا يكون معنى الاستقامة المحققة للكرامة والمقدمة عليها.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧).

وليست الأوراد هي تلك الكلمات التي تتردد في حلقات الذكر ومواكب العامة منشدين لها بالألحان غير مدركين لما تطلبه من أعمال جوارح ووجل قلب، وتأمل فهم وإنفاق عزيز مال ابتغاء إرضاء المحبوب وقربه وذكرًا لمودته وشهودًا لنوره وغيبة عن عوارض الدنيا والنفس والهوى.

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائة

«ورودُ الإمداد بحسبِ الاستعدادِ، شروقُ الأنوارِ على حسبِ صفاءِ الأسرارِ»[(١)]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ورود الإمداد» من الله تعالى على عبده «بحسب الاستعداد» أي: بحسب استعداد العبد بتطهير قلبه وملازمته لورده، ولذا قيل: طهر قلبك من الأغيار تملأه المعارف والأسرار، فالوارد تابع للورد كيفًا وكمًا ودوامًا، فإن كان الورد كاملًا بأن برز من قلب صاف كان الوارد مثله، أو كان ناقصًا كان مثله، وإن كان كثيرًا كان الوارد كثيرًا، وإلا فبحسبه، ويعتبر ذلك بمجموع العمر.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المراد بالأمداد أنوار التوجه للسائرين وأنوار المواجهة للواصلين؛ فهي تتوالى على قلوب العباد بحسب التأهب والاستعداد فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة وبقدر التخلية تكون التحلية.

وفائدة هذه الأمداد تطهير القلوب من الأغيار وتقديس الأسرار من غبش الحس والأكدار، والوقوف مع الأنوار فلا تزال أمطار المدد تنـزل على أرض النفوس الطيبة والقلوب المطهرة والأرواح المنورة والأسرار المقدسة حتى تمتلئ بأنوار المعاني؛ فحينئذ تنشق لها أسرار الذات، وتتعلق لها أنوار الصفات فتغيب بشهود الذات عن أثر الصفات ثم ترد إلى شهود الصفات بالذت والذات بالصفات لا يحجبها جمعها عن فرقها ولا فرقها عن جمعها تعطي كل ذي حق حقه، وتوفي كل ذي قسط قسطه.

قال شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ في بعض رسائله: فإن قلتم أي وقت نكون كالجبال: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]؟ قلنا: إذا زهدتم في الدنيا بالكلية، وقطعتم الإياس من الرجوع إليها بالكلية ثم اعتقدتم في شيوخكم أنهم كُمَّلٌ وأنهم على قدم الأنبياء عليهم السلام من ورثة النبي ﷺ فوالله العظيم لينـزل عليكم المدد الليل والنهار والشهر والعام، وفي كل وقت وساعة ولحظة حتى تمتلئ قلوبكم بمعرفة الله، وتطمئن قلوبكم بذكر الله، وتكونوا كالجبال الراسية هذا معنى كلامه باختصار ﷺ وهو كما قال؛ لأن الزاهد في الدنيا تفرَّغ قلبه، وتخلَّى من الأكدار وتهيأ للأنوار فإذا نزل المدد وجد القلب متسعًا مطهرًا منظفًا فملأه من أنواره وحلاه بحلية أسراره بخلاف ما إذا كان القلب معمورًا بأغيار الدنيا لم يجد المدد موضعًا ينـزل فيه فيرجع من حيث جاء، واعتقاد كمال الشيوخ هو عين الصدق وبقدر الصدق ينبغ المدد، ولا يمكن أن ينقطع الوهم أو يذهب الحس إلا بالصدق مع الزهد فبالزهد يتهيأ للمدد وبالصدق يفيض عليه المدد، فكلما فاض ماء المدد غسل أوساخ الوهم، فإذا لم يبق للوهم أثر حصل الغرق في البحر، والله تعالى أعلم.

ولذا كان «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»[1]، وإن كان دائمًا كان الإمداد دائمًا، فالمواظبة على الورد من أهم المهم، وقوله: «وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار»، تعليل لما قبله، وإيضاح له أي: شروق أنوار اليقين والعرفان، وهي الإمدادات المذكورة على حسب صفاء الأسرار من كدر التعلق بالآثار والركون إلى الأغيار، ولا يكون صفاؤها غالبًا إلا بملازمة الأوراد.

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائة

«الغافلُ إذا أصبحَ نظرَ في ماذا يفعلُ، والعاقلُ ينظرُ ماذا يفعل الله به»[2]

---

(١) رواه مسلم (٧٨٢).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الغافل هو الجاهل بالله، ولو كثر ذكره باللسان، والعاقل هو العارف بالله، ولو قل له ذكر اللسان إذ المعتبر هو ذكر الجنان فالغافل نفسه موجودة وآماله ممدودة إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه فيدبر شئونه ومأربه بعقله وحدسه؛ فهو ناظر لفعله معتمد على حوله وقوته فإذا فسخ القضاء ما أبرمه وهدم له ما أمله غضب وسخط وحزن وقنط فنازع ربه وأساء أدبه فلا جرم أنه يستحق من الله البعد، ويستوجب في قلبه الوحشة والطرد إلا إن حصل له إياب، وأدام الوقوف بالباب حتى يرفع عنه الحجاب فحينئذ يلتحق بالأحباب.

وأما العاقل، وهو العارف فقد تحققت في قلبه عظمة ربه، وانجمع إليه بكلية قلبه فأشرقت في قلبه شموس العرفان وطوى من نظره وجود الأكوان؛ فليس له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار تصرفه بالله ومن الله وإلى الله فقد فني عن نفسه وبقي بربه فلم ير لها تركًا ولا فعلًا ولا قوة ولا حولًا فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به فيتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين.

فإذا أراد الفقير أن يكون تصرفه بالله؛ فلينعزل عن حظوظه وهواه فإذا أراد أن يفعل أمرًا فليتأنَّ ويصبر ويستمع إلى الهاتف، فإن الله سبحانه يسمعه ما يريد أن يتوجه إليه فعلًا أو تركًا، وقد جربنا هذا في سفرنا وإقامتنا فكنا لا نتصرف إلا بإذن خاص، والحمد لله وصاحب الاعتناء كله هكذا مع التأني؛ فإن التأني من الله والعجلة من الشيطان.

واستعن على هذا الأمر بأدعيته ﷺ في هذا المقام كقوله: «اللهمَّ إني أصبحتُ لا أملكُ لنفسي ضَرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا أستطيعُ أن آخذُ إلا ما أعطيتني، ولا أن أَتَّقِي إلا ما وقيتني فوفِّقْنِي اللهم لما ترضاه مني من القولِ والفعلِ، وفي عافيةٍ وسِترٍ؛ إنَّك على كل شيءٍ قدير».

وكقوله أيضًا ﷺ: «اللهمَّ إني أصبحت لا أستطيع دفعَ ما أكرهُ، ولا أملكُ نفعَ ما أرْجُو، وأصبحَ الأمرُ بيدِ غيري، وأصبحتُ مُرْتَهِنًا بعملي؛ فلا فقيرَ أفقرُ مِنِّي، اللهم لا تُشَمِّتْ بي عدوي، ولا تُسِيءْ بي صديقي، ولا تجعلْ مُصيبتي في ديني، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ همِّي، ولا مَبْلَغَ عِلمي، ولا تُسَلِّطْ عليَّ مَنْ لا يَرْحَمُنِي» إلى غير ذلك من الأدعية التي تكسب الرضا والتسليم، والمقصود من دعائه ﷺ فهم معانيها لا مجرد ألفاظها فالمراد المعاني لا الأواني، والله تعالى أعلم.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الغافلُ» عن التوحيد، وإن كل شيء بقضاء الله وقدره «إذا أصبح ينظر ماذا يفعل» أي: ينسب أفعاله إلى نفسه؛ فيقول: ماذا أفعل في هذا اليوم مثلًا، «والعاقلُ» أي: المستيقظ الذي لا يغفل عن التوحيد، ولا يغيب عنه أن كل شيء بقضاء الله وقدره، «ينظر ماذا يفعل الله به» أي: ينسب أفعاله كلها إلى الله تعالى، فيقول إذا أصبح: ماذا يفعل الله بي في هذا اليوم مثلًا، فنظر الغافل لنفسه فربما وكله الله إليها؛ فلا تنجح مطالبه، ونظر العاقل لربه فيكفيه ما أهمه وييسر له مطالبه، فهذا ميزان يعرف به المريد حال نفسه.

فأول خاطر يرد عليه هو ميزان توحيده؛ فلينظر إذا استقبله شغل، فإن عاد في قلبه في أول وهلة إلى حوله وقوته؛ فهو منقطع عن الله، وإن عاد إلى الله فهو واصل إليه، ويصح أن يكون معنى نظره إلى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الإشارة من قبله تعالى، فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة، وحسن توفيق، وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه، وصدق افتقاره.

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائة

«إنَّمَا يستوحشُ العبادُ والزهادُ مِنْ كُلِّ شيءٍ لغيبتِهِمْ عنِ الله في كُلِّ شيءٍ، فلو شَهِدُوهُ في كُلِّ شيءٍ ما استوحشوا من شيءٍ»(١)

=

ويجمع هذه المعاني وصية شيخ طريقتنا القطب ابن مشيش للرجل الذي قال له: وظف عليَّ وظائف وأوراد فغضب، وقال له: أرسول أنا فأوجب الواجبات؟ الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة فكن للفرائض حافظًا وللمعاصي رافضًا، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا، وحب النساء، ومن الجاه، وإيثار الشهوات، واقنع في ذلك كله بما قسم الله لك إذا خرج لك مخرج الرضا، وهو جماله تعالى؛ فكن لله فيه شاكرًا، وإذا خرج لك مخرج السخط، وهو جلاله فكن عليه صابرًا، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات، وأصل جامع لجميع الكرامات.

وقال بعضهم: من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه، ومن اهتدى إلى نفسه لم يهتد إلى الله، أي: من رأى الحق غاب عن نفسه، ومن رأى نفسه حجب عن الله، ثم إن العاقل الذي ينظر ما يفعل الله هو العارف كما تقدم؛ لأنه هو الذي يتحقق فيه ذلك، ومن علامته أنه لا يستوحش من شيء لمعرفته في كل شيء وفهمه عن الله في كل شيء بخلاف غيره من العباد والزهاد.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العباد هم الذين غلب عليهم الفعل فهم مستغرقون في العبادة الحسية، يقومون الليل، ويصومون النهار، شغلهم حلاوة العبادة عن حلاوة شهود المعبود، فحجبوا بعبادتهم عن معبودهم، والزهاد هم الذين غلب عليهم الترك، فهم يفرون من الدنيا وأهلها ذاقوا حلاوة الزهد فوقفوا معه، وحجبوا عن الله؛ فهم يستوحشون من الأشياء لغيبتهم عن الله فيها، ولو عرفوا الله في كل =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إنما استوحش العباد»، وهم المتوجهون إلى الله بطريق العمل، «والزهاد»، وهم المتوجهون إلى الله بطريق التوكل «من كل شيء»، فكل من الطائفتين يفر من الخلق لكونهم قاطعين عن الله وذلك «لغيبتهم عن الله في كل شيء» أي: أنهم محجوبون عن ربهم برؤية نفوسهم ومراعاة حظوظهم، فيفرون من الأشياء ويستوحشون منها؛ لأنها موجودة في نظرهم فيخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم مقاصدهم لميلهم إليها وافتتانهم بها «فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء» أي: من أي شيء من الأشياء لرؤيتهم له حينئذ ظاهرًا في الأشياء كلها فيشغلهم ذلك عن رؤيتهم لنفوسهم، فلا يكون لهم من الأشياء وحشة، ولا يخشون منها فتنة، لأنها متلاشية فانية بهذا الاعتبار.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائة

«أمرُكَ في هذه الدارِ بالنظرِ في مكوناتِه وسيكشفُ لكَ في تلكَ الدارِ عنْ كمالِ ذاتِه»[1]

=

شيء ما استوحشوا من شيء ولأنسوا بكل شيء، وتأدبوا مع كل شيء، والعارفون لنفوذ بصيرتهم شهدوا الخلق مظاهر من مظاهر الحق، فحجبوا أولًا بالحق عن الخلق، وبالمعنى عن الحس، وبالقدرة عن الحكمة ثم ردوا إلى شهود الحق في الخلق والقدرة في الحكمة فحين عرفوه في كل شيء أنسوا بكل شيء، وتأدبوا مع كل شيء، وعظموا كل شيء.

وقال سيدي علي ﷺ على قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي في شأن الخلق: أراهم كالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئًا، قال: بل إن فتشتهم وجدتهم شيئًا، وذلك الشيء ليس كمثله شيء يعني وجدتهم مظاهر من مظاهر الحق أنوارًا من أنوار الملكوت فائضة من بحر الجبروت.

والحاصل أن العارفين بالله غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق فهم مع الخلق بالأشباح ومع الحق بالأرواح ماتوا وبعثوا، وقامت قيامتهم، وتبدلت في حقهم الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار؛ فهم يرون الأنوار والناس في ظلمة الأغيار.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: والحاصل: أن تجلي الذات على قسمين:

قسم: يكون بوسائط كثيفة ظاهرها ظلمة وباطنها نور ظاهرها حكمة وباطنها قدرة ظاهرها حس وباطنها معنى وهو تجلي هذه الدار.

وقسم: يكون بوسائط لطيفة نورانية ظاهرها نور وباطنها نور ظاهرها قدرة وباطنها حكمة ظاهرها معنى وباطنها حس وهو تجلي دار الآخرة.

فالعارفون لما حصل لهم الشهود والمعرفة في هذه الدار، وفي تلك الدار لا يحجبهم عن الله حور ولا قصور؛ بل دائمًا في النظرة والسرور والنضرة والحبور وذلك أنهم لما عرفهم به هنا لم يحجبهم هنالك يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه بخلاف العامة؛ فإنهم لما حجبهم هنا بشهود

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أمرك» أيها العارف «في هذه الدار بالنظر إلى مكوناته»، لتراه ظاهرًا فيها بعين بصيرتك، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس:١٠١]، إلى غير ذلك من الآيات، «وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته» لتراه بعين بصرك، فرؤية العباد لربهم ﷻ على حسب تجليه لهم، ففي هذه الدار يرونه ظاهرًا في المكونات، ولذا أمرهم بالنظر فيها، وفي الدار الآخرة يرونه عيانًا بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع، وهذا غاية الظهور والكشف والرؤية في الدنيا على الوجه المذكور خاصة بالعارفين، وفي الآخرة عامة لجميع المؤمنين.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائة

«لما علم إنك لا تصبر عنه أشهدك ما برز منه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«علم منك أنك لا تصبر عنه» أي: عن مشاهدتك له كما هو شأن المحب، فإنه لا يصبر عن رؤية محبوبه، لكن رؤيتك له في هذه الدار من غير حجاب متعذرة، «فأشهدك ما برز منه» من الآثار والأكوان أي: أشهدك إياها لتراه فيها بعين بصيرتك، وإن كانت تلك الأكوان حاجبة لك من رؤيتك له بعين بصرك، فقد رأيته من وراء حجاب، وذلك كرامة من الله لك وعناية منه بك حيث لم يحجبك عنه في الدنيا أيضًا.

= أنفسهم انحجبوا هناك عن رؤية معبودهم إلا في وقت مخصوص على وجه مخصوص.

ولذلك كتب ابن العربي الحاتمي إلى الإمام الرازي فقال له: تعال نعرفك بالله اليوم قبل أن تموت فإذا تجلى الله لعباده أنكرته ولم تعرفه.

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني ﷺ عن رجل يدعي أنه يرى الله ببصره، فاستدعاه، فسأله عن ذلك فقال: نعم، فانتهره ونهاه عن هذا القول، ثم قيل له: أمحق هو أم مبطل؟ فقال: هو محق ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم خرق من بصيرته إلى بصره فنفذ فرأى بصره بصيرته وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده فظن أن بصره رأى ما شاهدته بصيرته، وإنما رأى بصره بصيرته فحسب انتهى.

والحاصل: أنه انعكس بصره في بصيرته فرآه ببصيرته وظن أنه رآه ببصره، ومعنى ذلك أن الروح ما دامت محجوبة بالبشرية كان النظر إنما هو للبصر الحسي، فلا يرى إلا الحسي فإذا استولت الروحانية على البشرية انعكس نظر البصر إلى البصيرة فلا يرى البصر إلا المعاني التي كانت تراها البصيرة.

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائة

«لما عَلِمَ منكَ وجودَ المللِ لَوَّنَ لكَ الطاعات[١]، وعَلِمَ ما فيكَ من وجودِ الشَّرَهِ فحجرهُا عليكَ في بعضِ الأوقات[٢]؛ ليَكونَ هَمُّكَ إقامةُ الصلاةِ لا وجودَ الصلاةِ، فمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لما علم الحق منك» أيها المريد «وجود الملل» أي: السآمة من ثقل العمل المؤدية إلى

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لما فصل الحق سبحانه هذه الروح التي هي لطيفة نورانية من أصلها، وتغربت عن وطنها تعشقت إلى أصلها، وتعطشت إلى محبة سيدها، فلما علم الحق سبحانه أنها لا تصبر عنه ولا تقدر أن تراه على ما هو عليه من كمال جلاله ونور بهاء جماله ما دامت في هذا السجن الذي هو قفص البدن أشهدها الحق تعالى ما برز منه من تجلياته في مظاهر مكوناته وآثار صفاته لكن لا بدَّ للحسناء من نقاب، وللشمس من سحاب فبرزت أنوار الجبروت إلى رياض الملكوت فغطتها سحائب الحكمة وآثار القدرة فبقيت الروح تتعشق إلى أصلها من وراء سحاب الأثر فإذا انقشع السحاب، ورفع الحجاب لقي كل حبيب حبيبه، وعرف كل إنسان مثواه ومستقره، فقنعت الروح بشهود المعاني خلف رقة الأواني، والله تعالى أعلم.

وقال الشيخ زروق ﷺ: فلونت له الطاعة لثلاثة أوجه:

أحدها: رحمة به ليستريح من لون إلى لون.

الثاني: إقامة للحجة عليه؛ إذ لا عذر له في الترك.

الثالث: ليثبت له النسبة في العمل بوجود التخيير في الجملة فتكمل الكرامة وتسهل الطاعة.

فقد قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد، ومن سار إلى الله بطبعه كان الوصول أقرب إليه من طبعه، ومن سار إلى الله بمخالفة طبعه كان الوصول إليه بقدر بعده عن طبعه، ومتى يصح بعده عن طبعه، والمقصود إنما هو موافقة الحق لا مخالفة النفس وشواهد السنة لا تخفى؛ فافهم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الشره: خفة في النفس توجب المسارعة للعمل، والإسراع فيه، وينتج آفات ثلاثًا:

أولها: الترك عند الدوام لتروِّي النفس وضيقها.

الثاني: الملل وهو التثاقل إن لم يكن ترك.

الثالث: الإخلال بالحقوق لوجود العجلة.

والحجر بالوقت فيه فوائد ثلاث:

أولها: منع الشره إذ لو كانت مرسلة لوقعت النفس فيها على وجه الشره.

الثاني: نفي التسويف إذ لولا الوقت لكانت تعده من زمن إلى زمن فيؤدي إلى التفريط.

الثالث: التمكين من العمل والتمكن فيه إذ لولا الوقت لأهمل العمل، ولم يحافظ عليه لغلبة الهوى، ولم يحفظه استعمالًا للحظوظ انتهى.

تركه «لون» أي: نوع «لك الطاعات»، رحمة بك، وتسهيلًا عليك؛ لأنك إذا سئمت من نوع منها انتقلت إلى غيره ولو كانت من نوع واحد لسئمت نفسك وتركته استثقالًا له بخلاف الأنواع المتعددة، فإنها تستخفها وتستحليها لتنقلها من نوع إلى نوع آخر، وشأن النفس ألا تداوم على حال واحد بل تتطور في الأحوال.

ألا ترى أن الإنسان إذا داوم على طعام واحد تسأمه نفسه كما وقع لبني إسرائيل، «وعلم فيك من وجود الشره» أي: مجاوزة الحد في التسرع إلى العمل والحرص عليه، فيؤديك إلى ألا تأتي به على وجه الكمال «فحجرها» بالتخفيف أي: منعها «عنك في بعض الأوقات»؛ فإن الفرائض يمتنع فعلها في غير أوقاتها المحدودة والنوافل يمتنع فعلها في وقت الكراهة، وفي بعض النسخ: «فحجرها عليك في الأوقات»[1] بالتشديد أي: جعل لكل طاعة وقتًا مخصوصًا، ولم يجعلها دائمة في جميع الأوقات لئلا يحصل منك شره فيجرك إلى الترك.

والحاصل: أن تلوين الطاعات لوجود الملل وتحجيرها في الأوقات لوجود الشره نعمتان أنعم الله بهما على عبده؛ فإن الملل والشره آفتان عظيمتان قاطعتان للعمل، والموجب للملل المداومة على نمط واحد من العبادات، فتسأمها النفس وتستثقلها، فإذا لونت عليها استحلتها واستخفتها، والموجب للشره صلاحية الأوقات كلها لإيقاع العبادات مع ندرة الحرص عليها.

وعند وجود الشره يقع النقص والتقصير، بأن يقرأ القرآن مثلًا ولا يتدبر في معانيه ولا يحضر قلبه مع مولاه في حال قراءته، فلذلك عين لها أوقاتًا تقع فيها، وذلك هو معنى تحجيرها في الأوقات.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: السر في تحجير الصلاة في بعض الأوقات لتشتاق النفس إليها وترتاح بها فيحصل فيها الخشوع والحضور وقرة العين بخلاف ما إذا كانت دائمة فيها، فلا تتعشق إليها بل ربما تمل فتوقعها على غير تمام، والمقصود منك حركة قلبك لا حركة جسمك: «**إنَّ الله لا ينظرُ إلى صورِكُمْ ولا إلى أعمالِكُمْ ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكُمْ**» ليس الشأن حركة الأشباح إنما الشأن خضوع الأرواح فالسر في تحجير الصلاة عنك في بعض الأوقات أن يكون همك إقامة الصلاة، وهو إتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة لا وجود الصلاة من غير إقامة؛ فهي ميتة خاوية فهي إلى العقوبة أقرب.

قال الإمام القشيري ﷺ: إقامة الصلاة هو القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلي له فتحفظ عليه أحكام الأمر بما يجري عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو فنفوسهم منه مستقبلة إلى القبلة، وقلوبهم مستقرة في حقائق الوصلة انتهى.

وقوله: «ليكون همك إقامة الصلاة، لا وجود الصلاة»، فما كل مصل مقيم»[1]، بنصب «يكون» بعد لام «كي»، على أنه تعليل لما قبله أي: إنما لون لك الطاعات حتى لا تمل، وحجرها عليك في الأوقات حتى لا تشره، لأجل أن يكون همك الخاص؛ لأنهما إذا انتفيا أمكن توجيه الاهتمام إلى حضور إقامة الصلاة لا إلى مطلق وجودها، وحصل صورتها بخلاف ما إذا وجد، فإنه لا يكون معها إتقان.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الإقامة في اللغة هي الإكمال والإتقان، يقال أقام فلان داره: إذا أكملها، وجعل فيها كل ما يحتاج إليه؛ فإقامة الصلاة إتقانها كما تقدم وضد الإقامة هو الإخلال والتفريط، فليس كل مصل مقيمًا؛ فكم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب، وفي بعض الأحاديث: «مَنْ لم تنهَهُ صلاتُه عنِ الفحشاءِ والمنكرِ لم تَزِدْهُ مِنَ الله إلا بُعْدًا».

وفي حديث آخر: «إذا صلى العبدُ فلمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا ولا سُجُودَهَا ولا خُشُوعَهَا لُفَّتْ كما يُلَفُّ الثوبُ الخَلَقُ ثُمَّ يُضربُ بها وجهُهُ» أو كما قال ﷺ؛ فالمصلون كثير، والمقيمون قليل؛ فأهل الأشباح كثير، وأهل القلوب قليل.

قال أبو بكر بن العربي المعافري -رحمه الله: ولقد رأيت ممن يحافظ عليها آلافًا لا أحصيها، فأما من يحافظها بالخشوع والإقبال فما أستوفي منهم خمسة.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: كل موضع ذكر فيه المصلون في موضع المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [البقرة:٣]، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ [إبراهيم:٤٠]، ﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ﴾ [الأنبياء:٧٣]، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾ [الحج:٣٥]، ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون:٤-٥]، ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة انتهى.

واعلم أن الخشوع في الصلاة على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: خشوع خوف وانكسار وإذلال وهو للعباد والزهاد.

المرتبة الثانية: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال وهو للمريدين السالكين.

المرتبة الثالثة: خشوع فرح وسرور وإقبال وهو للواصلين من العارفين، ويسمى هذا المقام قرة العين.

ثم اعلم أن الصلاة التي لا يصحبها خشوع ولا حضور هي باطلة عند الصوفية غير مقبولة عند العلماء، وقالوا: ليس للعبد من صلاته إلا ما حضر فيها قلبه؛ فقد يكون له ربع صلاته أو نصفها بقدر ما حضر فيها، ويعين على الخشوع: الزهد في الدنيا، وهذا هو الدواء الكبير إذ محال أن تكون عندك بنت إبليس ولا يزورها أبوها فلا يَتَأَتَّى الخلوص من الخواطر ما دامت في القلب وقليلها هو كثيرها فمن بقيت فيه بقية منها فإنه تأتيه الخواطر على حسبها فمحال أن تكون شجرة الدنيا في قلبك، وتسلم من الخواطر. ومثال ذلك كشجرة عندك في بستان يجتمع عليها الطيور ويهولونك بأصواتهم فكلما شوشتهم رجعوا؛ فلا ينقطعون عنك أبدًا حتى تقطع تلك الشجرة، فإذا قطعتها استرحت من أصواتهم؛ فكذلك الدنيا ما دامت في اليد، وهو معمور بها لا يسلم القلب من خواطرها حتى يخرج عنها، وحينئذ يستريح من مساوئها، والله تعالى أعلم.

وفي بعض النسخ: ليكن بالجزم فيكون كاملًا مستأنفًا، وإقامة الصلاة المرادة هنا حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله ﷻ، فلا يختلج فيه سواه.

وقيل: هي القيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها لرؤية من يصلي له فتكون مستقبلا إلى القبلة وقلبك مستقر في حقائق الوصلة، وخص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات؛ لأن ذلك أكثر ما يقع فيها.

الحكمة الثلاثون بعد المائة

«الصلاةُ مَطْهَرَةٌ للقُلُوبِ من أدناس الذنوب، واستفتاحٌ لباب الغُيُوبِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الصلاة» الحقيقية «طهرة للقلوب» من تكدرها بالآثار وتلونها بأقذار الأغيار، ومن الأوصاف المبعدة لها عن مشاهدة العزيز الجبار، وفي بعض النسخ: «من أدناس الذنوب»، من إضافة المشبه به للمشبه والذنوب مختلفة باختلاف المقيمين لها، «واستفتاح» أي: فتح أو طلب فتح «لباب الغيوب»(٢) أي: ما غاب عنك من المعارف والأسرار، شبهها بكنز له باب مغلق

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كانت الصلاة طهارة للقلوب من المساوئ والعيوب لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار والتذلل والاضطرار؛ فإذا خضع القلب لهيبة الجلال طهر من سائر العلل لأن طلب العلو والرفعة هو أصل العلل وعنصرها، ومن شأن النفس وطبيعتها طلب العلو والاستكبار والتعزز والافتخار؛ لأنها جاءت من عالم العز فلا ترضى إلا بالعز، فلما ركبت في هذا القالب الجسماني ردتها القهرية إلى العبودية، وجعلتها لها بابًا للوصول إلى حضرة الربوبية فلا يطمع لها في الرجوع إلى أصلها إلا بانكسارها وذلها

ولذلك قال الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ: أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحامًا، فأتيت باب الذل والانكسار، فوجدته خاليًا فدخلت منه، وقلت: هَلُمُّوا إلى ربكم؛ فإذا انكسرت وذلت رجعت لأصلها ووصلت، وإذا تعززت واستكبرت حجبت وطردت، وإذا طردت بعدت، وكلما بعدت عن الحضرة الربانية استحكمت فيها الشهوات الجسمانية والأخلاق الشيطانية؛ فاتصفت حينئذٍ بكل خلق دنيء وبعدت من كل خلق سنيٍّ.

فإذا أراد الله تعالى أن يرحمها بالقرب من جنابه، والوقوف ببابه ألهمها الصلاة وحببها إليها حتى إذا تطهرت من الذنوب، ومحيت عنها المساوئ، والعيوب قربت من حضرة الحبيب ومناجاة القريب؛ فقرعت الباب وطلبت رفع الحجاب.

(٢) قال محمد بن علي الترمذي الحكيم ﷺ: دعا الله الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، وهيأ لهم فيها أنواع الضيافة لينال العبد من كل قول وفعل شيئًا من عطاياه؛ فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة، وهي عرش الموحدين، هيأها رب العالمين لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس من الأغيار انتهى.

والباب تخييل، وهذا مرتب على ما قبله؛ لأن القلوب إذا طهرت رفع عنها الأستار فرأت ما غاب عنها من أسرار.

الحكمة الواحدة والثلاثون بعد المائة

«الصلاةُ مَحَلُ المنَاجَاةِ، ومعدنُ الْمُصَافَاة، تَتَّسِعُ فيهَا ميادينُ الأسرارِ، وتشرقُ فيهَا شوارقُ الأنوارِ»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المناجاة هي المساررة والمكالمة مع الأحباب؛ فمناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار، ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح ورفع الأستار.

وفي الحديث الصحيح: «الْمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ»، ولا يزال المصلي يناجي ربه ويطلب قربه حتى تتمكن المحبة من القلب والإقبال من الرب؛ فتصفو المحبة من كدر الجفا، ويتصل المحب مع حبيبه في محل الصفا.

وقال الشيخ ابن عجيبة: المعدن هو محل الذهب والفضة استعير هنا لصفاء القلوب والأرواح لتصفيتها من لوث صلصال الأشباح فالمصافاة خلوص المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس؛ فهي أرق وأصفى من المناجاة.

وفي الخبر: «**إنَّ العبدَ إذا قامَ إلى الصلاةِ رفعَ الله الحجابَ بينه وبينه وواجَهَهُ بوجهِهِ، وقامتِ الملائكةُ من لَدُنْ مِنكَبَيْهِ إلى الهُوِيِّ يصلونَ بصلاتِهِ**» انتهى.

فإذا تمت التصفية، وعظمت المحبة، وكثر العطش، وظهر الدهش، استحقت الروح رفع الحجاب، وفتح الباب فتدخل إلى حضرة الأحباب، ويرتفع بينها وبينهم الحجاب، فتخرج من ضيق الأشباح إلى فضاء عالم الأرواح أو من ضيق الملك إلى سعة عالم الملكوت.

وقال الشيخ ابن عجيبة: الميادين: جمع ميدان، وهو مجال الخيل استعير هنا لفضاء عالم الملكوت؛ فإذا تنـزهت الروح في عالم الملكوت، وجالت بفكرتها في سعة أنوارها أشرقت عليها أنوار سنا الجبروت.

قال أبو طالب: حدثنا أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرضين خوفًا منه؛ لأنه تأهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه إبليس، وضرب بينه وبينه بسرادق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه فإذا قال: الله أكبر، اطلع الملك في قلبه فإذا ليس في قلبه أكبر من الله فيقول الملك: صدقت الله أكبر في قلبك كما تقول فيتشعشع في قلبه نور يلحق ملكوت العرش، فينكشف له بذلك ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات، قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل؛ فإذا كبر اطلع الملك في قلبه، فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله عنده، فيقول الملك: كذبت ليس الله في قلبك كما تقول فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابًا لقلبه عن الملكوت، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته، وتلتقم الشياطين قلبه، ولا تزال تنفخ فيه، وتنفث وتوسوس وتزين له حتى ينصرف من صلاته، ولا يعقل ما فعل.

«الصلاة محل المناجاة» أي: مناجاة العبد لربه بإظهار صفاته الجميلة من رحمته للعباد وتربيته للعالمين وملكه يوم الدين إلى غير ذلك من الصفات، ومناجاة الرب له بما يلقيه في سره من العلوم الوهبية والأسرار العرفانية، «ومعدن المصافاة» أي: التودد، أي: مصافاة العبد لربه بتوجهه إليه بكليته وإقباله عليه بعوالمه الظاهرة والباطنة حتى لا يختلج في سره غيره، ومصافاة الرب لعبده بأن يمنحه شهوده، ويفيض عليه فضله وجوده، وهذه أعلى المصافاة ودونها مراتب، وعلى قدر إقبال العبد يكون إقبال الرب جل جلاله، «تتسع فيها ميادين الأسرار» أي: تتسع فيها القلوب المشبَّهة بالميادين للفرسان، أي: تنشرح بتوارد الأسرار، أي: العلوم والمعارف عليها، وتسابقها فيها كتسابق الفرسان، «وتشرق» أي: تطلع فيها، «شوارق الأنوار» أي: الأنوار المشبهة بالكواكب الشارقة، وهو من عطف السبب على المسبب؛ فإن الأنوار إذا أشرقت في القلوب انشرحت لما يرد عليها من العلوم والمعارف، وذلك من ثمرات المناجاة والمصافاة، وجميع ما ذكر كالدليل لما قبله من أن المطلوب إقامة الصلاة لا وجودها.

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائة

«عَلِمَ وجودَ الضعف منْكَ فَقَلَّلَ أعدادَهَا، وعَلِمَ احتياجَكَ إلى فضْلِه فَكَثَّرَ إمدادَهَا»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من لطفه سبحانه بك أيها الإنسان قلل أعدادها مع سعة الزمان، فجعل عليك صلاة في أول نهاره شكرًا لما أظهره لك من باهر أنواره، وليكون نهوضك إليه في أول قيامك جبرًا لما حصل من غفلتك في طول منامك، وجعل عليك صلاة في وسط نهاره إخمادًا عنك لما أظهره في ذلك الوقت من وقود ناره، وجعل عليك صلاة قرب انصراف النهار ليكون شاهدًا لك بوجود طاعتك عند الملك الغفار، ولتشهد عليك ملائكة الرحمن بالصلاة عند الملك الديان، وأوجب عليك صلاة في أول زمان الليل استفتاحًا؛ لذلك الزمان بوجود طاعتك كما استفتحت أول نهارك، واستحفاظًا لما يتوقع من عجائب الليل ثم لما أردت أن تنام عن سيدك، وتغفل عن ربك، وتمتع بفراشك أمرك أن تودعه بحضورك معه، وأن يكون آخر عهدك به وجود طاعتك؛ فهذا كله جذب منه لك لحضرته، واستخراج منك لشكر منته.

وقال أيضًا: المراد بالإمداد: الجزاء الذي رتب عليها، فجعل كل صلاة بعشر؛ فهي خمس وهي خمسون خمس في الحس وخمسون في المعنى أي: الثواب، وإذا فعلت في الجماعة كانت كل واحدة بخمس وعشرين، وكل درجة بعشر فكان عدد صلاة الجماعة مائتين وخمسين في كل صلاة: ﴿وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]، وتتفاوت الدرجة أيضًا بكثرة الجماعة وكمالها وبقدر الحضور والخشوع والغيبة ورفع الستور: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«علم وجود الضعف منك» أيها المريد؛ لأن الطاقة البشرية لا تقدر على دوام التجلي الإلهي، «فقلل أعدادها»، بجعل الخمسين خمسة، «وعلم احتياجك إلى مواددته وفضله»، بإقباله عليك ومراجعته لك بما تحبه، «فكثر أمدادها»، بالفتح جمع مدد، وهي الأسرار والعلوم والمعارف التي ترد على قلب المصلي، فجعل أمداد الخمسين في الخمس، هذا بالنسبة للمريد، ويقال بالنسبة لغيره علم وجود الضعف منك بتكاسلك عنها وكثرة انشغالك، وعلم احتياجك إلى فضله أي: كرمه فكثر أمدادها أي: ثوابها بأن جعل في الخمسة ثواب الخمسين.

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائة

«متى طلبتَ عِوَضًا عن عملٍ طُولِبْتَ بوجودِ الصدقِ فيهِ، ويكفي المريبَ وجدانُ السلامةِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى طلبت» أيها المريد من ربك «عوضًا على عمل»، صلاة أو غيرها بأن عملت ذلك لأجل ثواب آجل، وهو الجزاء عليه في الآخرة أو عاجل كالإمدادات التي ترد عليك من قبل الحق، «طولبت» أي: طالبك الحق سبحانه «بوجود الصدق فيه» أي: قال: إن لم تصدق لكونك عملت العمل لأجلي، بل عملته لحظ نفسك والصدق في مطابقة الباطن للظاهر، وهو مفقود في هذا العمل؛ لأن ظاهره أن يعمل لله قيامًا بحق الإلوهية، وباطنه أنه لم يعمل إلا لحظ نفسه، فيكفيه حينئذ سلامة من العقاب عليه، كما قال.

«ويكفي المريب» أي: المرتاب في كون مولاه يحصل له الثواب العاجل والآجل، وإن لم يقصده بعمله، إذ لو كان جازمًا بذلك متيقنًا له لسعة جوده سبحانه وتعالى لم يخطر بباله ذلك فيحال عمله، بل كان يخلص فيه لله تعالى، فيكفيه حينئذ «وجدان السلامة»، من العقاب على ذلك العمل المدخول أي: فيقول له الرب هذا العمل الذي عملته لا تستحق عليه مني جزاء، بل يكفيك من الجزاء عليه سلامتك وعدم عقابك.

وهذا تقبيح لحال طالب الجزاء على العمل، وبيان أن المنهل العذب الصافي أن يعبد العبد ربه لما هو عليه من عظمة الإلوهية ونعوت الربوبية، لا لما يعود عليه في دنياه أو أخراه.

=

١٧]، وتتفاوت أيضًا بقدر البقع كبيت الله الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس وبقدر رتبة الإمام.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائة

«لا تطلبْ عِوَضًا عن عملٍ لستَ لهُ فَاعلاً يكفي من الجزاءِ لك على العملِ أنْ كانَ له قَابلاً»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تطلب عوضًا على عمل لست له فاعلًا»، بل هو الفاعل له حقيقة وإنما أنت محل لظهوره، وإذا كان الفاعل هو الله، فكيف تطلب أنت الجزاء عليه، أو يقال أن المتفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله، وليس للعبد إلا مجرد الكسب فكيف يطلب الجزاء على عمل ليس منسوبًا إليه إلا بطريق الكسب.

«يكفي الجزاء لك على العمل أن كان له قابلًا» أي: قبوله له، والمراد به عدم مؤاخذتك عليه مع كونه مدخولًا بقصدك به طلب الثواب.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائة

«إذا أرادَ أنْ يُظْهِرَ فضلَهُ عليكَ خلقَ فيكَ ونَسَبَ إليكَ»

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد تقرر عند أهل الحق أن العبد مجبور في قالب مختار؛ فليس له فعل ولا اختيار، وإنما الفاعل هو الواحد القهار.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

وقال ﷺ: «كُلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ» أي: النشاط.

وقال ﷺ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، فأمَّا مَنْ كانَ من أهلِ السعادةِ؛ فَسَيُيَسَّرُ لعملِ أهلِ السعادةِ، وأمَّا منْ كانَ من أهلِ الشقاوةِ؛ فَسَيُيَسَّرُ لعملِ أهلِ الشقاوةِ ثُمَّ قرأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل:٥]».

فإذا تقرر هذا، فكيف يطلب العبد الأجر على عمل ليس هو فاعله؟! وعلى تقدير نسبته إليه فالجزاء متوقف على القبول، فمن أين تدري هل يكون مقبولًا أم لا؟ وإذا تفضل عليك بالقبول على ما هو عليه من النقص والخلل؛ فهذا يكفيك في جزائك على العمل، فلولا جميل ستره لم يكن عمل أهلًا للقبول فلولا أن الله سبحانه تفضل على عباده بالعفو والحلم ما قبل عملًا قط؛ إذ تصفية الأعمال كادت أن تكون من المحال.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١] أي: عظموه حق تعظيمه، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس:٢٣] أي: لم يقض الإنسان ما أمره سيده على الوجه الذي أمره به، وانظر قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٦].

ولم يقل الحق تعالى نتقبل منهم؛ لأنه يقتضي أنه كامل بل عداه بعن المفيدة للتجاوز كأنه قال: أولئك الذين يتجاوز عنهم في أحسن ما عملوا فنتقبلها منهم، ولو لم يتجاوز عنهم فيها ما تقبلت منهم، ولكن الكريم لا ينتقد بل يقبل كل ما يعطاه لعظيم كرمه وغناه.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا أردت أن يظهر فضله عليك» أي: فضله عليك وإحسانه لك «خلق» أي: العمل فيك «ونسب إليك» أي: نسبه إليك بأن قال فيك عند ملائكته إنك مطيع ومتق ومجتهد وعامل أو نسبه إليك على ألسنة العباد بأن يطلق ألسنتهم بأنك مطيع ومتق... إلخ.

فإذا شهد العبد هذا الفضل العظيم، واستولي عليه الخجل والحياء من سيده الكريم، لم ينسب لنفسه شيئًا من محامد الصفات ومحاسن الأعمال لا حقيقة ولا أدبًا، إذ لا أهلية فيه لذلك، وأما مذام الصفات والأعمال ومساويها؛ فمقتضى الأدب أنه يضيف ذلك إلى نفسه، وأن يعترف به أنه من ظلمه وجهله.

قال سهل بن عبد الله -قدس الله سره: إذا عمل العبد حسنة، وقال: يا رب! بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهلت، شكر الله تعالى ذلك له، وقال له: يا عبدي! أنت أطعت، وأنت تقربت، وإذا نظر إلى نفسه، وقال: أنا عملت، وأنا أطعت، وأنا تقربت، أعرض الله تعالى عنه، وقال: يا عبدي! أنا وفقت، وأنا أعنت، وأنا سهلت، وإذا عمل سيئة، وقال: يا رب! أنت قدرت، وأنت قضيت، وأنت حكمت، غضب المولى جلت قدرته عليه، وقال: يا عبدي! أنت أسأت، وأنت جهلت، وأنت عصيت، وإذا قال: يا رب! أنا ظلمت، وأنا أسأت، وأنا جهلت، أقبل المولى جلت قدرته عليه، وقال: يا عبدي! أنا قضيت، وأنا قدرت، وقد غفرت وحلمت وسترت.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائة

«لا نهايةَ لمذامِّكَ إنْ أرجعكَ إليكَ ولا تَفْرُغْ مدائِحُكَ إنْ أظهرَ جُودَهُ عليكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا نهاية لمذامك أن أرجعك إليك» أي: وكلك إلى نفسك؛ لأنها مجبولة على الشر، فإذا خلى الله بينك وبينها أي: لم يعنك عليها، ولم يحكمك فيها، غلبتك وتحكمت فيك، فتوقعك في أنواع القبائح حتى لا يبقي في أعمالك ما يستحسن، ولا في أحوالك ما يحب، وذلك من علامات الطرد والبعد عن الله، «ولا تفرغ مدائحك أن أظهر جوده عليك» بأن تولي عنايتك ونصرك على نفسك، ولم يحكمها فيك، فتصير أحوالك حسنة جميلة، فلا تفرغ مدائحك ولا تنقضي محاسنك، وذلك علامة اصطفائه لك واجتبائه.

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائة

«كُنْ بأوصافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا وبأوصافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا»[١]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أوصاف الربوبية هي العز والكبرياء والعظمة والغنى والقدرة والعلم، وغير ذلك من أوصاف الكمالات التي لا نهاية لها، وأوصاف العبودية هي الذل والفقر والعجز والضعف والجهل، وغير ذلك مما يناسب العبودية من النقائص.

وكيفية التعلق بأوصاف الحق: هو أن تلتجئ في أمورك إليه، وتعتمد في حوائجك عليه، وترفض كل ما سواه، ولا ترى في الوجود إلا إياه؛ فإذا نظرت إلى عزه وكبريائه وعظمته تعززت به، ولم تعز بغيره وصغر في عينك دونه كل شيء، وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالغنى تعلقت بغناه، واستغنيت عما سواه، ولم تفتقر إلى شيء، واستغنيت به عن كل شيء، وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالقدرة والقوة لم تلتجئ في حال عجزك وضعفك إلا إلى قدرته وقوته، واستضعفت كل شيء، وإذا نظرت إلى سعة علمه وأحاطته اكتفيت بعلمه، واستغنيت عن طلبه، وقلت بلسان الحال: «**علمُهُ بحالِي يُغْنِي عنْ سُؤَالِي**»، وهكذا في جميع الأوصاف والأسماء؛ فكلها تصلح للتعلق والتخلق والتحقق.

وكيفية التخلق بأوصافه تعالى: أن تكون في باطنك عزيزًا قويًّا به عظيمًا كبيرًا عنده قويًّا في دينه، وفي معرفته عالمًا به وبأحكامه وهكذا.

وحاصلها: استعمال الحرية في الباطن، والعبودية في الظاهر، وكيفية التحقق بأسماء الله تعالى: أن تكون تلك المعاني فيك راسخة متمكنة متحققًا فيك وجودها؛ فالتخلق مجاهدة، والتحقق مشاهدة أي: يكون وجودها غريزيًّا.

وكيفية التخلق بأوصاف العبودية: هو التحقق بالذل في الظاهر حتى يصير الذل عندك حرفة وطبيعة لا تأنف منه بل تستحليه وتغتبط به، وكذلك الفقر والضعف والجهل، وسائر أوصاف العبودية تتحقق بوجودها في ظاهرك حتى يكون ذلك شرفًا عندك.

وقال الشيخ زروق ﷺ: أوصاف الربوبية أربعة: تقابلها أربعة هي أوصاف العبودية:

أولها: الغنى ويقابله الفقر، **والثاني**: العز ويقابله الذل، **والثالث**: القدرة ويقابلها العجز، **والرابع**: القوة ويقابلها الضعف.

فمن استغنى بالله افتقر إليه، ومن افتقر إلى الله استغنى به، ومن تعزز بالله ذل له، ومن ذل له تعزز به، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه، ومن رأى قوته علم ضعف نفسه لكن إن كان البساط النظر لأوصافك؛ فأنت الفقير إلى الله، وإن كان البساط النظر إلى أوصافه؛ فأنت الغني بالله، وهما يتعاقبان على العارف فتارة يغلب عليه الغنى بالله فتظهر عليه آثار العناية، وتارة يظهر عليه آثار الفقر إلى الله؛ فيلتزم الرعاية فحين غلب الغنى بالله على حبيب الله أطعم ألفًا من صاعٍ، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شد الحجر على بطنه من الجوع؛ فافهم اهـ.

والحاصل: أن عظمة الربوبية ظهرت في مظاهر العبودية؛ فمن نظر للعظمة صرفًا تحقق بعظمة الربوبية، ومن نظر لظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية والكامل ينظر لهما معًا فيتحقق بعظمة الربوبية في

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كن بأوصاف ربوبيته متعلقا»، لا متحققًا إذ لا حظ للعبد في شيء من أوصاف مولاه إلا تعلق به، «وبأوصاف عبوديتك متحققًا»، ومعنى التعلق بأوصاف الربوبية النظر إليها وملاحظتها أي: ملاحظة كونها لهو فلا يصح لك أن تتصرف بشيء منها، ومعنى التحقق بأوصاف العبودية، النظر إليها وملاحظتها أي: ملاحظة كونها هي التي ينبغي أن يتصف بها العبد حقيقة لا بأوصاف الربوبية، وما وجد فيه من أوصاف الربوبية فهو عارية عنده وليس هو حقيقة، فإذا لاحظ كون الغنى والقدرة والعزة والقوة ليست إلا للمولى ولاحظ أن الذي يتصف به العبد حقيقة هو أضدادها وهي الفقر والعجز والذل والضعف، أمده الله تعالى بأوصافه فيكون غنيًا بالله، قادرًا بالله، عالمًا بالله، عزيزًا بالله، قويًا بالله.

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائة

«منعَكَ أنْ تَدَّعِيَ مَا ليسَ لكَ ممَّا هُوَ للمَخْلُوقِينَ أَفَيُبِيحُ لكَ أنْ تَدَّعِيَ وصفَهُ، وهُوَ رَبُّ العالمينَ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«منعك أن تدعي ما ليس لك» أي: حرم عليك أن تدعي شيئًا ليس لك «مما» أعطي «للمخلوقين» من الأموال، وسماه الله تعالى عدوانًا وظلمًا، «أيبيح لك» سبحانه «أن تدعي وصفه، وهو رب العالمين» أي: فيكون ادعاؤك ذلك من أعظم الظلم وأشد العدوان، فإذا ادعيت أنك غني أو قادر أو عزيز أو قوي أو عالم، كما يقع لبعض الناس، كان ذلك من كبائر معاصي القلب، ومن مشاركة المربوب للرب.

ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه، اعتقادًا أو قولًا؛ لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه.

وفي الحديث: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري؛ فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في النار**»[1]، وفي رواية: «**قصمته**».

ومعنى المنازعة الدعوة بالعبادة والاعتقاد، وإضافة هذين الوصفين له تعالى كناية عن شدة الاختصاص بهما.

= الباطن، ويتحقق بأوصاف العبودية في الظاهر؛ فيعطي كل ذي حق حقه؛ فالجميع في باطنه مشهود، والفرق في ظاهره موجود، والله تعالى أعلم.

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٥).

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائة

«كيفَ تُخْرَقُ لكَ العوائدُ، وأنتَ لم تَخْرِقْ منْ نفسكَ العوائدَ»[(١)]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العوائد: كل ما تعودته النفس وألفته واستمرت معه حتى صعب خروجها عنه سواء كان ظلمانيًا أو نورانيًا كتتبع الفضائل وكثرة النوافل، وهي على قسمين: عوائد ظاهرة حسية، وعوائد باطنة معنوية.

فمثال العوائد الحسية: كثرة الأكل، والشرب والنوم واللباس، وخلطة الناس، والدخول في الأسباب، وكثرة الكلام، والمخاصمة، والعتاب، والاستغراق في العبادة الحسية أو العلوم الرسمية، وغير ذلك.

ومثال العوائد المعنوية: حب الجاه والرياسة، وطلب الخصوصية، وحب الدنيا، والمدح وكالحسد والكبر والعجب والرياء، والطمع في الخلق، وخوف الفقر، وهم الرزق، والفظاظة، والقسوة، وغير ذلك مما تقدم.

فمن خرق من نفسه عوائدها الحسية بالرياضات القهرية خرقت له العوائد الحسية: كالطيران في الهواء، والمشي على الماء، ونفوذ الدعوة، وغير ذلك من الكرامات الحسية، ومن خرق من نفسه عوائدها المعنوية خرقت له العوائد الباطنة: كرفع حجب الغفلة، وتطهير القلوب، وكشف الحجاب، وفتح الباب، وتحقق العرفان، والترقي إلى مقام الإحسان، وهذا هو المعتبر عند الأكياس، وهو المطلوب من سائر الناس.

وأما خرق العوائد الحسية فقد تكون لمن ليست لهم خصوصية: كالسحرة وأرباب الشعوذة؛ نعم من جمع بينهما خرقت له فيهما؛ فكيف تطلب أيها المريد أن تخرق لك عوائد نفسك حتى تدخل حضرة قدسك وأنت لم تخرق عوائد نفسك فما حجب النفس عن الشهود إلا ما تعودته من رؤية هذا الوجود؟ فلو غابت عن رؤية هذا الوجود لتحقق لها أمر الشهود، ولا يمكن أن تغيب عنه إلا بخرق عوائد نفسها.

وقد تقدمت حكاية الرجل الذي كان مع أبي يزيد ثلاثين سنة فلم يذق شيئًا فقال له: لو صليت ثلاثمائة سنة لم تذق شيئًا؛ لأنك محجوب بنفسك ثم قال له: اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس، واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة واملأها جوزًا، واجمع حولك صبيانًا، وقل بأعلى صوتك: يا صبيان من يصفعني صفعة أعطه جوزة، وادخل السوق، وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك ثم قال له: فلا مطمع لأحد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة؛ فحينئذ تخرق لك العوائد، وتظهر لك الفوائد انتهى.

وتقدمت أيضًا في باب الخمول قصة الغزالي والشتري والمجذوب وغيرهم ممن خرقوا العوائد؛ فخرقت لهم العوائد، وظهرت لهم الفوائد، وأما من بقي مع عوائد نفسه؛ فلا يطمع أن يتمتع بحضرة قدسه.

قال الشيخ أبو المواهب ﷺ: من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال فارفضه؛ فإنه دجال، ولا جلال أعظم على النفس من خرق عوائدها: كتبديل العز بالذل والغنى بالفقر والجاه وبالخمول وغير ذلك.

وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف تخرق لك» أيها المريد أي: تطمع أن تخرق لك «العوائد»، بأن تظهر لك على يدك كرامة كطي الأرض «وأنت لم تخرق لك من نفسك العوائد» أي: ما اعتدته من الكبر والعجب والدعوى وغير ذلك، فخرق العوائد بظهور شئون عالم القدرة لا يكرم الله به إلا من خرق عوائد نفسه، وفني عن إرادته وحظوظه، ومن لم يصل إلى هذا المقام، لا يطمع فيها، فإن ظهر له ما صورته كرامة، فينبغي له أن يخاف من الاستدراج والمكر، ولا يحب ذلك ولا يطلبه، فإن أحب ذلك وطلبه كان ذلك دليلًا على بقائه مع إرادته وحظوظه وعبادته، فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة.

الحكمة الأربعون بعد المائة

«ما الشأنُ وجودَ الطلبِ إنَّمَا الشأنُ أنْ تُرْزَقَ حسنَ الأدبِ»[1]

=

بالفقد حتى وجدوا؛ فلا مطمع في نيل العز بالله حتى يتحقق بالذل له، ولا في نيل الغنى به حتى يتحقق بالفقد مما سواه.

وقال أبو حمزة البغدادي ﷺ: علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الشهرة انتهى.

فهذه الأخبار كلها تدل على أن خرق عوائد النفس شرط في تحقق نيل الخصوصية فمن ادعاها ما قبل أن يخرقها فهو كذاب كما تقدم عن أبي المواهب.

وكتب شيخ شيخنا ﷺ إلى بعض الإخوان: أما بعد فإن أردتم أن تكون أعمالكم زكية وأحوالكم مرضية فقللوا من العوائد فإنها تمنع الفوائد انتهى.

فخرق العوائد إبدالها بضدها كتبديل كثرة الأكل والنوم وبالجوع والسهر وكتبديل كثرة اللباس بالتقلل منه أو ما خشن من الثياب كالمرقعات ونحوها، وكتبديل الخلطة بالعزلة والأسباب بالزهد والكلام بالصمت وسوء الخلق بحسن الخلق، وكتبديل حب الجاه والرياسة بالذل والخمول وسقوط المنزلة عند الناس وحب الدنيا بالزهد فيها والفرار منها، وكاتصافه بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل.

فإذا تحقق المريد بهذه الأمور خرقت له العوائد على ما يريد حتى يكون بسم الله عنده موافقة لكن من الله فيكون أمره بأمر الله: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]

ولا بدَّ في خرق العوائد الباطنية من شيخ كامل جامع بين حقيقة وشريعة يحملك بهمته؛ فإذا رميت يدك في نفسك حملتك الهمة ونصرتك القدرة فقتلتها بالمرة.

وأما إذا لم يكن لك شيخ فكلما قتلتها رجعت أكبر مما كانت، ولا تموت النفس الحية إلا مع الأموات كما قال شيخنا ﷺ: هذا الأمر مجرب وبالله التوفيق.

(١) قال الشيخ زروق ﷺ: الأدب على ثلاثة أوجه: آداب في الظاهر وذلك بإقامة الحقوق، وآداب في الباطن بالإعراض عن كل مخلوق، وآداب فيهما، وذلك بالانحياش للحق والدوام بين يديه على بساط الصدق =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما الشأن وجود الطلب» أي: الدعاء بلسان المقام أي ليس الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب حوائجك وحظوظك من مولاه دون غيره ظآنًا أن طلبك ذلك منه دون غيره يوفي بما يجب عليك في الدعوة من الأدب فإن ذلك لا يوفي به، «إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب» أي: إنما الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب جميع مطالبك منه دون غيره لا لقصد نيل حظك ومرادك فقط، بل أن تطلب ذلك منه إظهارًا للعبودية وقيامًا بحق الربوبية، فبذلك يحسن أدبك ويصح سؤالك وطلبك، وذلك هو الوفاء على التحقيق بحق الأدب في الدعاء.

ويحتمل أن يراد بالطلب الطلب بالقلب، وتوجهه لشيء من الأغراض أي: ليس الشأن أن تطلب شيئًا من مولاك بقلبك مما لك فيه حظ سواء صاحبه طلب باللسان أو لا، بل الشأن أن ترزق حسن الأدب وهو ترك الطلب اكتفاء بنظره إليك، فالأدب الحسي في الدعاء على الوجه الأول أن يدعو إظهارًا للعبودية وقيامًا بحق الربوبية، لا لنيل حظ نفسه فقط، وعلى الوجه الثاني ترك الدعاء والطلب اعتمادًا على قسمته واكتفاء بمشيئته واشتغالًا بذكره عن مسألته.

الحكمة الواحدة والأربعون بعد المائة

«ما طُلِبَ لكَ شيءٌ مثلُ الاضطرارِ، ولا أسرعُ بالمواهبِ مثلُ الذلةِ والافتقارِ»[(١)]

=

وذلك هو جملة الأمر وتفصيله وتفريعه وتأصيله انتهى.

فالطلب عند العارفين ليس هو بلسان المقال، وإنما هو بلسان الحال، وهو الاضطرار وظهور الذلة والافتقار.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان طلب العارفين بلسان الحال دون المقال لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا منته في محنته ونعمته في نقمته؛ فإذا تجلى لهم بالقوة والجلال تلقوه بالضعف والإذلال فحينئذ يتجلى لهم باسمه الجميل فيمنحهم كل جميل، وإذا تجلى لهم باسمه العزيز أو القهار تلقوه بالذلة والافتقار فتتوارد عليهم المواهب الغزار.

فإذا أردت أيها العارف أن تطلب من مولاك شيئًا جلبًا أو دفعًا فعليك بالاضطرار والاضطرار: هو أن يكون كالغريق في البحر أو الضال في التيه القفر، ولا يرى لغياثه إلا مولاه ولا يرجوا لنجاته من هلكته أحدًا سواه فما طلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه، والوقوف بين يديه متحليًا بحلية العبيد هنالك تنال كل ما تريد.

إذا أردت ورود المواهب عليك، وهي العلوم اللدنية والأسرار الربانية؛ فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلة والافتقار بين يدي الحليم الغفار يكون ذلك قلبًا وقالبًا؛ فينبغي لك حينئذ أن تستعد لكتب المواهب ونيل المرتب. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، وقال تعالى:

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما طلب لك» بالبناء للفاعل، وهو «شيء مثل الاضطرار» أي: إن أحسن الطالبين لذلك هو الاضطرار، فشبهه بشخص طالب، والاضطرار إظهار غاية الفاقة، فلا تتوهم من نفسك شيئًا من الحول والقوة، ولا ترى لها سببًا من الأسباب تعتمد عليه، وتستند إليه، وتكون بمنزلة الغريق في البحر أو الضال في التيه القفر، لا ترى لغناك إلا مولاك، ولا ترجو النجاة لهلكتك إلا منه، ويحتمل بناء ما طلب للمفعول، والنائب قوله شيء أي: إن اضطرار العبد هو أقصى أوصاف عبوديته، ولذلك لم يطلب من العبد شيء آجل منه.

وقوله: «ولا أسرع بالمواهب إليك من الذلة والافتقار» من عطف اللام على الملزم؛ لأن الذلة والافتقار لازمان للمضطر، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران: ١٢٣] فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرتهم.

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة

«لو كنتَ لا تصلُ إليه إلا بعدَ فناءِ مساويكَ ومَحْوِ دعاويك لم تصلْ إليه أبدًا، ولكنْ إذا أرادَ أن يُوصلَكَ إليه ستَرَ وصفَكَ بوصفِهِ وغَطَّى نعتَكَ بنعتِهِ فَوَصَّلَكَ إليهِ بما منه إليكَ لا بما منكَ إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لو أنك لا تصل إليه بعد فناء مساويك» أي: عيوب نفسك ومنها شهوة الوصول إليه «ومحو دعاويك» أي: نسبة ما لا تستحقه إليك كالقوة والعزة والغنى والقدرة وفناء ذلك ومحوه بالرياضات والمجاهدات أي: أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء ذلك برياضاتك ومجاهداتك، فإن اعتقدت ذلك «لم تصل إليه أبدًا»؛ لأن ذلك من الأوصاف الذاتية الجليلة التي لا ينفك عنها العبد، وحينئذ فالوصول منة من الله عليك، لا بكسبك، كما أشار إلى ذلك بقوله: «ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه» أي: إلى حضرة قربه «غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته» أي: ستر عنك أوصافك وأظهر عليك أوصافه، فأفناك عنك وأبقاك به، أي: غيب صفاتك الدنيئة بإظهار صفاته العلية عليك.

= ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقال ﷺ: «إنَّ النصرَ مع الصبرِ، وإنَّ الفرجَ مع الكربِ، وإن مع العسر يسرا».

وإلى ذلك الإشارة بقوله في الحديث القدسي: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**»[١].

«فوصلك إليه بما منه إليك»، وهو إظهار صفاته عليك، «لا بما منك إليه» من الاجتهاد في الأعمال.

قال الشاذلي -قدس الله سره: «لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته وتدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته، فلو خلى الله عبده وذلك لم يصل أبدًا، ولكن إذا أراد الله وصول عبده تولى ذلك بأن يظهر من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب صفات عبده ونعوته عنه وعند ذلك لا يكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره مولاه وأراده».

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائة

«لولا جميلُ سترِهِ لم يكنْ عملٌ أهلاً للقَبُولِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لولا جميل ستره» أي: ستره الجميل «لم يكن عملٌ أهلًا للقبول»؛ لأن العبد مبتلى بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه، وشهود حوله، وقوته عليه، وقد يكشف حجابه فيرائي به، ويطلب حمد الناس له، وهذا كله من الشرك الخفي القادح في الإخلاص، والإخلاص شرطٌ في قبول العمل، كما مرَّ، وحينئذ يكون اعتماد المريد في وصوله على فضل الله وكرمه، لا على اجتهاده، ولو قال: لولا فضله لكان أولى.

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائة

«أنتَ إلى حلمِهِ -إذا أطعْتَهُ- أحوجُ منكَ إليه إذا عَصَيْتَهُ»[٢]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) وذلك لأن الطاعة بساط العز والرفعة، وللنفس فيها شهوة ومتعة، ولأن الناس يلحظون صاحب الطاعة الظاهرة، وينظرونه بعين التعظيم، ويبادرون إليه بالخدمة والتكريم، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق إن كان يفرح بذلك، ويقنع به دون الملك الحق بخلاف المعصية فإنها هي بساط الذل والانكسار ومحل السقوط والاحتقار، وكل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق؛ فكان العبد في حال طاعته لربه أحوج إلى حلمه وعفوه منه في حال معصيته لأن الطاعة التي ينشأ عنها العز والاستكبار أقبح من المعصية التي تورث الذل والافتقار بل في الحقيقة ليست بطاعة لأن الطاعة التي توجب البعد ليست بطاعة، والمعصية التي توجب القرب ليست بمعصية.

وفي الحديث: «يقولُ الله تباركَ وتعالى: أَنَا عندَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ من أجلِي»، ومن كان الله عنده؛ فهو =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أنت إلى حلمه -إذا أطعته- أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته» وذلك أن المريد قد يعرض له عند طاعته أحوال كرؤية نفسه، والإعجاب، والكبر، وازدراء الغير، واستحقاقه الجزاء، إلى غير ذلك من كبائر القلوب، فيخاف عليه أن تنقلب طاعته معصية.

والعاصي ربما تحمله معصيته على الحذر والخوف من ربه، وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار إليه، فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذا أطاعه أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه، وهذه زيادة تحذير من رؤية استحقاق الوصول بالأعمال؛ فإن ذلك غلط وجهل.

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائة

«السِّتْرُ على قسمين: سِتْرٌ عن المعصية وسِتْرٌ فيها فالعامةُ يطلبون الستر من الله فيها خَشْيَةَ سُقُوطِ مرتبتهم عند الخلقِ والخاصَّةُ يطلبون الستر عنها خشيةَ سقوطِهِم من نظرِ الملكِ الحقِّ»[(١)]

=

أعظم من ألف مطيع توجب له طاعته طرده وبعده.

أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء -عليهم السلام: «**قُلْ لعبادِي الصِّدِّيقين: لا يغترُّوا؛ فإنِّي إنْ أُقِمْ عليهم عدلي وقِسطي أعذِّبْهُم غيرُ ظالمٍ لهم، وقُلْ لعبادِيَ الخاطِئِينَ: لا ييْئَسُوا من رحمتِي؛ فإنَّه لا يكبرُ عليَّ ذنبٌ أَغْفِرُهُ**» انتهى.

وقال الشيخ أبو يزيد ﷺ: توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة؛ وكان ﷺ إذا صلى استغفر ثلاثًا تعليمًا للأمة في شهود التقصير وإلا فلا استغفار من طاعة ولا ذنب على المختار ﷺ.

ولما كانت المعصية بساط الذل والاحتقار، وهي أقرب لمقام العبودية والطاعة بساط العز والرفعة؛ فافتقرت إلى حلم الله أكثر صار الناس يطلبون الستر في المعصية أو عنها خوفًا مما ينشأ عنها.

(١) الستر: هو الحفظ والتغطية، وهو في الحس من الآفات والبليات التي توجب هلاكه، وفي المعنى من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة.

وهو باعتبار المعصية على قسمين: قسم: يقع الستر فيها؛ فلا يفضح صاحبها، وقسم: يقع الستر عنها؛ فلا يقع العبد فيها، ولو طلبها لما شمله من حفظ الله ورعايته.

فالعامة يطلبون الستر من الله فيها مع وقوعها لئلا يسقطوا من عين الخلق فهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨]، ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢] فمحط نظرهم إنما هو شهود الخلق غائبين عن نظر الملك الحق، وذلك لضعف إيمانهم وقلة يقينهم وانطماس بصيرتهم.

وفي بعض الأخبار: «**يقولُ الله تبارك وتعالى: يا عبادِي إنْ كنتم تعتقدون أنِّي لا أراكُم فالخللُ في إيمانِكُمْ، وإن كنتم تعتقدون أنِّي أراكم فلِمَ جعلتمُونِي أهونَ الناظرينَ إليكُمْ**» انتهى.

وأما الخاصة؛ فهم يطلبون من الله الستر عنها والعصمة منها خشية أن يسقطوا من عين الحق لأن

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الستر على قسمين؛ ستر عن المعصية»، بأن يمنعه عنها، ولا يهيئ له أسبابها، «وستر فيها» أي: مع فعلها بألا يظهرها للناس حال فعلها أو بعدها، «فالعامة» لعدم تحققهم بحقائق الإيمان يغلب عليهم شهود الخلق، ويتوقعون منهم حصول المنافع ودفع المضار، فيراءونهم ويتصنعون لهم، ويتزينون ويطمعون فيهم، ويقلقون بين أيديهم، ويكرهون أن يطلعوا منهم على ما تسقط به منـزلتهم من قلوبهم، ولذا فهم «يطلبون من الله تعالى الستر» أي: أن يستر عليهم «فيها» أي: في المعصية في حال كونهم عاملين لها، ومستخفين بها، ومحبين لها، وإنما طلبوا ذلك «خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق»، إذا اطلعوا على حالهم، فيفوتهم ما كانوا يتوقعون منهم من حصول المنافع ودفع المضار، وهؤلاء الذين يعتمدون على غير الله، وهم أهل الشرك الخفي الذي يخرج صاحبه من حقائق الإيمان، وفي مثلهم قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨]، «والخاصة» لتحققهم بحقائق الإيمان براء من هذا الوصف الذميم، لا يلتفتون إلى الخلق مدحًا ولا ذمًا، ولا يتوقعون منهم نفعًا ولا ضرًا ولا يعتمدون عليهم ولا يسكنون إليهم، وحالهم إنما هو القناعة بنظر الله تعالى إليهم، «ويطلبون من الله الستر عليها»، بأن يغيبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم فتميل إليها نفوسهم ويعملونها، وإنما طلبوا ذلك «خشية سقوطهم من نظر الملك الحق» بمخالفته والتعريض لسخطه، وشتان ما بين هذين الحالين، وهذا هو الغالب من حال الفريقين.

وقد تطلب العامة الستر فيها امتثالًا لأمر الله ورسوله بالستر فيما وقع منهم بأن لا

=

صدور المعصية من العبد سوء أدب، ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب فإذا وقعت منهم معصية بادروا إلى الاعتذار، وصحبهم الخجل والانكسار ثم وجدوا في سيرهم، ولم يقفوا مع نفوسهم إذ لا وجود لها في نظرهم ولا التفات لهم إلى الخلق إذ لم يبق في نظرهم إلا الملك الحق غابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق أو بشهود المعنى عن رؤية الحس أو بشهود الموسوط عن الواسطة.

وأما خاصة الخاصة؛ فلا يطلبون شيئًا، ولا يخافون من شيء صارت الأشياء عندهم شيئًا واحدًا، واستغنوا بشهود واحد عن كل واحد فهم ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة فيتلقونه بالقبول والرضا فإن كان طاعة شهدوا فيها المنة، وإن كان معصية شهدوا فيها القهرية، وتأدبوا مع الله فيها بالتوبة والانكسار قيامًا بأدب شريعة النبي المختار ﷺ.

ثم إذا ستر الحق تعالى مساوئك وذنوبك ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والمجد والتكريم؛ فاعرف منة الله عليك، وانظر من الممدوح في الحقيقة، هل أنت أو من ستر مساوئك؟

يفضحهم بين خلقه، ولا بين يديه لخجلهم لوقوع المعصية منهم، ولإساءة الناس ظنهم بالمنسوبين إلى الله إذا اطلعوا عليهم.

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائة

«مَنْ أَكْرَمَكَ فإنَّمَا أكرمَ فيكَ جميلَ سِتْرِهِ فالحمدُ لِمَنْ سَتَرَكَ ليسَ الحمدُ لمنْ أكرمَكَ وشكَرَكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من أكرمك» أي: أقبل عليك بإعطاء محبة أو شكر، «إنما أكرم فيك جميل ستره» أي: ستره الجميل عليك، فلولا وجوده ما أقبلوا عليك ولا أحبوك ولا نظروا إليك بعين الرضا، إذ لو اطلعوا على ما أنت عليه لاستقذروك ونفروا عنك، وحينئذ «فالحمد» لا ينبغي أن يكون إلا «لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك»، فلا تحمده إلا من حيث إجراء الخير على يديه لا من حيث إنه المكرم والمعظم حقيقة، إذ ليس ذلك إلا لله، فمن أقبل الناس عليه وأكرموه، فقد يغلط ويضع الحمد والثناء في غير موضعه، فيكون من الظالمين، وقد يغلط فيرى لنفسه وضعًا محمودًا يستحق به الإكرام، فيكون من الجاهلين بأنفسهم، الناظرين إلى عملهم، الغافل عن منة الله عليهم، فحذر ﷺ من هاتين الغلطتين.

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائة

«ما صَحِبَكَ مَنْ صَحِبَكَ وهُوَ بعيبِكَ عليمٌ وليس ذلكَ إلا مولاكَ، خيرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يطلبُ لا لشيءٍ يعودُ منكَ إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما صحبك» أي: ليس الصاحب الحقيقي «إلا من صحبك» أي: أقبل عليك بإحسانه «وهو بعيبك عليم» أي: لم يمنعه من صحبته لك وإقباله عليك ما يعلمه من تفاصيل عيوبك، «وليس ذلك إلا مولاك»، وكذلك من تخلق بأخلاقه من السادة الصوفية العارفين بالله تعالى.

أما الذي يصحبك مع جهله بها فليس بصاحب حقيقة؛ لأنه لا يثبت عند ظهورها له، وإن عزم على ذلك فليس في مقدوره الصبر عليه، وإن صبر فلا بدَّ تأثر يلحقه من ذلك، «لا لشيء يعود منك إليه» أي: وليس ذلك إلا لمولاك أو من تخلق بأخلاقه، أما من يصحبك لفعلك معه ونفعك له، فليس بصاحب حقيقة؛ لأن قصده مجرد قضاء حوائجه منك، فإذا زال غرضه فارقك.

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المائة

«لو أشرق لك نورُ اليقينِ لرأيتَ الآخرة أقربَ إليك من أن ترحلَ إليها، ولرأيت محاسنَ الدنيا قد ظهرتْ كِسفة الفناء عليها»(١)

---

(١) اليقين هو العلم الذي لا يزاحمه وهم، ولا يخالطه ريب، ولا يصحبه اضطراب مشتقٌّ من يقن الماء، إذا حبس ولم يجر، شبه به العلم إذا صحبته الطمأنينة، ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب، وإشراق نوره وهو ظهور أثره على الجوارح، فيظهر فيها الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويظهر منه الانحياش إلى الله، والاشتياق إلى حضرة جماله، والسكون والخضوع تحت قهر جلاله، والمسارعة إلى ابتغاء مرضاته، والمبادرة إلى مظان محابه، ولهج اللسان بذكره، وشغل القلب بالفكرة في عظمته، وهيمان الروح في حضرة قربه، وسكرها من شراب حبه، واغتمارها بشهود قربه، فهذه علامة إشراق نور اليقين في القلب، ومن علامته أيضًا أن يصير الآجل عاجلًا، والبعيد حاصلًا، والغيب شهادة: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:١٣٤].

فلو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك، أقرب إليك من أن ترحل إليها، إذ هي الراحلة إليك والمدركة لك، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية، قد ظهرت كسفة الفناء عليها، أي: قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها، فصار ما كان ظاهرًا باطنًا، وما كان باطنًا صار ظاهرًا، وما كان كثيفًا صار لطيفًا، وما كان لطيفًا صار كثيفًا، وما كان غيبًا صار شهادة، وما صار شهادة صار غيبًا، وإنما بعد ذلك عن الخلق ضعف إيمانهم وقلة نور إيقانهم، ولو أشرق نور اليقين في قلوبهم، لرأوا الدنيا مكسوفة أنوارها، بادية عوارها، كما رآها حارثة ﷺ حين أخبر عن حقيقة إيمانه.

فقد روي عن أنس ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شابٌ من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**» قال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًّا، فقال له: **انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟** فقال: يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا» أي: أدبرت وهربت، «فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال له: «**أبصرت فالزم، عبد نوَّر الله الإيمان في قلبه**»، قال: يا رسول! الله ادع الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ فقتل يوم بدر شهيدًا، فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! قد علمت منـزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر، وإن لم يكن في الجنة تر ما أصنع، فقال: **أو هبلت؟ أجنة هي؟ إنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس، الأعلى**، فرجعت تضحك، وتقول: بخٍ بخٍ يا حارثة» انتهى.

وكما رآها معاذ بن جبل ﷺ حينَ دخل على النبي ﷺ يبكي فقال له: «**كيف أصبحت يا معاذ؟** قال: أصبحت مؤمنًا، فقال: **إن لكل قول مصداقًا، ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟** فقال: يا رسول الله! ما أصبحت صباحًا قط إلا ظننت لا أمسي، وما أمسيت قط إلا ظننت لا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أني لا أتبعها بأخرى، وكأني أنظر إلى ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الجاثية:٢٨]، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، فقال ﷺ: «**عرفت فالـزم**»..

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لو أشرق نور اليقين» أي: العلم بالله وبما وعد به على لسان نبيه أي: لو كثر وأضاء ذلك النور في قلبك، «لرأيت الآخرة» أي: في تلك الحالة «أقرب» إليك «من» نفسها في حالة «أن ترحل إليها» أي: فيحال ارتحالك إليها وحلولك فيها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت «كسفة الفناء» أي: الفناء الشبيه بالكسفة، بفتح الكاف أي: الكسوف والتغيير، أو كسرها وهي القطعة من الشيء الذي يغطي بها الإناء فلا تلتفت إليه النفس ولا تنظر ما فيه «عليها».

وذلك أن نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه، فإذا أشرق في قلب العبد رأى به الحق حقًّا والباطل باطلًا والآخرة حق والدنيا باطل، فيبصر الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل فيقبل عليها بالتهيؤ والاستعداد لها، ويبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن بصره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهد فيها، والتجافي عن زهرتها، والإقبال على الآخرة، والتهيؤ لنزول حضرتها، ووجدان العبد لهذا هو علاقة انشراح صدره بذلك النور.

كما قال ﷺ: «**إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر واتضح**»، قيل له: يا رسول الله! هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «**نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[1].

وعند ذلك تموت شهواته، وتذهب دواهي نفسه، فلا تأمره إلا بخير، ولا تطالبه بارتكاب منهي عنه، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره في كل حين حلول الأجل، وفوات صلاح الأمل.

=

فهذان الرجلان الأنصاريان أشرف نور الإيقان في قلوبهما، وشرح الله به صدورهما فرأيا ما كان آجلًا عاجلًا، وما كان آتيًا واصلًا.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح**»، قيل: يا رسول الله! هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «**نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**»، أو كما قال ﷺ.

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٧٦).

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائة

«ما حجبَكَ عن الله وجودُ موجودٍ معه، إذ لا شيءَ معه، ولكن حجبك عنه توهمُ موجود معه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما حجبك» أيها المريد المحجوب «عن الله وجود موجود» من الأكوان الدنيوية والأخروية «معه»، إذ لا وجود لما سواه على التحقيق، «ولكن حجبك عنه توهم موجود معه» أي: توهمك أن ما سواه له وجود، مع أنه في ذاته عدم محض عند العارفين، ووجوده كوجود ظلال الشجر على الماء، فإنها لا تمنع سير السفن، فلا حاجب لك عن الله إلا توهم وجود ما سواه لا غير، وذلك كرجل بات في مكان وأراد الخروج، فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئيرًا أي: صوت أسد فمنعه ذلك عن الخروج، فلما أصبح لم يجد هناك أسدًا وإنما الريح انضغطت في تلك الكوة فما حجبه وجود أسد وإنما حجبه توهم الأسد.

الحكمة الخمسون بعد المائة

«لولا ظهورُهُ في المكونات ما وقع عليها وجودُ الصفات، ولو ظهرت صفاتُه اضمحلتْ مكوناتُه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لولا ظهوره في المكونات» أي: تجليه عليها بالوجود «ما وقع عليها وجود أبصار» أي: لم توجد، وإذا لم توجد فلا تبصر، فوجودها إنما هو بطريق العارية، وظهور الحق فيها كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، وإلا فهي في ذاتها عدم محض لا وجود لها في ذاتها، كما تقدم غير مرة.

ويحتمل أن المعنى أن ظهور الحق تعالى لنا من وراء حجاب المكونات هو الذي أوجب ظهورها، ووقوع الأبصار عليها، ولولا تجليه في هذه المكونات بأن يتجلي التجلي الحقيقي الذي لا خفاء معه لاضمحلت وتلاشت، ولم يقع عليها أبصار، وبدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، وأشار إلى ذلك بقوله: «لو ظهرت صفاته لاضمحلت مكوناته»، بل لم يكن هناك إبصار ولا مبصر كما جاء في الحديث: **«حجابه النور»**[١].

وفي رواية: **«حجابه النار لو كشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه**

---

(١) رواه مسلم (١٧٩).

بصره»[١].

الحكمة الواحدة والخمسون بعد المائة

«أظهر كل شيء؛ لأنه الباطنُ، وطوى وجودَ كل شيء؛ لأنه الظاهرُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أظهر وجود كل شيء لأنه الباطن» أي: إن مقتضى اسم الباطن ألا يشاركه في البطون شيء، فلذا أظهر الأشياء كلها أي: جعلها ظاهرة ولا باطن فيها غيره، «وطوى وجود كل شيء؛ لأنه الظاهر» أي: أن مقتضى اسم الظاهر ألا يشاركه في الظهور شيء، فلذا طوى وجود كل شيء أي: لغيره وجودًا من ذاته، بل المكونات جميعها عدم محض ولا وجود لها إلا من وجوده، وحاصله أن من أسمائه تعالى: الظاهر والباطن، فاسم الظاهر يقتضي بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه، فينطوي حينئذ وجود كل شيء، واسم الباطن يقتضي ظهور كل شيء حتى لا باطن معه، فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء أي: بوجوده، فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار ولا وجود لغيره إلا بطريق الطبع عند أرباب البصائر، بخلاف غيرهم من المحجوبين.

يقول السياجي غفر الله له:

مما ينبغي أن يفهم من استجلاء معنى اسم الظاهر واسم الباطن أن اسم الباطن اسم فاعل للذات الإلهية يدل على أن كل شيء قد أبطنه الله وطوي ظهوره حتى يظهره، وهنا تتجلى معاني اسم الظاهر باعتباره اسم فاعل للذات الإلهية بأنه يتولى إظهار كل شيء ولولا إظهاره للشيء ما ظهر، فهو وحده الظاهر وهو وحده الباطن، وهو وحده الذي يعلم ما يظهر وما يبطن، وهو بكل شيء عليم.

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائة

«أباح لك أن تنظرَ في المكونات، وما أَذنَ لك أن تقفَ مع ذوات المكونات، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] فبقوله: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ فتح لك باب الإفهام ولم يقل: انظروا السماوات لئلا يدلك على وجود الأجرام»[٢]

---

(١) السابق.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما أبرز الله هذه المكونات، وأظهر هذه العوالم ليعرف بها، ويظهر نوره فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إلا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

قال في «لطائف المنن»: فما نصبت الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن =

=

تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها.

فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السموات والأرض من النور اللطيف الذي قامت به الأشياء، وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات، تقف مع القشر وتحجب عن اللب؛ وقد تقدم قوله: الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان محجوبًا، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفًا محبوبًا، ولأجل هذا السر قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس:١٠١] أي: ما فيها من عظمته، ومعاني أسرار ذاته وكمال قدرته وإرادته وسائر صفاته، فقد فتح لك باب الأفهام جمع فهم، أي: فتح لك باب الفهم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب، حتى تعرفه في كل شيء، وتفهم عنه في كل شيء، ولو قال الحق تعالى: قل انظروا السموات لدلك على الأجرام، وسد لك باب الأفهام، وكيف يدلك على الأجرام، وهي أغيار والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار؟ ومثال ذلك في التقريب لو قال لك قائل: انظر هذه الثلجة لدلك على ظاهر جرمها، ولو قال لك: انظر ما في هذه الثلجة لفتح لك باب الفهم إلى نظر ما في باطنها من الماء، وإن الوقوف مع ظاهر جرمها.

واعلم أن الحق سبحانه ندب عباده إلى معرفة ذاته، ودرجهم إليها شيئًا فشيئًا، فمنهم من قصر، ومنهم من وصل، فدرجهم أولًا إلى توحيد الأفعال، وأنه لا فاعل سواه فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [القصص:٦٨]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقال في فعل غير الآدمي: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦]، وفي شأن الطير: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]، أي: في قهر قبضتنا، مقدرة آجالها، مقسومة أرزاقها، معدودة أنفاسها، محفوظة أجسامها، معلومة أماكنها، ظاهرة أشباحها، باطنة أنوارها.

وقال في توحيد الصفات: وأنه لا سميع ولا بصير ولا قدير ولا متكلم إلا الله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]، أي: دون غيره، فلا سمع ولا بصر إلا به سبحانه، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى في توحيد الذّات: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، على تفسير أهل الإشارة وهم أهل الباطن، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:١٠].

وقال في محو الواسطة: ﴿فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨]، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ [عبس:٢٥-٢٦]، ويحتمل أن تكون منها أو من توحيد الأفعال، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

وقد يجمع الحق تعالى في آية واحدة توحيد الصفات، ويرقى إلى توحيد الذات، كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أباح لك» أي: أمرك الله تعالى «أن تنظر في المكونات» وهو جمال الحق سبحانه أي: أن تتصدي بنظرك القلبي حتى تشاهد أنه الموجود في المكونات أي: الظاهر فيها، «وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات»، بأن تحتجب بها عنه فلا تشاهده فيها، ثم استدل على ذلك وبينه بقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فأتي بـ «في» الظرفية المشعرة بأن الاعتبار بالمظروف دون الظرف.

قال في «لطائف المنن»: فما نصب الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها» اهـ.

وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، «فتح لك باب الإفهام» أي: نبهك وأقظك لما هو المطلوب منك، وهو مشاهدة ما فيها كما يفهم من الظرفية، «ولم يقل انظروا السماوات، لئلا يدلك على وجود الأجرام»، فتحتجب بها عنه، ولا تشاهده فيها فتصير مقصدًا مع أنها وسيلة، إذ ليست إلا مرأى ومجالي يتجلى فيها الحق سبحانه لأرباب الشهود، ويستدل بها عليه أرباب الحجاب.

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائة

«الأكوانُ ثابتةٌ بإثباته مَمْحُوَّةٌ بأحديَّة ذاته»[1]

= ثم رقاهم إلى الشهود بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ * أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:٥٣-٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

ثم رقاهم من الغيب إلى الشهادة بقوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٣-١٤]، فتحصل أن الأشياء كلها قائمة بالله أثبتها ليعرف بها، ثم محاها بوحدانيته.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الأكوان هي ما ظهر في عالم الشهادة، أو تقول: ما دخل عالم التكوين، وهي موجودة بوجود الحق، قائمة به ثابتة بإثباته، ليعرف بها، ممحوة بأحدية ذاته لانفراد وجوده، فمن أثبتها لنفسها فقد جهله فيها وحجب بها عن شهود موجدها، ومن أثبتها بالله فقد عرف فيها، وشهد فيها مولاها، فالثبوت للأكوان أمر عرضي، والحق اللازم هو وجود أحدية الحق تعالى، والأحدية مبالغة في الوحدة ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يتمكن أن يكون أشد وأكمل منها، فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد، إذ لو وجدت لم تكن أحدية، ولكان في ذلك متعددًا وأثنينيَّة.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الأكوان» من حيث ذاتها عدم محض، وإنما هي «ثابتة بإثباته» أي: أنها حصل لها وصف الثبوت والتحقق بإثبات الله لها أي: ظهوره فيها، فالثبوت أمر عرضي ولا ثابت حقيقة إلا هو، ولذا قال: «وممحوة بأحدية ذاته» أي: من نظر إلى أحدية ذاته لم يجد للأكوان ثبوتًا وتحققًا حينئذ وإنما لها ثبوت في النظر إلى الواحدية؛ لأن الأحدية عند العارفين هي الذات البحت أي: الخالصة عن الظهور في المظاهر وهي الأكوان، والواحدية هي الذات الظاهرة في الأكوان، فيكون للأكوان حينئذ ثبوت باعتبار ظهور الحق فيها.

ولذا يقولون بلسان الإشارة: الأحدية بحر بلا موج، والواحدية بحر مع موج، فإن الحق سبحانه وتعالى عندهم كالبحر والأكوان كالأمواج التي يحركها ذلك البحر، فهي ليست عينه ولا غيره، هذا توحيد العارفين، وقد كرر ﷺ الكلام عليه في هذا الكتاب، وأبرزه في عبارات مختلفة، محاولة منه أن يحقق عندك الحق ويبطل عندك الباطل، وقد أفرده بعضهم بالتأليف وتكلم عن وحدة الوجود بما لا مزيد عليه.

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائة

«الناسُ يمدحونك لما يظنون فيك فكُنْ أنت ذامًّا لنفسك بما تعلمه منها»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الناس يمدحونك لما يظنون فيك» من الأوصاف الحميدة، «فكن أنت ذامًا لنفسك لما تعلمه منها» أي: فلا تغتر بمدح الناس لك وثنائهم عليك، بل ارجع على نفسك باللوم والذم

=

ولا شك أن العبودية تضاد أوصاف الربوبية على هذا الفرق، وأنت تقول في توحيد الحق: لا ضد له، فقد نقضت كلامك، ولذلك قال: ونفي ضد، فالواو بمعنى مع، وهو داخل في الإنكار، أي: أيوجد رب وعبد مستقل مع نفي الضد للربوبية، والعبودية تضاد أوصاف الربوبية؟ والحق أن الحق تعالى تجلى بمظاهر الجمع في قوالب الفرق، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار قوالب العبودية؛ فلا شيء معه.

وحاصلها: تحويش العباد إلى الله، وتحبيبه إليهم، بذكر ما اشتمل عليه الحق سبحانه من الكرم والإحسان، وغاية اللطف والمبرة والامتنان، وذلك أنه سبحانه منَّ علينا أولًا بالطاعة والعمل، وتفضل علينا ثانيًا بالقبول مع ما اشتمل عليه علمنا من النقص والخلل، ثم إذا وقعت منا معصية أو زلل غطانا بستره وبمغفرته لنا تفضلًا، وإذا توجهنا إليه بقلوبنا سترنا منها وعصمنا ليعظم قدرنا، ويظهر شكرنا، فنتخذه صاحبًا وندع غيره جانبًا، فحينئذٍ تشرق في قلوبنا أنوار اليقين، ونرحل إلى الآخرة في أقرب حين، ثم تشرق علينا أنوار الإحسان، فتنطوي لنا رؤية الأكوان، بشهود نور الملك الديَّان، فحينئذٍ ينشر محاسننا، للعباد فيقبلون علينا بالثناء والمحبة والواداد.

على تلبسها بخلاف ما يظن الناس فيك.

ولذا قال علي -كرم الله وجهه: «**اللهم اجعلنا خيرًا مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون**»[١].

ويؤخذ من قوله: «فكن أنت ذامًا لنفسك لما تعلمه منها»، أنه ليس مأمورًا بتكذيب الناس ولا بالسعي لتبديل ظنهم فيه، وإنما هو مأمور بعدم الاغترار وتقديم علمه على ظنهم، نعم، إن كان المادح كاذبًا في مدحه بارتكاب المبالغة والغلو تأكد تكذيبه وزجره، وعليه يحمل قوله ﷺ: «**احثوا التراب في وجوه المداحين**»[٢].

فمدحه حينئذ منهي عنه، وكذا لو كان مدحه يورث عند الممدوح عزة ويغلطه في نفسه، وعليه يحمل قوله ﷺ لمن مدح عنده رجلًا: «**قطعت عنق صاحبك**»[٣].

وقال: «**وإياكم والمدح، فإنه الذبح**»[٤].

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائة

«المؤمنُ إذا مُدِحَ استحيى من الله أن يُثْنَى عليه بوصفٍ لا يشهدُه من نفسه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«المؤمن» الحقيقي «إذا مدح استحيى من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه» أي: لا يرى ذلك الوصف الذي مدح عليه من نفسه، وإنما يراه منة من الله عليه، فلا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق أن يثنى بها عليه، وإنما يشهد ذلك من ربه، فإذا أثنى عليه الناس، وذكروا محاسنه استحيى من الله استحياء تعظيم وإجلالٍ أن يثنى عليه بصفة ليست فيه، فيزداد بذلك مقتًا لنفسه، واستحقارًا لها، ونفورًا منها، وتقوى عنده رؤية إحسان الله إليه، وشهود فضله في إظهار المحاسن عليه، وهذا هو الشكر الذي به ينال المزيد من سلامة من السكون إلى ثناء العبيد.

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائة

«أجهلُ الناسِ مَنْ تركَ يقينَ ما عنده لظنٍّ ما عندَ الناسِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٢٦٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٢٨).

(٢) رواه مسلم (٣٠٠١).

(٣) رواه البخاري (٢٥١٩)، ومسلم (٣٠٠٠).

(٤) ذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٤٤١).

«أجهل الناس» أي: أشدهم جهلًا، «من ترك يقين ما عنده» أي: اليقين الذي عنده وهو علمه بعيوب نفسه وتقصيره مع ربه «لظن ما عند الناس» أي: لأجل الظن الذي عند الناس، وهو ظنهم لاح حاله حتى مدحوه وأثنوا عليه، فإذا اغتر ذلك الممدوح، واعتقد استحقاقه لما مدح به، واغتر بشهادة الخلق فيه بذلك كان أجهل الناس؛ لأنه ألغى اليقين وقدم الظن عليه، وقدم ما عند غيره على ما عند نفسه.

وقد شبَّه ذلك بعضهم بمن يهزأ بك ويقول لك بأن العذرة التي تخرج منك لها رائحة كرائحة المسك، وأنت ترضى بالسخرية بك وتفرح بذلك، ولا شكَّ أن العيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنت، وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه.

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائة

«إذا أطلقَ الثناءَ عليك، ولستَ بأهلٍ فأثنِ عليه بما هو أهله»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا أطلق الثناء» أي: ألسنة الناس بالثناء «عليك ولست بأهل» أي: والحال أنك لست أهلًا لما يثنون به عليك، إما لعدم وجود ذلك فيك أو لكونك معيبًا بالعيوب الأصلية والعرضية فلا تستحق ثناء لولا فضل الله عليك وستره الجميل، «فاثن عليه بما هو أهله» أي: فالأدب أن تثني على سيدك بما هو أهله ليكون ذلك شكرًا لنعمة ستره عليك، وأنه أطلق الألسنة بمدحك مع عدم أهليتك لذلك، ولا تغتر بأقوال المادحين.

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائة

«الزُّهَّادُ إذا مُدِحُوا انقبضوا لشهودهم الثناءَ من الخلق، والعارفون إذا مُدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحقِّ»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أما العباد والزهاد؛ فلأنهم محجبون برؤية الخلق عن شهود الحق، فإذا مدحوا شهدوا ذلك من الخلق، وحجبوا عن الجمع بالفرق، فانقبضوا وخافوا على نفوسهم أن تغتر بذلك أو تقف هنالك، وهم عاملون على ما تموت به نفوسهم وتُحيي به قلوبهم، ولا شكَّ أن المدح لها فيه حظ وافر، فربما تميل إلى ذلك فتعتقد المزية على الغير، فيوجب لها التكبر والرضا، وهما أصل كل معصية، وأما الذم فلا حظَّ لها فيه، وإنما فيه موتها وفي موتها حياتها، فلذلك إذا مدحوا انقبضوا، وإذا ذموا انبسطوا، وسكت عنه الشيخ، وكأنه يؤخذ بالمفهوم.

وأما العارفون الواصلون؛ فلأنهم فانون عن أنفسهم، باقون بربهم، غائبون عن الخلق بشهود الملك الحق، فإذا أثنى عليهم رأوا ألسنة الخلق أقلام الحق، وشهدوا الجمع في عين الفرق، ففرحوا بمدح مولاهم، وانبسطوا عند من تولاهم، فيزدادون له حبًّا وشوقًا، ويفنون فيه شغفًا وعشقًا، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «إذا مُدِحَ المؤمنُ رَبَا الإيمانُ في قلبه رَبْوَةً»، وإذا ذموا انقبضوا سكونًا تحت قهرية =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الزهاد إذا مدحوا» أي: مدحهم أحد من الناس «انقبضوا لشهودهم الثناء» صادرًا «من الخلق» وغيبتهم عن الرب، وإنما انقبضوا حينئذ خوف الاغترار بذلك الثناء فيفوتهم نصيبهم من ربهم، «والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق»، فهم

=

الحق، وأدبًا مع جلاله، وليسَ في هذا الانقباض دليل على كراهية الذم من حيث نسبته للخلق؛ لأنهم يرون الخلق مصرفين بقدرة الحق، وعلامة ذلك أنهم يسمحون لمن أجرى ذلك عليه، بل يتعطفون عليه ويتوددون بالمحبة إليه.

فأما العوام: فنفوسهم غالبة عليهم، ودائرة الحس محيطة بهم؛ محط نظرهم الخلق، غافلون عن طلب الحق، إذا مدحوا وأقبل عليهم الخلق فرحوا وبطروا لنيل مرادهم وتحصيل أغراضهم، والنفس الأمَّارة مجبولة على حب الإمارة، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق انقبضوا وحزنوا لفوات ما أملوا؛ فهؤلاء قلوبهم خربة من النور.

وأما العباد والزهاد: فهم مجتهدون في العبادة، فارون من الخلق، طالبون رضا الحق، مستوحشون من الناس، تحققوا منهم الإياس، فإذا أقبلوا عليهم بالمدح والثناء انقبضوا وخافوا أن يشغلوا عما هم فيه، وإذا ذُموا وأدبر عنهم الخلق فرحوا وانبسطوا لتفرغهم حينئذٍ للعبادة، وإقبالهم على ما هم عليه من المجاهدة.

وأما المريدون السالكون: فهم عاملون على قتل نفوسهم وحياة قلوبهم، ، فإذا ذموا وأدبر الخلق عنهم فرحوا لما في ذلك من موت نفوسهم وحياة قلوبهم، وإذا مدحوا انقبضوا خوفًا على قوة نفوسهم وضعف قلوبهم، إذ في موت النفس حياة القلوب، وفي حياة القلوب موت النفوس.

وأما العارفون: فقد ظفروا بنفوسهم، ووصلوا إلى شهود معبودهم؛ فهم يستأنسون بكل شيء لمعرفتهم في كل شيء، يأخذون النصيب من كل شيء ويفهمون عن الله في كل شيء، فإذا مدحوا انبسطوا بالله لشهودهم المدح من الله وإلى الله، ولا شيء في الكون سواه، وليس أحد أحب إليه المدح من الله كما في الحديث، وإذا ذموا انقبضوا تأدبًا مع جلال الله أو شفقة على عباد الله: «**من عادى لي وليًّا فقد آذَنْتُهُ بالحربِ**»، فصار بسطهم بالله وقبضهم بالله، واستغنوا به عما سواه، وبهذا المعنى وهو الفناء على النفوس صح مدحهم لأنفسهم، تحدثًا بما أنعم الله عليهم، كالشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ والشاذلي والمرسي والشيخ زروق وأشباههم ﷺ، وذلك مشهور عنهم نظمًا ونثرًا، ومن أجل ذلك أيضًا أقروا من مدحهم، وأظهروا الانبساط عند مدحهم.

قلت: هو محمول على المدح بالكذب على وجه الطمع، كما يقع للملوك وأرباب الأموال طمعًا فيما عندهم، أو يحمل على من كان باقيًا مع نفسه خائفًا عليها كالعباد والزهاد، فإذا مدحهم أحد؛ فينبغي أن يزجروه ويحثوا في وجهه التراب، قيل حقيقة، وقيل: كناية عن الخيبة والرد والنهي والزجر.

وأما العارفون المتحققون: فقد عرفوا الممدوح، وغابوا عن شهود الواسطة في المادح والممدوح -نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم آمين.

حاضرون مع ربهم لا يشاهدون معه غيره، قائلون: «**ألسنة الخلق أقلام الحق**»[١] فإذا مدحوا شهدوا الثناء منه فانبسطوا لذلك، وكان مزيدًا في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم، فلا يحصل عندهم إعجاب ولا اغترار.

وهذا محمل قوله ﷺ: «**إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه**»[٢].

لذا كان يمدح ﷺ شيخه المرسي وهو ساكت، ويقع عنده المدح موقعًا عظيمًا، ولذا وقع لغيره من العارفين، وإذا ذمه أحد لا يجد في نفسه عليه، ولا يؤذيه لعدم وجود المدح أو الذم صادران منه.

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائة

«متى كنتَ إذا أُعْطِيتَ بسطكَ العطاءُ، وإذا مُنعْتَ قبضكَ المنعُ، فاستدلْ بذلك على ثبوتِ طُفُولِيَّتِكَ، وعدمِ صدقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى كنت إذا أعطيت بسطك للعطاء، وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك» أي: تطفلك على أهل الله ولست منهم، بل أنت داخل معهم في أمر لا تستحقه، كما أن الطفيلي يدخل مع الأضياف في ضيافتهم، ولا يستحق الدخول معهم، وهو منسوب لطفيل رجل من أهل الكوفة، كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، وكان يقال له «طفيل الأعراس»، «وعدم صدقك في عبوديتك» لأن القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ، والعمل على نيله، وهو مناقض للعبودية عند العارفين.

فمن وجد ذلك فليعرف عدم صدقه في عبوديته، وأنه طفيلي بين أهل الله في ادعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها، بل الحاصل عنده مجرد دعوى، نعم إن كان قبض خوف من عدم صبره ومقاومته للقهر الإلهي فيحصل عنده بعض ضجر، وكان بسطه لعدم وقوعه في ذلك ففيه اعتناء من الحق به حيث لم يوقعه في أمر يشوش عليه حاله لم يكن دليلًا على ما ذكر؛ لأن العارفين لا بدَّ من بقاء شيء من بشريتهم يتمكنون به من مخالطة الخلق، ومن لازم البشرية ذلك، فالخطاب المذكور مع المريدين.

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٤٤١)، و«كشف الخفاء» (١/ ٢٠٥).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٩٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ١٧٠).

الحكمة الستون بعد المائة

«إذا وقعَ منك ذنبٌ فلا يكن سببًا يؤنسُك من حصولِ الاستقامة مع ربِّك، فقد يكون ذلك آخرَ ذنبٍ قُدر عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا وقع منك ذنب» على حسب مقامك، «فلا يكن سببًا يؤنسك» أي: يقتضي يأسك «من حصول الاستقامة» أي: اعتدال أحوالك مع ربك بأن تعتقد بسبب صدور الذنب منك أن حصول الاستقامة لك مستحيل، فيحملك ذلك على تعاطي غيره من الذنوب، وهذا غلط؛ لأن الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذا جرى عليه القدر بذلك وإنما يناقضها الإصرار عليه والعزم على فعله ثانيًا، فالواجب عليك أن تتوب إلى مولاك وترجع إليه ولا تيأس من رحمته، «فقد يكون آخر ذنب قدر عليك» ويقبل عليك المولى بعد ذلك بتوفيقه وإحسانه.

الحكمة الواحدة والستون بعد المائة

«إذا أردتَ أن ينفتحَ لك بابُ الرجاء فاشهدْ ما منه إليك، وإذا أردتَ أن ينفتحَ لك بابُ الخوف فاشهدْ ما منك إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء» فيه «فاشهد» أي: استحضر في نفسك ما هو واصل «منه إليك» من جلب المنافع ودفع المضار من حين كونك في بطن أمك إلى الوقت الذي أنت فيه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الرجاء فيه، وعدم اليأس من رحمته ولو مع الوقوع في الذنب، «وإذا» غلب عليك الرجاء وخفت أن يوقعك ذلك في مخالفاته، «وأردت أن يفتح لك باب الحزن» ليكفك عن ذلك، «فاشهد» أي: استحضر في نفسك «ما» هو واصل «منك إليه» من المخالفات والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الحزن، فتنكف عن مخالفته، فالرجاء والحزن حالان ينشآن عن المشاهدتين المذكورتين وشبههما بشيء عليه باب مغلق استعارة مكنية، والباب تخيل، والفتح تشبيه وترشيح أو الإضافة للبيان.

الحكمة الثانية والستون بعد المائة

«رُبَّمَا أفادَك في ليلِ القبضِ ما لم تستفدْه في إشراقِ نهارِ البَسطِ، لا تدرون أيُّهم أقربُ لكم نفعًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما أفادك» أيها العارف «في ليل القبض» أي: القبض الشبيه بالليل بجامع السكون في كل «ما لم تستفده» أي: علومًا ومعارف لم تستفدهما «في إشراق نهار البسط» أي: البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار في كل لما تقدم أن من حصل عنده البسط تتهيج نفسه إلى إظهار ما عنده من المعارف وغيرها فربما كان ذلك سببًا لحجبه بخلاف من حصل عنده القبض فإن نفسه تتكسر وتذل فيكون ذلك سببًا في إفاضة الخير عليه.

ولذا كان العارفون يؤثرونه على البسط لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط، وقد يحصل عندهم من جزع وعدم صبر على مقاومة القهر الإلهي بخلاف البسط.

فينبغي للعبد أن يعرف قدر نعمة الله عليه في حال القبض كما يعرفها في حال البسط وأن يكل كل ذلك إلى ربه ويحسن ظنه به؛ فإنه لا يدري أيهما أقرب نفعًا كما قال تعالى: ﴿لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء:١١].

الحكمة الثالثة والستون بعد المائة

«مطالعُ الأنوارِ القلوبُ والأسرارِ»[١]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المطالع جمع مطلع، وهو محل طلوع الشمس وغيرها، والأنوار هنا: الواردات والكشوفات التي تكشف الحجب وترفع رداء الصون عن مظاهر الكون، وقد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر عند كثير من الصوفية شيء واحد، وما هي إلا الروح تتطور بحسب التصفية والترقية، فما دامت مشغولة بحظوظها وشهواتها فهي نفس ونورها مكسوف، فإذا انـزجرت وعقلت بعقال الشرع إلا أنها تميل إلى المعاصي والذنوب، فتارة تعصي وتتوب، وتارة تحن وتؤوب، سُميت عقلًا ونورها قليل، لأنها محبوسة في سجن الأكوان، معقولة بالدليل والبرهان، فإذا سكنت عن المعاصي إلا أنها تنقلب بين الغفلة واليقظة، وبين الاهتمام بالطاعة والمعصية، سميت قلبًا وهو أول مطالع الأنوار، فتشرق عليه أنوار التوجه، فلا تزال تترادف عليه الواردات وهي أنوار التوجه حتى يسكن إلى الله، ويطمئن بذكر الله، فحينئذٍ تسمى روحًا، وهو أول مطالع أنوار المواجهة، فبهذه الأنوار ينكشف الحجاب، وينفتح الباب، وتدخل في حضرة الأحباب، فإذا تصفت من غبش الحس، وتطهرت من كدر الأغيار سميت سرًّا، وهو أول مطالع أنوار المشاهدة، فإذا تزكت من لوث الأنوار، وهو الوقوف مع المقامات، أو الالتفات إلى الكرامات، سميت سر السر، وهو أول مطلع أنوار المعاينة والمكالمة، ثم لا حال ولا مقام: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب:١٣].

وأما الترقي في العلوم والمعارف؛ فلا نهاية له على الأبد، فالقلوب مطالع ومشارق أنوار التوجه، والأسرار مطالع ومشارق أنوار المواجهة والمشاهدة والمعاينة والروح والسر قريب بعضها من بعض في المرتبة، فلذلك سكت الشيخ عن الأرواح لاندراجها في الأسرار.

والحاصل: أن النفوس والعقول الظُّلمة غالبة عليها، لانهماكها في الحس وفنائها في الغلس والخنس، =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«مطالع الأنوار» أي: مواضع طلوع وشروق الأنوار المعنوية وهي نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد «القلوب والأسرار» أي: قلوب العارفين وأسرارهم، فهي كالسماء التي تشرق فيها الكواكب وتطلع فيها، وتقدم أن تلك الأنوار أشد إشراقًا من نور الكواكب.

قال بعضهم: «لو كشف الحق تعالى عن مشرقات قلوب أوليائه لطمس نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوار القلوب؟! فإن ذلك النور يطرأ عليه الكسوف والغروب وأنوار قلوب أهل الله لا كسوف لها ولا غروب».

وقال الشاذلي -قدس الله سره: «لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن الطائع، فمن لطف الله عدم الاطلاع على أنوار العارفين، فقد قال المرسي -قدس سره: لو كشف عن حقيقة الولي لَعُبِد؛ لأن أوصافه من أوصافه، ونعوته من نعوته».

الحكمة الرابعة والستون بعد المائة

«نورٌ مُسْتَوْدَعٌ في القلوب، مددُه النورُ الواردُ من خزائنِ الغُيُوب، نورٌ يكشفُ لك به عن آثاره ونورٌ يكشفُ لك به عن أوصافه»[١]

=

فليستا مطلعًا لشيء من النور لعدم توجههما إلى الكريم الغفور، وأما القلب والروح والسر فهي مطالع الأنوار: أي محل طلوعها وإشراقها إلا أن القلب مطلع لأنوار التوجه، والروح والسر مطلعان لأنوار المواجهة، وقد تقدم تفسيرهما عند قوله: «اهتدى الراحلون... إلخ»، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النور المستودع في القلوب هو نور اليقين، ويكون أولًا ضعيفًا كنور النجوم وهو نور الإسلام، ثم لا يزال يتقوى ويستمد من النور الوارد من خزائن الغيوب، حتى يكون كنور القمر وهو نور الإيمان، ثم لا يزال ينمو بالطاعة والذكر والصحبة حتى يكون كنور الشمس، وهو نور الإحسان، وخزائن الغيوب هي أنوار الصفات وأسرار الذات، فمنها تستمد أنوار الإسلام وأنوار الإيمان، ثم تشرق أنوار الإحسان فيتغطى وجود الأكوان.

واعلم أن وجه اصطلاح الصوفية ﷺ في ترتيب الإسلام أولًا، ثم الإيمان، ثم الإحسان: أن العبد مادام مشغولًا بالعبادة الظاهرة الحسية سمي ذلك المقام مقام الإسلام، فإذا انتقل العمل للقلب، وهو اشتغاله بتصفية القلب، بالتخلية والتحلية، وتحقيق الإخلاص سمي ذلك مقام الإيمان، فإذا انتقل العمل للروح وللسر، وهو الفكرة والنظرة سمي مقام الإحسان، بخلاف الفقهاء؛ فإنهم يقدمون الإيمان على الإسلام، فيقولون لا يصح شيء دون الإيمان، ولا مشاحة في الاصطلاح: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠].

قال بعض المحققين: اعلم أن لعالم الملك، وهو عالم الشهادة أنوار ظاهرة، ولعالم الملكوت، وهو عالم

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«نور مستودع في القلوب»، وهو نور اليقين المودع في قلوب العارفين، «مدده» أي: يمتد ويتزايد ضياؤه «من النور الوارد من خزائن الغيوب»، وهو نور الأوصاف الأزلية، فإذا تجلى الله عليهم بأوصافه تزايد ذلك النور الحاصل في قلوبهم، وذلك دليل على عناية الله بهم.

قال في «لطائف المنن»: «واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا تولى وليًّا صانه من الأغيار حرسه بدوام الأنوار، وأشار إلى أن النور المستودع في القلب على قسمين بقوله: «نور يكشف لك به عن آثاره»أي: عن أحوال المكونات فتطلع على أحوال العباد وعلى ما فوق السماء وتحت الأرض، وهذا يسمى كشفًا صوريًا وهو ليس معتنى به عند المحققين.

«ونور يكشف لك به عن أوصافه» أي: أوصاف جلاله وجماله وذلك النور لا يحصل إلا من تجلي تلك الأوصاف عليه، وهذا يسمى كشفًا معنويًا، وهو المعتد به عندهم، ولم يقل: «ونور يكشف لك به عن ذاته»؛ لأن تجلي الذات البحت الخالية عن الصفات مختلف فيه عندهم، فبعضهم نفاه وبعضهم أثبته، ويسميه الشيخ محيي الدين بالبوارق، لكونه يطرأ ويزول سريعًا؛ لأن القدرة البشرية لا تطيق دوامه.

الحكمة الخامسة والستون بعد المائة

«رُبَّمَا وقفتِ القلوبُ مع الأنوارِ كما حُجبتِ النفوسُ بكثائفِ الأغيار»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما وقفت القلوب مع الأنوار» أي: فتحتجب بها وتعطل عن السير إلى الله تعالى، «كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار» أي: بكثائف هي الأغيار أي: الشهوات واللذات التي هي غير المولى سبحانه وتعالى، فالحجاب عن المولى قسمان: نوراني، وهي العلوم والمعارف إذا وقفت القلوب معها، وركنت إليها وجعلتها غاية مقصدها، وظلماني؛ وهو شهوات النفوس وعاداتها، ووصفها بالكثافة؛ لأنه لا تزول إلا بمعاناة ومشقة.

= الغيب أنوار باطنة، وأشهر ما في عالم الملك ثلاثة أنوار: نور الشمس، ونور القمر، ونور النجوم، ويقابلها من عالم الملكوت: نور المعرفة، ونور الفهم، ونور العلم، فبطلوع نجم العلم في ليل الجهل تبدوا الآخرة والأمور الغيبية، وبطلوع قمر الفهم في أفق التوحيد يشاهد قرب الحق، وبطلوع شمس المعرفة في أفق التفريد يقوى اليقين، ويلوح وجه المشاهدة، وأول نور يلج في الصدر نور الإسلام، فإذا انشرح القلب به انقذف فيه نور الإيمان، فإذا تقوى فيه صار شهودًا انتهى.

الحكمة السادسة والستون بعد المائة

«سَتَرَ أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تُبتذلَ بوجود الإظهار، أن يُنادى عليها بلسان الاشتهار»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ستر أنوار السرائر» أي: أنوار قلوب أوليائه، «بكشف الظواهر» أي: بالأحوال التي يتلبسوا بها في ظواهرهم ويتعاطونها من الصنائع وغيرها، فإن تلك الأحوال كثائف أي: حاجبة لغيرهم عن الاطلاع على أنوار قلوبهم، وإنما ستر تلك الأنوار مع أن الظهور التام لا ينبغي أن يكون إلا لها، «إجلالًا لها أن تبتذل بوجود الإظهار، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار» أي: لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر فأجلها عن الابتذال لها بوجود إظهارها، وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار فيكون ذلك نوعًا من الإهانة بها.

وقد تقدم هذا في قوله سبحانه: «من ستر سر الخصوصية... إلخ» لكن أعاد ذلك هنا لأجل التعليل المذكور، وأيضًا سترها رحمة من الله بالمؤمنين إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقًا لا يقدر على القيام بها، فإذا قصر وقع في المحذور.

الحكمة السابعة والستون بعد المائة

«سُبْحَانَ من لم يجعلِ الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليل عليه، ولم يوصلْهم إليهم إلا من أراد أن يوصلَه إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«سبحان من لم يجعل الدليل» أي: الاهتداء والوصول والاستدلال «على أوليائه إلا من حيث» أي: من جهة «الدليل عليه» أي: أنه مماثل لذلك، فكما أن الله محتجب لا أكوان عن المخلوقين فاهتداؤهم إليه ووصولهم إلى معرفته أمر عسير يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة ويشكره عليها كذلك الولي مستتر بكثائف الظواهر من الصنائع الخسيسة، وما يتعاطاه من مأكول ومشروب وغيره، فيكون الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته أمرًا عسيرًا يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها.

والحاصل: أن الوصول إلى معرفة الله الخاصة عناية من الله تعالى لا بطلب ولا بسبب، وكذلك الولي بل معرفته أصعب من معرفة الله؛ لأنه تعالى معروف بكماله وجماله، والولي مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب، «فإذا» أراد الله تعالى أن يعرفك بولي من أوليائه

لتنتفع به طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته، «ولم يوصل إليهم» أي: يعرف بهم ويجمع عليهم «إلا من أراد أن يوصله إليه» وذلك لأنهم أحبابه فيغار عليهم أن يجمع عليهم غير أحبابه، وهذا لبعض الأولياء وهم المسلكون فمن أراد أن يوصله إليه جمعه عليهم على وجه الصحبة الخاصة وهم قسمان: قسم يظهر للعامة والخاصة، وقسم لا يظهر إلا للخاصة، وهناك عباد لا يظهر عليهم أحدًا من خلقه حتى الحفظة، ويتولى قبض أرواحهم بيده، ولا يسلط التراب على أبدانهم.

الحكمة الثامنة والستون بعد المائة

«رُبَّمَا أطلعكَ على غيبِ مَلَكُوته وحجبَ عنك الاستشرافَ على أسرارِ العباد، فكان اطِّلاعُه فتنةً عليه وسببًا يجر الوَبَال عليه»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الملكوت مبالغة في الملك، هذا باعتبار اللغة، وأما باعتبار اصطلاح الصوفية فالعوالم ثلاثة: مُلك وملكوت وجبروت: فالملك ما يدرك بالحس والوهم، والملكوت ما يدرك بالعلم والفهم، والجبروت ما يدرك بالبصيرة والمعرفة، وهذه العوالم محلها واحد، وهو الوجود الأصلي والفرعي، وإنما تختلف التسمية باختلاف النظرة، وتختلف النظرة باختلاف الترقي في المعرفة، فالوجود عند المحققين من العارفين: واحد قسم لطيف غيب لم يدخل عالم التكوين، وقسم كثيف دخل عالم التكوين، فالأول يسمى عالم الغيب، والثاني عالم الشهادة، وما كان خفيًّا في عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة، فمن نظر إلى حس الأشياء الظاهر سماه ملكًا، ويسمى أيضًا عالم الحكمة وعالم الأشباح، ومن نظر إلى أسرار المعاني القائمة بالأواني، وهي أسرار الذات القائمة بأنوار الصفات سماه ملكوتًا، ومن نظر إلى الأسرار الأزلية التي كانت حال الكنـزية التي لم تدخل عالم التكوين سماه جبروتًا.

أو تقول: ومن نظر إلى الكثيف الذي دخل التكوين، ورآه مشتغلًا بنفسه قائمًا بقدرة الله سمي في حقه ملكًا، وهو لأهل الحجاب من أهل الفرق، ومن رآه نورًا فائضًا من النور اللطيف متصلًا به إلا أنه تكثف بالقدرة، وتستر بالحكمة سماه ملكوتًا، وسمي اللطيف الباقي على أصله الذي لم يدخل عالم التكوين، الذي هو أول كل شيء وآخر كل شيء ومحيطًا بكل شيء جبروتًا؛ فإن ضم الفرع إلى أصله، والكثيف إلى اللطيف سُمي الجميع جبروتًا، وهذه المعاني لا يفهمها إلا أهل الأذواق بصحبة أهل الأذواق، وحسب من لم يبلغ لهذا المقام التسليم، وإلا وقع في الإنكار على أولياء الله بما لم يحط به علمًا.

ولنرجع إلى كلام الشيخ ﷺ فنقول: ربما كشف الله عنك الحجاب، وترقيت إلى الدخول مع الأحباب، فأخرجك من سجن رؤية الأكوان إلى شهود المكون، ومن علم الأشباح إلى عالم الأرواح، فأطلعك على غيب ملكوته، فأبصرت الكون كله نورًا فائضًا من بحر الجبروت، فألحقته بأصله، وفنيت عن شهود الملك الذي هو عالم الفرق بشهود الملكوت.

وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد رحمة بك، لأنك قد تحجب بذلك عن شهود الملكوت؛ فلا عبرة عند المحققين بمكاشفة أسرار العباد، فقد تكون عقوبة في حق صاحبها كما يأتي، وقد يكون ذلك لمن لا استقامة له أصلًا كالكهان والسحرة وغيرهم.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما أطلعك على غيب ملكوته» أي: ملكوته الغائب عنك كالذي فوق السماء وتحت الأرض، «وحجب عنك الاستشراف» أي: الاطلاع «على أسرار العباد» أي: ما في قلوبهم من خير أو شر، وذلك من لطف الله بك؛ لأن من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية بأن يستر على المذنبين، ويحلم على الظالمين، ويصلح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، ويرأف بعباد الله أجمعين.

فمن لم يتصف بذلك «كان اطلاعه فتنة عليه»؛ لأن ذلك يؤدي به إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها، والعجب بما عمله والتكبر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة، وكان أيضًا «سببًا يجر الوبال عليه» من ادعائه لصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته، وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزي والنكال.

روي أن إبراهيم عليه السلام لما أراه الله ملكوت السماوات والأرض أشرف على رجل في معصية من معاصي الله تعالى، فدعا عليه، فهلك، وكذلك آخر وآخر، فهلكوا، فأوحى الله تعالى إليه أن: «يا إبراهيم! إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا تدع على عبادي؛ فإنهم مني على ثلاث خصال، إما أن يتوب العبد منهم إليَّ فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لي، وإما أن يبعث إليَّ شيئًا؛ فإن شئت عفوت عنه، وإن شئت عاقبته»[1].

وقيل: إن هذا سبب لأمر الله له بذبح ولده؛ لأنه تعالى رحيم بعباده كشفقته على ولده، والحاصل أن المكاشفة نعمة من الله على المريد، وشكرها الستر والصفح.

الحكمة التاسعة والستون بعد المائة

«حظُّ النفسِ في المعصيةِ ظاهرٌ جَلِيٌّ، وحظُّها في الطاعةِ باطنٌ خَفِيٌّ، ومُداواةُ ما خَفِيَ صعبٌ علاجُه»[2]

= والغالب أن أهل شهود الملكوت يحجبون عن مكاشفة أسرار العباد، لاشتغالهم بما هو أعظم وأحظى عند الله، وإنما تكون هذه المكاشفات عند العباد والزهاد وأهل الرياضيات والمجاهدات، ولا تنكر أن تكون عند العارفين، فقد تجتمع لهم المكاشفة والكشف: أي مكاشفة أسرار العباد، وكشف الحجاب عن الفؤاد، إلا أن الغالب هو استغراق الروح في شهود نور الملكوت، دون الاستشراف إلى أسرار العباد، التي هي من عالم الملك.

(١) ذكره ابن غزوان الضبي في «كتاب الدعاء» (ص٣٢٨).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: حظ النفس في المعصية هي متعة البشرية الظاهرة، كلذة الأكل والشرب والنكاح وسماع اللهو، وغير ذلك مما هو من أذواق الحس التي هي محرمة، وحظها في الطاعة هو طلب =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«حظ النفس في المعصية» كالزنا «ظاهر جلي»، وهو التذاذة بها، فإنها لا تطلب منك التلبس بالمعصية إلا لأجل أن تلتذ بها فيحصل لك الوبال والنكال، «وحظها في الطاعة باطن خفي»، لا يطلع عليه إلا أرباب البصائر، وذلك لأن في الطاعة مشقة عليها، فإذا أمرتك بها لم تعلم حظها فيها إلا بعد تفتيش، فقد تربك أن حظها فيها التقرب إلى الله تعالى وفي الباطن ليس لها حظ إلا إقبال الناس عليك واشتهارك بينهم بالصلاح، ومن حاسب نفسه وراقب

=

الكرامات، وخوارق العادات والاطلاع على المغيبات، وكحب الخصوصية والمنزلة عند الناس، ومداواة هذا المرض الخفي أصعب من مداوة الأول الجلي؛ لأن مداواة المرض الحسي الخفي أصعب من مداواة الجلي، فكذلك المعنوي الباطني ما كان جليًّا متعلقًا بالنفس أصعب، مما كان خفيًّا متعلقًا بالروح.

فالأول يمكن دواؤه بالعزلة والفرار من مواطن الأشرار وبصحبة الأخيار وبكثرة الطاعة والأذكار، بخلاف الثاني، فلا تزيده الطاعة إلا كثرة وقوة، إذ بها صارت تطلب حظها، فلا يداويها من هذا إلا خوف مزعج أو شوق مقلق، أو ولي عارف محقق يصحبه بالمحبة والتصديق.

قال بعضهم: من عسرت عليه نفسه، فليسلمها إلى شيخ التربية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق:٦]، وإن عسرت عليكم أنفسكم فسترضع له نفسه نفس أخرى حتى يكمل أوان فطامها، فإن لم يكن واحد من هذه مات وهو سقيم، ولم يلق الله بقلب سليم، فالواجب على العبد اتهام نفسه ومراقبة قلبه، فلذا استحلت النفس شيئًا من الطاعات، وألفته أخرجها إلى غيرها، ولو كانت مفضولة في ظاهر أمرها.

وقال الشيخ أحمد بن أرقم ﷺ: حدثتني نفسي بالخروج إلى الغزو، فقلت: سبحان الله إن الله تعالى، يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وهذه تأمرني بالخير لا يكون هذا أبدًا، ولكنها استوحشت تريد لقاء الناس فتستروح إليهم، ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم، فقلت لها: لا أسلك العمران ولا أنـزل على معرفة، فأجابت، فأسأت ظني بها، وقلت: الله أصدق قولًا، فقلت لها: أقاتل العدو حاسرًا بالرأي من غير وقاية فتكوني أول قتيل؟ فأجابت، ثم عد أشياء كلها أجابت لها، فقلت: يا رب نبهني بها فإني لها متهم، ولو قولك مصدق، فألهمت كأنها تقول: إنك تقتلني كل يوم مرات بمخالفتك إياي ومنع شهواتي، ولا يشعر بي أحد، فإن قاتلت وقوتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك، ويتسامع الناس فيقولوا استشهد أحمد، فيكون شرفًا وذكرًا في الناس لي، فقعدت ولم أخرج ذلك العام انتهى.

وقال الجنيد ﷺ: ضاقت علي نفسي ليلة حتى لم أطق الصبر، فخرجت ذاهبًا على وجهي، فانتهيت إلى رجل مطروح في المقابر مغطى الرأس، فلما أحس بي قال أبو القاسم، قلت: نعم، قال: متى يصير داء النفس دواؤها؟ فقلت: إذا خالفت هواها صار داؤها دواؤها، فقال لنفسه: اسمعي، فقد أجبتك بهذا مرارًا، وأنتِ تقولين حتى أسمع ذلك من الجنيد، قال الجنيد: فانصرفت وما عرفته انتهى.

خاطره تبين له مصداق هذا، «ومداواة ما يخفي» أي: زوال حظوظها الخفية «صعب علاجه»؛ لأنه يحتاج إلى دقة وفهم ونفوذ وإدراك.

فأهل البصائر يتهمون نفوسهم إذا مالت إلى عبادة من العبادات ويفتشون عن سبب ميلها إليها، فإن كالحظ من حظوظها تركوها أو عالجوا نفوسهم في حال فعلها حتى تكون خالصة لله تعالى كما وقع لبعضهم أنه حدثته نفسه بالخروج إلى الغزو، وأظهرت له أن ذلك لله تعالى، ففتش فإذا هو لتستريح من تعب المجاهدة، فإنه كل يوم يقتلها مرات كثيرة يمنعها من شهواتها، فأرادت أن تقتل مرة واحدة فتستريح، وأيضًا لأجل أن تتشايع الناس بأنه استشهد فيكون شرفًا له وذكرًا في الناس، فترك الخروج إلى الغزو، وقد يجد الشخص من النشاط واللذة من نوع العبادات ما لا يجده في نوع آخر، وما ذلك إلا لأجل أن حظها فيه أكثر من الآخر، فإذا كان من أهل البصائر انتقل عما مالت إليه نفسه إلى غيره، فإن طاوعته لم يكن لها في الاشتغال في ذلك النوع حظ وإلا لكان لأجل حظها.

يقول السياجي يغفر الله له:

إن صدق المثال الثاني في حظ النفس من عبادة فوق عبادة، فربما يصح ذلك في نوع من المجاهدة في النوافل غير الراقية، والعبادات التطوعية من قيام أو صيام أو ذكر، لكن المثال الأول وهو الغزو حظ النفس فيه من تهرب عن مجاهداتها وقتل شهواتها إلى قتل لها دفعة واحدة، ثم الشهرة بين الناس بشرف الذكر وحسن الأداء فتركن النفس لذلك فتترك الغزو خشية هذه الأمور، وتقعد عن الخروج في سبيل الله فهذا أمر يحتاج إلى مراجعة، فالجهاد في سبيل الله متى قدر العبد عليه فرض عين وليس من قبيل التطوع الذي يفعل أو لا يفعل، وأنه فيه على الخيار.

أما بالنسبة للوقوف من النفس موقف الرفض لنـزواتها وشهواتها فيمكن أن يخرج إلى الجهاد والغزو، وفي نفس الوقت يواظب على مجاهداته لنفسه؛ فمن ذا الذي يخرج للموت في سبيل الله وبه تعلق بهوى أو شهوة من حجب الدنيا وكثائف الأنفس.

الحكمة السبعون بعد المائة

«رُبَّمَا دخلَ الرياءُ عليكَ من حيثُ لا ينظرُ الخلقُ إليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما دخل عليك الرياء من حيث لا ينظر الخلق إليك» أي: وأنت في مكان لا ينظر الناس إليك فيه، يعني: إن الرياء كما يدخل في العمل إذا عمله صاحبه عند الناس ويسمى

الرياء الجلي، يدخل فيه إذا عمله وحده بأن يقصد به توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المحافل ومسارعتهم في قضاء حوائجه، فإذا قصر أحدهم في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره وربما توعد من قصر في حقه بمعاجلة الله له بالعقوبة، وأن الله يأخذ بثأره منه، فإذا وجد العبد هذه الأمارة في نفسه فليعلم أنه مرائي بعمله وإن أخفاه عن الناس، ويسمى هذا الرياء الخفي.

ولا يسلم من الرياء الجلي والخفي إلا العارفون الموحدون؛ لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك، وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس، ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو المرائي بعمله، وإن عبد الله في جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به.

الحكمة الواحدة والسبعون بعد المائة

«استشرافُك أن يعلمَ الخلقُ بخصوصِيَّتِكَ دليلٌ على عدمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«استشرافك» أيها المريد أي:ميلك ومحبتك إلى «أن يعلم الخالق بخصوصيتك» أي: بما خصك الحق به من علم نافع أو عمل صالح أو أحوال باطنية، «دليل على عدم صدقك في عبوديتك»؛ لأن الصدق في العبودية هو طرح الأخيار وعدم الالتفات إليها رأسًا، فلو كنت صادقًا في عبودية الرب لقنعت بعلمه بكلم تحب أن يعلمك غيره فتغار على حالك من رؤية الأغيار له.

قال بعضهم: «من أحب أن يطلع الناس على عمله؛ فهو مرائي، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله؛ فهو كذاب»، هذا في بداية السلوك؛ فإن تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوجدانية الصرفة فلا بأس به بالإخبار بأعماله، والإظهار لمحاسن أحواله، ليؤدي حق شكرها وليقتدي به غيره، فمبنى أهل الطريق في البداية على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال تحقيقًا لفنائهم، وتثبيتًا لزهدهم، وعملًا على سلامة قلوبهم، وحبًّا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، ولم تتعلق إرادتهم بظهور ولا خفاء، بل يردون الأمر إليه في ذلك.

الحكمة الثانية والسبعون بعد المائة

«غيِّبْ نظرَ الخلقِ إليك بنظر الله إليك، وغيب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«غيب نظر الخلق إليك» أي: لا تلتفت إلى نظرهم إليك ولا تطلبه ولا تخطره ببالك بل اجعله غائبًا عنك، «ينظر الله إليك»، فلا يكن التفاتك وتشوقك إلا لنظر الله إليك، وكذا يقال في قوله: «وغيب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك»، فلا تلتفت إلى إقبالهم عليك ولا تطلبه، بل لا يكون التفاتك وطلبك إلا لإقبال الله عليك، فإن إقبال الخلق على المريد قبل كماله يوجب له التصنع لهم ومداهمتهم وغير ذلك من الآفات.

وذلك يوجب انحطاط رتبته وسقوطه من عين الحق والعياذ بالله تعالى، فلا يرضى بإقبالهم إلا ذو عقل قاصر وهمة دنيئة؛ لأن رضى الناس غاية لا تدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك، وأما من كان له عقل وافر فلا يمل إلا لإقبال الله من غير مبالاة بذم ذام، ولا عيب معيب.

قال بعضهم: «الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب أن يطلع الناس على مثقال ذرة من صلاح عمله، ولا يكره أن يطلعوا على السيئ من عمله؛ فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من إخلاص الصادقين».

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المائة

«من عَرَفَ الحقَّ شَهِدَهُ في كُلِّ شيءٍ ومن فَنِيَ به غاب عن كل شيءٍ ومن أحبَّه لم يُؤْثِرْ عليه شيئًا»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: معرفة الحق هي شهود ربوبيته في مظاهر عبوديته، أو تقول: هي الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية، أو تقول: هي الترقي من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، فيكون جسمك مع الأشباح وروحك مع الأرواح.

والفناء: هو أن تبدوا لك العظمة، فتنسيك كل شيء، وتغيبك عن كل شيء، سوى الواحد الذي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وليس معه شيء.

أو تقول: هو شهود حق بلا خلق، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق، والمحبة أخذ الحق قلب من أحب من عباده، فلا يكون له عن نفسه أخبار، ولا مع غير محبوبه قرار، وقيل غير ذلك، فمن عرف الحق شهده في كل شيء، ولم يرى معه شيئًا، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من عرف الحق» أي: من تحقق في مقام المعرفة بالله، «شهده في كل شيء» أي: رآه ظاهرًا في أعيان الموجودات فلا يستوحش من شيء، ويأنس به كل شيء كما تقدم في نعت العارفين، «ومن فني به» أي: تحقق في مقام الفناء، «غاب عن كل شيء»، فلا يرى ظاهرًا في الوجود إلا الله ويغيب هو عن نفسه وحسه فلا يشاهد له وجودًا وتحققًا بخلاف العارف، فإنه متحقق في مقام البقاء، فيرى الخلق والحق ظاهرًا في كل الأشياء وقائمًا بها مع عدم غيبته عن نفسه وحسه، «ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئًا» أي: من إرادته وشهواته، فهذه علامات يعرف بها حال من ادعى بلوغ هذه المقامات.

الحكمة الرابعة والسبعون بعد المائة

«إِنَّمَا حجبَ الحقَّ عنك شدةُ قربه منك وإنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظيم نوره»[1]

=

ومن شهود عالم الملك إلى شهود فضاء الملكوت، ومن فني به، وانجذب إلى حضرته غاب في شهود نوره عن كل شيء، ولم يثبت مع الله شيئًا.

والفرق بين الفاني والعارف أن العارف يثبت الأشياء بالله، والفاني لا يثبت شيئًا سوى الله، العارف يقرر القدرة والحكمة، والفاني لا يرى إلا القدرة.

العارف يرى الحق في الخلق، كقول بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه، والفاني لا يرى إلا الحق، يقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله، العارف في مقام البقاء، والفاني مجذوب في مقام الفناء، الفاني سائر، والعارف متمكن واصل، ومن أحب الله لم يؤثر عليه شيئًا من حظوظه، وهوى نفسه، ولو كان فيه حتف أنفه.

والكلام في المحبة طويل، ذكر الشيخ في «لطائف المنن» منه جملة صالحة، وكلام الشيخ ﷺ من باب التدلي، فالمعرفة أعلى المقامات وقبلها الفناء، وقيل للفناء المحبة، أي: أولها، فأول ما يقذف الله في قلب عبده الذي يريد أن يصطفيه لحضرته ويعرفه به محبته، فلا يزال يلهج بذكره، ويتعب جوارحه في خدمته، ويتعطش إلى معرفته، فلم يزل يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه الحق، فإذا أحبه أفناه عن نفسه وغيبه عن حسه فكان سمعه، وبصره ويده وجملته، ثم رده إليه وإبقاه به، فعرفه في كل شيء، ورآه قائمًا بكل شيء، ظاهرًا في كل شيء، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ذكر في حكمة خفائه تعالى مع شدة ظهوره ثلاث حكم:

الحكمة الأولى: شدة القرب، ولا شكَّ أن شدة القرب توجب الخفاء كسواد العين من الإنسان، فإن الإنسان لا يدرك سواد عينه لشدة قربه منه، والله تعالى أقرب إليك من كل شيء قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فشدة قربه منك موجب لاضمحلالك.

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إنما حجب الحق» أي: الله «عنك لشدة ظهوره»، ولأن الحجاب كما يكون بشدة البعد يكون بشدة القرب، فإن اليد إذا قربت من البصر والتصقت به لم يرها بخلاف ما إذا كانت بعيدة عنه، وكذلك الرب لم نره لإحاطته بنا إحاطة تامة، وقربه منا قربًا معنويًا، ولا يدرك ذلك إلا أرباب البصائر الذين تجلى الحق عن بصائرهم، فأزال عنهم الحجاب حتى رأته قائمًا بالأشياء ومحيطًا بها، وإنما «خفي عن الأبصار» فلم تدركه في الدنيا «لعظمة نوره»، وذلك كالشمس، فإن نورها أقوى من سائر الأنوار المحروسة، وقوة نورها هو الذي حجب الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها، فقد صار ظهورها الذي أوجبه وجود نولاها حجابًا لها، وليس الحجاب منها على الحقيقة؛ فإن الظاهر لذاته لا يحتجب من ذاته، وإنما يطرأ الحجاب عليه من غيره، وهو هنا ضعيف البصر عن مقاومة فيضان النور، وهذا لازم لما قبله.

=

الحكمة الثالثة: شدة نوره، ولا شكَّ أن شدة النور موجب لعدم الإدراك؛ فإن البصر لا يقاوم النور الباهر، وفي حديث مسلم في قصة الإسراء: «قلنا: يا رسول الله! هل رأيت ربك؟ **قال: نورٌ أنى أراه؟**»، بلفظ الاستفهام، أي: غلبني النور كيف أراه، وفي رواية: «**رأيت نورًا**»، فيحمل على أنه أول مرة رأى نورًا، ثم لم يطق مشاهدته بالبصر مع تحقق شهوده بالبصيرة، وانظر أيضًا البرق الخاطف، فإن البصر لا يطيق رؤيته.

وهذا النور الذي نتكلم فيه ليس هو حسيًّا، وإنما هو ما يبدو من معاني الصفات والأسماء التي تخرج من ظلمة الجهل إلى معرفة أسمائه وصفاته، قاله الشيخ زروق ﷺ.

وحاصلها ثلاثة أمور:

الأول: تلازم الدلالة على أولياء الله للدلالة على الله، بحيث لاينفك أحدهما عن الآخر في الغالب.

الثاني: تفسير أسرار الولاية، وهي الاطلاع على أسرار غيب الملكوت دون اشتراط الاطلاع على أسرار العباد؛ لأن ذلك قد يكون فتنة في حقه، وسببًا في عقوبته إذا لم يتمكن من معرفته مع ما فيه من حظِّ النفس، فربما تقصده بطاعتها، فيكون رياء في حقها، وهو من الأمراض الباطنية التي يصعب علاجها كالاستشراف إلى اطلاع الناس على خصوصيته، ودواؤه الغيبة عنهم، والاكتفاء بنظر الله عن نظر غيره.

الثالث: علامة وجود هذه الأسرار في العارف، وهي شهود الحق في كل شيء، وفناؤه عن كل شيء، وإيثار محبته على كل شيء، فإن قلت: كيف يشهد وهو غيب؟ قلت: بل هو ظاهر في كل شيء، وإنما حجبه شدة قربه، وشدة ظهوره، وعظيم نوره، وإذا علمت أنه قريب، وأنه أقرب إليك من روحك وقلبك اكتفيت بنظره، واستغنيت بعلمه عن طلبه، فإن كان ولا بُدَّ من الدعاء، فليكن عبودية ومناجاة وتملقًا لا سببًا للعطاء.

الحكمة الخامسة والسبعون بعد المائة

«لا يكنْ طلبُكَ سببًا إلى العطاء منه فَيقِلّ فهمُك عنه، وليكنْ طلبُك لإظهارِ العُبُوديَّةِ وقيامًا بحقوقِ الربوبيَّةِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا يكن طلبك تسببًا إلى العطاء منه» أي: لا تقصد بطلبك أي: توجهك له بالدعاء والأعمال الصالحة حصول النوال منه، وتعتقد أنه سبب مؤثر ذلك، «فيقل فهمك عنه» أي: عن الله فلا تفهم السر والحكمة في أمر الله عباده بالطلب، وهو ما ذكره بقوله، «وليكن طلبك لإظهار العبودية» أي: لإظهار كونك عبدًا ذليلًا ضعيفًا لا غنى لك عن سيدك، «وقيامًا بحق الربوبية»، فإن الربوبية تقتضي التذلل والخضوع من المربوب.

يعني: أن الله تعالى لم يأمر عباده بالطلب منه إلا ليظهر افتقارهم إليه وتذللهم بين يديه، لا لأن يتسببوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوا فيه، هذا هو فهم العارفين عن الله، ومَن هذا حاله لا ينقطع سؤاله ولا رغبته وإن أعطاه كل مطلب وأناله كل سؤال ومأرب، وألا يفرق بين العطاء والمنع فيكون عبدًا لله في الأحوال كلها، كما أنه ربه في الأحوال كلها، وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه.

الحكمة السادسة والسبعون بعد المائة

«كيفَ يكون طلبُكَ اللاحقُ سببًا في عطائه السابق جَلَّ حكمُ الأزلِ أنْ يُضَافَ إلى العِلَلِ، عنايتُهُ فيك لا لشيءٍ منك، وأينَ كُنْتَ حين واجهتــك عنايتُهُ وقابلتك رعايتُه؟ لم يكن في أزلهِ إخلاصُ أعمالٍ، ولا وجودُ أحوالٍ بل لم يكن هناك إلا محضُ الإفضالِ، ووجودُ النَّوَالِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يكون طلبك اللاحق» أي: الموجود فيما لا يزال «سببًا في عطائه» أي: إعطائه «السابق» أي: الموجود في الأزل، فإن الإعطاء وهو تعلق الإرادة في الأزل تعلقًا تنجيزيًا قديمًا لا يكون الطلب سببًا فيه لتأخره عنه، والسبب لا بدَّ من تقدمه على المسبب.

ولذا قال: «جل حكم الأزل» أي: ما حكم به في الأول، وعلقت إرادته وهو الإعطاء، «أن يضاف إلى العلل» أي: ينسب لعلة، وهو الطلب أي: أن يكون سببًا مؤثرًا فيه إن قيل: قد يكون ذلك الإعطاء معلقًا على الطلب فيكون سببًا فيه.

أجيب بأن السبب في الحقيقة هو تعلق إرادة الله في الأزل، أنك تدعوه فيما لا يزال، لا نفس الطلب المتأخر، «عنايته فيك» أي: إعطاؤه إياك ما تطلبه أي: تعلق إرادته في الأزل

بالإعطاء، «لا لشيء منك» أي: وقع منك اقتضى حصول العناية كالدعاء والأعمال الصالحة، «وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته»، وهي بمعنى العناية أي: أنك كنت معدومًا في الأزل، ويلزم من ذلك عدم ما يصدر منك، «لم يكن في أزله إخلاص أعمال» أي: أعمال خالصة كالدعاء والصلاة والصوم، «ولا وجود أحوال»، مرادف لما قبله، «بل لم يكن هناك إلا» محض «الأفضال وعظيم النوال»، مرادف لما قبله، فالدعاء ليس سببًا مؤثرًا في المطلوب، والأعمال الصالحة ليست سببًا مؤثرًا في عناية الله، أي: دخول الجنة والنجاة من النار.

الحكمة السابعة والسبعون بعد المائة

«عَلِمَ أن العبادَ يتشوَّفُون إلى ظهورِ سرِّ العنايةِ، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] ، وعَلِمَ أنه لو خلاهم، وذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزلِ؛ فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] »[١]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لما أخبر الله سبحانه في كتبه على ألسنة رسله أن المدار إنما هو على السابقة، فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية، تشوق الخلق كلهم إلى ظهور سر هذه العناية، فكل واحد يظن أنه من أهلها، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم، فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل، لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض، فربما يتركون العمل، ويعتمدون على سابق الأزل، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله، ومختص به فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، فالرحمة هنا هي العناية السابقة، وهي قريبة من المحسنين الذين أحسنوا عبادة ربهم، وأحسنوا إلى عباد ربهم.

فتحصل أن سر العناية إنما تظهر على المحسنين المتقنين لأعمالهم المخلصين في عبودية ربهم، فمن استند إلى الحكم السابق وترك العمل فهو مغرور أو مطرود لإبطاله الحكمة، ومن استند إلى العمل دون النظر للقدرة والمشيئة السابقة فهو جاهل بعيد عن الحضرة غافل، ومن جمع بينهما فهو محقق كامل، وسر العناية إليه إن شاء الله واصل.

وقال بعضهم: ليس كل من طلب نال، ولا كل من نال وصل، ولا كل من وصل أدرك، ولا كل من أدرك وجد، ولا كل من وجد سعد، وكم من واحد حرم من المنى بمنى، وكم من واحد أدرك من القربات غرفات، ومن أُيِّد بالتوفيق وصل في لحظة العين إلى عين القبول، كما حكي عن بعض الصالحين أنه رأى في منامه إبليس اللعين ضج بالصياح والعويل، فاجتمع عليه جنوده، وقالوا: ما لك؟ فقال لهم: كنت أطمع في فلان منذ سنين، فإذا به قد استوى ظاهره وباطنه وسره وعلانيته فلم أجد إليه سبيلًا تحلى بالصدق، فامتنع مني في مقعده: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥]، انتهى.

«علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية»، السر هو الشيء المغطى؛ لأنه مخفي عنا والعناية هي تعلق الإرادة بحصوله في المستقبل، فلما علم أننا نتشوف إلى حصوله فنطلبه بالدعاء والأعمال الصالحة ونعتقد تأثير ذلك فيه، «فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾، زجرًا وقطعًا لأطماعنا لاحتمال أن سر العناية خاص ببعض الناس.

كما أن النبوة لما تشوف الناس إلى ظهورها آخر الزمان ادعاها جماعة فزجرهم الله بقوله: ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، «وعلم أنه لو خلاهم وذلك» أي: مع ملاحظة أن العناية الأزلية خاصة ببعض الناس وليست عامة، «لتركوا العمل اعتمادًا على الأزل»، قائلين: إن كان سبق في الأزل أنا من أهل العناية، ومن أهل الخصوص نجونا من النار، ودخلنا الجنة من غير أعمال، فلا حاجة إلى الأعمال ولا إلى الدعاء بحصول المطالب، «فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾» بالأعمال الصالحة، فهي علامة وأمارة على تلك العناية الأزلية، وإن لم تكن علة موجبة لها، فلا ينبغي تركها اعتمادًا على ما في الأزل، وإن لم يكن لها تأثير في حصول المطلوب.

الحكمة الثامنة والسبعون بعد المائة

«إلى المشيئةِ يستندُ كُلُّ شيءٍ، وليستْ تستندُ هيَ إلى شيءٍ»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المشيئة والإرادة شيء واحد وإليها تستند الأشياء كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سبق المشيئة لكل شيء، وأما هي فلا تستند إلى شيء، ولا تتوقف على شيء، فلا تتوقف على سؤال ولا على طلب، فما شاء الله كان من غير سبب ولا سؤال، وما لم يشأ ربنا لم يكن، قرب من شاء بلا عمل، وبعد من شاء بلا سبب، ﴿لا يسأل عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْالونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فقاعدة التحقيق ما ثمَّ إلا سابقة التوفيق.

قال أبو بكر الواسطي ﷺ: إن الله لا يقرّب فقيرًا لأجل فقره، ولا يبعد غنيًّا لأجل غناه، وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يوصل وبها يقطع، ولو بذلت الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها، ولو أخذتها كلها ما قطعك بها، قرّب من شاء بغير علة، وقطع من شاء من غير علة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فالنظر إلى المشيئة حقيقة، والنظر إلى السبب شريعة.

قال الشطيبي ﷺ: واعلم أن الناس أربعة: ناظر في السوابق لعلمه بأن الحكم الأزلي لا يتغير باكتساب العبد، وناظر في العواقب لعلمه بأن الأعمال بخواتمها، وناظر للوقت لا يشتغل السوابق ولا بالعواقب غير أداء ما كلف به من حكم الوقت، عالم بأن العارف ابن وقته، لا يهتم بماض ولا مستقبل، ولا يرى غير الوقت الذي هو فيه، وناظر لله وحده لعلمه بأن الماضي والمستقبل والحال متقلبون في قبضته متصرفون في حكمه، والأوقات كلها قابلة للتغير وتبديل الحال فلا يراها، وإنما يراقب من كل شيء بيده.

حكي أن رجلًا قال لأبي يزيد: أين أبو يزيد؟ فقال له: ليس هنا أبو يزيد، قال رجل: للشبلي أين =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إلى المشيئة يستند كل شيء» أي: أن كل موجود يستند إلى مشيئة الله من حيث تعلقها به أزلًا، «وليست تستند هي إلى شيء» من الوجودات، والمراد بالمثبتة في مرجع الضمير ما تعلقت به أزلًا، وهو مطالب العباد التي سبق العلم بها، فإن طلبها بالدعاء والأعمال الصالحة ليس سببًا مؤثرًا فيها، وهذه العبادات التي ذكرها في غاية الحسن، وفيها إشارة إلى التعلق بأحكام الأزل وطرح الأسباب والعلل، فعلى العبد أن يلزم العبودية والافتقار ويترك التدبير والاختيار.

قال أبو بكر الواسطي: إن الله لا يقرب فقيرًا لأجل فقره، ولا يبعد غنيًا لأجل غناه، وليس للأعراض عنه خطر حتى بها يصل وبها يقطع، ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها ولو أخذتها كلها ما قطعك بها قرب من قرب من غير علة وأبعد من أبعد من غير علة، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]».

الحكمة التاسعة والسبعون بعد المائة

«رُبَّمَا دَلَّهُم الأدبُ على تركِ الطلبِ، إنَّمَا يُذَكَّرُ مَن يجوزُ عليه الإغفالُ، وإنَّمَا يُنَبَّهُ مَن يجــوزُ عليه الإهمالُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما دلهم الأدب على ترك الطلب»، يعني أن بعض العارفين قد يغلب عليهم التفويض والتسليم فيترك السؤال والطلب اعتمادًا على القسمة الأزلية، وممن رأيناه متحققًا في هذا المقام العارف بالله تعالى الغارق في بحر الحقيقة الشيخ مصطفى أفندي التركي الفطموني الجركسي فسح الله في مدته، ورزقنا دوام مودته.

واختلف القوم أي أفضل الدعاء أم السكوت أم الرضا؟ فمنهم من قال: الدعاء

=

الشبلي؟ قال: مات لا رحمه الله، إنما عنى الشبلي، لا ردَّه الله لإحساسه عن مشاهدته لربه.

ورأى أبو يزيد رجلًا في المسجد يسأل عنه، فقال له: وأنا أطلبه منذ سنين، فظن أنه مجنون، فلما أُعلم أنه هو قال له: يا سيدي عليك أسأل ولك أطلب، فقال له أبو يزيد: الذي تطلب قد ذهب في الذاهبين في الله بالله لله، فلا ردّه الله.

وحاصلها: آداب السؤال والطلب، وأنه ينبغي أن يكون عبودية لا سببًا في العطاء، إذ قد سبقت قسمتك في الأزل قبل أن يكون منك طلب، فعنايته سابقة: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، لكن الحكمة تقتضي وجود العمل، فوجود العمل أمارة على خصوصية الأزل مع توقف ذلك على المشيئة؛ لأنها يستند إليها كل شيء، ولا تستند هي لشيء، فلزم السكون والأدب حتى في ترك الطلب.

أفضل لأنه في نفسه عبادة لقوله ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**»(١)، والإتيان ما هو عبادة أولى من تركه، ومنهم من قال: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم وأرضى؛ لأن ما سبق من اختيار الحق لك أولى من اختيارك.

وقد ورد في الحديث القدسي: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»(٢).

ومنهم من فصَّل فقال: «الأوقات مختلفة؛ فإنه إذا وجد الداعي في قلبه إشارة إلى الدعاء كالانبساط وتوجه القلب فالدعاء أولى، وإن وجد فيه إشارة إلى السكوت كالقبض وعدم توجه القلب فالسكوت أولى، فإن لم يجد في قلبه شيئًا من ذلك كان الدعاء وتركه سِييّن، نعم، إن كان الغالب حينئذ المعرفة كان السكوت أولى، ثم علل ما ذكره من كون الأدب قد يكون في ترك الطلب فقال: «إنما يذكر» بالدعاء «من يجوز عليه الإغفال» أي: السهو بأن يكون عنده غفلة وعدم علم بحال السائل يذكره بالسؤال، «وإنما ينبه» بمعنى يذكر «من يمكن منه الإهمال» أي: عدم الاعتناء بحال السائل مع علمه بحاله فهو مستحيل على الله تعالى، ولذا كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبًا.

وقد سُئِلَ الواسطي أن يدعو، فقال: أخشى أن أدعو، فيقال لي: إن سألتنا ما لك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا في الدهور.

الحكمة الثمانون بعد المائة

«ورُودُ الفاقاتِ أعيادُ المريدين، رُبَّمَا وجدتَ من المزيد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاةَ الفاقاتُ(٣): بَسْطُ المواهب إن أردت بَسْطَ المواهب عليك صححْ

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٢٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٤).

(٣) قال الشيخ ابن عجيبة: الأعياد جمع عيد، وهو ما يعود على الناس بالأفراح والمسرة، فالعوام فرحهم ومسرتهم بالحظوظ والعوائد الجسمانية، والخواص فرحهم بإقبال الملك عليهم، ووجود قلوبهم وصفاء وقتهم من كدرات الأغيار، والغالب أن هذه المعاني إنما توجد عند الفاقة والحيرة والاضطرار، حيث ينقطع حظ النفس فيها؛ لأن النفس كلما ضيقت عليها رحلت إلى عالم الملكوت، وفي ذلك العالم راحتها وفرحها ومسرتها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وهما جنتان معجلة ومؤجلة، فلأجل هذا آثرت الصوفية الفقر على الغناء، والشدة على =

الفقرَ والفاقةَ لديك﴿ إنَّما الصدقاتُ للفقراء والمساكين﴾ تَحَقَّقْ بأوصافِكَ يَمُدُّكَ بأوصافِه وتَحَقَّقْ بذلك يَمُدُّكَ بِعِزَّتِه وتحققْ بعجزِكَ يمدُّك بقدرته وتحقق بضعفك يمدك بحولِه وقوَّتِه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ورود الفاقات أعياد المريدين»، الأعياد جمع عيد، وهي الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح، فالمريدون يسرون بالفاقات؛ لأنها تسرع بوصولهم لمقصودهم لما فيها من الذل وقهر النفس كما تسر العوام بالأعياد لما فيها من نيل شهواتهم من ملابس وغيرها، «ربما وجدت» أيها المريد «المَزِيدَ» أي: الزيادة في حالك من طهارة السر وحصول الأنوار والمعارف «في الفاقات» أي: في حال ورودها عليك «ما لا تجده في الصوم والصلاة»؛ لأنه قد يكون قيامك بهما لشهوة نفسك وحظوظها، ومن كان هذا سبيله فلا يؤمن فيه دخول الآفات فلا يفيدك تزكية ولا تحلية بخلاف ورود الفاقات فإنها مباينة للهوى والشهوة، على كل حال

=
الرخاء، والذل على العز، والمرض على الصحة لما يحصل لهم بذلك من الرقة والحلاوة، وكلما ازدادوا فاقة زادهم الله قربًا وولاءً.

وقال أبو إسحاق الهروي ﷺ: من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعًا على سبع، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع، والدون على المرتفع، والذل على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة انتهى.

وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليتحرز من الغني حذرًا أن يدخله، فيفسد عليه فقره، كما يتحرز الغني من الفقير حذرًا أن يفسد عليه غناه.

وقال ابن عجيبة أيضًا: إنما كان الإنسان يجد في الفاقة من المزيد ما لا يجده في الصوم والصلاة؛ لأن الفاقة من أعمال القلوب، والصوم والصلاة من أعمال الجوارح، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، الفاقات قوت الروح، والصوم والصلاة قوت القلب، والروح محل المشاهدة، والقلب محل المراقبة، وما بينهما معلوم.

قال بعضهم: اعلم أن المدد الذي هو الفتح الرباني إنما يقع في القلوب الفارغة من العوائق والشواغل، وقد يوجد العبد كثير الصلاة والصيام وباب قلبه مسدود لاشتغاله بأمور دنياه، وهم الأكثر من الناس، وقد يوجد العبد قليل الصوم والصلاة وباب قلبه مفتوح للعلوم اللدنية والتنزلات الفهمية، وهم الأقلون من الناس، وكل العبادات يدخلها الرياء إلا الخمول لكونه لاحظ للنفس فيه انتهى.

قال في «التنوير»: اعلم أن في البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أُلوا البصائر، ولم يكن إلا تذلل النفس وتحقيرها، وقطعها عن حظوظها لكان في ذلك غاية المطلوب منها، وقد قيل: حيثما وقعت الذلة وقعت معها النصرة، قال الله العظيم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

«الفاقات بسط المواهب»(١) أي: كالبسط التي ترد عليها المواهب الإلهية لكل من جلس عليها، كما أن الملك إذا جلس أحد على بساطه أعطاه شيئا من مواهب الدنيا، فالفاقات تحضرك مع الحق وتجلسك على بساط الصدق وناهيك مما يكون في تلك الحضرة والمجالسة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المراد بالمواهب: معارف وكشوفات وطمأنينة وحِكم وعلوم وأسرار، ترد على القلوب من خزائن الغيوب، حال صفائها، وتصفيتها من الغيرية، وأصفى ما يكون القلب حين تذهب النفس، وذهاب النفس إنما يكون بترك حظوظها، ولا يتحقق ذلك في الغالب إلا في حال الفاقة والفقر، ولذلك كانوا يفرحون بالفقر، ويحزنون من الغنى، فُتح على بعضهم بشيء من الدنيا، فقال: هذه عقوبة لم أدر ما سببها؟

وقال الهروي ﷺ: الفقر صفة مهجورة، وهو ألذ ما يناله العارف لكونها تدخله على الله، وتجلسه بين يديه، وهم أعم المقامات حكمًا لقطع العوائق، والتجرد من العلائق، واشتغال القلب بالله.

وقال السهروردي ﷺ في عوارف المعارف: الفقر أساس التصوف وبه قوامه، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر؛ لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر، والزهد مع زيادة أحوال لا بدَّ منها للصوفي، وإن كان فقيرًا زاهدًا.

وقال بعضهم: نهاية الفقر بداية التصوف، لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سَني، والخروج عن كل خلق دَني، لكنهم اتفقوا ألا دخول على الله إلا من باب الفقر، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم، والتحقق بالفقر هو الاستئناس به، والاغتباط بحصوله، والاستقرار معه حتى يكون عنده أحلى من العسل، ويكون المال عنده أَمَرّ من الحنظل، فحينئذٍ تترادف عليه المواهب، وتتسع له المعارف حتى يكون أغنى الأغنياء.

قال بعض الصالحين: كان لي بعض مال فرأيت فقيرًا في الحرم جالسًا منذ أيام ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة، فقلت: أغنيه بهذا المال، فألقيته في حجره، وقلت: استعن بهذا على دنياك، فنفض بها في الحصباء، وقال لي: اشتريت هذه الجلسة مع ربي بما ملكت، وأنت تفسدها عليَّ ثم انصرف وتركني ألقطها، فوالله ما رأيت أعز منه لما بددها، ولا أذل مني لما كنت ألتقطها، وهذا هو تصحيح الفقر والفاقة ظاهرًا وباطنًا، وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزينًا، وإذا لم يصبح عنده شيء أصبح فرحًا مسرورًا، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا، فقال: إني إذا لم يصبح عندي شيء فلي برسول الله أُسوة حسنة، وإذا أصبح عندي شيء لم يكن لي برسول الله أُسوة حسنة.

قلت: وهذه حالة أشياخنا ﷺ حسبما استقرئناه من حالهم، وقد بلغني أن شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ كان يشعل الفتيلة وينظر في نواحي البيت، إذا وجد شيئًا أخرجه يتصدق به، ويبيت على الفاقة، هكذا كان حاله في حال تجريده ﷺ، هذا واستشهد المؤلف ﷺ بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، إشارة إلى أن ما يهبه الله تعالى من المواهب والمعارف، إنما هي صدقة ومنة لا جزاء على الأعمال والأحوال، لأن الصدقة لا تكون في مقابلة عمل، وإن الله لغني عن العالمين، ثم التحقق بالفقر مجموعه التحقق بأوصاف العبودية، وهي الذل والعجز والضعف.

ولذا قال: «إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك»، بأن تتحقق بهما في نفسك تحققًا تامًا فلا يكون عندك استغناء بغيره بوجه من الوجوه فحينئذ ترد المواهب الإلهية عليك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠].

«تحقق أوصافك يمدك بأوصافه»(١)، ثم فصل ذلك بقوله: «تحقق بذلك يمدك بعزه»،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أوصاف العبودية أربعة، يقابلها من أوصاف الربوبية أربعة:

أولها: من العبد الفقر، ومن الله الغنى.

الثاني: من العبد الذل، ومن الله العز.

الثالث: من العبد العجز، ومن الله القدرة.

الرابع: من العبد الضعف، ومن الله القوة.

والتحقق بالوصف هو التحلي والاتصاف به قلبًا وقالبًا، ويكون ذلك باديًا بين خلقه، فلا يتحقق الذل لله حتى يظهر ذلك بين عباده، فمن أراد أن يمـده الله بالغنى به عما سـواه فليتحقق بالفقر مما سواه.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ في حزبه الكبير: نسألك الفقر مما سواك، والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك، ومن أراد أن يمده الله بالعز الذي لا يفنى؛ فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره، ومن أراد أن يمده الله بالقدرة الخارقة للعوائد فليتحقق بعجزه، ويتبرأ من حوله وقوته، ومن أراد أن يمده الله بالقوة على طاعة مولاه ومجاهدة نفسه وهواه فليتحقق بضعفه، ويسند أمره إلى سيده، فبقدر ما تعطي تأخذ، وبقدر ما تتخلق تتحقق، وبقدر ما تتحقق بوصفك يمدك بوصفه.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والضعف والذل لله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبية، فما لك ولها؟ فلازم أوصافك، وتعلق بأوصافه، وقل من بساط الفقر الحقيقي: يا غني من للفقير سواك، ومن بساط الضعـف الحقيقي: يا قوي من للضعيف سواك، ومن بساط العجز الحقيقي: يا قادر من للعاجز سواك، ومن بساط الذل الحقيقي: يا عزيز من للذليل سواك، تجد الإجابة كأنها طوع يدك ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، ولا يصح التحقق بالوصف حتى يتعلق بأضدادها من مولاه، فلا يلتجىء في فقره ولا عجزه ولا ضعفـه إلى أحـد سـواه.

روي أن بعض الملوك قال لبعض الفقراء: ما يكون لك من حاجة فارفعها إليَّ، فقال له الفقير: قد رفعت حوائجي لمن هو أقدر منك، فما أعطاني منها رضيت به، وما منعني منها رضيت عنه، فقال له: ولا لك حاجة عندي، قال بلى، قال: وما هي؟ قال لا تراني ولا نراك.

فهذا هو التعلق بوصف الربوبية، والتعزز بالله لا يفنى عزه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، ومن تعزز بالله ذل له كل شيء.

وقد حج شيبان الراعي ﷺ مع سفيان الثوري ﷺ فلما كانا في البرية عرض لهما سبع، فأخذ سفيان خارج الطريق ومضى إليه شيبان، ثم عرك أذنه، فلم يزد أن حرك ذنبه، وبصبص وانصرف، فقال له سفيان: ما هذا يا شيبان؟ فقال لـه: لو شئت أن أركبه إلى مكة لفعلـت.

=

فتصير عزيزًا به لا بنفسك، «تحقق بعجزك يمدك بقدرته»، فتصير قادرًا به لا بنفسك، «تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته» فتصير قويًا به، وكذا أن تحققت بفقرك يمدك بغناه، فإذا جلست على بساط الذل وقلت: «يا عزيز من للذليل غيرك» وعلى بساط العجز، وقلت: «يا قادر من للعاجز غيرك»، وعلى بساط الضعف، وقلت: «يا قوي من للضعيف غيرك»، وعلى بساط الفقر والفاقة، وقلت: «يا غني من للفقير سواك»، وجدت الإجابة كأنها طوع يدك فقوله: «تحقق بأوصافك»... إلخ، مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب؛ لأن من جملة المواهب الإمداد بضد الوصف الذي تحققت به.

الحكمة الواحدة والثمانون بعد المائة

«رُبَّمَا رُزِقَ الكرامةَ من لم تَكْمُلْ له الاستقامةُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما رزق الكرامة» أي: الأمر الخارق للعادة «من لم تكتمل له الاستقامة»، فلا ينبغي للمريد أن يعتني بها ويغتر بظهورها على يده؛ لأنه حينئذ ربما كانت معونة أو استدراجًا لا كرامة، فالكرامة الحقيقية هي كمال الاستقامة ومرجعها إلى أمرين، صحة الإيمان بالله واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، فالواجب على المريد ألا يحرص إلا عليها، ولا يكون له همة إلا في الوصول إليها وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة لها عند المحققين.

في هذا الكلام بيان واضح لكل متقول على أهل الشرع والاستقامة، وأن الصوفي الحق هو المتبع للكتاب والسنة متمسكًا متحققًا بها.

=

وكانت عجوز تأتي كل يوم لبيت السري السقطي ﷺ فتكنس بيته، وتسوق له بعض القوت، فسئل من هي؟ فقال: الدينا سخرها الله لي لما زهدت فيها، وفي هذا المعنى ورد الحديث: «**يقول الله تعالى للدنيا: يا دنيا اخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك**».

وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ:من طلب الفقر استقبله الغنى، ومن طلب الغنى استقبله الفقر، والغنى هو الغنى بالله.

وحاصلها: أن العارفين ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اكتفاء بعلم الله، إذ لا يذكر إلا الغافل، ولا ينبه إلا الساهي، وتعالى الله عن الأمرين علوًّا كبيرًا، فإذا نزلت بهم فاقة أو شدة لم يسألوا رفعها، بل فرحوا بها، وجعلوها مواسم وأعياد لما يجدون فيها من المزيد، وما يهب على قلوبهم من نسيم التوحيد والتغريد وهي المواهب الربانية، والعلوم اللدنية، فتحققوا بأوصافهم، وأمدهم بأوصافه، فصاروا في الظاهر عبيدًا، وفي الباطن أحرارًا، في الظاهر فقراء ضعفاء أذلاء، وفي الباطن أغنياء أقوياء أعزاء، وهذه هي الكرامة العظمى، دون الكرامة الحسية.

الحكمة الثانية والثمانون بعد المائة

«من علاماتِ إقامةِ الحقِّ لك في الشيء إدامتُهُ إيَّاكَ فيه مع حصولِ النتائجِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من علامة إقامة الحق» أي: الله «لك في الشيء»، كالاكتساب أو التجريد، «إقامته إياك فيه» أي: تيسير أسبابه لك وإدامته عليك، «مع حصول النتائج» أي: ثمرات ذلك الشيء كسلامة الدين ووجود الربح من الكسب.

الحكمة الثالثة والثمانون بعد المائة

«من عَبَّرَ من بِسَاطِ إحسانه أصمتَتْهُ الإساءةُ، ومن عَبَّرَ من بساط إحسان الله له لم يصمتْ إذا أساءَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من عبر» أي: تكلم في علوم القوم وأفادها للمريدين «من بساط إحسانه» أي: ملاحظًا أن تعبيره وإفادته تلك العلوم نشأ من إحسانه أي: أعماله الصالحة الشبيهة بالبساط الذي يجلس عليه عند ورود المواهب، «أصمتته الإساءة» أي: أسكتته إساءته ومخالفته للرب فينقبض عن ذلك التعبير لما يعتريه من الخجل والحياء بسبب المعصية التي صدرت منه، وسبب ذلك مشاهدته إحسان نفسه، «ومن عبر من بساط إحسان الله إليه» أي: ملاحظًا أن تعبيره وإفادته تلك العلوم ناشئ من إحسان الله إليه غالبًا عن رؤية نفسه، «لم يصمت إذا أساء» أي: لم يسكت عند ذلك التعبير إذا صدرت منه معصية؛ لأن غيبته عن نفسه ومشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك، ولذا قيل: جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان.

الحكمة الرابعة والثمانون بعد المائة

«تسبقُ أنوارُ الحكماءِ أقوالُهم فحيثُمَا صارَ التنويرُ وصلَ التعبيرُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«تسبق أنوار الحكماء أقوالهم»، وهم العارفون بالله تعالى، العاملون به، وأنوارهم هي أنوار معرفتهم، وهي قوة يقينهم بأن الأنوار كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها، فإذا أرادوا إرشاد عباد الله ونصيحتهم بإذن من الله توجهوا إلى الله، والتجئوا إليه في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعدادًا لقبول ما يرد عليها؛ فيخرج من قلوبهم حينئذ نور ناشئ من أنوار سرائرهم يصل إلى تلك القلوب، «فحيث صار» أي: حصل.

«التنوير» أي: النور أي: استقر في قلوب عباد الله الذين يريدون إرشادهم، «وصل التعبير» أي: تلقته تلك القلوب بالقبول كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم الانتفاع.

الحكمة الخامسة والثمانون بعد المائة

«كُلُّ كلامٍ يَـبْرُزُ وعليه كِسْوَةُ القلبِ الذي منه برزَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كل كلام يبرز وعليه»، الواو للحال، وفي بعض النسخ إسقاطها «كسوة القلب الذي منه برز منه»، فإذا كالقلب منورًا اكتسى الكلام نورًا فلا تمجه الأسماع ولا تنكره القلوب، فكسوته هو ذلك النور، وكلام الحكماء يبرز مكسوًا بكسوة الأنوار فتنفتح به أقفال القلوب ويستجيبون لنداء حبيبهم، وكلام المدعين يبرز وعليه الظلمة، فلا ينتفع به أتم الانتفاع، وقد ينتفع به من جهة حقيقته ومضمونه لا من جهة قائله.

ولقد جاء في الأثر: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[1].

الحكمة السادسة والثمانون بعد المائة

«مَنْ أُذِنَ له في التعبير حَسُنَتْ في مسامعِ الخلقِ عبارتُه، وجُلِيَتْ إليهم إشارتُه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من أذن له في التعبير»، عن الحقائق من العارفين بالله تعالى وهي علوم الوهب والفتح المأخوذة عن الله تعالى بلا واسطة، وعلامة الإذن له في ذلك تيسير التعبير عليه وسهولته وعدم احتياجه في إلقاء المعارف إلى كلفة بل يجد لسانه منطلقًا بها ويجد عنده باعثًا إلى التعبير عنها مع السلامة من آفات النطق، وعلامة ذلك بالنسبة للسامعين ما ذكره بقوله: «فهمت في مسامع الخلق عبارته»، فلم يفتقروا إلى معاودة وتكرار جمل الأسماع محلًا للفهم مبالغة وإلا فمحلها حقيقة القلب، «وجليت» بضم الجيم وتشديد اللام أي: ظهرت «إليهم إشارته»، وهي ألطف من العبارة التي يستعملها أهل الطريق في الإخبار عن العلوم الباطنية والحقائق العرفانية أي: فلا يحتاجون إلى إطناب بخلاف غير المأذون له في ذلك.

الحكمة السابعة والثمانون بعد المائة

«رُبَّمَا برزتِ الحقائقُ مَكْسُوفَةَ الأنوارِ إذا لم يُؤْذَنْ لكَ فيها بإظهارٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٧)، ومسلم (١١١).

«ربما برزت الحقائق»، وهي العلوم العرفانية، «مكسوفة الأنوار» بما غشيها من ظلمة ورؤية الأغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم، «إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار».

قال أبو العباس المرسي -قدس سره: «كلام المأذون له تكسوه طلاوة، وكلام غير المأذون له يخرج مكسوف الأنوار حتى أن الرجلين ليتكلما بالحقيقة الواحدة، فتقبل من أحدهما وترد من الآخر».

الحكمة الثامنة والثمانون بعد المائة

«عبارتُهُمْ إمَّا لفيضانِ وَجْد أو لقصدِ هداية مُرِيد، الأوَّلُ: حالُ السالِكِين، والثاني: حَالُ أربابِ المكنةِ والمتحققين»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«عباراتهم» التي يعبرون بها عن العلوم والمعارف التي يجدونها في باطنهم، «إما لفيضان وجد» أي: لفيضان ما يجدونه في قلوبهم من ذلك، فقلوبهم ضيقة يفيض عنها ما يحل فيها قهرًا عنهم كالإناء الضيق إذا وضع فيه ماء كثير، فإنه يفيض منه قهرًا، «أو لقصد هداية مريد»، وإن كانت قلوبهم متسعة يمكنهم رد ما يستقر فيها فلا يفيض منها شيء.

«فالأول: حال السالكين»، من أهل البداية، فهم معذورون في التعبير لوجود الغلبة عليهم، «والثاني: حال أرباب المكنة والمتحققين» من أهل النهاية فيلزمهم ذلك لما فيه من الإرشاد والهداية، فإن عبر السالك لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى، وإن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد، كان ذلك إفشاء سر لم يؤذن له فيه، وأيضًا فحاله يقتضي وجود الصمت وعدم النطق؛ لأنه في حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب المفهوم.

الحكمة التاسعة والثمانون بعد المائة

«العبارةُ قُوتٌ لعائلةِ قلوبِ المستمعين وليس لك منها إلا ما أنتَ له آكِلٌ»[١]

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العائل هو الفقير، والعائلة جمع له، فعبارة العارفين قوت لقلوب الفقراء الطالبين لزيادة إيقان قلوبهم ومشاهدة محبوبهم، فلا يزالون في حضانة الشيوخ وعيالهم، حتى يكمل إيقانهم وترشد أحوالهم، فحينئذٍ يستقلون بأنفسهم، وعلامة رشدهم أنهم يأخذون النصيب من كل شيء، ولا ينقص من حالهم شيء، يفهمون عن الله في كل شيء، ويعرفون في كل شيء، ويشربون من كل شيء، فإذا كانوا كذلك فقد استقلوا بأنفسهم، وتأهلوا لإرشاد غيرهم.

وأما من لم يبلغ هذا المقام فلا بُدَّ أن يلزم العُش في حضانة من يرزقه ويطعمه، فإذا طار من العُش قبل تربية الجناح اصطادته الكلاب والبيزان، ولعبت به النساء والصبيان، فإذا كان في عش الشيخ، وكان =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«العبارة» التي يعبر بها أهل هذه الطريقة عن العلوم والمعارف «قوت لعائلة المستمعين»، الإضافة للبيان أي من حيث معناها قوت لأرواح العائلة، وهم المستمعون المحتاجون إلى ما يلقى إليهم من المواعظ والحكم، كما أن الأطعمة الحسية قوت لأبدان المحتاجين إليها، «وليس ذلك إلا ما أنت له آكل»، كما أن الأقوات الحسية مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم فقد تلقى العبارة على جماعة، فيفهم كل واحد منها ما لا يفهمه الآخر.

وقد يفهم بعضهم من الكلام الذي يسمعه معنى لا يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك

=

يطعمه مع غيره، فليس له من القوت إلا ما يقدر أن يأكله وإلا قتله، فليس طعام الصبي الصغير كطعام الرجل الكبير.

وكذلك عبارة الشيوخ للمريدين: كل واحد يأخذ ما يليق بحاله، فالشيوخ يذكرون في الجملة، فيذكرون أحوال البدايات والنهايات والوسط، وكل واحد يأخذ ما يليق به: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:١٦٠]، فلا يتعلق المبتدئ بمذاكرة المنتهي فيفسد، كما إذا أكل الطفل الصغير طعام الكبير يقف في حلقه، وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبعه.

وقد سألني بعض الإخوان عن قوت الروحانية والبشرية، فقلت: قوت البشرية معلوم، وقوت الروحانية على وزان قوت البشرية، فالصبي لا يطيق الطعام الخشن حتى يكبر، كذلك الروح تربى شيئًا فشيئًا، فتطعم أولا ذكر اللسان فقط، ثم ذكر القلب مع اللسان، ثم ذكر القلب فقط، ثم ذكر الروح وهو الفكرة، ثم ذكر السر وهو النظرة، ثم تأكل كل شيء، وتشرب من كل شيء، حتى تسرط الكون بأسره، فلو أعطيتها الفكرة أو النظرة الذي هو طعام الرجال أول مرة، وهي في مقام الأطفال للفظته وطرحته، فإذا بلغت الروح أن تأكل كل شيء، وتشرب من كل شيء، فقد صح لها أن تطير في الملكوت الأعلى، وتذهب حيث تشاء، وقد يختلف الشرب لجماعة من آنية واحدة لاختلاف مقامهم، كقضية الرجال الذين سمعوا قائلًا يقول: يا سعتر بري، وذلك أن رجلًا في الصفا بمكة صاح يا سعترًا بري لرجل آخر كان اسمه ذلك فسمعه الثلاثة، فكل واحد تعلق بذهنه ما يليق بحاله، فسمع أحدهم الساعة ترى بري، وسمع الآخر: اسع ترى بري، وسمع الثالث: ما أوسع بري، فالأول كان مستشرفًا، والثاني مبتدئًا، والثالث كان واصلًا.

قال في «لطائف المنن»: واعلم أن هذه المفهومات المعنوية الخارجة عن الفهم الظاهر ليست بإحالة اللفظ عن مفهومه، بل هو فهم زائد على الفهم العام، يهبه الله لهذه الطائفة من أرباب القلوب، وهو من باطن الحكم المندرج في ظاهره اندراج النبات في الحبة، وذلك أن المدد النوراني والفتح الرباني يتصل بعضه ببعض إلى الطرف الظاهر، فحيث انتهت القوة انتهى الإدراك، فربما فهموا ما يوافق ظاهر المعنى الباطنية، وربما خالفه من جهة ما، وربما كان الفهم بعكس ظاهره.

تأثرًا عجيبًا، وربما فهم منه ضد ما قصده المتكلم.

فقد سمع بعضهم قائلًا يقول:

إذ العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق عن الصغار

فخرج هائمًا على وجهه حتى أتى مكة ولم يزل مجاورًا بها حتى مات.

الحكمة التسعون بعد المائة

«رُبَّمَا عَبَّرَ عن المقامِ مَنِ استشرفُ عليه ورُبَّمَا عبَّرَ عنه مَنْ وصلَ إليه وذلكَ مُلْتَبِسٌ إلا على صاحبِ بصيرةٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما عبر عن المقام» أي: عن أي مقام من مقامات اليقين كمقام الزهد ومقام الورع ومقام التوكل إلى غير ذلك، «من استشرف عليه» أي: اطلع عليه وقارب الوصول إليه، ولم يظفر به ولم يتحقق فيهن «وربما عبر عنه من وصل إليه»، وتحقق فيه، «وذلك» أي: ما ذكر من الحالين، «يلتبس» أي: يلتبس الفرق بين حال هذا وحال هذا، «إلا على صاحب بصيرة»، فإنه لا يخفى عليه، فإنه يرى في الكلام صورة المتكلم الباطنية وما هي عليه من كلام ونقص.

وعلامة الأول أن يجد الفرح والاستبشار عند التعبير واستعظام الأمر واستحسانه لكونه في مبادئه، وقريب عهد بغيره، بخلاف الثاني، فإنه يتكلم فيه كعادته في كلامه بغيره، وربما عبر عن المقام في نقله من كتاب، وحفظ أحواله من ممارسته لكلام القوم وحفظه لعباراتهم، وقد يوهم مع ذلك أنه واصل متمكن.

وعلامة التي يتبين حاله أن يبحث معه على مقتضى قواعد فنون العلم، فإن صار يتكلف الأجوبة ويشم منه رائحة التعصب والانتصار للنفس والأنفة من العجز فهو مدع كذاب.

الحكمة الواحدة والتسعون بعد المائة

«لا يَنبَغي للسَالِكِ أن يَعبِّرَ عَنْ وَارداته فإنَّ ذَلكَ مما يُقَلِّلُ عَمَلَها في قَلبِهِ ويَمنَعَهُ وجُودَ الصِّدَقِ فيها مع رَبِّهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته» أي: ما يمنحه الله له من العلوم الوهابية والأسرار التوحيدية، فلا ينبغي له أن يعبر عنها اختيارًا منه، بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحدًا إلا شيخًا مرشدًا له، «فإن ذلك يقل عملها في قلبه» أي: فلا يحصل له كمال

الانتفاع بها، وهو تمكنها في القلب وتأثره بها، «ويمنعه وجود الصدق مع ربه»، إذ لا يخلو التعبير عنها لذة وانشراحًا، وذلك يقوي صفاتها، وقوة صفاتها مما يمنعها من وجود الصدق مع ربه.

الحكمة الثانية والتسعون بعد المائة

«لا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إلى الأخذِ من الخلائقِ إلا أنْ ترى أنَّ الْمُعْطِي فيهم مَوْلاكَ، فإنْ كُنْتَ كذلك فخذْ ما وافقَكَ العلمُ»[(١)]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: مد اليد إلى الأخذ من الخلائق على قسمين: إما أن يكون من غير سؤال أو بعد السؤال، ولكل واحد منها أحكام، أما الأخذ من غير سؤال فشرطه أمران: أحدهما: علمي، والآخر: صوفي.

أما العلمي؛ فلا يأخذ ممن كسبه حرام، ولا مخلط، ولا محجور عليه كالصبي والمجنون والعبد، وأما الصوفي، فلا يقبض حتى يعرف ممن يقبض علمًا وحالًا، فإن اتسعت معرفته وتحقق فناؤه بحيث لم يبق له نظر للواسطة أصلًا فربما يسلم له القبض مطلقًا؛ لأنه يقبض من الله، ويدفع بالله، ولكن الكمال هو الجمع بين الحقيقة والشريعة، وقد كان كثير من الصوفية الحقيقيين يقبضون جوائز السلطان، ثم يدفعونها على أيديهم.

وأما القبض بعد السؤال فالكلام عليه من وجهين: الأول: في جواز السؤال ومنعه، والثاني: فيما يقبضه بعد أخذه، أما حكم السؤال فأصله الجواز، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]، فلو كان ممنوعًا ما نهى الله عن نهره، ثم تعتريه الأقسام الخمسة: يكون واجبًا، ومندوبًا، ومباحًا، ومكروهًا، وحرامًا.

فأما الواجب: فهو ما يكون لسد الرمق، بحيث إذا ترك السؤال مات، فهذا واجب عليه، فلو تركه حتى مات مات عاصيًا، فأوجبه الشارع خوفًا على فوات حياة البشرية الحسية، وأوجبته الصوفية أيضًا على من خاف فوات حياة الروحانية بحيث منعته الرياسة من حظ رأسه وذبح نفسه، فقد نقل القسطلاني في «شرح البخاري»، عن ابن العربي المعافري أنه قال: هو واجب على المريد في البداية.

كان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين لا يزيد على ذلك.

أما المندوب: هو أن يسأل لغيره فهو من التعاون على البر، فيسأل الطعام ليطعمه من يستحي،أو يسأل اللباس أو غير ذلك، وقد سأل النبي ﷺ لأصحابه حين قدموا عليه عراة، ويدخل في المندوب ما كان لرياضة النفوس حيث لم يخف عليه كما تقدم.

وأما المكروه: هو أن يسأل لقوت البشرية مع القدرة على الاستغناء عنه بسبب من الأسباب، وهذا ما لم ينقطع للعبادة ويتجرد إلى الذكر، وأما المنقطع إلى الله فلا بأس به، وقد فعله كثير من العارفين المحققين.

فقد كان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد يسأل بابًا أو بابين أو ثلاثًا بين العشاءين، فكانت العامة تتعجب منه أولًا ثم عرف بذلك، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره، وعلو =

=

معرفته بربه.

وكان الشيخ أبو سعيد الخراز إذا اشتدت به الفاقة يمد يده ويقول: من عنده شيء لله؟ وكان إبراهيم ابن أدهم معتكفًا بجامع البصرة، ولا يفطر إلا من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام، يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره.

وكان سفيان الثوري ﷺيسأل الطعام لله، فإن فتح بكثير أخذ كفايته وترك الآخر، وأكثر الرجال على هذه الحال قطعوا الدنيا الفانية لتأثيرهم الأخرى الباقية، وكل ذلك لا يقدح في شريعة ولا حقيقة، ولا يطفئ نور المعرفة.

وأما المباح؛ فهو أن يسأل الحاجة الغير ضرورية كسؤاله لقضاء دَينه، أو ما يزيد على ستر عورته وسد رمقه، أو غير ذلك مما ليس بضرورة لكنه حاجيّ: أي محتاج إليه.

وأما المحرم؛ فهو أن يسأل تكثرًا أو زيادة على ما يكفيه، وفي الحديث: «**من له أَرْبَعُون دِرهمًا فالسؤالُ عليه حرامٌ**»، وفيه ورد الحديث: «**إنَّه يُبْعَثُ يوم القيامة، وليس في وجهِهِ مُزْعَةُ لحم**».

ومن المحرم أيضًا ما فيه إلحاح وإضرار بالمسئول، قال تعالى:﴿**لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ [البقرة:٢٧٣].

وسبب دخول السؤال في هذه الطائفة أن شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني ﷺ كان له جاه ووزارة ورياسة في فاس، فلما دخل في يد الشيخ ورأى صدقه وجده قال له: أرى لك خمرة لم يقدر عليها أحد قبلك، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها، قال: وما هي يا سيدي؟ فقال: السوق للسؤال، هكذا سمعته من بعض الإخوان.

والذي رأيته في كتابه أنه قال له: يا ولدي أراك تطلب هذا العلم ولا تنال منه ما تريد إلا بالذل، فدخل فيه وسكن إلى مماته، فلما ذاق سره ورأى ما فيه من الأسرار، وما يقطع به المريد في سيره من المفاوز والقفار سير أصحابه عليه، ودلهم على استعماله، فكان أصل مشروعيته قتل النفوس، لا قبض الفلوس، فمن استعمله لقتل النفوس، ولج حضرة القدوس، إذ ما حجبنا عنها إلا حياة النفوس، ومن استعمله لقبض الفلوس نال الشقاء والبؤس، وينبغي أن يكون في حال السؤال يده مشيرة إلى الخلق وقلبه معلق بالحق.

وقد ذكر ابن ليون التجيبي السؤال، وبيّن أصله، وذكر مسألة الزنبيل، وكيفيته أن يتوضأ الرجل ويصلي ركعتين ويأخذ الزنبيل، يعني وعاء بيده اليمنى، ويخرج إلى السوق ومعه رجل آخر يذكر الله ويذكر الناس، والناس يعطونه في ذلك الزنبيل حتى يجمع ما تيسر من الطعام ويصبه بين الفقراء، فيأكلون طعامًا حلالًا بلا تكلف ولا كلفة هذا ما تيسر لنا في حكم السؤال.

والذي يظهر لنا في تركه اليوم أحسن من استعماله، إذ زالت هيبته وصار حرفة من الحرف، فصارت نفس كثير من الفقراء تبطش إليه، وما ذلك إلا لما فيه من الحظ عندها، والله تعالى أعلم.

وأما ما يأخذه من السؤال فإن كان فقيرًا إليه أخذه، وإن كان غنيًّا عنه تصدق به خفية بالليل مثلًا، وكان شيخ شيخنا ﷺ يقول: كان قصدنا من السؤال قوت الأرواح، فلما خرج منه قوت الأشباح تبارك الله، يعني فيأخذه من اضطر إليه، وبالله التوفيق.

وهذه الحكمة التي ذكرها الشيخ هي من أعظم المهمات التي يحتاج إليها أهل التجريد، وليس مقصوده

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تمدن يدك» أيها المريد المتجرد «إلى الأخذ من الخلائق» مما يعطونه لك من الأرزاق على وجه الرفق إلا بشرطين أشار إلى الأول بقوله: «إلا أن ترى» أي: إلا بعد ملاحظتك «أن المعطي فيهم مولاك»، فلا ترى العطاء الذي يصل إليك إلا منه، وأن الخلق أسباب ووسائط ولا يكفي تلك الرؤية أن تكون علمًا وإيمانًا فقط، بل لا بدَّ أن تكون حالًا وذوقًا، فإن ذلك هو

=

الكلام على السؤال، إنما مقصوده الدلالة على تربية اليقين، وعدم التشوف إلى المخلوقين، فلا يعلق قلبه بالمخلوق، فإن تشوف إليه فينبغي ألا يقبض ما يعطاه، ولا يمد يده إلى الأخذ منه، حتى يرى أن المعطي هو الله، ويكون ذلك ذوقًا وحالًا.

قيل لبعضهم: كيف خرجت من الدنيا بعد أن كانت في يدك؟ قال: نظرت منصفًا لنفسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ فرأيت جميع الخلق من البعوضة إلى الفِيل تكفّل الله لهم بالرزق، ففوضت أمري إليه واشتغلتُ بالعبادة.

وقال عيسى ﷺ: لا تهتموا بالرزق، فإن الذرة على صغرها تؤتى كل يوم برزقها الحديث، وقال أيضًا ﷺ: **«عجبت لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بلا عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل»**.

وقال ﷺ: **«منَ كانَ همُّه الآخرةَ جعلَ الله غِنَاهُ في قلبِهِ، وأتَتْهُ الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كان همه الدنيا جعل الله فَقْرَهُ بين عينيْهِ، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له، وإنَّ الرزقَ ليطلبُ العبدَ كما يطلبُهُ»**.

وكان حبيب العجمي يخدم الحسن البصري فصنع حبيبٌ طعامًا لإفطارهما وإذا بسائل فأعطاه جميعه، فقال الحسن: يا حبيب إنك كثير اليقين، قليل العلم، فهلا أعطيته النصف ونتقوت بالنصف؟ فقال: يا سيدي ثوابه لك، وأنا أستغفر الله، فلما جنّ الليل وإذا بقارع على الباب، فخرج حبيب فوجد عبدًا معه طعام كثير والشتاء ينـزل، والغلام يبكي، فقال له: ما هذا؟ قال: طعام، قال لي سيدي: إن قبله منك الحسن البصري، فأنت حر لوجه الله، وقد طال علي الرق، فقال حبيب: لا إله إلا الله عتق رقبة وإطعام جائع، ثم دخل به على الحسن، وقال: يا سيدي إنك كثير العلم قليل اليقين، فقال: يا حبيب تقدمناك وسبقتنا انتهى.

وقال بعض الأغنياء: كنت نائمًا وإذا بإنسان قد وقـف علي في عالم النوم وزجرني، وقال لي: أجب الملهوف، فانتبهت وأنا مذعور ولم أدر ما أصنع، فأوقع الله في قلبي أن أخذت صرة فيها مائة دينار وركبت دابة وأطلقت زمامها، فخرجت بي من العمران إلى مسجد خرب، ووقفت فنـزلت، ودخلت المسجد فوجدت مسكينًا وهو يتضرع إلى الله ويسأله من فضله، فسألته عن حاله؟ فقال: أنا صاحب عيال ولي بنيات منذ ثلاث ما طعموا، فأنا أسأل الله من فضله، فدفعت له المائة، وقلت له: إذا نفذت فاسأل عني فأنا فلان وائتني، فقال: لا والله ما أسأل غير الله، ثم انصرفت، وأنا متعجب من ثقته بالله تعالى، فهذه حكاية جند من جنود الله تعالى تقوي اليقين وتوجب الثقة برب العالمين، فيستحي العبد من الله أن يرفع حاجته إليه، فأولى ألا يرفعها إلى غيره.

اللائق بحال المتجرد.

وإلى الثاني أشار بقوله: «فإن كنت كذلك»أي: ملاحظًا مولاك، «فخذ ما وافقك العلم» على آخذه، وحاصله ألا تأخذ إلا ما وافقك العلم على آخذه وأباح لك أخذه والمراد علم الظاهر بأن لا تأخذ إلا من يد مكلف رشيد تقي.

وعلم الباطن بألا تأخذ إلا ما كان على وجه الرفق والمعونة أي: لا تأخذ إلا ما أنت مضطر إليه في الحال لتنفقه في ضرورياتك وحاجاتك من غير إسراف ولا إفطار كما كان عليه الصلاة والسلام في أكله وشربه ولباسه ومسكنه، وغير ذلك فلا تأخذ ما يأتيك قبل وقتك، ولا زائدًا على حاجتك إلا أن يكون في خلقك سخاء، ولا تأخذ ما تعطاه من جهة الاختيار من الله بأن أعطيت شيئًا كنت قد قصدت تركه لله من شهوة كنت مبتلى بها قد ملكتك ومنعتك القيام بحقوق ربك، ولا تأخذ من منان، ولا فخور، ولا مظهر لعطيته، ولا ممن يثقل على قلبك قبول عطيته، فقد قيل: «لا تأكل إلا ممن يرى لك الفضل عليه في أكله».

الحكمة الثالثة والتسعون بعد المائة

«رُبَّمَا استحيى العارفُ أنْ يرفعَ حاجتَهُ إلى مولاه اكتفاءً بمشيئتِهِ فكيفَ لا يستحيي أنْ يرفعَهَا إلى خليقَتهِ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما استحى العارف» المحقق «أن يرفع حاجته إلى مولاه»، فلا يطلب منه شيئًا «لاكتفائه بمشيئته» أي: بما تعلقت به مشيئته من إعطاء أو منع أو ضر أو نفع.

قال الشاذلي -قدس سره- لما سُئل عن الكيمياء قال: «أخرج الخلق من قلبك، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك»، «فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى خليقته»، فلا يسألون منهم ولا يرفعون إليهم حاجة؛ لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغني الحميد فرفع الهمة عن الخلق وعدم التعرض لهم مما يحتاجه سالكو هذه الطرق، فإن من خلع عليه خلعة الملك وحفظها وصانها فحري أن تدام له، ولا تسلب عنه، والمدنس لخلع المواهب حري ألا تترك له.

فلا تدنس إيمانك بطمعك في المخلوقين، ولا تجعل اعتمادك إلا على رب العالمين واتبع ملة إبراهيم في رفع إلهة عن الخلق؛ فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل، وقال له: **ألك حاجة؟ قال: «أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى»؛ فقال له: سل الله، فقال: حسبي من سؤالي**

علمه بحالي»[1].

وخرج بالعارف باقي الفقراء وهم أقسام ثلاثة، منهم من صبر، فإذا احتاج سأل الناس وقبل منهم مع كونه لا يرى أن المعطي فيهم إلا مولاه، ومنهم من لا يسأل، وإذا أعطي قبل على الوجه المذكور، ومنهم من لا يسأل، وإذا أعطي لا يقبل.

قال بعضهم: «وهذا من الروحانيين إذا سأل الله تعالى أعطاه، وإن أقسم عليه أبر قسمه».

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة

«إذا التبسَ عليك أمرانِ فانظرْ أثقلَهُمَا علي النفسِ فاتَّبِعْهُ فإنَّه لا يَثْقُلُ عليها إلا ما كان حقًّا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا التبس عليك» أيها المريد «أمران» واجبان أو مندوبان فلم تدر أيهما أولى أن تشتغل به كطلب ما لا بدَّ منه من العلم وسعي على العيال، وكطلب علم زائد على ما لا بدَّ منه، واشتغال بنوافل وكصلاة النوافل والصلاة على النبي ﷺ: «فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه؛ فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقًّا» أي: أولى لأنها مجبولة على الجهل، فشأنها أبدًا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فإذا وجد المريد من نفسه خفة، وميلًا عند بعض الأعمال دون بعض، اتهمها وترك ما خفت عليها ومالت إليه، وعمل بما استثقله، فإن عمل بالأخف كان ذلك معدودًا عندهم من نفاق القلب، هذا إن لم تصر نفسه مطمئنة، فإن صارت كذلك عمل بما خف عليها ومالت إليه.

ولكن ينظر حينئذ إلى ما هو أكبر فائدة وأعظم مزيدًا في حاله فيقدمه على غيره، وهناك ميزان آخر تميز به الأولى من غيره مما التبس عليك، وهو أن تقدر نزول الموت بك فبأي عمل سرك أن تكون مشغولًا به إذ ذاك؛ فهو حق وما عداه باطل، فإن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى، فإذا التبس عليك الاشتغال بالعلم أو بطريق القوم؛ فانظر أيهما تحب أن تكون عليه حال خروج روحك فاشتغل به، فإن كنت تحب أن تخرج روحك وبيدك الكراس لإخلاصك في طلب العلم وقصدك به وجه الله فاشتغل به وإن كنت تكره ذلك وتحب أن تكون في ذلك الوقت مشتغلا بذكر الله فعلًا لا بطلب العلم، فلا تطلب العلم بل اشتغل بغيره لأن ذلك دليل على

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٩).

عدم إخلاصك فيه والكلام في القدر الزائد على ما لا بدَّ منه من العلم.

يقول السياجي يغفر الله له:

«المقصود بالعلم الذي لا بدَّ منه هو العلم الضروري لمعرفة الله وفرائضه وحدوده التي أمر بها وشرعها على لسان نبيه ﷺ».

الحكمة الخامسة والتسعون بعد المائة

«مِنْ عَلامَات اتِّباعِ الهَوى المُسَارَعَةُ إلى نَوافلِ الخَيرَاتِ، والتَّكَاسُلُ عَنِ القيامِ بالواجباتِ»[(١)]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات» أي: العبادات، «والتكاسل عن القيام بالواجبات»، فهذا من الصور الذي يخف فيها الباطل ويثقل فيها الحق، وإنما كانت النوافل قد تخف على النفس دون الفرائض؛ لأن العادة أنه لا مزية في القيام بالفرائض لاستواء الناس كلهم فيها بخلاف النوافل، فإنها تذكر بها ويحصل لها بها قربة وجاه ومنـزلة في القلوب، وهذا هو حال أكثر الناس فتجد الواحد منهم إذا اعتقد التوبة أي: صمم عليها لا همة له إلا في نوافل الصيام والقيام وتكرار المشي إلى بيت الله الحرام، وما أشبه هذا من النوافل، ومع ذلك هو غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات، وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضات نفوسهم التي خدمتهم، ولم يعتنوا بمجاهدة أهوائهم التي أسرتهم وملكتهم.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذا ميزان آخر، وإن شئت قلت: هو داخل في الميزان الأول، إذ من شأن النفس أن يثقل عليها الواجب لمشاركة الناس لها فيه، إذ جُلُّ الناس يفعلونه، فلا يظهر لها فيه مزية على غيرها، وهي أبدًا تحب الخصوصية، بخلاف النوافل؛ فإنها تبطش إليها وتحب أن تنفرد بها، إما لطلب المدح والثناء، وإما لطلب الأجور من القصور والحور، وهذا كله عند المحققين من الحظوظ الجلية أو الخفية، فالمسارعة إلى نوافل الخيرات، وفضائل الطاعات مع التكاسل عن الفروض الواجبات من علامة الهوى، فيجب على الإنسان أن يقدم الفرض الواجب، ولا يقدم عليه إلا ما هو من كماله: كالنوافل قبله وبعده إعانة على الحضور فيه، فإن حصل الحضور استغنى عن الوسيلة.

والنافلة الكبرى عندنا: هي الاستغراق في مشاهدة مولاه بين فكرة ونظرة، أو ما يوصل إلى هذا المقام من مذاكرة أو ذكر، ومن رفض الدنيا بحذافيرها، وغاب عن نفسه وجنسه فقد جمع الفرائض والنوافل كلها ولو بات نائمًا وظل مفطرًا.

وفي بعض أخبار سيدنا داود ﷺ قال: يا رب أين أجدك؟ فقال له: اترك نفسك وتعال: أي غب عنها تجدني أقرب إليك منها.

الحكمة السادسة والتسعون بعد المائة

«قَيَّدَ الطاعاتِ بأعيانِ الأوقاتِ لئلا يَمْنَعَكَ عنها وجودُ التسويفِ ووسَّعَ عليك الوقتَ ليبقى لك حِصَّةُ الاختيارِ»[(١)]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«قيد» الله تعالى «الطاعات» الواجبة عليك كالصلوات الخمس «بأعيان الأوقات» أي: بأوقات معينة ولم يطلق وقتها «كي لا يمنعك وجود التسويف»، فإنه تعالى لو أطلقها ولم يعين لها أوقاتًا لحملك التسويف على تركها فإنك تتكاسل وتقول: حتى أفرغ من حاجتي أصلي لاتساع وقتها، فربما مضى يومك أو ليلتك ولم تفعلها بخلاف تقييدها بأوقات معينة، فإن

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من شأن النفس تسويف العمل وتطويل الأمل، فلو تركت مع اختيارها ما توجهت قط إلى ربها، ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا تنهضه المحبة ولا يسوقه إليه مجرد الرغبة، وإنما تسوقه إليه سلاسل الامتحان بتخويف النيران، أو شبكة الطمع بنعيم الجنان، أوعد من حاد عن طاعته بالعذاب الأليم، ووعد من أطاعه وتقرب إليه بالنعيم المقيم، ثم فرض عليهم ما تظهر فيه طاعته من الأحكام، والفرائض وعين لها أوقاتًا مخصوصة، إذ لو ترك ذلك لاختيار عباده ما أقبل عليه بها إلا القليل من أهل محبته ووداده، ومن رحمته تعالى أن وسع عليهم في تلك الأوقات، فبقي لهم في ذلك ضرب من الاختيار. فوسع الظهر مثلًا إلى العصر، والعصر إلى الاصفرار، والمغرب إلى العشاء، والعشاء إلى نصف الليل، والصبح إلى قرب الطلوع، فقد قيد لك أيها العبد الطاعات التي أوجبها عليك بأعيان الأوقات، لئلا يمنعك التسويف من فعلها، فيؤدي ذلك بك إلى تركها، ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة: أي ضربًا ونصيبًا من الاختيار، إذ لو ضيق عليك الوقت لكان ذلك في غاية الحرج، والاضطرار، فالحمد لله على منته وسعة رحمته.

وقد قيل: إن الله سبحانه يقول لعبده: **«ألم أخرجك من العدم إلى الوجود؟ وأمدك بأمداد الفضل والجود؟ جعلت لك نورًا في بصرك لتدرك به أدلة قدرتي وعظيم آياتي؟ وجعلت لك نورًا في بصيرتك لتفهم به خطابي، وتتقي بالطاعة عقابي وترجو ثوابي؟ فوعدتك الثواب على الطاعة، وأوعدتك العقاب على المخالفة، ثم كلفتك من العمل ما تطيق، ووسعت عليك في الأوقات كل ضيق، فلو أنك قضيت ما أوجبت عليك في أول عمرك في آخره لقبلته منك، فمن ذا الذي منعك من الامتثال، ولم يكن بك عذر غير الغواية والضلال؟»** انتهى.

وقد قيل في المثل: «من طلب جاب، ومن هاب خاب»، وانظر قَرَن الله الهداية بالمجاهدة، وأوجب سبحانه على نفسه ما لم يجب عليه، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وكان الربيع بن خيثم يردد هذه الآية ويبكي وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية:٢١]، وكان يصيح: ليت شعري من أي الفريقين أنت يا نفسي؟ وهذه الآية تسمى مبكية العابدين.

ذلك يلجئك إلى تحلها ويحجزك عن تفويتها «ووسع عليك الوقت» أي: وسع أوقاتها عليك ولم يضيقها «كي تبقى لك حصة الاختيار»، فيمكنك فعلها في أول وقتها أو وسطه أو آخرته ولا تعد من المضيعين لها إذا أتيت بها في آخر وقتها مثلًا ولتتمكن أيضًا من الإتيان بها على الوجه الكامل، وهو موطأة القلب للجوارح فإن الوقت إذا كان متسعًا يمكنك التخلي عن الشواغل والقواطع المانعة من استجماع الفكر والحضور مع الله تعالى حال العبادة واستعمال الآداب اللائقة بين يدي الله تعالى حينئذ.

الحكمة السابعة والتسعون بعد المائة

«عَلِمَ قلةَ نهوضِ العبادِ إلى معاملته فأوجبَ عليهم وجودَ طاعته، فساقَهم إليه بسلاسلِ الإيجابِ عَجِبَ ربُّكَ من قومٍ يُسَاقُون إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«علم قلة نهوض العباد إلى معاملته» أي: الإقبال عليه بطاعته والقيام بحقوق ربوبيته طوعًا منهم لما هم عليه من وجود الضعف، ولما في نفوسهم من وجود الكسل، «فأوجب عليهم وجود طاعته»، ألزمهم بذلك قهرًا عنهم وخوفهم بدخول النار إن لم يفعلوها، «فساقهم إليه» بذلك أي: الإقبال عليه بطاعته، وفي نسخة إليها أي: إلى طاعته «بسلاسل الإيجاب» أي: الإيجاب الشبيه بالسلاسل اللاتي توضع في عنق الأسير يجره بها قهرًا من أسره إلى الموضع الذي يريده، وكذلك الإيجاب يسوقهم الله تعالى به إلى الطاعة التي يحصل لهم بها ما يسرهم في المستقبل، وإن كانت شاقة عليهم في الحال، فهو يفعل بهم كما يفعل الولي بالصبي ألا تراه كيف يؤدبه ويضربه على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته ويلزمه أمورًا شاقة عليه فيفعلها، وهو كاره لذلك لأجل تحصيل منافعه في المستقبل الذي هو جاهل بها الآن فإذا كبر وعرف وعقل عرف ذلك عيانًا، «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل»، كما يفعل بأسرى الكفار حين يراد منهم الدخول في الإسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل في رقابهم، وهذا معنى حديث رسول الله ﷺ في أسارى بدر، ولفظه: «**عجب الله من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل**»[1].

والعجب والتعجب استعظام أمر خفي سببه وهو مستحيل في حقه تعالى، ففيه المذهبان السلف يقولون: «إن لله عجبًا ولا نعلم حقيقته، وهو منـزه عن معناه المشهود» والخلف يقولون بالتأويل أي: معنى التعجب المنسوب إلى الله إظهار عجب هذا الأمر لخلقه؛ لأنه بديع الشأن وهو أن الجنة شأنها أن يسارع إليها لنفاثتها، وهؤلاء يرغبون عنها ويمتنعون

(١) رواه أحمد في مسنده (٩٨٩٠).

منها حتى يقادون إليها بالسلاسل كما يقاد إلى الأمر المكروه.

وقيل: المراد بالتعجب لازمة وهو الإحسان المتعجب منه، فإنك إذا قلت: ما أعلم زيدًا، أيلزمك أنك تريد الإحسان إليه وإكرامه فالمعنى أحسن ربك إلى هؤلاء القوم حيث دعاهم إلى الجنة، وساقهم إليها كرمًا وهذا في حق العامة، أما الخاصة فلا يحتاجون إلى الإيجاب والتخويف والتحذير؛ لأن الله تعالى شرح صدورهم ونور بصائرهم وكتب في قلوبهم الإيمان، وحبب إليهم الطاعات، وبغض إليهم العصيان، فلم يحتاجوا إلى شيء من ذلك لتمام حريتهم من الأغيار التي تملك القلوب فهم ملازمون لطاعته طوعًا، بل لو أكرهوا على تركها لم يستطيعوا الصبر عنها، وفائدة تكليفهم حينئذ إظهار محبتهم كما يأمر الملك وزراءه الملازمين لحضرته زيادة في القرب والتشريف.

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة

«أوجبَ عليك وجودَ طاعته وما أوجبَ عليك إلا دخولَ جنته»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أوجب عليك وجود خدمته» في الظاهر، «وما أوجب» في الحقيقة، ونفس الأمر «إلا دخول جنته»؛ لأنه تعالى غني عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، وإنما أوجب الأعمال عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم وهو دخول الجنة ليحصل له شرف بذلك، وهذا تصريح بما علم مما قبله؛ لأن حاصله أنه تعالى إنما أوجب على عباده طاعته لقلة نهوضهم إليها فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب، وسوقهم إليها بذلك إنما هو لأمر يرجع إليهم وهو دخول الجنة بدليل الحديث، وهو «**عجب ربك...إلخ**»، فيئول المعنى إلى أن سوقهم إلى طاعته وهو إيجابها عليهم سوق إلى الجنة فلم يوجب عليهم إلا دخولها.

الحكمة التاسعة والتسعون بعد المائة

«منِ استغربَ أن يُنقذَه الله من شهوته وأن يُخرجَه من وجودِ غفلته فقد استعجزَ القدرةَ الإلهية﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[الكهف: ٤٥]»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من استغرب أن ينقذه الله من شهواته» التي استرقته «وأن يخرجه من وجود غفلته» التي استولت عليه أي: من استحكمت فيه الشهوة والغفلة واستغرب أن يخرجه الله من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية أي: منسوبة إلى الله، وفي بعض النسخ: «قدرة الله» أي: نسبها إلى العجز «﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾» أي: مع أنه تعالى وصف نفسه بالاقتدار على كل شيء وإخراجه من ذلك جملة الأشياء؛ فينبغي له أن يقصد باب مولاه بالذلة

والافتقار، فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغربه وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التي تؤثر عن الصالحين الذين تقدمت لهم في بدايتهم الزلات ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم الله بلطفه وأصلح أعمالهم وصفى أحوالهم كفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وأبي عقال بن علوان وغيرهم ﷺ».

الحكمة المائتان

«رُبَّمَا وردتِ الظُّلَمُ عليك لِيُعَرِّفَكَ قدرَ ما منّ به عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما وردت الظلم» أي: الشهوات والمعاصي والغفلات «عليك ليعرفك» حال ورودها«قدر ما من الله به عليك» أي: ما كان قد من الله به عليك سابقًا من الأنوار والإقبال على مولاك فتحمده عليها، وإذا رجعت إلى حالك عرفت أن ذلك نعمة عظيمة فيكثر منك الحمد والشكر، فقد صارت النقمة نعمة، وقد يكون سبب ورودها ما حصل منك من الإعجاب بطاعتك فيوردها عليك لتعرف قدرك ولا تتعدى طورك فلا تتكبر ولا ترى نفسك على أبناء جنسك، وهذه نعمة أيضًا، وقد ترد عليك عقوبة وامتحانًا، وعلامة ذلك أنك كلما خرجت من معصية وقعت في أخرى، وهكذا ولا توفق للتوبة، ولا تعتقد التقصير من نفسك.

الحكمة الواحدة بعد المائتين

«مَنْ لم يعرفْ قدرَ النعمِ بوجدانها عَرَفَهَا بوجودِ فُقْدَانِهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها»، هذا تعليل لما قبله كأنه قال: إنما كان ورود الظلم معرفًا بقدر النعم؛ لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها فعند وجود النقيض يظهر فضل المناقض؛ فإنما يعرف قدر نعمة البصر مثلًا من ابتلي بالعمى، وقد قيل: إنما يعرف قدر الماء من ابتلي بالعطش بالبادية لا من كان على شاطئ الأنهار والأودية».

الحكمة الثانية بعد المائتين

«لا تُدْهِشْكَ وارداتُ النعمِ عنِ القيامِ بحقوقِ شُكرِك فإنَّ ذلك مما يَحُطُّ من وجودِ قدرِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تدهشك واردات النعم» أي: النعم الواردة أي: المترادفة عليك «عن القيام بحقوق شكرك» أي: شكر المولى عليها بأن ترى عجز نفسك عن توفية ذلك فتترك الشكر، «فإن ذلكم

مما يحط من وجود قدرك» أي: أن الله تعالى قد رفع قدرك، وجعل القليل من منك كثيرًا.

قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، فلا تبخس نفسك حقها، وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر بسبب كثرة النعم، وذلك من الجهل كما لو تركت الشكر عليها لاستقلالها في نظرك، فالحامل على ترك الشكر على النعمة أحد الأمرين وكل منهما مذموم، ومن شكر اللسان ذكر الله، ومنه الباقيات الصالحات التي تذكر عقب الصلوات.

يقول السياجي يغفر الله له:

الأمران هما: بخس النفس عن أن تشكر، أو بخس النعمة عن أن تشكر، وكلاهما مذموم اهـ.

الحكمة الثالثة بعد المائتين

«تَمَكُّنُ حلاوةِ الهوى من القلبِ هو الدَّاءُ العُضَالُ»[١]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«تمكن حلاوة الهوى»، الهوى ميل النفس، والمراد بالهوى الشهوات أي: تمكن حب الشهوات للدنيا «من القلب هو الداء العضال» أي: الذل فلا تنفع فيه الحيل والأسباب والأدوية كالإيمان والمعرفة واليقين؛ فإن الداء إذا تمكن من القلب لم يبق للدماء محل، فلذا عضل أمره، وتعذر برؤه، ولا يفيد فيه الوارد الإلهي.

الحكمة الرابعة بعد المائتين

«لا يُخْرِجُ الشهوةَ من القلب إلا خوفٌ مُزْعِجٌ أو شوقٌ مُقْلِقٌ»[٢]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: حلاوة الهوى على قسمين: هوى النفس، وهوى القلب؛ فهوى النفس: يرجع لشهواتها الجسمانية: كحلاوة المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، والمناكح والمساكن.
وهوى القلب: هو شهواته المعنوية: كحب الجاه والرياسة، والعز والمدح، والخصوصية والكرامات، وحلاوة الطاعات الحسية، كمقام العباد والزهاد، وحلاوة علم الحروف والرسوم.
فأما علاج هوى النفس: فأمره قريب، يمكن علاجه بالفرار من أوطان ذلك والزهد وصحبة الأخيار، وأما علاج هوى القلب: إذا تمكن فهو صعب، وهو الداء العضال الذي أعضل الأطباء، أي: أعجزهم وحبسهم عن علاجه، فلا يزيد الدواء إلا تمكنًا، وإنما يخرجه وارد إلهي بعناية سابقة بواسطة، أو بغير واسطة.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الشهوة إذا تمكنت من القلب صعب علاجها، فلا يمكن خروجها في العادة، إلا بوارد قهري جلالي أو جمالي.
فالوارد الجلالي: هو خوف مزعج، فيزعجك عن شهوتك، ويخرجك عن وطنك وأهلك.
=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج»، يرد على القلب من شهود صفات الجلال ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة وتذكره نزول الموت به ودخوله للقبر وحيدًا وسؤال الملكين مع أهوال الحشر والمعاد الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ويجعل الولدان شيبًا، إلى غير ذلك، «أو شوق مقلق»، يرد على القلوب من شهوة صفات الجمال منشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد لأهل الطاعات، وتذكره ما أعد لأوليائه من النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إلى غير ذلك، والمواظبة على حضور مجالس الذكر والذكر علاج كبير ونفع كثير في حصول ذلك إذ لا يزال يعمل في

=

والوارد الجمالي: هو شوق مقلق، فيقلقك عن مراداتك وحظوظك، فينسيك نفسك، ويؤنسك بربك، ولأجل صعوبة هذا المرض كان أشد حجابًا عن الله العلماء، ثم العباد، ثم الزهاد، لأن هذه الشهوة خفية، لأن صاحبها أضله الله على علم الآية: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، أي: أضلهم عن طريق الخصوص، وبقوا في طريق العموم.

أما العلماء الظاهريون: فهم يعتقدون أنه لا فضيلة فوق علمهم، حتى أني سمعت من بعضهم يقول: إن مقام الإحسان هو مقامهم الذي هم فيه من العمل بظاهر الكتاب والسنة، ولا مقام فوق ذلك، فكيف يمكن إخراج هذا إلا بعناية سابقة؟

وأما العباد والزهاد: فهم يقولون أيضًا: هذه غاية المحبة والطاعة، ويزيدهم بعدًا ما يرونه من الكرامات الحسية، فيزدادون حجابًا وتمكنًا في حالهم.

وأما العوام وأهل الغفلة: فهم أقرب الناس إلى الانقياد والنفوذ إلى ربهم، وفي الحديث عنه ﷺ قال: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ»، أي: المغفلون، ومما يدلك على أن الشهوة القلبية أصعب من الشهوة النفسية قصة آدم والشيطان، فإن آدم عليه السلام كانت شهوته في بطنه فتداركه الله بعنايته، والشيطان كان شهوته في قلبه، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:٧٦]، فطرد إلى يوم القيامة، ثم اعلم أن الخوف على قسمين: خوف العوام، وخوف الخواص، خوف العوام من العقاب والعذاب، وخوف الخواص من القطيعة والحجاب.

والشوق أيضًا على قسمين: شوق العوام للحور والقصور، وشوق الخواص للشهود والحضور، شوق العوام لنعيم الأشباح، وشوق الخواص لنعيم الأرواح، شوق العوام ناشئ عن قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]، وشوق الخواص ناشئ عن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، جعلنا الله من أعظمهم قدرًا وأكملهم محلًا وفضلًا آمين بمنه وكرمه، فإذا دخل الخوف أو الشوق إلى القلب أخرج كل ما فيه من الأغيار، ومُلئ بالمعارف والأنوار، فحينئذٍ تخلص الأعمال، وتزكوا الأحوال، ويقبل عليه ذوو العظمة والجلال.

القلب شيئًا فشيئًا إلى أن يسكنه الخوف أو الشوق، أما إذا لم يكن الأول مزعجًا والثاني مقلقًا فلا يفيدان تركًا ولا توجهًا.

الحكمة الخامسة بعد المائتين

«القلب العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقْبِلُ عليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«القلب العمل المشترك»، وهو الذي فيه محبة غير الله والسكون إليه والاعتماد عليه، ولما كانت المحبة بمعنى ميل القلب مستحيلة في حقه تعالى، أولها على طريقة الخلف بقوله، «العمل المشترك لا يقبله» أي: لا يحب أن يثيب عليه لعدم الإخلاص فيه، فعدم محبته بمعنى عدم الرضا عن صاحبه وعدم إثابته فمن صحح عمله بالإخلاص وأحواله بالصدق، كان محبوبًا لله أي: مثابًا مرضيًا عنه، وإلا فلا، أما السلف فيثبتون لله محبة، لكن لا نعلم حقيقتها.

الحكمة السادسة بعد المائتين

«أنوارٌ أُذِنَ لها في الوصولِ وأنوارٌ أُذِنَ لها في الدخولِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدخول» أي: الأنوار الواردة على اللقب من خزائن الغيوب، وهي معارف وأسرار إلهية تنقسم إلى قسمين؛ أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب يشاهد القلب معها نفسه وربه ودنياه وآخرته، فتارة يكون مع نفسه وتارة مع ربه وتارة يحب آخرته وتارة يحب دنياه، والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسودائه لا يظهر فيها إلا وجود الله ﷻ، فلذلك لا يحب سواه، ولا يعبد إلا إياه.

قال بعض العارفين: «إذا كان الإيمان في ظاهر القلب كان العبد محبًا للآخرة والدنيا، وكان مرة مع ربه ومرة مع نفسه، فإذا دخل الإيمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه».

الحكمة السابعة بعد المائتين

«رُبَّما وردتْ عليك الأنوارُ فوجدت القلبَ مَحْشُوًّا بصور الآثار فارتحلتْ من حيثُ جاءتْ، فَرِّغْ قلبَكَ من الأغيارِ تملأْهُ بالمعارفِ والأسرارِ، لا تَسْتَبْطِئِ النَّوالَ ولكنِ استبطئْ من نفسك وجودَ الإقبالِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ربما وردت عليك الأنوار» أي: العلوم من المعارف الإلهية، «فوجدت القلب محشوًا بصور الآثار» أي: متعلقًا بصور المكونات من أموال وأولاد وغيرها، «فارتحلت من حيث

نزلت» أي: من المكان الذي نزلت فيه وهو القلب لأنها مطهرة مقدسة فلا تحل في القلب المدنس بالأغيار، «فرغ قلبك من الأغيار» أي: التعلق بغير مولاك وامح عنه صور الآثار بألا تتوجه بسرك إلى غير ذلك، فلا يكن لك أنس إلا به ولا اعتماد إلا عليه، «تملأه من المعارف والأسرار»، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩].

وتقدم في كلامه: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته»، وإذا كان كذلك «فلا تستنبط منه النوال» أي: إعطاء المعارف والأسرار، «ولكن استنبط من نفسك وجود الإقبال» عليه بمحو صور الأغيار من مرآة قلبك بالمجاهدة والرياضة.

الحكمة الثامنة بعد المائتين

«حقوقٌ في الأوقاتِ يُمْكِنُ قضاؤُها وحقوقُ الأوقاتِ لا يمكنُ قضاؤُها، إذْ ما من وقتٍ يَرِدُ إلا ولله عليك فيه حقٌّ جديدٌ وأمرٌ أكيدٌ فكيف تقضي فيه حقَّ غيره وأنتَ لم تقضِ حقَّ الله فيه؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«حقوق» كائنة «في الأوقات» أي: الأزمنة، وتلك الحقوق هي وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما، «يمكن قضاؤها» أي: إن فاته شيء من ذلك في وقته المعين له، أمكنه قضاؤه في وقت آخر، «وحقوق الأوقات» أي: ما يرد على العبد من قبل الرب من الأحوال، فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الأحوال، وأوقاته أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، وسمي ما ذكر وقتًا؛ لأنه يرد في وقت مخصوص تسمية للشيء باسم زمنه وحقوقها الواجبة عليك فيها من المعاملات الباطنية التي تقتضيها تلك الأحوال. فحقه في النعمة الحمد والشكر، وحقه في البلية الصبر والرضا، وحقه في الطاعة شهود المنة، وحقه في المعصية الاستغفار والتوبة.

ولذا يقولون الفقيه ابن وقته أي: يتأدب معه ويعطيه حقه كما يتأدب الولد مع أبيه، وتلك الحقوق «لا يمكن قضاؤها» إذا فاتت، «إذ ما من وقت» أي: حال «يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد»، هو بمعنى ما قبله أي: فلا يسعك إلا أن توفي حقه، فيمنعك اشتغالك بحقه عن اشتغالك بحق ما فاتك.

ولذا قال: «كيف تقضي فيه حق غيره» مما فاتك «وأنت لم تقض حق الله فيه»، وهو الحق المتعلق بذلك الوقت، ولو قال: وأنت لم تقض حق ذلك الوقت لكان أوضح وحينئذ فيجب عليك أن تكون مراقبًا لقلبك حتى تقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنك قضاؤها إن فاتت ولا تشغل أوقاتك بشهوات نفسك ورعونات بشريتك حتى تضيع حقوق

الله الواجبة عليك التي ليس لها خلف يقوم مقامها، وإذا فاتت لا يمكنك قضاؤها.

الحكمة التاسعة بعد المائتين

«ما فاتَ من عُمْرِكَ لا عِوَضَ له وما حصلَ لك منه لا قيمةَ له»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: عمر المؤمن هو رأس ماله، فيه ربحه وخسرانه، فمن شدَّ يده عليه كان من الفائزين، ومن ضيعه في البطالة والتقصير كان من الخاسرين، فما فات منه في غير طاعة به لا عوض له، إذ ما ذهب لا يرجع أبدًا، وما حصل لك منه لا قيمة له تفي بقدره، إذ لو اشتريت ساعة منه بملء الأرض ذهبًا لكان نـزرًا في حقه؛ لأن ساعة منه تذكر الله فيها تنال بذلك ملكًا كبيرًا ونعيمًا مقيمًا، لو بيعت الدنيا بحذافيرها ما بلغت منه عُشر العُشر، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات، وبذلوا مجهودهم في اغتنام الساعات، ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير، ولم يسمحوا لها في الراحة والبطالة بقليل ولا كثير.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**لا تأتي على العبد ساعةٌ لا يذكرُ الله فيها إلا كانتْ عليه حسرةً يوم القيامة**».

وقال علي -كرم الله وجهه: بقية عمر العبد ما لها ثمن يدرك بها ما فات، ويحيي بها ما مات.

وقال الجنيد ﷺ: الوقت إذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعز من الوقت.

وقال الحسن البصري ﷺ: أدركت أقوامًا كانوا على أنفاسهم وأوقاتهم أشد حفظًا، وأحرص شفقة منكم على دنانيركم، ودراهمكم كما لا يخرج أحدكم درهمه ولا ديناره إلا في ورود منفعة واستجلاب فائدة، كذلك كانوا لا يضيعون نفسًا من أنفاسهم في غير طاعة أبدًا .

وكان سيدنا علي ﷺ يقول لفاطمة بنت رسول الله ﷺ إذا صنعت طعامًا: فميعيه، أي: اجعليه مائعًا خفيفًا، فإن بين المائع واليابس خمسين تسبيحة.

وقال أبو علي الجرجاني: ما مضغت الخبز منذ أربعين سنة، وإنما أسف السويق وأعود لذكر الله تعالى. قال: وقد كنت عددت ما بين المضغ والبلع ستين تسبيحة.

وقيل: إن ساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة تبعث يوم القيامة خزائن مصفوفة أربعًا وعشرين خزانة، فمن كان عمرها في الدنيا بطاعة الله رآها خزائن معمورة بالنعيم، ومن كان ضيعها رآها خزائن فارغة خاوية، فيتحسر عليها ويندم.

وجاء في الخبر: «**إن أهلَ الجنة بينما هم في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ من فوقِ أضاءت منه منازلهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يُرى الكوكبُ الدُّرِّيَّ في أفق السماء، وقد فُضِّلوا عليهم في الأنوار والجمال والنعيم، كما فُضِّلَ القمرُ على سائر النجوم، فينظرون إليهم يسيرون على نُجُبٍ تسرح بهم في الهواء يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادي هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا كنا نصلي كما تصلون ونصوم كما تصومون، فما هذا الذي فُضِّلْتُم به علينا؟ فإذا النداء من قبل الله ﷻ: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تنسون، ويبكون حين تضحكون،ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، بذلك فضلوا عليكم اليوم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَ**

=

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما فات من عمرك فلا عوض له» أي: لا عودة ولا رجوع له، فإذا خليته من العمل الصالح الذي هو وظيفة ذلك الوقت فاتك من السعادة بقدره، ولا يمكنك تداركه، «وما حصل لك منه لا قيمة له» أي: لا يمكن أن يقوم بشيء لعظم قدره؛ لأنك تتوصل به إذا اشتغلت لحق الله فيه إلى ملك كبير في الآخرة وشرف عظيم كثير لا يفنى، ولذا عظمت مراعاة السلف الصالح ﷺ لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير.

وفي الحديث: **«ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة وندامة»**[1].

لأن العبد يوم القيامة تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربع وعشرين خزانة، فيرى في كل خزانة نعيمًا ولذة جزاء لما كان أودعه في تلك الخزانة من الأعمال الصالحة والتي لم يعمل فيها شيئًا يراها فارغة فيتحسر ويندم، حيث لا ينفعه الندم ثم يلقى عليه الرضا والسكون.

الحكمة العاشرة بعد المائتين

«ما أحببتَ شيئًا إلا كنتَ له عبدًا وهو لا يُحِبُّ أن تكونَ لغيره عبدًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما أحببت شيئًا» من أمور الدنيا «إلا كنت له عبدًا»؛ لأن محبتك للشيء تقتضي انقيادك له وشدة علاقتك به وألا تبغي به بدلًا كما قيل حبك للشيء يعمي ويصم، وهذا معنى استعباده لك، فإن أحببت غير الله؛ فقد استعبدك ذلك الغير، كائنًا ما كان، «وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا» أي: لا يرضى بذلك.

وفي الحديث: **«تعس عبد الدنيا وعبد الدرهم والزوجة والخميصة وانتكس»**[2].

وقال الجنيد: «إنك لن تكون في الحقيقة له عبدًا وشيء مما دونه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية، وقال: «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم».

= بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]» انتهى.

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٦٢)، و«شعب الإيمان» (١/ ٣٩٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٠)، (٦٠٧١).

الحكمة الحادية عشرة بعد المائتين

«لا تنفعُه طاعتُك ولا تضرُّه معصيتُك وإنَّمَا أمرَك بهذا ونَهَاكَ عن هذا لما يعودُ إليك لا يزيدُ في عِزِّه إقبالُ من أقبلَ عليه ولا يُنْقِصُ من قدره إدبارُ من أدبرَ عنه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تنفعه طاعتك»، لأنه غني عن العالمين وأعمالهم، «ولا تضره معصيتك»، لتنزهه تعالى عن أن يصل إليه مكروه من خلقه، «وإنما أمرك بهذه» أي: الطاعة، «ونهاك عن هذه» أي: المعصية، «لما يعود عليك» من المنافع والمصالح في الدارين.

وذلك على سبيل التفضل منه لا على وجه الإيجاب عليه، «لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه»، لأن عزه صفة من صفاته الجامعة كالإلوهية والكبرياء والعظمة، وصفاته تعالى في غاية الكمال والتمام، وهي منزهة عن الزيادة والنقصان.

الحكمة الثانية عشرة بعد المائتين

«وصولُك إليه وصولُك إلى العلمِ به وإلا فجَلَّ رَبُّنَا أن يتَّصلَ به شيءٌ، أو يتَّصلَ هو بشيءٍ»[1]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد ذكر أهل الفن في هذا المقام اصطلاحات وألفاظ تداولوها بينهم تقريبًا لفهم المعاني، فمنها: السير، والرحيل، وذكر المنازل، والمناهل، والمقامات، ومنها: الرجوع، والوقوف، وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها، وقطع العوائق والعلائق عنها، أو الوقوف مع شيء منها.
ومعنى الوصول عندهم تحقيق العلم بوجوده وحده، فوصولك إليه هو شعورك بعدمك حتى يكون عدمك عندك ضروريًا، وعلمك بوجوده كذلك، وهذا الأمر كان حاصلًا لك في نفس الأمر، لكن لم تشعر.
فالزوال هو المعرفة: وهو معنى الوصول، وسببها جولان الفكرة، ولذلك أمره بها.
وسمعت شيخنا يقول: الناس كلهم في البحر، أي: في بحر الوحدة، ولكن لا يشعرون، فوصول العبد إلى الله عن تحقيق العلم بوجوده، والغيبة عن نفسه، وعن كل ما سواه، وإلا تكن كذلك بأن تعتقد أن الوصول يكون حسيًا، فجل ربنا، أي: تعالى وترفع أن يتصل به شيء للزوم تحيزه، أو يتصل هو بشيء للزوم افتقاره وحصره، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.
واعلم أن هذا العلم بالله يكون كسبيًا، ثم لا يزال يغيب عن نفسه وحسه، سكرة بعد سكرة، وحيرة بعد حيرة، حتى يصحو وينجلي عن ضباب الحس، وسحاب الجهل وظلمة النفس، فتشرق عليه شمس النهار، وتنجلي عنه ظلمة الأغيار.

«وصولك إلى الله» الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة، «هو وصولك إلى العلم به» أي: إلى مشاهدته بعين بصيرتك مشاهدة تغنيك عن الدليل والبرهان، ويعبر عن ذلك العلم بالمشاهدة والعلم اليقين، وبالتجلي والفيض الرحماني والتعرف العياني والذوق الوجداني، وأهل الشهود متفاوتون فمنهم من يحصل له تجلي الأفعال وهو أول التجليات عندهم فيفضي فعله وفعل غيره في فعل الله، فلا يرى فاعلًا إلا وهو يخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار، وأول مراتب الوصول، ومنهم من يحصل تجلي الصفات فيقف في مقام الهيبة والأنس بما يشاهده قلبه من الجلال والجمال، وهذه رتبة ثانية من رتب الوصول ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملًا على باطنية أنوار اليقين والمشاهدة فيغيب في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهو أيضًا رتبة في الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين، ويكون عن ذلك في الدنيا لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهو من أعلى رتب الوصول.

قال في «عوارف المعارف»: «فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه في أوان المنزل فأين الوصول، هيهات منزل طريق الوصول، لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنيوي».

«وإلا» ترد بالوصول ما ذكر وهو العلم الحقيقي بالله تعالى بطريق الذوق والوجدان بأن أردنا به الوصول المتعارف وهو وصول الذوات والأجسام، فلا يصح، «فجل» أي: لأنه تعالى «ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء»، لا حسًا وهو ظاهر، ولا معنى، إذ كيف يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير، وشرط الاتصال المداناة في الوصف، ولا نسبة بين كامل على الإطلاق وناقص على الإطلاق.

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائتين

«قربُك منه أن تكونَ مُشاهِدًا لقربه وإلا فمن أين أنتَ ووجودُ قُرْبِهِ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«قربك منه» الذي تشير إليه أهل هذه الطريقة هو «أن تكون مشاهدًا لقربه منك»، قُربًا معنويًا فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة في التأدب بآداب الحضرة، «وإلا» نقل ذلك بل أردنا القرب الذي هو من صفات الأجسام، «فمن أين أنت ووجود قربه» قربًا حسيًا؛ فهذا لا يصح.

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائتين

«الحقائقُ تَرِدُ في حال التَّجَلِّي مجملةً وبعد الوعيِّ يكونُ البيانُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨ -١٩] »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الحقائق» أي: العلوم اللدنية التي يقذفها الله تعالى في أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحريرهم من رق الأغيار وتعرضهم بسرهم إلى نفحات الحق، «ترد في حال التجلي» أي: تجلي الله على قلوبهم، «مجملة»، لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها لعظم التجلي على قلوبهم، «وبعد الوعي» بزوال ذلك التجلي، «يكون البيان» أي: تتصرف فيه أذهانهم بالاعتبار والتأمل فيتبين لهم معناها ويظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية حتى أنه ربما يجري على لسان بعضهم كلام كثير لا يلقي له بالًا فإذا فرغ من ذكره وتأمله وجده صحيحًا.

مثال ذلك ما وقع من الحلاج من قوله: ما في الجبة إلا الله، فإن هذا قاله لعظم التجلي عليه، فإذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحًا؛ لأن معناه ألا قائم بالأشياء إلا هو سبحانه، وهذا معنى صحيح يوافق الشريعة.

وكذا قول بعضهم: أنا اللوح، أنا القلم، فإن ذلك لعظم التجلي عليه وغيبه عن حسه يرى أن نفسه عين تلك الأشياء، فإذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحًا أي: أن المتجلي عليّ وهو الله سار سره في اللوح والقلم وغيرهما.

وأشار بذلك إلى المسألة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة حيث قالوا: حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة، ثم استدل على ذلك، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: أقرأناه لك على لسان جبريل ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع لقراءته ثم اقرأه بعد ذلك ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: بيان معانيه لك، فقد جعل بيان المعنى بعد قراءته المقارنة للتجلي الإلهي.

يقول السياجي يغفر الله له:

«التنبيه الوارد هنا بالقرآن مقصود إلا من وجه أن القرآن علمه النبي ﷺ قرآنًا مجملًا بمعانيه في قلبه إثر الوحي ثم يأتي بيان أحكامه وكشف أسراره من الله بعد ذلك»، والتعبير بكلمة بعد قراءته المقارنة للتجلي الإلهي أي المقترنة بالتجلي الإلهي.

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائتين

«متى وردت الواردات الإلهية إليك هُدمت العوائدُ عليك: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾»[1]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى وردت الواردات»، وهي التجليات «الإلهية»، ويعبر عنها بالأحوال أيضًا، وقوله «إليك» متعلق بـ «وردت» أي: وردت على قلبك من قبل الحق فأحدثت فيه أحوالًا سيئة، «هدمت»أي: أزالت «العوائد» أي: الأمور التي كنت معتادًا لها وهي رعونات نفسك؛ لأن لها سلطنة عظيمة، فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت ذلك وأثبتت عوضًا منه أحوالًا عليه وأوصافا مرضية، «أن» أي: لأن، «الملوك» أي: جنودهم «إذا دخلوا قرية أفسدوها» أي: أزالوا ما تلبس بأهلها من النعيم وكذلك الواردات الإلهية شبيهة بجنود الملك إذا حلت قلبًا قهرت ما فيه وأزالته، وهذا جواب عما يقال بأن العوائد مما جبلت عليه الطبائع، فكيف تزيلها الواردات، وحاصل الجواب أن الوارد له القهر كجند الملك.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الوارد الإلهي هو قوة شوق أو اشتياق أو محبة يخلقها الله في قلب العبد، وقد تنشأ عن قوة خوف أو هيبة أو جلال، فتزعجه تلك القوة إلى النهوض إلى مولاه، فيخرج عن عوائده وشهواته وهواه، ويرحل إلى معرفة ربه ورضاه، وقد تترادف عليه أنوار تلك المحبة والشوق فتغيبه عن حسه بالكلية، وهو الجذب، وإنما جمع الواردات باعتبار تلك المحبة والشوق، فإنها لا تُهدم عوائدها إلا إن كثرت وتزايدت، وتسمى أيضًا هذه الواردات نفحات.

قال ﷺ: «**إن لله نفحاتٍ فتعرَّضوا لنفحاته**»، فمن لم ترد عليه هذه الواردات اختيارًا فليتعرض لها بصحبة العارفين أهل الإكسير الذي يقلب الأعيان، فإن صحبهم ولم ترد عليه فليخرق عوائد نفسه من الظاهر، فإنها تدخل منه إلى الباطن، فمتى وردت عليك حينئذٍ تلك الواردات الإلهية هدمت العوائد عليك وأفسدتها لديك، فترد عزك ذلًا، وغناك فقرًا، وجاهك خمولًا، ورياستك تواضعًا وحنوًّا، وكلامك صمتًا، ولذيذ طعامك خشنًا، وشبعك جوعًا، وكثرة كلامك صمتًا، وقرارك في وطنك سياحة وسفرًا، هكذا شأن الوارد الإلهي يخرب العوائد ويهدمها، فهو كملك جبار ذي جيش طغاة، دخل قرية أو مدينة، فأفسد بنائها وغير عوائدها.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا**﴾ أي: نـزعوها وخربوها ، ﴿**وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**﴾ أي رءوساء أتباعًا مرءوسين ﴿**وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [النمل:٣٤]، أي: هذا شأنهم، والاستشهاد بالآية في غاية الحسن والمناسبة.

الحكمة السادسة عشرة بعد المائتين

«الوارد يأتي من حضرة قهَّارٍ لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾»[١]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الوارد ليأتي من حضرة قهار» أي: أن له القهر والغلبة لوروده من حضرة اسمه القهار، والقهار هو الغالب الذي لا يغلب، «لأجل ذلك لا يصادمه شيء» من رعونات البشرية «إلا دفعه» أي: أزاله، ومعناه في الأصل أصاب دماغه بالضرب ويلزم منه إتلافه وإذهابه وهو حق ورد على باطل، والباطل لا ثبات له مع الحق، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء:١٨].

الحكمة السابعة عشرة بعد المائتين

«كيف يحتجبُ الحق بشيءٍ والذي يحتجبُ به هو فيه ظاهرٌ وموجود حاضر؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«كيف يحتجب الحق» أي: الله «بشيء» من الموجودات العلوية والسفلية، «والذي» أي: والحال أن الذي «يحتجب الله تعالى «به هو» أي: الله «فيه ظاهرًا» أي: ظاهر فيه تشاهده أرباب البصائر، «وموجود حاضر»، مدرك لهم، فكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجابًا له حتى يستدل عليه به، هل ذلك إلا من عمى البصائر وعدم رؤيته في كل شيء؟

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: : إنما كان الوارد الذي يرد على قلوب السائرين أو الطالبين قويًا شديدًا؛ لأنه يأتي من حضرة اسمه تعالى القهار ليدمغ بقهريته كل ما وجد في النفس أو القلب من الأغيار، وإنما قلنا: من حضرة اسمه القهار؛ لأن الحق تعالى له حضرات بعدد أسمائه، فاسمه تعالى القهار يتجلى من حضرة قهريته، واسمه جميل يتجلى من حضرة جماله، واسمه جليل يتجلى من حضرة جلاله، واسمه رحيم يتجلى من حضرة رحمته، واسمه الحليم يتجلى من حضرة حلمه، واسمه الكريم يتجلى من حضرة كرمه، وهكذا فكل اسم يخرج تجليه على وفق حضرته، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١].

ولو كان هذا الوارد الذي يرد على قلوب أهل البداية من حضرة الرحيم أو الحليم أو الجميل ما أمكن أن يدفع بحكمة الله ما صادمه من الباطل، وشبه الشيخ الباطل وهو كل ما سوى الله بحيوان له دماغ، فإذا ضرب دماغه وتشتت مات، كذلك الباطل إذا صادمه الحق أهلكه، وتشتت دماغه، فالوارد الإلهي محض حق، فإذا صادم الباطل دمغه وقتله، ولذلك أتى بالآية التي نـزلت في شأن القرآن مع الكفر؛ فإن الكفر تشتت واضمحل حين نـزل القرآن، كذلك السوى إذا تجلى الحق بقهرية نوره تشتت واضمحل.

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائتين

«لا تيأسْ من قَبول عملٍ لا تجدُ فيه وجود الحضور فربُّما قَبِلَ من العمل ما لم تُدركْ ثمرته عاجلاً، لا تُزَكِّيَنَّ واردًا لا تعلمُ ثمرته فليس المرادُ من السحابة الأمطارَ وإنما المرادُ منها وجودُ الإثمار»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور» بقلبك مع الله حال فعله بأن تكون ملاحظًا أنك حاضر بين يديه غير غائب عنه كأنك تراه كما في الحديث، فإن ذلك دليل على قبوله ولا يلزم من فقد الدليل فقد المدلول.

ولذا قال: «فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته»أي: ثمرة قبوله أي: علامته «عاجلًا» أي: حال فعله ومن علامة قبوله أيضًا وجدان حلاوته استلذاذ قلبه به حال فعله كما مر وقوله، «لا تزكين واردًا» أي: تفرح به وتمدحه في سرك، «لا تعلم ثمرته» فإذا ورد عليك واردٌ إلهي أي: تجلي إلهي ملك قلبك ويعبر عنه بالحال لكن لم يتأثر قلبك به بحيث تحب الإقبال على المولى وتنهض لطاعته وتقوم بحقوق الربوبية فلا تفرح بذلك الوارد؛ لأن ثمرته إنما هي تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما مر، فإن لم يوجد هذا عندك فلا تفرح به فإن في ذلك نوعًا من الاغترار.

«فليس المراد من السحابة الإمطار، وإنما المراد منها وجود الإثمار» أي: أنها مرادة لوجود الأثمار الذي اقتضاه وجود أمطارها لا لمجرد وجود أمطارها، وكذلك الوارد مراد لثمرته لا لوجود حظ نفسك فيه؛ فإن كثيرًا ممن يحصل عندهم تلك الأحوال القلبية يغترون بها وربما تركوا الأعمال الظاهرة مع وجود عقلهم.

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائتين

«لا تطلبنَّ بقاءَ الواردات بعد أن بُسِطَتْ أنوارها وأُودِعَتْ أسرارها فلك في الله غنى عن كل شيء وليس يُغنيك عنه شيء، تَطَلُّعُكَ إلى بقاء غيره دليلٌ على عدمِ وِجْدَانِكَ له، واسْتِيحَاشُكَ بفُقْدَانِ ما سِواه دليلٌ على عدمِ وَصْلَتِكَ به»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا تطلبن بقاء الواردات» أي: التجليات والأحوال القلبية «بعد أن بسطت أنوارها» عليك وأنوارها هي تكيف ظاهرك وباطنك بكيفيات العبودية، «وأودعت» فيك «أسرارها»، وهي ما لاح في قلبك من عظمة الربوبية، فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه حال وجودها، ولا تحزن على فقده إذا فقدته، «فلك في الله غنى عن كل شيء»، وليس يغنيك عنه

شيء كما قيل:

لكـــل شيء إذا فارقـــته عـــوض ولـيس لله إن فارقــت مــن عــوض

فالله تعالى إنما أدخلك في الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك؛ لأنها جاءت حاملة هدية التعريف من الله إليك، فإذا وصلت إليك ما كان فيها، فلا تطلب بقاءها إذ لا يطلب بقاء الرسول بعد أن يبلغ رسالته ولا أمين بعد أن يؤدي أمانته فإن طلبت بقاءها كنت عبد الحامل لا عبد المحمول، ثم قام دليلًا على ذلك بقوله: «تطلعك إلى بقاء غيره»، من الواردات المذكورة وغيرها كالأنوار والمقامات والنعم الباطنة والظاهرة، «دليل على عدم وجدانك له»، إذ لو وجدته في قلبك وانجمع عليه سرك لم تطلب بقاء غيره «استيحاشك» فقدان ما سواه كالواردات المذكورة.

«دليل على عدم صلتك به» أي: وصولك إليه إذ لو وصلت إليه لنسيت كل محبوب ولم تستوحش عن فقده شيء سواه فالسالك إذا وردت على قلبه واردات إلهية وبسطت فيه أنوارها وأودعت فيه أسرارها وحدثته نفسه بأنه من الواصلين؛ فإن كان يتطلع ويتشوف إلى شيء من الأغيار المحبوبة أو يستوحش لفقدانه فذلك دليل على عدم تحققه بهذا المقام الشريف.

قال الجنيد -قدس سره: إنك لن تكون على الحقيقة عبدًا، وشيء مما سواه لك مسترق، وأنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية.

الحكمة العشرون بعد المائتين

«النعيمُ وإنْ تنوعتْ مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه والعذابُ وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه فسببُ العذاب وجودُ الحجاب وإتمامُ النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«النعيم» أي: نعيم الدنيا والآخرة أي: التنعم والتلذذ بما فيهما من الملابس والمطاعم والحور والولدان والقصور، «وإن تنوعت مظاهره» أي: مواضع ظهوره وهي الأمور المذكورة التي يتنعم بها ظاهرًا، «فإنما هو» أي: النعيم بمعنى التنعم والتلذذ «بشهوده» تعالى «واقترابه» أي: إنما يكون نعيمًا حقيقيًا إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء مشاهدًا له وحاضرًا معه، فإن لم تكن بتلك الحالة فليس ذلك بنعيم حقيقة، بل هو عذاب، «والعذاب» أي: التألّم «وإن تنوعت مظاهره» من الضرب والجحيم والسلاسل وغيرها «إنما هوَ» أي: العذاب بمعنى التألم «بوجود حجابه» تعالى أي: إنما يكون تألمًا حقيقة إذا كنت حال ملابستك

لتلك الأشياء محجوبًا عنه وكان غائبًا عنك فإن كنت مشاهدًا له؛ فليس ما أنت فيه عذابًا حقيقة بل هو نعيم «فسبب العذاب» أي: التألم.

«وجود الحجاب وإتمام النعيم» أي: النعيم التام أي: التلذذ والتنعم «بالنظر إلى وجهه الكريم» أي: مشاهدته بعين البصيرة في الدنيا وبالبصر في الآخرة وحاصله أن النعيم محصور في شهود الرب والتألم في الحجاب عنه، وأما ما يتنعم به ظاهرًا أو يعذب به ظاهرًا فليس بنعيم ولا عذاب بالنظر إلى ذاته.

الحكمة الواحدة والعشرون بعد المائتين

«ما تَجِدُهُ القلوبُ من الهمومِ والأحزانِ فلأجلِ ما منعَتْهُ من وُجُودِ العِيَانِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«ما تجده القلوب من الهموم والأحزان» الدنيوية، «فلأجل ما منعت من وجود العيان» أي: معاينة الرب ومشاهدته بعين البصيرة، والألم يحصل عندها هم ولا حزن على فوات شيء من الدنيا فوجد أنهما من نتائج رويته النفس واعتباره وبقاء حظها، فلو غاب الشخص عن رؤية نفسه بمعاينة سيده لكان دائم الفرح والسرور كما قال تعالى: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَّ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠].

فمن استنار قلبه بنور المعرفة لا يكون عنده غم أبدًا، لكن في وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام إذا لم يقدر على دفعها عنه فوائد جلية؛ لأنها توجب خمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر والبطر والفرح بالدنيا والهم ما يتعلق بما يكون في المستقبل والحزن لما يتعلق بما يكون في الماضي، ويصح أن يكون هذا شاملًا للأمور الأخروية أيضًا، فأهل النار لا يحصل للواحد منهم هم ولا حزن إلا إذا شاهد مولاه؛ فإن شاهده لم يحصل عنده ذلك بل يكون العذاب في حقه عذوبة.

يقول السياجي يغفر الله له:

«هذا القول قول فرضي أي: على توهم أن أهل النار يشاهدون ربهم؛ لأن الشريعة بنيت على ذكر أهل النار أنهم ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥]».

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائتين

«من تمامِ النعمةِ عليك أن يرزقَك ما يكفيك ويمنعَكَ ما يُطْغيكَ، ليقلَّ ما تفرحُ به يَقِلُّ ما تحزن عليه، وإنْ أردتَ ألا تُعْزَلَ فلا تتولَّ ولايةً لا تدومُ لك، إنْ رَغَّبَتْكَ البداياتُ زَهَّدَتْكَ النهاياتُ، إن دعاك إليها ظاهرٌ نهاك عنها باطنٌ، إنما جعلها محلاً

للأغيار ومعدنًا لوجود الأكدار تزهيدًا لك فيها، عَلِمَ أنك لا تقبل النُّصح لمجرد القول فذوقك من ذوقها ما سهَّل عليك فراقَهَا»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك» من غير زيادة ولا نقصان، «ويمنعك ما يطغيك» أي: يوقعك في الطغيان وهو كثرة المال قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[العلق:٦-٧].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من تمام نعمة الله على عبده أن يوجه همته إليه، ويفرغ قلبه من التعلق بغيره كائنًا ما كان، فيرزقه ما يكفيه عن التعلق بغيره وهو الغنى بالله، إذ لا نعمة أعظم من الغنى بالله، والغيبة عما سواه، ويكفيه كل ما يطغيه حتى يشتغل به عن ربه، فإذا رزقك الحق تعالى ما يكفيك لقيام بشريتك أكلًا ولباسًا ومسكنًا، ولقيام روحانيتك علمًا وعملًا وذوقًا ومعرفة، ومنعك ما يطغيك ويشغلك عن حضورك مع ربك، فقد أتم نعمته عليك، فاشكره على ما أسدى إليك، وتوجه إليه وحده فيما تعذر عليك، وادفع ما يشغل قلبك من النهوض إليه: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨]، ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وقد استعاذ ﷺ مما يشغل القلب وينسي الرب فقرًا أو غنًى، فكان يتعوذ من الفقر المنسي والغنى المطغي، وقال: «**اللهمَّ اجعلْ رزقَ آل محمدٍ قُوتًا**»، وقال ﷺ: «**خيرُ الذِّكر الخفيُّ**»، أي: في القلب وهو الفكرة، «**وخيرُ الرزق ما يكفي**»، وقال ﷺ: «**ما طلعت شمس إلا وبجناحيها مَلَكَان يُسمعان الخلائق غير الثقلين: أيها الناس هَلُمُّوا إلى ربكم، ما قلّ وكفى خيرٌ مما كَثُرَ وألهى**»، وقال ﷺ: «**ليس الغِنى بكثرة العَرَضِ، إنَّما الغنى غنى النفس**».

وقال عبد الواحد بن زيد ﷺ: سمعت أن جارية مجنونة في خراب الأيلة تنطق بالحكم، فكنت أطلبها حتى وجدتها وهي محلوقة الرأس وعليها جبة صوف، فلما رأتني قالت: مرحبًا بك يا عبد الواحد، فعجبت من معرفتها لي ولم ترني فقلت لها: رحب الله بك، ثم قالت: ما جاء بك؟

قلت: تعظيني، قالت: واعجبًا لواعظ يوعظ يا عبد الواحد، اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ومال إلى شيء من الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد وظل حيران ولِهًا، فإن كان له عند الله نصيب عاقبه وحيا في سره فيقول له: «**عبدي أردت رفع قدرك عند ملائكتي، وأجعلك دليلًا لأوليائي، ومرشدًا لأهل طاعتي، فملت إلى عرض الدينا وتركتني، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأُنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، ارجع إلى ما كنت عليه، أرجع إليك ما كنت تعرفه من نفسك، ثم انصرفت عني وتركتني وبقيت حسرتها في قلبي**».

وفي بعض الكتب المنزلة: «**إن أهون ما أصنع بالعالم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي**» انتهى.

وإنما كانت الكافية نعمة، والزيادة عليها نقمة كما قال الشيخ؛ لأن النفوس مجبولة على حب العطاء وكراهية الفقد، فإذا أعطاها فرحت، وإذا أزال عنها حزنت، فمن أراد أن يدوم فرحه فلا يأخذ فوق كفايته ما يحزن على فقده.

وفي الحديث: «**ما قل وكفى خير مما كثر وألهى**»[1].

أما أن نقص عن الكفاية فقد يكون معه اشتغال عن طاعة الرب فليس ذلك من تمام النعمة، ولما كان ذلك هو المناسب لحال المريد الصادق، لم يقل ويمنعك ما يطغيك أو يقلل رزقك عن كفايتك «ليقل ما تفرح به» من المال وغيره، «فيقل ما تحزن عليه»؛ فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضي بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه؛ لأنه دفع عنها مفسدة وجود الحزن بتركه ولم ينظر إلى حصول مصلحة الفرح بوجود الذي يزول عن قريب، ودرء المفاسد مقدم عند العقلاء على جلب المصالح، فالمفروح به هو المحزون عليه، إن قليلًا فقليل، وإن كثيرًا فكثير، «وإن أردت ألا تعزل، فلا تتول ولاية لا تدوم لك»، هذه من إفراد ما قبلها؛ لأن الولاية مآلها إلى الحزن لسبب وقوع العزل عنها بموت أو غيره ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا تقع في العزل عنها فيحصل عندك غاية الهم والحزن، «إن رغبتك» في الولاية «البدايات» أي: بداياتها من كونها رائقة الحسن مليحة الظاهر، وإن كل من تلبس بها حسن حاله ومنظره بين الناس وتيسر معاشه «زهدتك» فيها «النهايات»، فإن نهايتها مفارقتها بعزل أو موت فيحصل لك مزيد الضرر دنيا وأخرى؛ لأن الولايات قل من يسلم فيها بدينه، وذلك مما يحمل العاقل على الزهد فيها والهرب منها.

«إن دعاك إليها ظاهر» أي: ظاهر حالها من تيسر الملابس والمآكل عند التلبس بها، «نهاك عنها باطن» أي: باطن حالها من كونها شاغلة عن الله ومن حصول الضرر لكل من تلبس بها وهذا في المعنى يرجع لما قبله فالظاهر يرجع للبدايات والباطن للنهايات، «إنما جعلها» أي: الدنيا «محلًا للأغيار»، كالأمراض والمحن والبلايا.

وقوله: «ومعدنًا للأكدار»، بمعنى ما قبله، «ليزهدك فيها»، لأن الموجب لرغبتك فيها إنما هو ما تتوهم من حول أغراضك ومطلوباتك فيها من غير تكدير ولا تنغيص، وهو لا يكون أبدًا حتى لو فرض ذلك لكان اللائق لك الزهد فيها والرغبة عنها، لأنها مآل أمرها إلى الفناء والزوال ولشغلها إياك غالبًا عن الله تعالى.

لا يقال الزهد فيها يحصل بنصح الواعظ وتذكيره لأنا نقول: «علم» الله «أنك لا تقبل النصح المجرد»، لا يقبله إلا من استحكم فيه حب العاجلة والأنس بلذاتها الفانية، أما من

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٢١).

كان كذلك فلا بد من قصد هدايته من زيادة على النصح والوعظ، «فذوقك من ذواقها» أي: مما شأنه أن يذاق فيها وهو تلك الأمراض والبلايا والمحن، «ما يسهل عليك فراقها»، فإن العبد إذا نزل به شيء من ذلك يتمنى الموت ومفارقة الدنيا، فهو نعمة من الله عليه وإن لم يعرف ذلك لغلبة طبعه عليه وقد تقدم مثل هذا عند قوله، من لم يقبل على الله بملاحظات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان.

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائتين

«العلمُ النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعُه وينكشفُ به عن القلب قناعُه، خيرُ علمٍ ما كانت الخشيةُ معه، العلمُ إن قارنته الخشيةُ فلك وإلا فعليك»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله..

«العلم النافع»، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلم بكيفيته التعبد له والتأدب بين يديه، فهذا هو العلم «الذي ينبسط في الصدر شعاعه»، فيتسع وينشرح

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العلم النافع هو علم القلوب، ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل.

أو تقول: مرجعه إلى التخلية والتحلية، فيبحث أولًا عن عيوب النفس، وعيوب القلب، وعيوب الروح، وعيوب السر، فيطهر كل واحد من عيوبه، فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال، كالإيمان والإيقان والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة، وتحلى أيضًا بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة، فشعاع العلم الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين، وبرد الرضا والتسليم وحلاوة الإيمان ومواجيد العرفان، وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة، والقناع الذي ينكشف به عن القلب هو الغفلة، وسبب الغفلة هو الرضا عن النفس، وسبب الرضا عن النفس هو حب الدنيا الذي هو أصل كل خطيئة، فمن حب الدنيا ينشأ الحسد والكبر، والحقد والغضب، والشح والبخل، وحب الرياسة والقساوة، والفظاظة والقلق، وغير ذلك من العيوب.

فإذا انكشفت هذه الأمور عن القلب انبسط فيه شعاع العلم الذي هو ثلج اليقين وبرد الرضا، وما تقدم ذكره؛ لأن العلم بالله نور في القلب، وينبعث منه شعاع ينبسط في الصدر، فيكسبه الزهد في الدنيا، فإذا زهد في الدنيا اتسع صدره باليقين والرضا والتسليم وغير ذلك من المحاسن، فكشف القناع مقدم على بسط الشعاع، فلو قدمه لكان أولى؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، فلو قال: هو الذي ينكشف به عن القلب قناعه وينبسط في الصدر شعاعه، ويحتمل أن يريد بانبساط الشعاع في الصدر نور الإسلام والإيمان وهي أنوار التوجه، وبكشف القناع عن القلب كشف حجاب الحس وظلمة الكون، فتبدو أنوار المواجهة وهي أنوار الإحسان وأسرار العرفان، وعلى هذا يكون ترتيب كلام الشيخ حسنًا، والله تعالى أعلم.

للإسلام، «وينكشف به القلب عن قناعة»أي: غطاؤه وغشاوته فتزول عنه الشكوك والأوهام.

قال مالك بن أنس ﷺ: «ليس العلم بكثرة الرواية؛ إنما العلم نور يقذفه الله في القلوب، وإنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه ويبعده عن رؤية نفسه، وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه وإرادته»[1].

وقال المهدوي -قدس سره: «العلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب والزهد في الدنيا وما يقرب من الجنة ويبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها، وهو النور المشار إليه أنه نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء دون علم اللسان والمعقول والمنقول».

وجمع ذلك الجنيد -قدس سره- في قوله: «العلم أن تعرف ربك ولا تعد قدرك» أي: هو معرفة الله وحسن الأدب بين يديه ثم ذكر ﷺ عنه عبارة أخرى في بيان العلم النافع وتعريفه ملازمه فقال: «خير العلم ما كانت الخشية معه».

والخشية الخوف مع الإجلال، وقيل: هي الإجلال مع التعظيم، وقيل: الخوف مع العمل أي: خير العلوم ما تلزمه خشية لله تعالى وتصاحبه وهو العلم المتقدم؛ لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]،.

فكل علم لا خشية معه لا خير فيه، ولا يسمى صاحبه عالمًا على الحقيقة، ويلزم من مصاحبة الخشية له الوقوف على حدود الله وملازمة طاعته والوثوق به والإعراض عن الدنيا وعن طالبيها، والتقليل منها ومجانبة أبواب أربابها، والنصيحة للخلق، وحسن الخلق معهم، والتواضع، ومجالسة الفقراء، وتعظيم أولياء الله تعالى بخلاف العلم الذي لا تصاحبه الخشية، فإنه يكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والإدخال والمباهاة والاستكبار وطول الأمل ونسيان الآخرة، فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله بقدر ذلك، ثم ذكر عبارة أخرى من معنى ما تقدم فقال: «فالعلم إن قارنته الخشية فلك» منفعته في الدنيا والآخرة، «وإلا فعليك» مضرته فيها.

قال سفيان الثوري: «إنما يتعلم العلم ليتقى به الله وإنما فضل العلم على غيره؛ لأنه

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١) بنحوه.

يتقي الله فيه فإن اختل هذا القصد وفسدت نية طالبه بأن استشعر به التوصل إلى منال دنيوي من مال أو جاه، فقد بطل أجره وحبط وخسر خسرانًا مبينًا».

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ... ﴾ [الشورى: ٢٠].

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائتين

«متى آلمكَ عدمُ إقبال الناس عليك أو توجهُهُم بالذم إليك فارجعْ إلى علمِ الله فيك فإن كان لا يقنعُك علمُه فيك فمصيبتُكَ بعدم قناعتك بعلمه أشدُّ من مصيبتك بوجود الأذى منهم، إنَّمَا أجرى الأذى عليهم كَيْ لا تكونَ ساكنًا إليهم أراد أن يُزعجَك عن كُلِّ شيءٍ حتَّى لا يُشْغِلُكَ عنه شيءٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«متى آلمك» أي: وجد عندك الألم والغم، «عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله» أي: اقنع بعلمه فيك واكتف به عن علمه بحالك المقتضي لإقبالهم عليك وعدم ذمهم لك فإن كنت عبدًا لله مخلصًا في أعمالك مقبولًا فأي شيء يضرك مع كونك عند الخلق ليس على ذلك الوصف حتى يتوجهوا إليك بالذم والأذى.

وإن كنت حقيرًا ممقوتًا لعدم إخلاصك فأي شيء ينفعك من إقبالهم عليك ورضاهم عنك وثناؤهم عليك، «فإن كان لا يقنعك علمه»، بأن أحببت أن تدخل مع علمه علم غيره حتى يطلع على إخلاصك وأعمالك فيعظمك ويقبل عليك، «فمصيبتك» الحاصلة، «بوجود الأذى منهم»، بذلك والإعراض عنك؛ لأن عدم القناعة بعلمه تعالى يردك إليهم، فهو مصيبة ولا بدَّ، وإذا هم بردك إليه فهو فائدة في الواقع ونعمة.

وإن كان مصيبة في الظاهر؛ فلا ينبغي للمريد أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه، ولا يحزن إلا بإعراضه عنه ولا ينظر إلى المخلوقين في إقبال أو إعراض ولا مدح ولا ذم؛ فإنهم لا يغنون عنه من الله شيئًا، فمن أهمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، ويكتفي بعلمه بحاله ولا يحب أن يدخل مع علمه علم المخلوقين حتى يعظموه.

قال إبراهيم التيمي لبعض أصحابه: «ما يقول الناس فيَّ؟» قال: يقولون إنك مرائي، فقال: «الآن طاب العمل».

وقال بشر الحافي: «سكون القلب إلى قبول المدح له أشد عليه من المعاصي».

«فإنما أجري على أيديهم» إليك أيها المريد «كي لا تكون ساكنًا إليهم» أي: معتمد

عليهم في تحصيل نفع أو دفع ضر تاركًا لجناب مولاك، وقوله: «أراد أن يزعجك عن كل شيء» بتوجه الخلق إليك بالأذى «حتى لا يشغلك عنه شيء»، هو بمعنى ما قبله.

قال في «لطائف المنن»: «اعلم أن أولياء الله حكمهم في بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا وتكتمل فيهم المزايا، ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا إليه باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجد امتنانه».

ثم قال: «وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ ظهورهم ستر الله في أحبابه أصفيائه».

وقال الشاذلي -قدس سره: «آواني إنسان مرة فضقت ذرعًا بذلك فنمت فرأيت يقال لي: من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم».

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائتين

«إذا عَلِمْتَ أنَّ الشيطانَ لا يغفلُ عَنْكَ فلا تغفلْ أنتَ عَمَّن نَاصِيَتُكَ بيده، جعله لك عدوًّا ليَحُوشَكَ به إليه، وحَرَّكَ عليك النفسَ لِيُديمَ إقبالَك عليه»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اعلم أن الحق تعالى جعل بحكمته الشيطان والنفس والناس حراس الحضرة فلا يدخل الحضرة حتى يخرق فيهم ويجوز عنهم، لأنهم واقفون بالباب، وكلهم الله بباب حضرته، وقال لهم: لا تتركوا أحدًا يدخل إلا من يغلبكم، فوقفوا بالباب، فإذا جاء من يريد الدخول تعرض له الخلق، فيعيبون له الطريق، وينكرون من يعرفها، فإذا غلبهم جاءه الشيطان يطول عليه مدة الفتح، ويخوفه من الفقر، ويقول له: متى يفتح الله عليك؟ قيل يكون وقيل: لا يكون، فإذا غلبه وزاد تعرضت له النفس تقول له: كيف تترك دنياك وجاهك وعزك إلى شيء يكون أو لا يكون؟ فإذا غلبها قال له الحق تعالى: مرحبًا بك وأهلًا، ولكن القواطع لا يزول طمعها عنه حتى يسكن في الحضرة، ولذلك قالوا: والله ما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع.

وقال آخر: والله ما نشكر خليع وإن ثمل وإن صحى حتى يقطع في القطيع، ويدور دور الرحى، وإن ثبت يسر سريع، وإن شرب حتى امتحى.

فإذا علمت أيها الفقير أو الإنسان أن الشيطان لا يغفل عنك ساعة، لأن له بيتًا في صدرك من جهة شمالك، فإذا غفلت عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكرت الله انخنس، فإذا علمت ذلك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك وناصيته بيده، وهو الحق تعالى، فإذا أشغلت بالله رده عنك وكفاك أمره قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

وقد حذَّر الله تعالى منه في كتابه قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]، ففهم قوم أن الشيطان لهم عدو فاشتغلوا بمحاربته ففاتهم محبة الحبيب، وفهم قوم أن الشيطان لكم عدو وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الحبيب فكفاهم عداوة العدو كما قال الشيخ أبو العباس.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ: عداوة العدو حقًّا هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقًّا، فإذا اشتغلت =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إذا علمت» أيها المريد «أن الشيطان لا يغفل عنك» أي: عن إضلالك وإغوائك ومحاربتك لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ.. ﴾[الأعراف:١٧].

وقد ورد «أن لكل أحد من الناس شيطانًا واضعًا خرطومه على قلبه، فإذا غفل عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكر خنس»(١) أي: تأخر واستتر.

«فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده»، وهو الله تعالى أي: الاعتصام والاحتماء به سبحانه، فإنه يكفيك همه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر:٤٢]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩]، فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الإيمان بالله والعبودية له والتوكل عليه والالتجاء والافتقار إليه والاستعاذة به كيف لا ينصره على عدوه.

قال ذو النون المصري: «إن كان هو يراك من حيث لا تراه؛ فإن الله يراه من حيث لا يرى فاستعن بالله عليه».

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال إبليس لربه ﷻ: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم: فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**»(٢).

«جعله» الله «لك عدوًا»، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ...﴾ [فاطر:٦]، «ليحوشك به إليه»؛ لأنك إذا عرفت أنه لا طاقة لك على مقابلته بنفسك لما أنت عليه من غاية الضعف والعجز اضطررت لا محالة على الاستعانة عليه بمولاك القوي المتين، ووجد منك الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه في دفعه عنك، فعداوة الشيطان هي التي ردك الحق بها إليه وجمعك بها عليه.

=

بعداوة العدو فاتتك محبة الحبيب ونال عدوك مراده منك.

وقال الشيخ زروق ﷺ: وإنما يندفع الشيطان بالتوكل والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩]، وقيل: الشيطان كلب، إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب، وإن رجعت إلى ربك صرفه عنك برفق.

وقال ذو النون المصري ﷺ: إن كان هو يرانا من حيث لا نراه فالله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه انتهى.

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٠٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٠).

وهذا هو غاية المقصود وهذا في حق غير المحبوبين الذين صرفوا همتهم إلى جانب الحق أما هم، فلا يحتاجون إلى عدو يحوشهم؛ لأن تعلقهم به كالطبيعي فيهم، فلا يلتفتون إلى إبليس، ولولا أمر الله تعالى لهم بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ومن هو حتى يستعاذ بالله منه «وحرك عليك النفس» بطلب متابعة الهوى والشهوة، «ليدوم إقبالك عليه»؛ لأنك لا تقدر أيضًا على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك وليس ذلك إلا مولاك فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه والعكوف بالهم عليه لا سيما وهي أعدى أعدائك إذ بواسطتها يتوصلون إليك، ولأنها عدو من داخل البيت، وعداوة العدو الذي من داخل البيت ولذا سمى ﷺ جهادها بالجهاد الأكبر.

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائتين

«مَنْ أثبتَ لنفسه تواضعًا فهو الْمُتَكَبِّرُ حقًّا إذ ليس التَّوَاضُعُ إلا عن رِفْعَة فمتى أثبتَ لنفسكَ تواضعًا فأنتَ الْمُتَكَبِّرُ، ليس المتواضعُ الذي إذا تواضعَ رأى أنه فوقَ ما صنَعَ ولكنَّ المتواضعَ الذي إذا تواضعَ رأى أنه دون ما صنع، التواضعُ الحقيقيُّ هو ما كان ناشئًا عن شهودِ عظمته وتجلِّي صفتِه، لا يُخْرِجُكَ عن الوصفِ إلا شهودُ الوصفِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«من أثبت لنفسه تواضعًا» بأن خطر بباله أنه متواضع، «فهو المتكبر حقًا»، «إذ ليس التواضع» أي: ليس إثباته ناشئًا «إلا عن» شهود «رفعة»، كان يستحقها وأنه تنازل عنها إلى ما دونها، «فمتى أثبت لنفسك رفعة»، في ضمن إثبات التواضع، «فأنت المتكبر حقًّا»، ولا ينتفي عنك التكبر إلا بوجود الصفة حقيقة بألا ترى لنفسك مرتبة ولا قيمة.

ثم قال: «ليس المتواضع الذي إذا تواضع» أي: فعل أفعال المتواضعين بأن يجلس في أسفل المجالس مثلًا، ولكن المتواضع حقيقة هو الذي لا يثبت التواضع لنفسه؛ لأنه يشاهده من صفة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته مما يمنعه من ذلك.

ومن كان متصفًا بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعًا؛ لأنه يرى نفسه فوق ما صنع لغلبة الشهود عليه، فإن أثبت لنفسه ورأى نفسه فوق ما صنع مما يقتضي وجود صفة التواضع له بزعمه، فهو متكبر حقيقة.

ولذا قال الشبلي: «من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب»، وقال: «ذلي عطل اليهود».

ومن علامة التحقق بهذا الخلق أنه لا يغضب إذا عوتب أو انتقص ولا يكره أن يذم ويقذف بالكبائر ولا يحرص أن يكون له عندهم قدر ولا جاه ولا يرى لنفسه موضعًا في قلوب الناس، «التواضع الحقيقي هو ما» أي: انكسار وانهضام «كان ناشئًا من شهود عظمته وتجلي صفته»، يعني أن شهود عظمة الله تعالى وتجلي صفاته على العبد هو الذي يوجب له وجود التواضع الحقيقي؛ لأن ذلك هو الذي يخمد النفس ويذهبها ويبطل أمانيها، فما تجلى الله تعالى لشيء إلا خضع له فلا ينقطع من القلب شجرة الكبر وحب الرياسة إلا به، وخرج من التواضع الحقيقي المتقدم وهو الذي ينشأ من النظر لنقص النفس وعيوبها؛ فإنه ليس حقيقيًا لأنه قد يكون مشوبًا بشيء من الكبر والعجب.

ولذا قال الجنيد -قدس سره: «التواضع عند أهل التوحيد تكبر».

قال الغزالي: «ولعل المراد أن المتواضع يثبت لنفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت لنفسه ولا يراها شيئًا حتى يضعها، فهو غائب عن نفسه وحسه بما يشاهده من عظمة ربه».

قال في «عوارف المعارف»: «لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه فعند ذلك تذوب نفسه وعند ذوبانها صفاؤها عن غش الكبر والعجب».

ثم علل ما تقدم بقوله: «لا يخرجك عن الوصف» أي: عن أوصاف نفسك كالكبر والعجب، «إلا شهود الوصف» أي: شهود صفات ربك كعظمته، فالوصف المذكر أولًا هو وصف العبد والمذكور ثانيًا هو وصف الرب.

وهذه قاعدة كلية شاملة لما تقدم ولغيره، فلا خروج للعبد عن صفات نفسه إلا بشهوده لصفات ربه، فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر، ومن شهد غناه لم يبق له غنى، ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة، فيبقى بربه لا بنفسه، فإن من شهد أوصاف ربه لم يبق له خير عن نفسه.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائتين

«المؤمنُ يشغلُهُ الثناءُ على الله عن أنْ يكونَ لنفسه شاكرًا وتشغلُهُ حقوقُ الله عن أن يكونَ لحظوظه ذاكرًا، ليس المحبُّ الذي يرجُو من محبوبه عوَضًا ويطلبُ منه غرضًا؛ فإنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لكَ ليس الْمُحِبُّ مَنْ تَبْذُلُ له »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«المؤمن» الكامل «يشغله الثناء على الله» أي: وصفه بالأوصاف الجميلة، ونسبة الأوصاف الحميدة إليه، «عن أن يكون لنفسه شاكرًا» أي: معظمًا لها بنسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، فإذا قال: أنا صليت أو صمت ونسب الأفعال الجميلة إليه، لم يكن

مؤمنًا كاملًا؛ لأن ذلك فعل الله تعالى، والعبد مظهر لذلك فقط، ظهر فيه الفعل فلا معنى للاشتغال بالثناء على المظهر عن الثناء على الفاعل المعطي المنان، فالمؤمن الكامل لا ينسب الأفعال الحسنة والأحوال السيئة إلى نفسه، ولا يلتفت إليها، فيكون لها شاكرًا أي: معظمًا، بل يغيب عن ذلك بنسبتها إلى موجدها ومنشئها وهو الله تعالى، «وتشغله حقوق الله» أي: الحرص على توفية حقوقه تعالى، «عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا» أي: ملتفتًا لها بأن يعبد الله تعالى لذاته لا يطمع في جنته أو هرب من ناره، فإنه، «ليس المحب» الحقيقي «الذي يرجو من محبوبه عوضًا» على عمل يعمله، فلا يقصد بأعماله الصالحة جنة ولا نجاة من نار، «أو يطلب منه غرضًا»، من الأغراض الدنيوية والأخروية، «فإن المحب» أي: الحقيقي، «من يبذل لك» أي: يعطيك، «ليس المحب» الحقيقي «من يبذل له»؛ لأن المحبة الحقيقية أخذ خصال المحبوب بمحبة القلب فلا يصير عند المحب التفاتٌ لغير محبوبه، فمن عبده تعالى لجنّته فليس مُحِبًّا له، بل للجنّة.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائتين

«لولا ميادينُ النفوسِ ما تَحقَّقَ سيرُ السائرين، لا مسافةَ بَينكَ وبَينهُ حَتَّى تَطوِيَهَا رحلتُك، ولا قطعةٌ بَينَكَ وبَينَهُ حَتَّى تَمحُوَهَا وصلَتُكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لولا ميادين النفوس» أي: شهواتها وعاداتها ومألوفاتها الشبيهة بالميادين أي: المواضع مرتكض الخيل بجامع الجولان في كل أرجائها، فكما أن الخيول تجول في الميادين كذلك النفوس تجول في مشتهياتها، والمعنى لولا هذه الشهوات التي تخوض فيها النفوس وتتعشقها، «ما تحقق سير السائرين» أي: ما تصور سير ولا سلوك إلى حضرة ملك الملوك؛ لأنه تعالى أقرب لكل أحد من نفسه.

قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق:١٦]، فالبعد الذي يوجب السير إلى المحبوب، وسلوك الطريق إليه قائم بك أيها العبد، وهو شهواتك ولو عدمت منك لم تحتج إلى سير ولا سلوك؛ لأن البعد الذي يحتاج إلى ذلك منفي عنه سبحانه وتعالى حسِّيًا كان أو معنويًّا، كما أشار إلى ذلك بقوله: «لا مسافة» حسِّية «بينك وبينه حتى تطويها رحلتك» أي: ارتحالك لأن المسافة الحسِّيةَ لا تكون إلاّ بين متماثلين يصل أحدهما إلا صاحبه، «ولا قُطعة» بضم القاف أي: انقطاعًا وعداوة «بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك»؛ لأن الانقطاع والعداوة لا يكونان إلا بين متضادين متعاديين فيحتاج أحدهما إلى الوصلة والمودة وأين أنت من الله حتى تعاديه.

والحاصل: أنك عن انتفاء الشهوات منك لا تحتاج إلى سير؛ لأن السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثار دواعيها وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى وتصل إلى سعادة لقائه، ولولا معاناة هذه الأشياء، لم يتحقق السير والسلوك، كيف والحق أقرب إليك من نفسك، فالبعد الحسي وهي المسافة التي تطويها رحلتك والبعد المعنوي وهي القطعة التي تمحوها وصلتك محالان في حقه تعالى لنفي المثلية في الأول وعدم الضدية في الثاني، فنفسك هي الحجاب الأعظم عن الله وبمجاهدتها وقمعها وموتها تصل إلى الله.

وقال أبو مدين: «من لم يمت نفسه لم ير الحق».

وقال الأستاذ أبو العباس: «لا يدخل على الله إلا من بابين، باب الفناء الأكبر وهو الموت الطيفي، وباب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة».

وعن حاتم الأصم: «من دخل في مذهبنا هذا؛ فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موت أحمر وهو مخالفة النفس، وموت أسود وهو احتمال الأذى، وموت أبيض وهو الجوع، وموت أخضر وهو طرح الرِّقاع بعضها على بعض».

ولا بدَّ للمريد في هذه الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تأديب نفسه وتخلص من هواه، فيسلم نفسه إليه ويلزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد، فقد قالوا: «من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه».

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائتين

«جَعَلَكَ في العَالم المتوسِّط بَينَ مُلكه ومَلَكُوته، ليُعَلِّمَك جَلالةَ قَدرِكَ بَينَ مَخلُوقَاته، وأنَّكَ جَوهَرةٌ تُطوَى عَلَيْهَا أصدَافُ مُكوناته، وَسِعَكَ الكونُ من حَيثُ جُثْمَانيَّتِكَ، ولم يَسَعْكَ من حيثُ ثُبُوتِ رَوْحَانِيَّتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«جعلك» أيها الإنسان «في» زائدة «العلم المتوسط بين ملكه وملكوته» أي: جعلك العالم المتوسط بين عالم الملك وهو عالم الشهادة وعالم الملكوت، وهو عالم الغيب، فالإنسان ليس من عالم الملك محضًا ولا من عالم الملكوت محضًا، بل هو متوسط بينهما حِسًّا ومعنى.

أما حسًّا فلأن الله تعالى خلقه بين السماء والأرض وغيره من الحيوانات وغيرها مخلوق لأجل انتفاعه به، وأما معنى، فلأن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم، وجعله متضمنًا لأسرار جميع الموجودات، علويها وسفليها، لطيفها وكثيفها، فصار بذلك روحانيًا جسمانيًا سماويًّا

أرضيًّا، ولذا يقال له: العالم الأصغر، ويقال إنه نسخة من العوالم، ففيه من صفات الملائكة؛ العقل والمعرفة والعبادة، ومن صفات الشياطين؛ الإغواء والتمرد والطغيان.

ومن صفات الحيوان؛ أنه في حالة الغضب يكون أسدًا وفي حالة غلبة الشهوة يكون خنزيرًا لا يبالي أن يلقي نفسه، وفي حالة الحرص على الدنيا والشره؛ يكون كلبًا، وفي حالة الاحتيال والخداع يكون ذئبًا.

ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون في مبدئه غضًا طريًا مترعرعًا، وفي آخره يابسًا، أسود، ومن صفات السماء أنه محل للأسرار والأنوار ومجمع الملائكة.

ومن صفات الأرض أنه محل لنبات الأخلاق والطباع، ومنه اللين والخشن، ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلي، واللوح أنه خزانة العلوم، والقلم أنه ضابط لها والجنة إذا حسنت أخلاقه تنعم جليسه به والنار أنه إذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه، وإنما جعلك كذلك «ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته»، وأنها كلها مسخرة إليه ومخلوقة لأجل انتفاعك بها؛ فينبغي لك أن ترفع همتك عنها وتشتغل بمولاك.

قال أبو العباس المرسي: «الأكوان كلها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة».

فهذا يتعلق بالتوسط الحسي على ما مر، وأشار إلى ما يتعلق بالتوسط المعنوي بقوله: «وأنك جوهرة تنطوي عليها أصداف مكوناته» أي: أصداف هي مكوناته أو مكنوناته الشبيهة بالأصداف، جمع صدفه، وهي ما فيه الجوهرة وانطواؤها عليه من حيث إن صفاته جميعها فيه على ما مر ولم يخلق على هذه الصفة إلا الإنسان، فلذا خلقه الله على صفاته وجعله خليفة في تنفيذ أمره ونهيه وجعل له وجهتين، وجهة إلى الحق ووجهة إلى الخلق.

وأما الملائكة ومن في معناهم من الروحانيين، فليس لهم إلا الوجهة الأولى، وهذا في جملة كل إنسان، لك لا يظهر له إلا بعد الرياضة والمجاهدة، ويسمى حينئذ الإنسان الكامل، وهذه أسرار لا تدرك إلا بالذوق، ولا تفشى لغير أربابها.

ثم أشار إلى خاصية أخرى لذلك الإنسان بقوله: «وسعك الكون» أي: العالم السفلي، وهو الأرض «من حيث جسمانيتك» بضم الجيم أي: جسمك؛ لأن جسمك بعض الكون ومحصور فيه ومصالحه غير خارجة عنه، «ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك» أي: روحك؛ لأنها ليست من هذا العالم ولا مناسبة بينها وبينه، فلا تصلح أن تتعلق بشيء منه، بل لا تصلح أن تتعلق إلا بالمولى سبحانه.

والحاصل: أن الإنسان مجموع شيئين، جسم وروح، وبين الجسم والكون مناسبة ومجانسة، فهو متوقف على الكون، فإذا تعاطى منه ما يقوم به بقي في هذا العالم وإلا هلك حسبما جرت به العادة الإلهية، وليس بين الكون والروح مجانسة ولا مناسبة، فلا تصلح أن

تكون متعلقة به، بل المكون، وهو المولى جلت قدرته، وحينئذ ينبغي السعي في تكميلها بالأذكار والرياضيات حتى تزول عنها الكدورات البشرية وتصلح لتعلقها بحضرة الرب الذي هو شأنها الأعظم، وأما الجسمي، فلا ينبغي الاهتمام بما يصلحه، فإن الله متكفل به ولا بدَّ.

ولذا قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... وتطلب الربح فيما فيه خسران

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

الحكمة الثلاثون بعد المائتين

«الكائنُ في الكونِ ولم تُفْتَحْ له ميادينُ الغُيُوبِ مُسْجُونٌ بمُحيطَاته مَحْصُورٌ في هَيْكَلِ ذَاته، أنتَ مع الأكوانِ ما لم تشهدِ الْمُكَوِّنَ فإذا شَهِدْتَهُ كانَتِ الأكوانُ معك»(١)

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الكائن في الكون» أي: الموجود في الدنيا، «ولم تفتح له ميادين الغيوب» أي: لم يفتح قلبه للعلوم والمعارف الشبيهة بالميادين، «مسجون بمحيطاته» أي: بشهواته ولذاته، فهو مرادف لما قبله، «أنت مع الأكوان» أي: واقف معها ومستند إليها، وهي مستبعدة لك، «ما لم تشهد المكون»، فيها «فإذا شهدته» فيها «كانت الأكوان معك» أي: كنت مستغنيا عنها ومالكها وهي محتاجة إليك وخادمة لك، فإذا طلبت منها شيئًا حصل، وإذا قلت للشيء كن كان بإذن الله تعالى.

ولذا كان بعض الأولياء يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللريح هبي فتهب، وسب ذلك غيبته عنها بشهود مكونها، ومعلوم أن حالة الشهود يغيب فيها الولي عن حسه وبشريته

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ميادين الغيوب: هي ما أدركته الروح حين خرجت من ضيق الأشباح إلى عالم الأرواح، ومن فضاء الشهود إلى معرفة الملك المعبود، فمادام الإنسان في الكون بحيث لا يشهد إلا الكون، ولا يدرك إلا الحس، ولم تفتح له ميادين الغيوب: أي لم يخرج إلى فضاء الشهود؛ فهو مسجون بمحيطاته: أي بالأكوان المحيطة به كالسموات والأفلاك الدائرة به، فهو في سجن الأكوان محصور أيضًا في هيكل ذاته: أي في شكل بشريته وكثائف جسمه، فإذا غلبت روحانيته على بشريته فقد خرجت من حصر الهيكل، وإذا نفذت بصيرته إلى فضاء الملكوت أو بحار الجبروت فقد خرجت من سجن الأكوان إلى شهود المكون، فحينئذٍ تتحرر من رق الأكوان، وتحظى بنعيم الشهود والعِيان.

وأما مادام محصورًا في الهيكل مسجونًا في الأكوان، فهو محجوب عن الله ولو كان عالمًا بالعلوم الرسمية متبحرًا فيها، إذ لا يزيده التغلغل فيها إلا حجابًا عن الله.

ولا يلزم من ذلك فناؤها.

الحكمة الواحدة والثلاثون بعد المائة

«لا يلزمُ من ثبوتِ الخُصُوصيَّةِ عدمُ وصفِ البشريَّة، إنَّما مثلُ الخصوصيَّةِ كإشراقِ شمسِ النَّهَارِ ظهرتْ في الأُفُقِ وليستْ منه تارةً تُشْرِقُ شموسُ أوصافِه على ليلِ وُجُودِكَ، وتارةً يقبضُ ذلك عنك فَيَرُدُّكَ إلى حُدُودِكَ، فالنَّهارُ ليس منك إليك ولكنَّه واردٌ عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا يلزم من ثبوت الخصوصية» أي: ما يخصك الله به من القوة والقدرة على التصريف في المكونات والكشف عن أحوالها وغير ذلك، «عدم وصف البشرية»، كفقر وضعف وعجز وذلك وجهل؛ لأن الوصف البشري أمر ذاتي لازم للعبد، والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها، ثم ضرب لذلك مثالًا لأمر محسوس بقوله: «إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار» أي: كشمس النهار المشرقة «ظهرت في الأفق» أي: نواحي السماء «وليست منه» أي: ليست من ذاتياته.

وكما أن شمس النهار إذا ظهرت على الآفاق المظلمة استنارت، وإذا غربت رجعت إلى حالها من الظلمة؛ لأن النور ليس ذاتيًا لها، بل هو عرض، والأمور العرضية لا تزيل الذاتيات، كما مر، كذا الأوصاف البشرية القائمة بذاتك، كالفقر والعجز والضعف شبهة بالليل، فإذا ظهر عليها شمس التجلي كأن يتجلى الله عليك بصفة الغنى والقدرة استنارت ذاتك أي: حصل لها نور بالغنى والقدرة، وإذا قبض عنها ذلك رجعت إلى حالها.

وإلى هذا أشار بقوله: «تارة تشرق شموس أوصافه» تعالى، الشبيهة بالشموس «على ليل وجودك» أي: على أوصافك الذاتية الشبيهة بالليل فتظهر خصوصيتك فتكون قادرًا بالله، قويًا بالله، عالمًا بالله، وهكذا فإذا تجلى عليك بصفة القدرة حدث فيك قوة غطت عجزك، أو بصفة العلم حدث فيك علم غطى جهلك وهكذا، «وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك»، من العجز والضعف والجهل، وغير ذلك، فلا تظهر خصوصيتك، ولذا كان عليه الصلاة والسلام تارة يظهر عليه وصف القوة والقدرة فيطعم ألفًا من صاع، وتارة يظهر عليه وصف العجز، فيشد الحجر على بطنه من الجوع، وكذا ورثته من الأولياء، «فالنهار»، وهو تلك الخصوصيات التي ظهرت عليك، «ليس منك إليك» أي: ليس من أوصافك الذاتية، «ولكنه وارد عليك» من حضرة الحق سبحانه، فإن شاء إبقاه وأن شاء أزاله.

ولذا نرى بعض الأولياء في بعض الأحيان عندهم قوة بطش، وفي بعضها يكونون عاجزين، ومع هذا شموس أنوار قلوبهم وهي المعارف والأسرار لا تغيب ولا تغرب كما مر، وإنما الذي يغيب هو الخصوصيات التي تظهر على ظواهرهم وهي الشموس المرادة هنا، فلا تعارض.

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائتين

«دلَّ بوجودِ آثارِهِ على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثُبُوتِ أوصافه، وبوجود أوصافه على وجود ذاته، إذ محالٌ أن يقومَ الوصفُ بنفسه، فأربابُ الجذب يُكْشَفُ لهم عن كمالِ ذاته، ثُمَّ يَرُدُّهُم إلى شهود صفاته، ثم يردهم إلى التَّعَلُّقِ بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره، والسالكون على عكس هذا؛ فنهايةُ السالكين بدايةُ المجذوبين، لكن لا بمعنًى واحد، فرُبَّمَا التقيَا في الطريق هذا في تَرَقِّيهِ وهذاً في تَدَلِّيهِ»[(١)]

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«دل بوجود آثاره» أي: مكوناته ومصنوعاته المتقنة المحكمة «على وجود أسمائه»، إذ لا يصدر ذلك إلا من قادر مريد عالم، «وبوجود أسمائه على ثوابت أوصافه»، من القدرة والإرادة والعلم، «أو بثبوت أوصافه على وجود ذاته»، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه»، وهذا حال السالكين، فإن أول ما يظهر لهم الآثار، وهي الأفعال فيستدلون بها على الأسماء وبالأسماء على الصفات وبالصفات على وجود الذات، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئًا إلا ورأينا الله بعده.

وأما المجذوبون فبالعكس، كما أشار إلى ذلك بقوله: «فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته» أي: عن ذاته الكاملة فيدركون عيانًا إدراك ذوق، «ثم يردهم إلى شهود صفاته»،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه طريقة الترقي، فوجود الأثر يدل على وجود القادر والمريد والعليم والحق مثلًا، فالقادر يدل على قيام القدرة به بحيث لا تفارقه، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر، وهنا افتراق أهل الظاهر من أهل الباطن.

فأهل الظاهر أثبتوا من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات، ولم يقدروا على شهود الذات، غلبهم الحس عن شهود المعنى، والوهم عن ثبوت العلم، وشهود الحكمة عن شهود القدرة.

وأهل الباطن لما فرغوا قلوبهم من الأغيار، وباعوا نفوسهم للواحد القهار فتح الله عين بصيرتهم، وأطلعهم على مكنون سره، فأفردوا الحق بالوجود، وانتفى عن بصيرتهم نظرهم كل موجود، إذ محال أن يفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها، فلزم من وجود الصفات وجود الذات، وهذا هو سر الخصوصية الذي خص الله بها أولياءه، ولم يشاركهم فيه غيرهم.

بأن يشاهدوا ارتباطها بالذات، «ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه»، بأن يشاهدوا تعلقها بالآثار، «ثم يردهم إلى شهود آثاره» أي: صدورها عن الأسماء، فأول ما ظهر لهم حقيقة الذات المقدسة، ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات، ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء، ثم أنزلوا إلى شهود الآثار، وهم الذين يقولون: ما رأينا شيئًا إلا رأينا الله قبله، «والسالكون على عكس هذا» كما مرَّ.

فـ«نهاية السالكين» وهي شهود الذات المقدسة والكشف عن كمالها «بداية المجذوبين وبداية السالكين»، وهي التعلق بالآثار وشهود استنادها إلى الله «نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحد» أي: ليس متحدين من كل وجه، فإن نهاية السالكين وإن كان فيها جذب لكنه مصحوب بالتمكن وعلم أحوال الطريق ومعرفة عقبات النفوس، فإنهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بعد عناء وتعب ومشقة، بخلاف بداية المجذوبين؛ فإنها ليست معها تمكن.

فلذا يحصل لهم الغيبة، وتصدر منهم أفعال لا يدرون ما هي، ويتركون الفرائض، ويفعلون أفعالًا منكرة في الشرع ولا يعاقبون على ذلك لتغطية عقولهم التي عليها مدار التكليف بالأنوار، وبداية السالكين ليس معها شهود لكمال الذات والأسماء والصفات بخلاف نهاية المجذوبين، فإنهم لم يحصل لهم حالة الصحو إلا بعد مشاهدة ذلك.

فالسالكون عاملون في ترقيهم على طريق الفناء والمحو، والمجذوبون مسلوك بهم في تدليهم طريق البقاء والصحو، فإذا كان كذلك، «فربما التقيا في الطريق هذا» أي: السالك «في ترقيه» من الخلق إلى الحق، فربما اجتمعا في تجلى الأسماء أو الصفات بأن يكون كل منهما مشاهدًا لأسمائه تعالى مثلًا لكن المجذوب إذا انتقل من ذلك ينتقل إلى الآثار والسالك إلى الصفات، والسالك أفضل من المجذوب للانتفاع به بخلاف المجذوب، فإذا أراد الله تكميل حاله أصحاه، وكل من علم السالك والمجذوب وهبي ذوقي، وإن كان مبدأ علم الأول استدلاليًّا كما يؤخذ من قوله: «دلك بوجوه آثاره».

فالمجذوب مادام في جذبه لا يصلح للمشيخة لعدم مروره على المقامات ومعرفته بغوائل النفوس، ولاشتغاله بحاله عن حال غيره، كما أن السالك إذا لم يصل إلى درجة المشاهدة والتجلي لا يصلح للمشيخة لنقص، وإنما يصلح لها من جمع بينهما سواء تقدم سلوكه على جذبه أو بالعكس، وقد يمر المجذوب على المقامات بسرعة، ويعرف غوائل النفوس كذلك فيصلح للمشيخة مع جذبه، لكن هذا في بعض المجاذيب.

يقول السياجي يغفر الله له:

«ذكر الشارح مثالًا لمن اجتمع فيه أمر السلوك والجذب وسماه ولكن منعًا للخلاف ودرءًا للتنصيص على شخص بعينه آثرت حذف الاسم مع ترك الصفة على إطلاقها، وذلك

لعموم النفع، وليتقبل الله من الجميع، وليغفر الله لجميع أموات المسلمين، ويدخلهم في رحمته».

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائتين

«لا يُعْلَمُ قَدْرُ أنوارِ القلوبِ والأسرارِ إلا في غيبِ الملكوت كما لا تظهرُ أنوارُ السماء إلا في شهادة الملكِ»(١)

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اعلم أن الناس كلهم عندهم النور في قلوبهم، بدليل قوله ﷺ: «كُلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة» أي: على أصل النشأة الأولية، وهي القبضة النوارنية، وقال تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور٣٥].

قال أهل تفسير الظاهر: أي نور أهل السموات والأرض، وهو عام في كل موجود فيهما، فقد تحقق أن النور سار في الجميع، فمن الناس من حجب عن هذا النور وعمي عنه، وهو من وقف مع ظاهر الملك وهو قِشر الكون وحسه الظاهر، ويسمى عالم الأشباح ولم ينفذ إلى باطنه وهو الملكوت، ويسمي عالم الأرواح، فهذا محجوب عن نوره الباطني لا يرى إلا النور الحسي، لأنه مسجون في سجن الأكوان محصور في ظلمة الحس والوهم، ومن الناس من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطني فيه، ولم يقف مع القشر، بل نفذ إلى شهود اللب، وهو نور الملكوت وأسرار الجبروت.

فإذا تحققت هذا علمت أنه لا يعلم بالبناء للمفعول: أي لا يظهر قدر أنوار القلوب الغيبية وشرفها، وأنوار السرار القدسية وكمالها إلا في غيب الملكوت والجبروت، فأنوار القلوب لا يعلم قدرها إلا في غيب الملكوت، وهي الأنوار المتدفقة من بحار الجبروت، فمن لم ينفذ إلى شهود الملكوت لم يعلم قدرها، بل لم يعرفها أصلًا، وأنوار الأسرار لا يعلم قدرها إلا في غيب الجبروت وهي الأنوار الأصلية الأزلية، وهو ما لم يدخل عالم التكوين، فمن كان محجوبًا في عالم الملك لا يعلم قدر أنوار الملكوت ولا يحس بها، بل ينكرها كما شهدناه ممن يدعي الخصوصية، وهو بعيد منها، ومن كان واقفًا مع أنوار الملكوت لا يعلم قدرا أنوار الجبروت، ومن نفذ منهما شهد الجميع، وكما لا تظهر الأنوار الغيبية إلا في غيب الملكوت أو الجبروت، كذلك لا تظهر أنوار الملك، وهي الأنوار الحسية إلا في عالم الشهادة وهو عالم الحس، ويسمى عالم الملك.

والحاصل: أن أنوار القلوب هي أنوار الملكوت، وأنوار الأسرار هي أنوار الجبروت وهي غيبية لا يعلم قدرها إلا من ترقى إلى عالم الملكوت أو الجبروت، فحينئذٍ يدركها ويعلم قدرها علمًا وحالًا.

تنبيه: قد رأيت كثيرًا ممن شرح هذا الكتاب غلط في تفسير الملك والملكوت والجبروت، فزعموا أن الملك هو عالم الدنيا، والملكوت هو عالم الآخرة، والجبروت ما لا يعمله أحد وهذا غلط، إذ لو كان كما زعموا ما صح الترقي من ملك إلى ملكوت وإلى جبروت، إذ يلزم على تفسيرهم أن الملك لا يرجع ملكوتًا والملكوت لا يصير جبروتًا وهو غير سديد، إذ قد نص كثير من المحققين أن أهل الملكوت لا يرون الملك أصلًا، وأهل الجبروت يحجبون عن الملكوت، هكذا ذكره النقشبندي في شرح الهائية.

والصواب أن المحل واحد وهو الوجود الأصلي والفرعي، فما لم يدخل علام التكوين من عظمة الباري تعالى فهو عالم الجبروت، وما دخل التكوين فمن ألحقه بأصله وجمع فيه فهو في حقه ملكوت، ومن =

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار» أي: السرائر أي: الأنوار المشرقة عليها، وهي العلوم والمعارف الدينية، وما هو مودع فيها من أنوار الحق، «إلا في غيب الملكوت» أي: الملكوت الغائب عنا وهو عالم الآخرة، فمن آمن بالغيب وسعى في تهذيب نفسه حتى حصلت عنده تلك الأنوار شاهد الحظ الأوفر هناك، وإن كان مهانًا في الدنيا غير معتنى به فيها، «كما لا تظهر أنوار السماء»، وهي أنوار الكواكب «إلا في شهادة الملك» أي: الملك المشاهد، وهو عالم الدنيا لحصول المناسبة بين هذه الأشياء.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائتين

«وجدانُ ثمراتِ الطاعةِ عاجلاً وبشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً، كيفَ تطلبُ العِوَضَ علَى عملٍ وهو مُتَصَدِّقٌ به عليك؟ أمْ كيفَ تطلبُ الجزاءَ على صدقٍ هو مُهْدِيهُ إليك؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«وجدان ثمرات الطاعات»، وهي الأنوار التي تحصل في قلوبهم وتشرق على ظواهرهم والتلذذ بها في حال فعلها «عاجلًا» أي: في الدنيا، «بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلًا» أي: بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها في الدار الآخرة وأنها مقبولة عند الله.

وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «من وجد ثمرة عمله عاجلًا؛ فهو دليل على وجود القبول»، ولما كان يفهم من هذا أن العمل قد يكون لقصد الجزاء، وأنه ممدوح، دفع ذلك بقوله: «كيف تطلب العوض» أي: الجزاء «على عمل متصدق به عليك» أي: أن هذا غير لائق منك؛ لأن الإنسان لا يطلب الجزاء من الغير إلا إذا فعل معه فعلًا يعود نفعه على ذلك الغير، وذلك مفقود هنا؛ لأن نفع تلك الأعمال عائد عليك لا على الرب سبحانه، لأنه غني

= فرقه وحجب به فهو في حقه ملك، فتحصل أن المحل واحد والأمر إنما هو اعتباري تختلف التسمية باختلاف النظرة، وتختلف النظرة باختلاف الترقي في المعرفة، فمن وقف مع الكون كان في حقه ملكًا، ومن نفذ إلى شهود النور الفائض من الجبروت إلا أنه رآه كثيفًا نورانيًّا ولم يضمه إلى أصله في اللطافة سمي في حقه ملكوتًا، ومن ضمه إلى أصله ولم يفرق بين النور الكثيف سمي جبروتًا، وقد حققت ذلك في قصيدتي التائية وتقدم بعضها، وكذلك في شرح التصلية المشيشية، والله تعالى أعلم.

ولا بدَّ لمن أراد أن تكشف له هذه الأنوار ويدرك هذه المقامات من وجود أعمال ومقاساة أحوال، فإذا عمل عملًا وذاق حلاوته فليستبشر بالفتح الذي هو جزاء السائرين.

عنك وعن أعمالك، وكما أن الجزاء يكون على العمل يكون أيضًا على الصدق أي: الإخلاص فيه، وهو غير لائق أيضًا.

ولذا قال: «أم كيف تطلب الجزاء على صدق» أي: إخلاص في العمل، «هو مُهدِيه إليك»، وعبر بالتصدق والإهداء تنبيهًا على ما ذُكر وهو أن ذلك العمل والإخلاص فيه لم يكن إلا لمنفعتك، فطلب العوض والجزاء إذا على ذلك في غاية القبح، ولذا صدر الكلام بكيف المفيدة للاستفهام التعجبي تقبيحًا لذلك الوصف، واستعمل لفظ الصدقة في الأعمال الظاهرة والهدية في الصدقة الذي هو من الأعمال الباطنة، وعليه مدار قبول الأعمال الظاهرة إشعارًا بتباينهما في الشرف كتباين الصدقة والهدية، فإن الأولى يقصد بها الفقراء والثانية الأغنياء، فتدل على شرف المهدى إليه.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائتين

«قومٌ تَسْبِقُ أنوارُهم أذكارَهم وقومٌ تَسْبِقُ أذكارُهم أنوارَهم، وقوم لا أذكار ولا أنوار، ذَاكِرٌ ذَكَرَ ليستنيرَ قلبُه فكان ذاكرًا، وذَاكِرٌ استنارَ قلبُه فكانَ ذاكرًا، والذي استوت أذكاره وأنواره، فبذكره يهتدى، وبنوره يقتدى، ما كانَ ظاهرُ ذِكْرٍ إلا عن باطنِ شهودٍ أو فِكْرٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«قوم تسبق أنوارهم أذكارهم»، وهم المجذوبون المرادون فلما واجهتهما الأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمد بل بسهولة وخفة «وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم»، وهم المريدون والسالكون، وذلك شأنهم المجاهدة والمكابدة، فيأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمد ليحصل بها الأنوار.

فالأولون وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، والآخرون وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩].

ثم ذكر عبارة أخرى لبيان حال الفريقين بقوله: «ذاكر ذكر ليستنير قلبه»، وهو السالك، «وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا»، وهو المجذوب، فالذكر له كالنفس الطبيعي، بل أسهل بخلاف الأول وتقدم أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن الأول عرف طريقا توصل بها إلى الله وناله فيها غاية التعب والمشقة، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وهو كذلك بالنسبة لأغلب المجاذيب، وإلا فبعضهم له طريق طوتها عناية الله تعالى

له فسلكها مسرعًا إلى الله عاجلًا كما مر.

فلم تفته الطريق وإنما فاته متاعبها وطول أمدها ثم أشار إلى ما يتعلق بالمجذوب والسالك جميعا بقوله: «ما كان ظاهر ذكر» أي: ذكر ظاهر «إلا عن باطن شهود وفكر» أي: إلا عن شهود للمولى باطنًا وفكر فيه، فكل من المجذوب والسالك لم يذكر ظاهرًا إلا بعد مشاهدة الرب باطنًا، وفكر فيه، وإن كان المجذوب يدرك ذلك والسالك قد لا يدركه لغلظ بشريته فلم يفقد النور السابق بالكلية وإلا لما أمكن منه الذكر.

وقد تقدم قوله: «لولا الوارد ما كان ورد»، فلولا التجلي لم يمكن التحلي والمراد بالذكر هنا سائر الأعمال الظاهرية وعبر به عنها لأنه روحها ولاشتمالها عليه؛ فكل من الشهود والفكر يرجع للمجذوب والسالك، ويحتمل رجوع الأول للأول والثاني للثاني.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائتين

«أُشْهِدُكَ من قبل أن يستَشْهِدَكَ فنطقتْ بأُلُوهِيَّته الظواهرُ وتحققتْ بأُحَدِيَّته القلوبُ والسَّرَائِرُ، أَكْرَمَكَ بكرامات ثلاث: جعلكَ ذَاكرًا له ولولا فضلُه لم تكَنْ أهلاً لجَريانِ ذِكْرِه عليك وجعلك مذكورًا به إذ حقَّقَ نسبتَه لديك وجعلك مذكورًا عنده فتمَّمَ نعمتَه عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«أشهدك» أي: تجلى لقلبك فشهدته على حسب قدرك، «من قبل أن يستشهدك» أي: يطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك، فإن الذكر والعبادة شهادة منك بعظمة المذكور والمعبود واعتراف بوحدانيته، «فنطقت بألوهيته» أي: بما يدل على ألوهيته «الظواهر» أي: الجوارح الظاهرة، وهذا راجع للثاني وهو الاستشهاد، وقوله: «وتحققت بأحدية القلوب والسرائر»، راجع للأول، وهو الإشهاد ويحتمل أن معنى ذلك أن الله تعالى كشف للأرواح في عالم الغيب عن ألوهية وأحدية ذاته وإحاطة قيوميته.

ثم لما أظهرها في عالم الشهادة بأن ركبها في الأجسام طلب منها على لسان الأنبياء الشهادة له بالألوهية فشهدت بلسان حالها ومقالها، فكانت الشهادة منها لما استشهدت به تبعًا لشهودها لما شهدت فقوله: «أشهدك» أي: في عالم الأرواح وقوله: «من قبل أن يستشهدك» أي: يطلب منك الشهادة بعد أن ركبها في الأجسام، «فنطقت بألوهيته الظواهر» أي: الجوارح الظاهرة نطقًا حقيقيًّا في اللسان وحاليًّا في غيره.

وقوله: «فنطقت» مفرغ على محذوف أي: فلما طلب الشهادة منها على لسان الأنبياء،

وتحققت بأحديته أي: جزمت بكونه واحدا لا شريك له «القلوب» والسرائر»، جمع سريرة كما مر «أكرمك» أيها العبد الذي أشهدك مولاك ثم استشهدك فذكرته بلسانك وعباداتك ووحدته بقلبك وسرك، «أكرمك بكرامات ثلاث»، جمع لك بها كل المفاخر والمحامد الأولى أنه «جعلك ذاكرًا له»، بلسانك وعباداتك الظاهرية والباطنية، «ولولا فضله لم تكن أهلًا لجريان ذكره عليك»؛ لأنك مجبول على النقص والكسل والفتور فحصول ذلك منه منة وفضل عليك، ومن أنت حتى تكون محلًا لذكره وموضعًا لطاعته والتعلق به؟!

والثانية أنه «جعلك مذكورًا به»، بأن يقال لك: هذا ولي الله وصفيه ومختاره وذاكره، «إذ حقق» أي: أثبت «نسبته» أي: خصوصيته «لديك»، وهي ما أظهره عليك من أنوار الذكر التي استنار بها ظاهرك وباطنك فتحقيق الخصوصية لديك سبب في ذكرك به أي انتسابك له، ومن كانت له أدنى نسبة عند ملك من ملوك الدنيا تراه يصونها ويحفظها ويفرح بها ويجد في نفسه انبساطًا عند تذكرها، فكيف بهذه النسبة العظيمة التي صرت تذكر بها في الملأ الأعلى وعند المؤمنين إلى آخر الدهر.

فإن من مات من العلماء والصالحين الذين كثر ذكره لله تعالى يبقى الثناء عليه ولا ينقطع ذكره والدعاء له، ومن مات من غيرهم مات ذكره معه ويحتمل أن قوله إذا حقق في قوة التفريغ على ما قبله والمعنى جعلك مذكورًا به فحقق نسبة لديك أي: انتسابك له فيكون ذكرك به تحقيقًا لنسبتك له.

والثالثة أنه «جعلك مذكورًا عنده» لحديث: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه**»(١).

«فتمم نعمته عليك» ذكرك عنده، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:٤٥]، قيل معناه ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله.

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائتين

«رُبَّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمادُه وقلّت أمدادُه ورُبَّ عُمْرٍ قليلةٌ آمادُه كثيرةٌ أمدادُه، مَنْ بُورِكَ له في عمره أدركَ في يسيرٍ من الزمان من مِنَنِ الله تعالى ما لا يدخلُ تحت دوائرِ العبارة ولا تلحقُه الإشارةُ، الخذلانُ كل الخذلانِ أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(١) رواه البخاري (٦٩٧٠) بنحوه.

«رب عمر اتسعت آماده» أي: غاياته وأزمنته، «وقلت أمداده»، بفتح الهمزة أي: فوائده وذلك كأعمار الغافلين عن الله المشتغلين بشهوات نفوسهم، فإنها وإن كانت طويلة في الحس فهي قصيرة في المعنى لقلة أمدادها، «ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده»، وذلك كأعمار الذاكرين، فإنها وإن كانت قصيرة حسًّا فهي طويلة معنى لكثرة أمدادها، وذلك هو معنى البركة في العمر، ففوائد العمر لا يلزم أن تكون على قدر آماده أي: أزمنته، وبحسبها بل قد يحصل لصاحب العمر القصير من الفوائد ما لا يحصل لمن هو أطول منه بأضعاف مضاعفة، «من بورك له» أي: من أراد الله أن ينـزل البركة «في عمره» رزقه الإقبال على مولاه، فـ«أدرك في يسير من الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دوائر العبارة» أي: تحت العبارة الشبيهة بالدوائر بجامع الإحاطة بما يحويه، «ولا تلحقه الإشارة» أي: لا تصل إليه.

والمعنى إذا أراد الله تعالى أن يبارك في عمر ولي من أوليائه رزقه من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته، فيبادر إلى الأعمال الصالحة في جميع ساعاته، فيدرك في يسير الزمان ما يمتن به المولى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة أي: ما لا تحيط به لكثرته وشرفه فتعجز عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة أي: لا تصل إليه لرقته وغاية صفائه، فيرتفع له في شهر مثلًا ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر. «كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر».

وكان أبو العباس المرسي -قدس سره- يقول: «أوقاتنا كلها ليلة قدر».

قيل: وهذا معنى ما روي: «البر يزيد في العمر»، «الخذلان»، هو عدم التوفيق والمعونة «كل الخذلان»أي: الخذلان التام «أن تتفرغ من الشواغل» الدنيوية بأن يكون عندك ما يكفيك من الدنيا، «ثم لا تتوجه إليه»، بالاشتغال بما يقرب من حضرته العلية، «وتقل عوائقك»، التي تمنعك من الاشتغال بما يقرب من مولاك بأن يكون عندك ما يكفيك من القوت ولو مع الضيق، «ثم لا ترحل إليه» بالاشتغال بما يقرب منه فهو بمعنى ما قبله.

ومنتهاه أن من لم يكن عنده ما يكفيه من الدنيا، وكان يحتاج إلى التكسب فاشتغل به ولم يتوجه إلى الله ولم يرحل إليه فليس عنده كل الخذلان، بل بعض وهو كذلك؛ لأن التوجه إلى الله والرحلة إليه مطلوب من كافة الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فالواجب على كل أحد أن يرمي بالعوائق والشواغل خلف ظهره ويقبل على سولاه، وقد قيل: «سيروا إلى الله عرجًا ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة؛ فإن انتظار الصحة بطالة».

وقال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[التوبة:٤١].

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

«الفِكْرَةُ: سَيْرُ القلبِ في ميادينِ الأغيارِ، الفكرةُ سِرَاجُ القلبِ فإذا ذهبتْ فلا إضاءةَ لهُ، الفكرةُ فكرتانِ: فكرة تصديقٍ وإيمانٍ وفكرةُ شُهُودٍ وعِيانٍ، فالأُولَى لأربابِ الاعتبارِ، والثَّانِيَةُ لأربابِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصَارِ»[1]

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من لا تفرغ له لا فكرة له، ومن لا فكرة له لا سير له، ومن لا سير له لا وصول له، فالفكرة هي سير القلب إلى حضرة الرب، وذلك السير في ميادين الأغيار، أي: في مجال شهود الأغيار، ليستدل بها على وجود الأنوار، فهذه فكرة أهل الحجاب، وفكرة أهل الشهود سير الروح في ميادين الأنوار، أو سير السر في ميادين الأسرار، فتكلم الشيخ على بداية الفكرة ولم يتكلم على نهايتها، ولو تكلم عليهما معًا لكان أحسن كما فعل فيما يأتي حيث قال: «الفكرة فكرتان... إلخ».

وقال الشيخ زروق ﷺ: الفكرة انبعاث القوة الإدراكية في عالم الغيب والشهادة ليدرك حقيقة الأشياء على ما هي عليه، ومن وجد ذلك فهو عارف انتهى.

وقيل: إنما عبر الشيخ بالأغيار وهي المخلوقات لقوله ﷺ وقد رأى قومًا يتفكرون فقال لهم: «**تَفَكَّرُوا في الخلقِ، ولا تَفَكَّرُوا في الخالقِ؛ فإنَّكُم لا تُقَدِّرُون الله حَقَّ قَدْرِهِ**» انتهى.

قلت: إنما نهى ﷺ عن التفكر في كُنه الذات وإدراك الحقيقة، وأما التفكر في عظمة الذات وقدمها وبقائها ووحدانيتها وتجلياتها في ظهورها وبطونها فهذا لا ينهي عنه، لأنه سبب المعرفة مع العجز عن إدراك الكنه.

والتحقيق أن أهل الحجاب لا يحل لهم التفكر إلا في المصنوعات، وأما أهل العرفان فلا يتفكرون إلا في عظمة الذات: أي في عظمة الصانع وتوحيده وقدمه وبقائه وظهوره واحتجابه، وفي الغيبة عن الحس وشهود المعنى، أو في الغيبة عن الكون بشهود المكون، أو في الغيبة عن الظلمة بشهود النور، وهو سراج القلب الذي أشار إليه بقوله:

وقال الشيخ ابن عجيبة أيضًا: الفكرة في عظمة الباري وتوحيده نور، فإذا كان القلب مشغولًا بالفكرة في عظمة الحق فهو منور بنور الحق، وإذا خلا من الفكرة في الحق دخلته الفكرة في الأغيار وهي ظلمة، ولا تجتمع الظلمة والنور أبدًا، فالفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت الفكرة في الحق انطفأ نوره بدخول ظلمة الكون فلا إضاءة له، ولذلك قال الجنيد ﷺ: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله في ميدان الفكرة على بساط التوحيد انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: أربعة من حازهن فهو من الصديقين المقربين، ومن حاز منهن ثلاثة فهو من أولياء الله المقربين، ومن حاز منهن اثنين فهو من الشهداء المؤمنين، ومن حاز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين.

أولها: الذكر، وبساطه العمل الصالح، وثمرته النور.

الثاني: الفكرة، وبساطه الصبر، وثمرته العلم.

الثالث: الفقر، وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه.

الرابع: الحب، وبساطه بغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصول إلى المحبوب.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«الفكرة: سير القلب في ميادين الأغيار» أي: في الأغيار وهي مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته من السماء والأرض الشبيهة بالميادين وفي نسخة «ميادين الاعتبار» أي: جولان القلب في صفوف المخلوقات، وأنواع المكونات لاستخراج ما فيها من العلوم وما انطوت عليه من العبر والآيات الموصلة إلى العلم بالله تعالى، وما له من صفات الكمال، ونعوت الجمال وغير ذلك.

فإن من تفكر في وجود المخلوقات هداه ذلك التفكير إلى وجود موجدهم، وهذا تفكر العامة وإذا تفكر في الحسنات، وما يترتب عليها من الثواب والقرب من المولى فعلها وازداد رغبة فيها أو في السيئات وما يترتب عليها من أنواع العذاب تركها ولم يقربها، وهذا تفكر العابدين.

ومن تفكر في فناء الدنيا وقلة وفاتها لطلابها ازداد زهدا فيها وهذا تفكر الزاهدين وإذا تفكر في الآلاء والنعم ازداد محبة في المنعم بها جل جلاله، وهذا تفكر العارفين وخرج التفكر في مصنوعات الله التفكر في ذاته فإنه منهي عنه.

قال ﷺ: «**تفكروا في خلقه، ولا تتفكروا في الخالق؛ فإنكم لا تقدرون قدره**»[1].

«الفكرة سراج القلب» أي: كالسراج الحسي أي: المصباح الذي يضيء فيه فيستنير به، وبالنور تتجلى حقائق الأمور فيظهر به الحق حقًّا والباطل باطلًا فيعرف به عظمته تعالى وجلاله ويطلع على خفايا آفات النفس، ومكايد العدو وغرور الدنيا ويعرف وجوه الحيل في التحرز عنها إلى غير ذلك، «فإذا ذهبت فلا إضاءة له»، فالقلب الخالي عن الفكر خال من النور كالبيت المظلم ولا يكون في القلب المظلم إلا الجهل والعمى والغرور.

«الفكرة» وهي السير في ميادين الأغيار «فكرتان، فكرة تصديق وإيمان» أي: فكرة ناشئة عن أصل التصديق الذي هو الإيمان بأن يكون التفكر عنده ذلك وقصده بالفكرة الترقي وزيادة اليقين، ولذا تسمى فكرة الترقي وتكون للسالكين، «وفكرة شهود وعيان» أي: فكرة ناشئة عن ذلك وتسمى فكرة التدلي، وتكون للمجذوبين.

«فالأولى لأرباب الاعتبار» أي: المستدلين بالآثار على المؤثر وهم السالكون في حال ترقيهم، فإن فكرتهم ناشئة عن التصديق والإيمان.

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣٧١).

«والثانية لأرباب الشهود والاستبصار» أي: المستدلين بالمؤثر على الآثار وهم المجذوبون في حال تدليهم، فإن فكرتهم ناشئة عن الشهود والعيان، وهذا لمن أراد الله تكميل حاله منهم، كما مرَّ، وإلا فبعضهم يدوم جذبه وعدم صحوه، بل هو الأغلب فيهم.

وقد تقدم هذا عند ذكر المجذوب والسالك والنوعان المذكوران بالنسبة للمشتغلين بالله، أما غيرهم وهم العامة، ففكرتهم لتحصيل التصديق والإيمان.

جامعة الحكم

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائتين

كتب ﷺ لبعض إخوانه:

أَمَّا بعدُ؛ فإنَّ البداياتِ مَجْلاةُ النِّهاياتِ[1]، ومَنْ كانتْ بالله بدايَتُهُ كانتْ إليه نِهَايَتُهُ، والمُشْتَغِلُ به هو الذي أحببتَه وسارعتَ إليه، والمُشْتَغِلُ عنه هو المُؤْثَرُ عليه، ومَنْ أيقنَ أنَّ الله يطلبُهُ صدَّقَ الطلبَ إليه[2]، ومن عَلِمَ أنَّ الأمرَ كُلَّهُ بيده انجمعَ بالتَّوَكُّلِ عليه، وإنَّه لا بُدَّ لبناء

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: البدايات ما يظهر على المريد في أول دخوله من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهو مظهر ومجلاة للنهايات: أي يتجلى فيها ما يكون في النهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جادًّا في طلب الحق باذلًا نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية، والقيام بوظائف الربوبية، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصرًا في ذلك علمنا قصوره عما هنالك.

وبالجملة من رأيته صادق العزم في البداية، فاعلم أنه من أهل العناية، ومن كان في سلوكه معتمدًا، على الله، ومفوضًا أمره إلى الله كانت غاية سلوكه الوصول إلى الله، كما نبه عليه بقوله:

وقال أيضًا: البداية بالله هي ألا يرى لنفسه حولًا ولا قوة، لا في عمل، ولا في حال ولا في مجاهدة، ولا مكابدة، بل ما يبرز منها من الأعمال أو من الأحوال رآه منة من الله وهدية إليه، فإن كان هكذا فقد صحت بالله بدايته وإليه تكون نهايته.

ومما يتأكد النظر إليه في البداية تصحيح ما يفتقر إليه في سلوكه من علم الشريعة وعلم الطريقة، فالعمل بلا علم جناية، والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية.

فإذا حصل المريد ما يحتاج إليه في بدايته من إتقان طهارته وصلاته وصومه، فليشتغل بطاعة ربه، ويعرض عما يشغله عنه.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: اليقين هو سكون القلب وطمأنينته بحيث لم يبق فيه اضطراب ولا ريب في جميع الأمور، وطلب الله لعبده من وجوه: منها أنه يطلبه بالقيام بحقوق العبودية ووظائف الربوبية، ومنها أنه يطلبه بالتوجه إليه والفرار مما سواه، ويطلبه بالعكوف في حضرته على بساط الأدب والمحبة، فمن أيقن أن الله يطلبه بهذه الوجوه صدق الطلب إليه، وصدق الطلب هو إفراد القلب والقالب لجهة المطلوب بحيث لم يبق له التفات لغيره، فلم يثق إلا به ولا يعتمد إلا عليه.

هذا الوجود أنْ تَنْهَدِمَ دعائمُهُ، وأن تُسْلَبَ كرائمُه، فالعاقلُ من كانَ بما هو أبقى أفرحَ منه لما هو يَفْنَى، قد أشرقَ نورُه وظهرتْ تباشيرُه، فَصَدَفَ عن هذه الدارِ مُغْضِيًا وأعرضَ عنها مُوَلِّيًا(١)، فلم يَتَّخِذْهَا وطنًا ولا جَعَلَهَا سكنًا، بل أنهضَ الهمَّة فيها إلى الله، وصارَ فيها مستعينًا به في القُدومِ عليه، فما زالتْ مَطِيَّةَ عزمِهِ لا يقرُّ قرارَها دائمًا تسيارُها إلى أنْ أناختْ بحضرةِ القُدْسِ وبِسَاطِ الأُنْسِ في محلِّ المُفَاتَحَةِ والمواجهةِ والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة(٢)،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الصدوف هو الإعراض والتولي، أي: فأعرض هذا السائر إلى الله عن الدنيا بحذافيرها مغضيًا بصره: أي مغمضًا عيني بصيرته عن النظر إلى زهرة هذا الدار وبهجتها ممتثلًا في ذلك قول المولى لرسوله المصطفى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١] أي: أصنافًا من الكفار. ﴿زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:١٣١]، وأعرض عن هذا قلبًا وقالبًا، موليًا ظهره عنها، مقبلًا بوجهه إلى المولى.

قال الشطيبي: واعلم أن الإعراض عن الدنيا إنما هو بالقلب، ومتى كان القلب معلقًا بها لم ينفع زوالها من اليد ولا قطع أسبابها، بل المطلوب زوالها من القلب سواء كانت في اليد أو لم تكن، قال تعالى لمن أعطاه ملك الأرض بحذافيرها سليمان عليه السلام: هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب.

وقال فيه أيضًا: ﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]، وقال تعالى لمن نزعها منه بحذافيرها سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً﴾ [ص:٤٣]، ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

لكن من علامة حب الآخرة ترك الدنيا، وعلامة تركها ألا يفرح بالموجود منها ولا يتأسف على ما فاته منها، ولا يمكن ذلك إلا بترك الانتصار للنفس ومخالفتها.

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه عن الدنيا؟ فقال: أخرجها من قلبك واجعلها في يدك، فإنها لا تضرك.

وقال الحضرمي رضي الله عنه: ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها، إنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها.

وقد يقصد بترك الدنيا ما هو أعظم من الدنيا كحب الجاه والرياسة وغير ذلك من الحظوظ، ولذلك قيل: من أراد أن يكون منه شيء فلا يأتي منه شيء؛ لأنه عبد لإرادته، وعامل لحظ نفسه، فإذا انقطعت عنه الحظوظ النفسية والشهوات الدنيوية صح قصده إلى الله، وانفرد قلبه بالتوجه لمولاه.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: المفاتحة هي مفاتحة علم الغيوب، فأنت تفاتحه بطلب العطاء، وهو يفاتحك بكشف الغطاء، أنت تفاتحه بطلب الزيادة، وهو يفاتحك بتوالي الإفادة، أنت تفاتحه بالترقي في المقامات، وهو يفاتحك بأسرار العلوم والمكاشفات.

وأما المواجهة: فهي مواجهة أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فأنت تواجهه بأنوار التوجه، وهو يواجهك بأنوار المواجهة، وهي كشف الحجاب، وفتح الباب. أنت تواجهه بالطاعة، وهو يواجهك بالمحبة، وأنت تواجهه بالإقبال، وهو يواجهك بالوصال، أنت تواجهه باستكشاف أنوار الملكوت، وهو يواجهك بكشف أسرار الجبروت.

=

فصارتِ الحضرةُ مَعْشَشَ قلوبِهِم، إليها يأوون وفيها يَسكنون، فإن نـزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذنِ والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينـزلوا إلى الحقوق بسوءِ الأدبِ والغفلةِ، ولا إلى الحظوظِ بالشهوةِ والمتعةِ بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾(١) [الإسراء:٣٠] ليكون نظري إلى

=

وأما المجالسة: فهي مجالسة الأدب والهيبة، فأنت تجالسه بالأدب والحياء، وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء، أنت تجالسه بمراقبته، وهو يجالسك بحفظه ورعايته، أنت تجالسه بذكره وهو يجالسك ببره: أنا جليس من ذكرني ،كما في الحديث.

وأما المحادثة: فهي المكالمة القلبية وهي الفكرة والجولان في عظمة الجبروت، فأنت تحادثه في سرك بمناجاته وسؤاله، وهو يحادثه بمزيد إحسانه ونواله، أنت تحادثه بدوام حضوره في سرك ولبك، وهو يحادثك بإلقاء العلوم والأسرار الحكم في قلبك، أنت تحادثه في عالم الشهادة، وهو يحادثه في عالم الغيب. وفي التحقيق ما ثم إلا عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة.

وفي هذا المعنى قال الجنيد: لي أربعون سنة وأنا نحدث الحق والناس يرون أني نحدث الخلق.

وأما المشاهدة: فهي كشف حجاب الحس عن نور القدس.

أو تقول: كشف رداء الصون عن الكون، فأنت تشاهد ذاته في عالم ملكوته، وهو يشاهدك في عالم ملكه. أنت تشاهد ربوبيته، وهو يشاهد عبوديتك.

والحاصل: أن المشاهدة من العبد هي شهود العظمة، كما قال شيخنا ﷺ: ومشاهدة الرب للعبد هي إحاطة علمه بأحواله وأساراه.

وأما المطالعة: فهي مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر، فأنت تطالعه بالتوجه إليه، وهو يطالعك بالترقي إليه، أنت تطالع موقع قضائه وقدره فتتلقاها بالقبول والرضا، وهو يطالع أحوالك وسرائرك، فيكشف عنك الحجب، ويوسع عليك الفضاء، أنت تطالعه بالتقريب والإقبال، وهو يطالعك بالمحبة والوصال فيتلقاك بالإقبال والوصال، وهذه الأسرار لا يذوقها إلا أهل الأذواق، فكل واحد يذوق منها على قدر شربه ووجده، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الآية لها تفسير ظاهر وتفسير باطن، أعني: على طريق أهل الإشارة.

أما تفسير أهل الظاهر فقالوا: هذه الآية نـزلت في فتح مكة، وأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها، ومعناه: رب أدخلني مكة مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن يكون دخولي بك واعتمادي عليك ناصر لدينك بحولك وقوتك، وهذا كقوله ﷺ في بعض أدعيته حين كان يقدم من سفره: «**صدق الله وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده**»، وأخرجني من مكة مهاجرًا إلى جهاد عدوك مخرج صدق: أي: إخراج صدق، بأن أكون منصورًا بك، معصومًا بحفظك ورعايتك، واجعل لي من لدنك سلطانًا: أي: برهانًا دامغًا لكل باطل نصيرًا ينصرني على من عاداني.

وأما تفسير أهل الباطن: فهو ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه مستدلًا بالآية على أن دخول العارفين في الأشياء كلها يكون بالله، وخروجهم منها يكون بالله فقال: وقل أيها العارف: رب أدخلني في الأشياء

=

حولك وقوتك، واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني، واجعل لي من لدنك سلطانًا

=

حقوقًا كانت أو حظوظًا مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن يكون ذلك الإدخال بك، معتمدًا فيه على حولك وقوتك متبرئًا من حولي وقوتي ومن شهود نفسي، وأخرجني منها مخرج صدق أي: إخراج صدق، بأن أكون مأذونًا بإذن خاص، مصحوبًا بالخشية وسر الإخلاص، وهذا معنى قوله: «ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني» في الأشياء «وانقيادي إليك إذا أخرجتني» منها: واجعل لي من لدنك أي: من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب سلطانًا أي: برهانًا قويًا، وليس ذلك إلا وارد قوى من حضرة قهار لا يصادمه شيء إلا دمغه فيحق الحق ويزهق الباطل، ويكون ذلك السلطان «ينصرني ولا ينصر عليَّ» أي: ينصرني على الغيبة عن الحس وعن شهود السوى حتى نبعد عنهما برؤية مولاهما ولا ينصر علي الوهم والحس وشهود الغيرية.

ثم بين ذلك فقال: «ينصرني على شهود نفسي» أي: يقويني على الغيبة عنها، فإذا انتصرت على شهودها انهزم عني وذهب شهودها وبقي شهود ربها، فالنصرة على الشيء هو غلبته حتى يضمحل وينقطع، وكأن شهود النفس عدو يحاربك ويقطعك عن شهود ربك، فإذا نصرك الله عليه غلبته ودفعته عنك، فتتصل حينئذٍ بشهود محبوبك، وإذا فنى شهود النفس فنى حينئذٍ وجود الحس، وهو معنى قوله: «ويفنيني عن دائرة حسى»، فإذا فنيت دائرة الحس بقي متسع لمعاني وفضاء الشهود، وهذه هي الولادة الثانية، فإن الإنسان بعد أن خرج من بطن أمه وهي الولادة الأولى بقي مسجونًا بمحيطاته، محصورًا في هيكل ذاته، قد التقمه الهوى، وصار في بطن الحس والوهم وسجن الأكوان المحيطة بجسمانيته، فإذا فنيت دائرة حسه وخرج من بطن عوائده وشهوات نفسه، نقبت روحه الكون بأسره، وخرجت إلى شهود مكونها، فقد ولد مرة ثانية، وهذه الولادة لا يعقبها فناء ولا موت قال تعالى: ﴿**لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلاَّ المَوْتَةَ الأُولَى**﴾ [الدخان:٥٦]، وهذا معنى قول سيدنا عيسى عليه السلام: ليس منا من لم يولد مرتين، هكذا ذكره الشطيبي من قول عيسى عليه السلام.

وقال بعض الحكماء في قوله عليه السلام: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**».

وقال: الهجرة هجرتان: هجرة صغرى، وهي هجرة الأجساد من أوطانها، وهجرة كبرى: وهي هجرة النفوس عن مألوفاتها وعوائدها، وهو معنى قوله عليه السلام: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»، جعل الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، والجهاد الأصغر هو جهاد الجسم.

وقال أيضًا عليه السلام: «**الهجرة باقية إلى يوم القيامة**» يعني: الهجرة الحسية والمعنوية، فكل بلد لا يجد فيها من يعينه على دينه أو لا يجد فيها قلبه تجب الهجرة عنها، وكل شهوة تقطعه عن ربه تجب الهجرة عنها، وبالله التوفيق.

هذا آخر الكتاب الذي أرسله إلى بعض إخوانه، وحاصله بيان السلوك من أوله إلى آخره، فهو يكفي ذوى الألباب عن مطالعة كل كتاب، ثم ذكر الكتاب الثاني الذي أرسله لبعض إخوانه أيضًا فقال:

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه، وكانت الرسالة المتقدمة في بيان سلوك بدايتها ونهايتها، وهذه الرسالة في بيان الوصول إلى بحر الحقيقة مع مراعاة حرمة الشريعة طرفان وواسطة: قوم فرطوا، وقوم أفرطوا وقوم توسطوا وجمعوا.

نصيرا ينصرني وينصر بي ولا ينصر علي وينصرني على شهود نفسي، ويغنيني عن دائرة حسي.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

حاصل هذا الكتاب أنه يتضمن حال السالك في أول ابتداء سفره إلى النهاية وحصوله في مستقره وذكر آداب السلوك والوصول «أما بعد فإن البدايات» أي: بدايات الأمور «تجلات النهايات» أي: يظهر فيها حال النهايات والمَجَلاّت، بفتح الميم والجيم وتشديد اللام، جمع مَجَلّة، كذلك أي محل التجلي والظهور كالمرآة والمجالي المظاهر التي يتجلى فيها الأمور، والمراد أن بداية المريد تعرف منها نهايته،فإذا كان عنده في بدايته قوة توجه واجتهاد في العبادات والرياضات كان دليلًا على أنه ينتهي إلى فتح عظيم، وأنه يصل إلى مقصوده في أقرب مدة، ومن كان عنده ضعف في ذلك كان فتحه ووصوله على حسب حاله «وأن من كانت بالله بدايته»، بأن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضاته مصحوبة بالاستعاذة بالله تعالى والاعتماد عليه «كانت إليه نهايته» أي: كانت نهايته إلى الوصول إلى الله تعالى بأن ينكشف له انفراد الله بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن انكشافا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدكدكه واضمحلاله.

وقد تقدم هذا المعنى في قوله من «علامات النُّجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات»، «والمشتغل به» أي: الذي ينبغي الاشتغال به «هو الذي أحببته» أيها المريد الصادق «وسارعت إليه» وهو الأعمال الصالحة التي تقربك من مولاك وتوصلك إلى معرفته أي: فلا تحتقر ذلك الشغل، بل كن قرير العين به فإنه لا ينبغي الاشتغال إلا به «والمشتغل عنه» أي: الذي ينبغي الاشتغال عنه وعدم التوجه إليه «هو المؤثر عليه» أي: هو حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة التي تركتها وآثرت عليها غيرها، وهو إقبالك على مولاك واشتغالك بخدمته، فينبغي لك أن تطيب نفسك عنه ولا تندم على مفارقته؛ لأنه لا ينبغي الاشتغال به، فهذا الكلام القصد منه تهييج السالك وإنهاض همته بمدح ما أقبل عليه وذم ما أعرض عنه «ومن أيقن أن الله يطلبه» للقيام بخدمته والإقبال على وظائف عبوديته «صدق الطلب» أي: صدق في الطلب«إليه» أي: توجه إليه بصدق واجتهد في الإقبال على ما يرضيه أتم الاجتهاد؛ لأن ثمرة ذلك الطلب عائدة عليه لا على المولى سبحانه، فلم لا يصدق في طلبه واجتهاده ويترك حظوظ نفسه ومراداته إن كان من أهل العقل والمعرفة، «ومن علم أن الأمور بيد الله».

ومنها ما يحاوله من القيام بخدمة المولى، «انجمع قلبه بالتوكل عليه» أي: توكل عليه في تيسير أمره وتسهيل ما يقربه إلى حضرته، فإن ذلك لا يكون إلا منه سبحانه؛ لأن الأمور كلها بيده، وليس للعبد مدخل فيها.

فالقسم الأول وهو قوله «صدق الطلب إليه»، قيام بمقتضى الشريعة والثاني وهو كون

الأمور بيد الله وأنه ينبغي التوكل عليه قيام بحق الحقيقة، فقوله «عليه» تنازع فيه كل من الفعل والمصدر، «وإنه» بكسر الهمزة عطفًا على «أن البدايات» وفتحها عطفًا على «أن الأمور»، «لا بدَّ لبناء هذا الوجود» أي: لمبنى وهو هذا الوجود «أن تنهدم دعائمه» أي: أركانه، فشبه الوجود بقصر له أركان وهي تخييل «وأن تسلب كرائمه» أي: نفائسه وما يعز منه والقصد بهذا تسليته عما يفوته في حال سلوكه من حظوظه وشهواته؛ لأنه إذا علم أن الدنيا لا تدوم لأحد بل لا بدَّ أن تزال عنه أو يزال عنها ولو بعد حين، وكل ما هو آت قريب لم يغتبط بها يكون من مآل أمره إلى ذلك ويكون طيب النفس بتركه «فالعاقل من كان بما هو أبقى»، وهو الدار الآخرة، «أفرح منه» أي: أشد فرحا من نفسه «بما هو يفنى»، وهو الدنيا، فإذا كانت الدنيا فانية والآخرة هي الدائمة الباقية، فلا ينبغي الفرح بالأولى لفنائها، ومن فرح بالفاني فنى فرحه ولا عبرة بفرح يفنى ويزول، ومن فرح بالباقي دام فرحه وذلك هو الفرح المعتبر وحاصله أن العاقل هو الزاهد.

وأما الراغب في الدنيا فليس بعاقل، بل هو جاهل وفي قوله «أفرح» إشعار المطلوب كون الفرح بهذا أشد لا أن الفرح بالآخرة ينتفي بالكلية؛ لأنه أمر طبيعي ثم أشار إلى ثمرة التحقق في مقام الزهد بقوله «قد أشرق نوره» أي: أشرق نور زهد ذلك العاقل في قلبه «وظهرت تباشيره» على وجهه، فإن النور إذا أشرق في القلب ظهر على الجوارح، وكان ذلك مبشرًا له بالقبول «فصرف» أي: فبسبب ذلك النور الذي أشرق في قلبه وتبين له به ما هو حق صرف أي أعرض «عن هذه الدار مُغضيا» أي: غير ملتفت إليها بقلبه، وأتى بذلك لأن الإعراض قد يكون معه التفات وقوله «وأعرض عنها موليًّا» تفسير لما قبله «فلم يتخذها وطنًا» أي: لم يستوطنها بظاهره على جهة التمتع والتلذذ «ولا جعلها سكنا» أي: لم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها، ويحتمل أن يجعل الوطن والسكون بمعنى واحد، «بل أنهض الهمة فيها إلى الله» أي: أسرع وحرك الهمة إلى الوصول إليه «وسارع فيها» أي: في الدنيا «مستعينا به» أي: بالله لا بأعماله المدخولة «في القدوم عليه» أي: الإقبال عليه والوصول إلى حضرته.

قال بعضهم: «من توهم أن عملًا من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى والأدنى فقد ضل عن طريقه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لن ينج أحدًا منكم عمله**»[1] .

فما لا ينجي من الخوف كيف يوصل إلى المأمول، ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذي يرجى له الوصول، «فمازالت مطية عزمه» أي: عزمه الشبيه بالمطية «لا يقر قرارها» لعدم ما يعوقها، وهو التعلق بغير الله سبحانه من الدنيا وكل ما يعوق السالك عن

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦).

الوصول من الكرامات والمكاشفات والأحوال والمقامات، فإن ذلك يوقف المطية عن السلوك والقرار في موضع الاستقرار.

ومعنى كون قرارها لا يقر، أنها نزلت في موضع ترتحل عنه ولا تجعله وطنًا فلا يسكن قلبه إلى شيء من ذلك كما هو مقتضى الحال في مقام الزهد، وقوله: «دائما تسايرها» أي: سيرها كالتفسير لما قبله، «إلى أن أناخت» أي: حصلت واستقرت «بحضرة القدس» أي: التنزيه، وهي حضرة الرب سبحانه.

«وبساط الأنس» أي: البساط الذي كل من جلس عليه حصل له الأنس وهو تلك الحضرة فشبهها بحضرة ملك عظيم يستريح الوفود إذا وصلوا إليه وجلسوا على بساطه، ثم بين صفات تلك الحضرة بقوله: «محل المفاتحة» أي: الفتح عن القلوب «والمواجهة» أي: الإقبال من الله سبحانه «والمجالسة»، بأن يصير الله سبحانه حاضرا معه، «والمحادثه»، بأن يكلمه في سره بالمعارف والأسرار «والمشاهدة» بأن يشاهده بباطنه بقدر غيبته عن حسه «والمطالعة» أي: يتمكن من المشاهدة ويطلع على علوم الغيب.

فإن الشخص إذا دخل إلى حضرة ملك عظيم من ملوك الدنيا يحصل له أولًا المفاتحة بأن يفاتح ذلك الملك بالسلام ويفاتحه بالرد ثم المواجهة بأن يقبل عليه بوجهه، فقد يكون حال السلام معرضا عنه ثم المجالسة بأن يجلسه بين يديه، ثم المحادثة أي: التكلم معه؛ لأن ذلك ثمرة المجالسة ثم المشاهدة، وذلك أن الملك قد يكون صاحب جلال فلا يلوم من الجلوس بين يديه والمحادثة معه مشاهدته، بل يطرق جليسه رأسه من هيبته، ثم المطالعة التي هي تمكن المشاهدة أو يراد بالمشاهدة مشاهدة الأحوال الظاهرة والمطالعة مشاهدة الأحوال الباطنة فإنه لا يعرف حال الملك باطنا إلا بعد شدة التأمل.

فهذا حال من وصل إلى حضرة ملك من ملوك الدنيا وكذلك السالك إذا وصل إلى حضرة المولى سبحانه، فإنه يقابله بأنواع من الفتوحات والكرامات والتحف السنية والعلوم والمعارف الربانية التي لا يعرف تفاصيلها إلا من وصل هناك وذاق مذاق أهل القرب والتمكين جعلنا الله وإياكم منهم بمنه وكرمه آمين، «فصارت الحضرة» أي: حضرة الرب «معشش قلوبهم» أي: الموضع الذي تسكن فيه قلوبهم كعش الطير «إليها يأوون» وقوله «وفيها يسكنون»، كالتفسير لما قبله أي: فصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم في ذهابهم وإيابهم وهاهنا حصل لهم التخلق بمقام الفناء والمحو، وهذا مقام الجمع هذا هو انتهاء سفرهم وصعودهم ثم بعد ذلك يتحققون بمقام البقاء وهو مقام الفرق ويؤمرون

بمخاطبة الخلق وهو المراد بقوله «فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق» أي: الحقوق الواجبة عليهم عند مخالطة الخلق الشبيهة بالسماء بجامع صعوبة الارتقاء إلى كل عوارض الحظوظ أي: حظوظ أنفسهم التي تلابسهم ويحصل لهم الارتفاق بها الشبيهة بالأرض بجامع سهولة الاستقرار على كل «فبالإذن والتمكين» أي: لا بشهواتهم ومرادهم وإلا فلو خيروا بين مقامهم في تلك الحضرة والخروج منها إلى مخالطة الخلق لم يختاروا إلا بقاءهم فيها.

يقول السياجي يغفر الله له:

«ذكر الشارح واقعة لا يُعرفُ حالها إلا بوحي، وهذا محال بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- فأردت حذفها لسلامة الاعتقاد».

قال الشرقاوي شارحا يرحمه الله..

ثم قال ﷺ: فبالإذن والتمكين إذ لا يلزم من مجرد الإذن والتمكين أي التمكن في مقام البقاء بأن يحصل لهم القوة على مخالطة الخلق وتحمل أذاهم «والرسوخ في اليقين» أي: وبعد رسوخهم في اليقين بالله ومعرفتهم به معرفة ذوقية.

«فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة» أي: فلم يخالطوا الخلق إلا مع التأدب التام؛ لأنهم يرون الله فيهم، ومع اليقظة وعدم الغفلة عن موجدهم فإذا آذاهم شخص تحملوه لله الذي أوجده ورأوا أن الذي سلطه عليهم هو مولاهم لذنب فعلوه لا يليق بمقامهم وإذا أكرمهم شخص شكروه مع رؤيتهم أن الذي حرك قلبه للإكرام هو مولاهم، فهذه وشبهها هي الحقوق الواجبة عليهم عند النزول ومخالطة الحق.

«ولا إلى» أي: ولم ينزلوا إلى «الحظوظ» ويتعاطوها «بالشهوة والمتعة» بضم الميم أي على سبيل شهوة نفوسهم لها وتمتعهم بها «بل دخلوا في ذلك كله»، من الحقوق والحظوظ «بالله» أي: مستعينين به «ولله» أي: لا لحظ أنفسهم «ومن الله» أي: من عنده لا من عند أنفسهم «وإلى الله» أي: متوسلين إليه في نيل مرادهم، ثم السفر الأول، وهو السير إلى حضرة المولى يقال له سفر الترقي.

والثاني النـزول منها إلى مخالطة الحق يقال له سفر التدلي، وإلى ذلك أشار بقوله ﷺ بقوله: «**وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق**»[1].

المدخل والمخرج في الأصل بمعنى الإدخال والإخراج، وقد عبر بهما هنا عن السفرين

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٢٣)، والترمذي (٥/ ٣٠٤).

المذكورين، فالمدخل هو سفر الترقي لأنه دخول على الله عز وجل في حالة فنائه عن رؤية غيره والمخرج هو سفر التدلي؛ لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتي الإرشاد والهداية في حال بقائه بربه وتحققه في هذين المقامين، أعني مقام الفناء والبقاء هو معنى صدقية مدخله ومخرجه، فالمدخل الصادق أن يشاهد حول الله وقوته في سفر الترقي فتنتفي عنه بذلك نسبة الأعمال إلى نفسه، والمخرج الصدق أن يستسلم لربه وينقاد إليه في سفر التدلي فيرى بها نقله إليه ولا تتشوف نفسه إلى البقاء مع ما نقل عنه.

ولذا قال: «ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذ أدخلتني واستسلامي وانقيادي إليك إذ أخرجتني»أي: ليحصل ذهابي عن رؤية نفسي في النسبة والوقوف مع الحظ نفى المدخل أشهاد حولك وقوتك، فتنتفي عني بذلك النسبة إلى نفسي وفي المخرج أستسلم إليك فينتفي عني بذلك مراعاة حظي، «واجعل لي من لدنك» أي: من عندك بلا واسطة ولا علة من نفسي «سلطانا» أي: حجة قاهرة «نصيرا» أي: مقويا ومعينا وهو مدد إلهي يأتي من حضرة الحق سبحانه فلا يصادمه شيء إلا دفعه وذهب به«ينصرني» على نفسي «وينصر بي» أحبابي ومن تعلق بأذيالي من الإخوان والرفقاء، «ولا ينصر علي» نفسي ولا أحدا من أعدائي الباطنة والظاهرة. ثم فسر النصرة المطلوبة في حق نفسه بقوله «ينصرني على شهود نفسي» بألا أشاهد لها فعلا ولا حركة ولا سكونا بل أشاهد أن المحرك الساكن هو أنت «ويفنيني عن دائرة حسي» أي عما يدور به حسي ويدركه وهو الممكنات فلا أتعلق بها، ولا أشاهد منها نفعًا، ولا ضرًا، بل أشاهد أن النافع الضار هو أنت وهؤلاء الذين نصرهم الله تعالى ونصر بهم، ولم ينصر عليهم هم الضنائن الذين إذا ظهر الواحد منهم في عصر حصل النفع التام لأهله وأمدهم الله بسببه وهم لا يشعرون».

أول تتمة الجامعة

الحكمة الأربعون بعد المائتين

مما كتب به ﷺ إلى بعض الإخوان أيضًا:

«إن كانتْ عينُ القلب تنظرُ أن الله واحدٌ في منته[1]؛ فالشريعةُ تقتضي أن لا بُدَّ من شكرِ

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: عين القلب هي البصيرة، ومن شأنها أن لا ترى إلا المعاني دون المحسوسات، كما أن البصر لا يرى إلا المحسوسات دون المعاني، والحكم للغالب منهما؛ فمن غلب بصره على بصيرته لا يرى إلا الحس وهو الغافل، ومن غلبت بصيرته على بصره لا يرى إلا المعاني، وهو معاني التوحيد وأسرار التفريد، فالبصيرة لا ترى إلا نور الحق دون ظلمة الخلق، لكن لا بدَّ من إثبات الحكمة.

=

خليقته، وإنَّ النَّاسَ في ذلك على أقسام ثلاثة: غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ في غفلته، قَوِيَتْ دائرةُ حِسِّهِ، وانطمستْ حضرةُ قُدْسِهِ، فنظرَ الإحسانَ من المخلوقين، ولم يَشْهَدْهُ من ربِّ العالمينَ، إما اعتقادًا فَشِرْكٌ جَلِيٌّ، وإما استنادًا فَشِرْكٌ خَفِيٌّ، وصاحبُ حقيقةٍ غابَ عن الخلقِ بشُهُودِ المُلِكِ الحقِّ، وفَنَيَ عن الأسباب بشهود مُسَبِّبِ الأسبابِ،فهذا عبدٌ مُواجَهٌ بالحقيقة، ظاهرٌ عليه سَنَاهَا، سالكٌ للطريقة، قد استولى على مَدَاهَا، غيرَ أنَّه غريقُ الأنوارِ مُطْمُوسُ الآثارِ قد غلبَ سكرُه على صَحْوِه، جَمْعُهُ على فَرْقِهِ،فناؤُه على بقائِه،غيبتُهُ على حُضُورِهِ، وأكملُ منه عبدٌ شَرِبَ فازداد صحوًا، وغابَ فازدادَ حضورًا فلا جمعُه يَحْجِبُهُ عن فرقِهِ، ولا فرقُه يحجبه عن جمعِه، ولا فناؤه يَصُدُّهُ عن بقائِه، ولا بقاؤُه يصده عن فنائه، يُعطِي كُلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ، ويُوفِّي كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

وقال أبو بكر الصديق ﷺ لعائشة -رضي الله عنها- لما نـزلت براءتها من الإِفْكِ على لسان رسول الله ﷺ: اشْكُرِي رسولَ الله فقالت: والله لا أشكرُ إلا الله».

دَلَّهَا أبو بكرٍ على المُقَامِ الأكملِ: مقامِ البقاءِ المقتضي لإثباتِ الآثارِ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤].

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «لا يشكر اللهَ منْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ»(١)، وكانتْ في ذلك الوقتِ مُصْطَلِمَةً عن شاهدها غائبةً عن الآثار فلم تشهدْ إلا الواحد القهَّار».

=

وقد تقدم قوله: الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فلا بُدَّ من إثباتها قيامًا بالحكمة ونفيها قيامًا بالوحدة، فإن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في منته، بل واحد في جميع تصرفاته، فالشريعة والحكمة تقتضي أي: تطلب أن لا بُدَّ من شكر خليقته قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فإذا أنعم الله عليك بنعمة كانت دنوية أو دينية على يد واسطة فعليك في ذلك وظيفتان:

أحداهما قلبية، وهي اعتقادك أنها من الله بلا واسطة، وأن ما سواه مقهور على إيصالها.

والثانية لسانية، وهي أن تدعو له وتثنى عليه عملًا بالشريعة.

فقد روى النعمان بن بشير عنه ﷺ أنه قال: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله»، ومن أسمائه تعالى الشكور، فليتخلق العبد بذلك.

وحكمة اعتبار الواسطة ثلاثة:

أولها: أنها إرسال من الحق تحمل الهدايا إليك، ومن الكرم إكرام الرسل.

وثانيها: أنها أواني تصل فيها إليك المنافع، ومن الحكمة ترفيع آنية المنافع.

وثالثها: ما في ذلك في دفع منة الوهم، إذ الوهم يقتضي بطبعه الميل لمن أحسن إليك، فإذا كافأته باللسان فقد اعتقت من رق إحسانه.

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٨)، والترمذي (٤/ ٣٣٩).

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«إن كانت عين القلب»، وهي البيرة المشابهة للعين الباصرة «تنظر إلى أن الله واحد في منته»أي: نعمته أي هو المعطي لها وحده «فالطبيعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته»، فإذا أوصل الحق إليك نعمة على يد إنسان سواء كانت دينية كالعلوم والمعارف الظاهرية أو دنيوية فعليك في ذلك مراعاة الحقيقة بأن ترى أن تلك النعمة من الله وحده وأن من أجراها على يديه مقهور مجبور على إيصالها إليك فتحمد الله سبحانه على ذلك ومراعاة الشريعة بأن تشكر من وصلت إليك على يده فتدعو له وتثني عليه امتثالًا لأمر الله وعملًا بما جاءت به الشريعة.

ففي الحديث: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[1]، ولأن الله اختصه بأن أقامه في ذلك وأهله له «وأن» أي: وأخبرك أن «الناس في ذلك» أي: في حال ورود النعمة عليهم على يد أحد «على ثلاثة أقسام غافل» عن الله «منهمك في غفلته» أي: متناه فيها «قويت دائرة حسه»، يعني أن ملحظه ومنظره المكونات فقط مع الغفلة عن الرب «وانطمست حضرة قدسه» أي: حضرة التنزيه والمراد بها بصيرته التي هي منبع تنـزيه الله تعالى عن كل ما يليق به «فنظر الإحسان» صادرًا «من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين إما اعتقادا» بأن يعتقد أن المؤثر والمعطي هو العبد حقيقة «فشركه جلي» يخرجه من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر «وإما استنادًا» بأن يعتقد أن المعطي هو الله تعالى ولكنه أسند ذلك إلى المخلوقات على جهة كونها أسبابًا غير مؤثرة ولولاهم لم يحصل الإعطاء، فإذا قيل له من الذي أعطاك فعلًا، قال الله ولولا فلان الذي جاء من قبله لم يحصل إعطاء إذ لولا الأسباب ما كانت المسببات «فشركه خفي» لأنه أشرك مع الله غيره وهو المخلوق ولم يغب عن الله تعالى فهو مؤمن لكن يخشى عليه الكفر والعياذ بالله تعالى.

«وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق» فلم يشعر بهم ولم يلتفت إليهم «وفني عن الأسباب» وهم المخلوقات فلم يرهم فعلًا «بشهود مسبب الأسباب» وهو الله «فهذا عبد مواجه بالحقيقة» وهي حضرة الرب سبحانه لشهوده لها«ظاهر عليه سناها» أي: نورها وضياؤها «سالك للطريقة» أي: طريقة القوم وسلوكه بها باعتبار الأصل وإلا فمواجهته بالحقيقة لا يكون إلا بعد سلوكه لها، ولذا قال: «قد استولى عليه مداها» أي: غايتها ونهايتها ثم هذا المستغرق في الحقيقة على الوجه المذكور وإن كان كاملًا لأهل الغفلة فهو ناقص بالنسبة لأكمل منه من أهل المعرفة، ولذا قال: «غير أنه غريق الأنوار» أي: غريق في بحار التوحيد «مطموس الآثار» أي: مطموسة بصيرته عن رؤية الآثار والوسائط والعبيد

---

(١) سبق تخريجه.

أي: غائب عن رؤية ذلك والشعور به «وقد غلب سكره» وهو عدم إحساسه بالآثار «على صحوه» وهو وجود إحساسه بها «وجمعه» وهو رؤية الحق وحده «على فرقه»، وهو رؤية الخلق مع الحق فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق «وفناؤه» وهو استهلاكه في وجود الحق «على بقائه» وهو شعوره بالخلق فهو في مقام الفناء الذي هو مقام الجمع لا مقام البقاء الذي هو مقام الفرق.

وقوله: «وغيبت على حضوره» كالتفسير لما قبله «وأكمل منه عبد» جمع بين الأمرين كالنبي ﷺ وكمل ورثته وسبب ذلك أنه «شرب» من المدد الإلهي ومن كئوس التوحيد «فازداد صحوا» بعد سكره «وغاب عن رؤية الأغيار» فازداد «حضورًا فلا جمعه» وهو رؤية الحق «يحجبه عن فرقه» وهو رؤية الخلق «ولا فرق يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصبره عن بقائه ولا بقاؤه يصرفه عن فنائه يعطي كل ذي قسط قسطه» فيشكر الحق والخلق ولا يغيب عن الرب في حال مخالطة الخلق.

وقوله: «ويوفي كل ذي حق حقه» بمعنى ما قبله وهؤلاء هم خاصة الخلق الذين حازوا رتبة الأكملية وتمكنوا في المقامات وملكوا أحوالها ومنهم أبو بكر الصديق ﷺ.

ولذا قال ﷺ: «وقد قال أبو بكر لعائشة -رضي الله عنها- لما نزلت براءتها من الإفك» أي: الكذب «على لسان رسول الله ﷺ» أي: في القرآن العظيم «يا عائشة! اشكري رسول الله ﷺ»؛ لأن براءتك سببها رسول الله ﷺ ولم تحصل إلا ببركته فيستحق الشكر منك «فقالت: والله لا أشكر إلا لله»؛ لأنها في ذلك الوقت غائبة عن إحساسها منغمة في الأنوار لم تر غير الله «دلها أبو بكر ﷺ على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار» أي: النظر للخلق ومن جملتهم رسول الله ﷺ، ومقتضى النظر إليهم شكرهم ثم استدل على أنه ينبغي شكره بقوله: «وقد قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان: ١٤].

وقال ﷺ: «لا يشكر الله»[1] بالنصب، وفاعل «الشكر» هو «العبد» والرفع أي: لا يثيب الله «من لا يشكر الناس»، ولا يرضى له ذلك؛ فينبغي شكر الله لأنه الذي حرك قلب العبد وشكر العبد لأنه واسطة والضار هو الوقوف معه والغيبة عن الرب «وكانت هي» أي: عائشة في ذلك الوقت «مصطلمة عن مشاهدها» أي: مأخوذة عن إحساسها غائبة عن حكم بشريتها.

والاصطلام حالة تعتري العبد من تجلي الله عليه بصفة القهر فتغيبه عن إحساسه «غائبة عن الآثار» وهم المخلوقات «فلم تشهد إلا الواحد القهار»، وفي قوله: «وكانت» في

---

(١) سبق تخريجه.

ذلك الوقت إشارة إلى أن ذلك ليس حالًا لازمًا لها في جميع أوقاتها، بل ترقت عنه إلى مقام الفرق وهو رؤية الخلق مع الحق.

ثاني تتمة الجامعة

الحكمة الواحدة والأربعون بعد المائتين

«قال ﷺ: لما سُئِلَ عن قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] هل ذلك خاص بالنبي ﷺ أم لغيره منه شرب ونصيب؟

قال ﷺ: قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، فالرسول ﷺ ليس معرفة كمعرفته فليس قرة عين كقرته، وإنما قلنا: إن قرة عينه في صلاته بشهوده جلال مشهوده؛ لأنه أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة، إذ هو ﷺ لا تقر عينه بغير ربه، وكيف وهو يدل على هذا المقام، ويأمر به من سواه بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»[2]، ومحال أن يراه ويشهد معه سواه[3]، فإن قال قائل: قد تكون قرة العين بالصلاة؛ لأنها فضل من الله، وبارزة من عين منة الله، فكيف لا يفرح بها؟ وكيف لا تكون قرة العين بها، وقد قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٧٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٧٨).

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) قال الشيخ ابن عجيبة: لأن ثبوت السوى حجاب، فلا يصح الشهود حتى يزول كل موجود ولا يبقى إلا واجب الوجود، ويرى ما سواه كأنه ظلال أو خيال عند التحقيق مفقود؛ فإن قلت: إذا كان السوى مفقود فلم قال ﷺ في تفسير الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه**».

وقال لمعاذ: «**اعبد الله كأنك تراه**»، فأتى بكاف التشبيه إذا كانت الرؤيا حاصلة فكيف يشبهه ﷺ بمن يرى؟

فالجواب: أنه ﷺ في محل التشريع والتحقيق.

وهذا الحديث وقع في محفل كبير فيه من هو من أهل المراقبة، وفيه من هو من أهل المشاهدة، فأتى بكلامه يقبله الخاص والعام، فالكل مخاطب بإتقان العبادة كأنه يشاهد، فمنهم من بلغ ذلك ذوقًا، ومنهم من يكون منه ذلك مجاهدة.

وقد قال ﷺ: «خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون»؛ فأتى بكلام موجه يقبله أهل الظاهر وأهل الباطن، فأهل الظاهر يتركون الكاف على بابها، وأهل الباطن يجعلونها بمعنى اللام؛ لأن رؤية البصيرة عندهم في معد العيان لأن البصر إذا فتحت البصيرة غلبت عليه ولم يبق له حكم أصلًا.

وأيضًا الرؤية إذا أطلقت إنما تنصرف للبصر، فلو لم يأت بالتشبيه لتوهم أن الله تعالى بالبصر الحسى، وهو محال، قال الله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبصَار﴾ [الأنعام١٠٣]، أي: الحسية، وإنما تراه البصائر المفتوحة فإذا انفتحت البصيرة استولت على البصر فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أنوار الملكوت، والله تعالى أعلم.

فاعلم أن الآية قد أومأت أي: أشارت لمن تدبر سر الخطاب، إذ قال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وما قال: فبذلك فافرح يا محمد، قل لهم ليفرحوا بالإحسان والتفضيل، وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾».

قال الشرقاوي يرحمه الله:

«وقال ﷺ لما سئل عن قوله ﷺ: «**وجعلت قرت عيني في الصلاة**» قرة العين كناية عن غاية الفرح والسرور واللذة، فكأنه يقول وجعلت غاية فرحي وسروري ولذتي في الصلاة لمشاهدة الرب فيها «هل ذاك خاص به أم بغيره» من أمته «منه شِرب» بكسر لشين «ونصيب» تفسير له «فأجاب أن» «قرة العين» أي: غاية الفرح والسرور «بالشهود» أي: شهود جلال الحق سبحانه وجماله «على قدر المعرفة بالمشهود» وهو الحق سبحانه «فرسول الله ليس معرفة» أحد هناك «كمعرفته فليس قرة عين كقرته»، وحاصل الجواب أن قرة العين ليست خاصة به ﷺ بل كما تكون له تكون لغيره لكن قرة عينه أعظم من قرة عين غيره ومعلوم أن قرة العين لا تحصل إلا لمن ذهبت عنه الوساوس النفسانية والشيطانية.

أما من كان مغمورًا فيها فقليل أن تحصل له قرة عين أو حضور قلب بين يدي الحق سبحانه «وإنما قلنا أن قرة عينه» ﷺ في صلاته «بشهود جلال مشهوده» وهو الحق «لأنه أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة»، ولم يقل بالصلاة «إذ هو ﷺ لا تقر عينه بغير ربه»، ومن الغير الصلاة «وكيف» تقر عينه بغير ربه «وهو» أي: والحال أنه «يدل على هذا المقام» وهي المرتبة الأولى من مراتب الإحسان «ويأمر من سواه بقوله ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه**».

ومحال أن يراه ويشهد معه سواه»، ومن السوي صلاته فيغيب عن نفسه وحسه وعن أفعاله ولا يراها صادرة منه بل يرى الفاعل لها هو الله تعالى «فإن قال قائل قد تكون قرة العين بالصلاة؛ فإنها فضل من الله تعالى وبارزة من منة الله تعالى» أي: لا لعلة وجعلها بارزة من نفس المنة مبالغة وإلا فهي بارزة من الله بمنته لا لعلة «فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها.

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨] ففي ذلك إشارة إلى أنه لا مانع أن يفرح الإنسان بالصلاة ويكون قرة عينه بها فالمانع من كون فرحه ﷺ بها «فاعلم» مرتب على ما تقدم وهو قوله فإن قال قائل وفي بعض النسخ حذف قوله فإن قال قائل فيحتاج إلى تقديرها، وترتب الجواب عليها كأنه قال: إن قيل ذلك فاعلم «أن الآية قد أومت» أي: أشارت إشارة خفية «لمن تدبر سر الخطاب» وهو المعنى الذي يخفى على كثير من الناس «إذ قال» الله تعالى «فبذلكِ فليفرحوا» أي: الأمة «وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم: فليفرحوا بالإحسان والتفضل، وليكن فرحك أنت بالمتفضل»، وهو الله

تعالى «كما قال تعالى في الآية الأخرى: «قل الله» معناه المطابقي قل الله أنزله أي: القرآن ومعناه الإرشادي المراد هنا قل الله أي افرح به لا بغيره ﴿ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وهو فرحهم بغير الله سبحانه ويؤخذ من ذلك أن قرة العين قد تكون بنفس الصلاة للعلة السابقة لكن ذلك لغيره ﷺ لا له، فإن قرة عينه إنما تكون بمشاهدة محبوبه وغيره يشاركه في ذلك على حسب مقامه كما مرَّ.

ثالث تتمة الجامعة

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائتين

كتب ﷺ لبعض إخوانه:

«الناس في ورود المنن عليهم على ثلاثة أقسام: فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها، ولكن بوجود متعته فيها، فهذا من الغافلين يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤]، وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها، ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، وفرح بالله، ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها، بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه، فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ الله ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

وقد أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: «يا داود قل للصديقين، بي فليفرحوا، وبذكرى فليتنعموا».

والله يجعل فرحنا وإياك به، وبالرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وألا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسلك المتقين بمنه وكرمه».

قال الشرقاوي يرحمه الله..

«الناس في» حال «ورود المنن» أي: النعم عليهم من الله تعالى «على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشيها» وهو الله «ولكن» فرحه «بوجود متعة فيها» أي: بسبب تمتعه وقضاء وطره ونيل غرضه بها «فهذا من الغافلين» شبهه بالبهائم التي تأكل وتشرب غافلة عن مولاها «يصدق عليه قوله تعالى: «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة»، يعني أنه ربما كان توارد النعم عليهم استدراجًا من الله تعالى كلما أعطى نعمة ازداد غفلة، ولم يشكر المولى عليها حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر، «وفرح بالمنن» أي: النعم «من حيث أنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها»، وهو الله سبحانه وتعالى فيشكره سبحانه عليها ولم يغب عنه لكن حاله ناقص من حيث أنه ملتفت إلى النعم وعنده فرح بها، وإن كان ذلك من حيث

بروزها عن الحق «يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وفرح بالله ﷻ ما شغله» عنه «من المنن ظاهر متعتها» أي: التمتع بها «ولا باطن منتها» أي: لم يلتفتوا إلى ظاهر النعم من أجل أن فيها لذتهم ولا إلى باطنها من حيث كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث من بها عليهم كما هو حال القسمين الأولين فإن القسم الأول التفت إلى ظاهر النعمة من أجل أن فيها لذتهم وغابوا عن المنعم بها.

والقسم الثاني التفت إلى باطنها من حيث بروزها عن الله عز وجل وإن حصولها لهم اعتناء منه تعالى بهم «بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه» أي جمعية قلبه عليه «فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

وقد أوحي إلى داود ﷺ: «**يا داود قل للصديقين**» أي: كثير من الصدق في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم «بي فليفرحوا» أي: فليفرحوا بي لا بغيري حيث كنت ربًّا وكانوا لي عبيدًا خالصين من حكم بشريتهم.

ولذا قيل: إن عتبة الغلام دخل يومًا على رابعة العدوية وعليه قميص جديد وقد تبختر في مشيه على خلاف عادته فقالت له: يا عتبة ما هذا التيه والعجب الذي لم أره في شمائلك قبل هذا اليوم؟ فقال: يا رابعة! ومن أولى بهذا التيه مني، وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبدًا.

«وبذكري فليتنعموا» أي: لا يتنعموا إلا بذكري لا بلذات الدنيا وشهواتها، فإن المشتغل بذكر الله يحصل عنده من اللذة والأنس بالله ما لا يوازيه لذة من لذات الدنيا «والله يجعل فرحنا وإياكم» أيها الأحباب الناظرين في هذا الكتاب «به» تعالى «وبالرضا منه» أي: الإنعام بدوام المشاهدة «وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه» وهم الذين يفهمون عن الله مراده منهم وهو إقبالهم عليه واشتغالهم بخدمته ويفهمون عنه أنه حاضر معهم فيراقبون في حركاتهم وسكناتهم ويفهمون عنه أنه قائم بالأشياء وأنها عدم محض فلا يلتفتون إليها في جلب نفع ولا دفع ضرر ويفهمون عنه أنه معهم بذاته لا بعلمه كما يفهمه المحجوبون أهل الدليل والبرهان إلى غير ذلك مما هو مقرر عند أهل الشهود والعيان «وأن لا يجعلنا من الغافلين» الذين اشتغلوا بالأكوان عن المكون ولم يفهموا مراد الله منهم فلم يقبلوا على طاعته وإن أقبلوا عليها فبظاهرهم دون قلوبهم «وأن يسلك بنا مسلك المتقين» الذين يتقون ما سواه سبحانه فلا يلتفتون إلى غيره في جلب ولا دفع ولا يغيبون عنه طرفة عين وهذه أعلى مراتب التقوى، ودون ذلك اتقاء معاصي الجوارح وشهوات النفوس ودون ذلك اتقاء الشرك «عنه وكرمه» أي: لا بعلة تحمله على ذلك كأعمالنا المدخولة.

المناجاة

- إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟
- إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جاهلًا جهولًا في جهلي؟
- إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء.
- إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك.
- إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي؟
- إلهي إن أظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة علي وإن ظهرت المساوئ مني فبعد لك ولك الحجة عليَّ.
- إلهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت عليك، وكيف أضام وأنت الناصر لي أم كيف أخيب وأنت الحفي بي.
- ها أنا أتوسل بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك، أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك، أم كيف أترجم إليك بمقالي وهو منك برز إليك، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك، أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك.
- إلهي ما ألطفك مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي.
- إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك.
- إلهي ما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك.
- إلهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إليَّ في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء.
- إلهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أيأستني أوصافي أطعمتني مننك.
- إلهي من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟
- إلهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة، لم يتركا الذي حال حالًا ولا لذي مقال مقالًا.
- إلهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها

فضلك.

- إلهي إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلًا جزمًا فقد دامت محبة وعزمًا.
- إلهي كيف أعزم وأنت القاهر؟ أم كيف لا أعزم وأنت الآمر؟
- إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.
- إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أي:كون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟
- إلهي خسرت صفقة عبد لم يجعل من حبك نصيبًا.
- إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة من الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير.
- إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك وهذا حالي لا يخفي عليك منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك لا بغيرك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك.
- إلهي علمني من علمك المخزون وصني بسر اسمك المصون.
- إلهي حققني بحقائق أهل القرب واسلك بي مسالك أهل الجذب.
- إلهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري؛ وباختيارك عن اختياري وأوقفني على مراكز اضطراري.
- إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي.
- إلهي بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكلُ فلا تكلني إلى نفسي أو إلى أحد غيرك، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغبُ فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.
- إلهي تقدس رضاك أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة مني، أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيًّا عني.
- إلهي إن القضاء والقدر قد غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت الناصر لي حتى تنصرني وتنصر بي، وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي.
- أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك، وأنت المؤنس

لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، فما وجد من فقدك، وما فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلًا، ولقد خسر من بغي عنك حولًا.

- إلهي كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، يا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين، أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين.
- إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك.
- إلهي قد دفعتني العوالم إليك، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.
- إلهي كيف أخيبُ وأنت أملي، أم كيف أُهان وعليك مُتّكِلِي.
- إلهي كيف أستعزُّ وفي الذلة أركزتَني، أم كيف لا أستعزُّ وإليك نسبتني، أم كيف لا أفتقرُ وأنتَ في الفقر أقمتَني، أم كيف أفتقر إلى غيرك وأنت الذي بجودك أغنيتني.
- إلهي أنت الذي لا إله غيرك تعرفت لكل شيء فما جَهِلَكَ شيءٌ، وأنت الذي تعرَّفتَ إليَّ في كل شيء؛ فرأيتك ظاهرًا في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.
- إلهي يا من استوي برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا في رحمانيته كما صارت العوالم غيبًا في عرشه، مَحَقْتَ الآثارَ بالآثار، ومَحَوْتَ الأغيارَ بمحيطات أفلاكِ الأنوار، يا من احتجبَ في سُرَادِقَاتِ[1] عِزِّهِ عن أن تُدركَه الأبصارُ، يا من تجلَّى بكمال بهائه؛ فتحققتْ بعظمته

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: السرادقات في اللغة هس الأسوار المحيطة بالدار، وهي هنا كناية عن الحجب القهرية، وهي حجب العزة التي احتجب الحق تعالى بها عن عباده مع شدة ظهوره، ومرجعها إلى دوائر الحس والوهم والغفلة والأكنة التي على القلوب، وتنحصر في خمسة أمور:

الأول: حب الدنيا الذي زرعه الحق تعالى بقهره في قلوب الناس حتى انصرفت إليها الهمم، وتاهت فيها العقول، وتظلمت بصور خيالها القلوب، واشتبكت فيها الفكر، فلا تنصرف إلى غيرها، وبهذا احتجب جُل العباد إلا من عصم الله.

الثاني: ارتباط الأسباب مع مسبباتها، والعوائد مع ما تعودت بها، كتوقف أمر الرزق على حركة السبب، والنبات على وجود الأمطار، وغير ذلك من ارتباط الأسباب، فظن الجهال أنها لا تنفك عن مسبباتها، فحجبوا بها عن مسبب الأسباب والحكيم العليم برزق من غير أسباب ويعطي بلا حساب، وبهذا احتجب كثير من الناس فوقفوا مع الأسباب؛ وحجبوا عن شهود رب الأرباب، إلا من نفذت بصيرته =

الأسرار، كيف تخفى وأنتَ الظَّاهِرُ! أم كيف تغيبُ وأنتَ الرقيبُ الحاضرُ؟!

شرح المناجاة

قال الشرقاوي يرحمه الله:

وقال ﷺ: وفي بعض النسخ ومن مناجاته «إلهي أنا الفقير» حال «غنائي فكيف لا أكون فقيرا في» حال «فقري» يعني: أن صفتي الذاتية هي الفقر والاحتياج، والغنى أمر عارض، والعارض بصدد الزوال «إلهي أنا الجاهل في» حال «علمي»؛ لأن ما عندي من العلم قليل فهو في حكم العدم وأيضًا هو العارض عليها، والعارض بصدد الزوال كما مرَّ «فكيف لا أكون جهولا» أي: كثير الجهل «في» حال «جهلي»، وإني بصيغة المبالغة لما في ذلك من ضم جهل إلى جهل.

وحاصله: أن العبد صفته الذاتية هي النقص، والكمال عارض له والعارض نقصان في التحقيق وتقديمه هذا التصريح والافتقار بين يدي دعائه ليكون ذلك أرجى للإجابة «إلهي إن اختلاف تدبيرك» فقد يكون العبد فقيرًا فيدبر الله له الغنى وبالعكس ويكون مريضًا فيدبر

=

من ذوي الألباب.

الثالث: الوقوف مع ظاهر الشريعة ترغيبًا وترهيبًا علمًا وعملًا، فقوم وقفوا مع الترغيب، فانكبوا على العمل طلبًا للجزاء وهم العباد.

وقوم وقفوا مع الترهيب، فغلب عليهم الخوف وهم الزهاد. وقوم وقفوا مع ترغيب العلم، فاشتغلوا بعلم الرسوم والحروف، وتركوا علم اليقين والخشية والمعرفة وهم علماء الظاهر، فحجبوا بالعلم عن المعلوم، وهي معرفة الحي القيوم.

الرابع: الوقوف مع حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة وهي سموم قاتلة لمن وقف معها، وهي لأهل المراقبة بها احتجب كثير من العباد والزهاد، وقد تظهر لهم خوارق وكرامات حسية، فتزيدهم حجابًا عن الله.

الخامس: ظهور أثر القدرة على هذه التجليات، واتصافها بأوصاف العبودية كالفقر والذل والجهل والمرض والموت، وغير ذلك من أوصاف البشرية التي سترت سر الخصوصية، وبهذا احتجب بعض المستشرفين على الفناء في الذات، فرجعوا من حيث جاءوا، والله قاهر فوق عباده: ﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام:١٨]، فهذه سرادقات العز التي احتجب الحق تعالى بها، فإن العزيز هو الذي لا يترقى إليه وهم طمعًا في تقديره، ولا يسموا إلى صمدانيته فهم قصدا إلى تصويره.

وقيل العزيز: من ضلت العقول في بحار عظمته، وحارت الألباب في إدراك نعمته، وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله، ووصف جماله، وقال رسول الله ﷺ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» انتهى.

الله له الصحة وبالعكس، فالمراد بالتدبير المدبر أي: القدر ولذا عطف عليه للتفسير «وسرعة حلول مقاديرك» أي: المقدرة على العبد «منعا عبادك العارفين بك عن السكون منك إلى عطاء» أي: عن سكونهم إلى عطاء يصدر منك؛ فإذا أفيضت عليهم العطايا الدنيوية كالأموال أو الدينية كالمعارف والأسرار والمكاشفات لا يلتفتون إليها؛ لأنه بصدد الزوال يمكن زوالها وإتيان ضدها كما وقع لكثير في غابر الزمان، بل لا يلتفتون إلا إلى المولى ولا يغيبون عنه ويكون بقاء ذلك وزواله على حد سواء «واليأس منك في بلاء» فإذا قام بهم بلية بدنية كمرض أو فقر، أو دينية كمعصية لا ييأسون من زوالها بإتيان ضدها كما وقع لغيرهم، «إلهي مني» أي: يصدر مني «ما يليق بلؤمي» أي: الذي ركبت عليه وهو مبارزتي إياك بالمعاصي التي تليق بي فإن شأن الإنسان عدم الوفاء «بحقوق الرب منك» أي: ويصدر منك «ما يليق بكرمك»، وهو التجاوز والعفو عني وقبول أعذاري والتفضل والإحسان ودفع الآلام «إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة» أي: شدة الرحمة «بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منهما» أي: من قيام أثرهما بي وحصوله لدي «بعد وجود ضعفي» فاللطف والرأفة صفتان لله عز وجل اتصف بهما في الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته وهما مقتضيان لوجود أثرهما فيما لا يزال بعد وجود ذات العبد وصفاته وهو إسباغ نعمه عليه وإيصال أفضاله إليه، فكيف يتصور إذ ذاك منعه إياهما واللطف يرجع للعلم والرأفة للإرادة «إلهي إن ظهرت المحاسن مني» وهي أنواع الطاعات والصفات المحمودة «فبفضلك» لا بحولي وقوتي «ولك المنة» أي: الامتنان «عليّ» لعدم استحقاقي ذلك والامتنان مذموم إلا من الله أو الرسول أو الوالد أو الشيخ «وإن ظهرت المساوئ مني»، وهي ضروب المعاصي والصفات المذمومة «فبعدلك» لا بطريق الظلم؛ لأن المالك يفعل في ملكه ما يشاء «ولك الحجة عليّ» بأن تقول لي: لم فعلت ذلك يا عبدي؟ وليس لي حجة أقيمها عليك، كأن أقول لك: إن ذلك بتقديرك وحكمك؛ لأن ذلك شأن الجاهل بك، أما العالم بك فيقول المالك يفعل في ملكه ما يشاء ولا يسأل عما يفعل «إلهي كيف تكلني» إلى غيرك «وقد توكلت عليك» ومن كنت وكيله لا تحوجه إلى غيرك «وكيف أضام» أي: يحصل إلي ضيم وذلك «وأنت الناصر لي أم كيف أخيب» بعدم الظفر بآمالي «وأنت الحفيّ بي» أي: اللطيف ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه وخفايات مآربه وإيصال ذلك إليه برفق فالوكيل والناصر والحفي من أسماء الله تعالى وهي مقتضية لوجود آثارها من الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم في اللطف والرأفة، «ها أنا أتوسل بفقري إليك» أي: أجعل

فقري إليك وسيلة أتشفع بها عندك في القبول لا بأعمالي المدخولة وأحوالي المعلومة.

ولذا سئل أبو حفص: بما يقدم الفقير على ربه؟ فقال: ما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره.

وقال أبو يزيد: نوديت في سري «وخزائني مملوءة من الخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار».

ثم رجع عن جعل الفقر وسيلة يتشفع بها إلى المولى فقال: «وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك»، وهو الفقر المذكور فكأنه يقول: إن كان الفقر يتوسل به إليك فأنا أتوسل به لكنه لا يتوسل به إليك لأن المتوسل به يكون بينه وبين المتوسل إليه علاقة ومناسبة كالوزير والسلطان، ولا مناسبة بين الفقر الذي هو نعت العبد وبين الرب الذي له الغنى الأكبر وأيضًا توسل العبد بفقره يقتضي شهوده له واعتماده عليه فيكون حينئذ من الأحوال المعلولة وهي لا تصل إلى الله بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها.

ولذا قيل: إن أبا الحسن الشاذلي -قدس سره- لما دخل على شيخه عبد السلام فقال له: يا أبا الحسن بماذا تلقى الله؟ قال: بفقري، فقال: والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقيته بالصنم الأعظم ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر وإلا كنت غنيًا بفقرك».

وحينئذ فلا وسيلة إلى الله سواه «أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك» وشكوى الحال لا تصح إلا لمن لا يعلمه والله تعالى لا يخفى عليه شيء.

ولذا قال الخليل عليه السلام: «**حسبي من سؤالي علمه بحالي**»[1].

وقولهم: «لا شكوى إلا لله» شأن الغافلين المحجوبين «أم كيف أترجم لك بمقالي» أي: أعبر عما في ضميري بأن أقول أعطني كذا والترجمة في الأصل التعبير باللسان عما في الضمير لتفهيم المخاطب «وهو منك برز إليك» أي: أنت الذي أنطقت اللسان وأطلقته بذلك فالترجمة برزت منك وترجع إليك لأنك المسئول والعبد لا مدخل له في ذلك، فكيف تنسب إليه الترجمة وأيضًا فهو تعالى عالم بأحوال العبد والترجمة لا تكون إلا لمن لا يفهم حال المترجم والمراد بالترجمة هنا مطلق السؤال «أم كيف تخيب آمالي» أي: ما أؤمله وأرجوه.

«وهي قد وفدت إليك» أي: توجهت بالسير إليك كما يتوجه الوادون بالسير إلى الكرام، وفي بعض النسخ «عليك».

---

(١) سبق تخريجه.

ولا شكَّ أنه تعالى كريم جواد متفضل لا يخيب من قصده، فليكن العبد على يقين بحصول مطلوبه، وإن لم يسأل ولم يطلب، ولما كانت هذه التضحيات تقتضي نسبة النقص إلى نفسه وذلك غير لائق بالعارفين المحققين لما فيه من رؤية النفس وملاحظة حالها والبقاء معها والمحقق لا يرى غير الله والأحوال كلها حسنة من حيث نسبتها إليه أتى بقوله، «أم كيف لا تحسن أحوالي» الباطنية والظاهرية وهي الأعمال الصالحة «وبك قامت وإليك» أي: صدرت منك ورجعت إليك لأنك المقصود بها فمن تحقق في مقام المعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه.

«إلهي ما ألطفك» أي: أكثر لطفك أي: رفقك «بي مع عظيم جهلي» بعواقب الأمور فقد يكون في نزول الأمراض والبلايا في أنواع اللطف وأنا جاهل بعاقبة ذلك فلذا أطلب الصحة والعافية «وما أرحمك بي» أي: أكثر إحسانك لي «مع قبيح فعلي» أي: مع أفعالي القبيحة المقتضية عدم الإحسان فهذا أمر يتعجب منه «إلهي ما أقربك مني» بذاتك كما يقول أهل المعرفة والشهود أو بعلمك كما يقول غيرهم من أهل الجحود «وما أبعدني عنك» بصفاتي التي اقتضت عدم شهودي إياك وهذا تواضع منه -قدس سره.

ثم ترقى فقال: «إلهي ما أرأفك» أي: أشد رأفتك أي: رحمتك «بي فما الذي يحجبني عنك» فإن من شاهد رأفة ربه وغاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفاتها فلذلك لم يظهر له سبب وجود حجابة عنه «إلهي قد علمت باختلاف الآثار» وقوله «وتنقلات الأطوار» مرادف لما قبله أي: قد علمت باختلاف الآثار علي وهي تنقلات أصواري من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والبسط والقبض والوجد والفقر وغير ذلك من شئونك التي تنزلها بي «أن مرادك» مني بذلك «أن تتعرف إلي» أي: أن أعرفك «في كل شيء» معرفة خاصة «حتى لا أجهلك في شيء»، ولو كان الأمر على خلاف هذا والتزمتني حالة واحدة أرتضيها لنفسي وأختارها لكان معرفتي ناقصة ومشاهدتي قاصرة.

وبيان ذلك أن الله تعالى إذا أنزل بي مرضًا أو فاقة عرفت في ذلك الوقت أنه لا يقدر على دفعه إلا هو وأنه الذي أمرضني وأفقرني فأصبر على ذلك وإذا نزل بي صحة أو غنى عرفت أنه المنعم علي والمعطي لي فأشكره، وهكذا، ولو فرض أنه أدام لي حالة واحدة كالصحة والغنى لم أعرف المولى في حالة المرض أو الفقر أي لم أعرف بطريق الذوق أنه لا يقدر على كشف الكربة إلا هو فتكون معرفتي ناقصة فينبغي للعبد ألا يغفل عن مولاه في عطاء ولا منع ولا عز ولا ذل ولا غنى ولا فقر ولا قبض ولا بسط ولا فقر ولا وجد إلى غير

ذلك.

«إلهي كلما أخرسني لؤمي» أي: مخالفتي وعصياني فإن ذلك يقتضي عدم انطلاق لساني بالطلب منك؛ لأن الطلب لا يكون إلا بعد التودد، والتودد إلى المولى بطاعته وذلك مفقود عندي لكن كلما خرست «أنطقني كرمك» فإني لاحظت أنك كريم والكريم لا يتوقف إعطاؤه على التودد إليه انطلق لساني بالطلب منك «وكما آيستني» أي: أوقعتني في اليأس عن الاستقامة «أوصافي» الذميمة التي اقتضتها الطبيعة والجبلة، فإنها تقتضي اليأس من الاستقامة على طريق الحق ومن القيام بحقوق الربوبية.

«أطمعتني» أي: جعلتني طامعًا في ذلك «منتك» أي: امتنانك وإحسانك الذي شمل البار والفاجر «إلهي من كانت محاسنه» أي: أعماله الصالحة «مساوئ» لعدم خلوها من ذائق العجب والرياء فهي محاسن في الظاهر وعند الناس ومساوئ في الواقع وعند الله «فكيف لا يكون مساوئه» أي عيوبه وأعماله السيئة.

«مساوئ» أي: عيوبًا تامة عظيمة فقد اختلف الخبر والمبتدأ بهذا الاعتبار، ويحتمل أن المعنى فكيف لا تكون مساوئه في الواقع ونفس الأمر مساوئ عنده فهو لا يعتقد الكمال من نفسه، ولا ينظر إلى عيوبه بعين الاحتقار فلا يعدها عيوبًا كما هو حال الغافلين «ومن كانت حقائقه» أي: علومه ومعارفه التي يعرفها الناس مني «دعاوي» عندي وفي اعتقادي «فكيف لا تكون دعاويه دعاوي» فيه ما تقدم وكأنه يقول: أنا في جميع الأحوال معتقد للتقصير من نفسي ومترج للعفو من الله، وليس لي حالة أعتقد بها الكمال.

وهذا مثلما تقدم من أن الكمال المنسوب إلى العبد تقصان على التحقيق فما ظنك بنقصانه «إلهي حكمك» أي: قضاؤك «النافذ» وقوله: «ومشيئتك القاهرة» تفسير لما قبله ووصف المشيئة بذلك لأنها إن تعلقت بحصول نقمة وبلية كانت قاهرة أو بحصول نعمة وعطية كانت غير قاهرة «لم يتركا لذي مقال مقالًا» فإذا كان ذا قول سديد بأن كان ينطق بالحقائق ويتكلم في العلوم العرفانية لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره «ولا لذي حال» فإذا كان ذا حال حميدة بأن كان يحصل له كشف عن أمور تحصل في الكون أو تطيعه بعض الجمادات والعناصر لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره كما هو مشاهد كثيرا.

فهذا المعنى يوجب للعبد التحقيق في مقام الخوف وعدم الاغترار بشيء من أقواله وأحواله لنفوذ حكم الحق تعالى وقهر مشيئته «إلهي كم من طاعة» ظاهرية «بنيتها» أي: أقمتها

على الوجه المأمور به في الظاهر بأن وفيت بجميع شروطها وأركانها وآدابها «وحال شيدتها» أي: زينتها وصنتها عما يكدر صفاءها بأن أخلصت فيها إخلاصًا تامًّا والحالة هي الطاعة فعطفها عليها من عطف المرادف أي: ولما فعلت هذين الأمرين من البناء والتشييد رأيت أني تحصنت بحصن حصين وآويت إلى ركن متين لكن «هدم اعتمادي عليها» في النجاة من العذاب ودخول الجنة دار الثواب «عدلك» أي: النظر إلى عدلك فإن مقتضاه أنك تفعل ما تشاء ولا تبالي بأعمال العاملين فمن الجائز أنك تعاقبني على تلك الطاعة «بل أقالني منها» أي: من الاعتماد عليها والتعلق بها.

«فضلك» أي: النظر إلى فضلك وكرمك وإحسانك فصرت معتمدًا عليه ومتعلقًا به لا بطاعتي فصار التعلق والاعتماد على الإحسان والفضل لا على الطاعة ونعم البدل والعوض «إلهي أنت تعلم، وإن لم تدم الطاعة مني فعلًا جزمًا» أي: إن عدم دوامها فعلًا مجزومًا به لعجزي عن ذلك ومقتضى العبودية أن أداوم عليها فأنا مقصر «فقد دامت محبة وعزمًا» أي: أنا مداوم عليها من حيث محبتي لها وعزمي عليها، وأنت تعلم ذلك فلا تؤاخذني بتقصيري بل مداومتي على هذا الوجه فضل عظيم وإلا فكم من شخص محروم ليس عنده فعل ولا محبة ولا عزم فالواو الداخلة على أداة الشرط زائدة ولتعلق العلم جواب الشرط كما تردد في وقوع العزم منه بقوله: «إلهي كيف أعزم» أي: يقع مني عزم على فعل الطاعات وترك المنهيات «وأنت الظاهر» فيمكن أن يقع مني عزم على ذلك ثم يصدني عن قهرك فيكون العزم لا فائدة فيه ولا يعتد به «وكيف لا أعزم وأنت الآمر» لي بالعزم على ذلك.

ومقتضى الأمر المبادرة إلى العزم فأنا متحير وعاجز عن تدبير أمري ولا يسعني إلا التسليم إليك والاعتماد عليك، ولذا كان العارفون لا يجزمون بشيء من الأشياء بل يفوضون الأمر إلى الله تعالى، فقد قالوا: العارف لا قلب له «إلهي ترددي في الآثار» أي: المكونات على سبيل التعلق بها والاستناد إليها أو على سبيل الاستدلال بها على الله تعالى «يوجب بعد المزار» أي: الوصول إليك ومشاهدتك «فاجمعني عليك» أي: أوقفني بين يديك «بخدمة» أي: طاعة من أذكار ورياضات ومجاهدات «توصلني بك وتقطع التعلق بالآثار عن قلبي فلا أتعلق بمكاشفات ولا أحوال ومقامات كما تقدم في قوله: «لا ترحل من كون إلى كون»، ولا أستدل بها على موجدها كما قال: «إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده» أي: ثبوته وتحققه خارجًا «مفتقرًا إليك» وهو المكونات فإنها في ذاتها عدم محض كما مرَّ.

«أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك»، فإن الدليل يكون

أظهر من المدلول حتى يستدل به عليه فأصحاب النظر والاستدلال حالهم قبيح بالنسبة إلى أصحاب الشهود والعيان، ويقال لهم عوام بالنسبة لهم كما تقدم عند قوله: «شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه»، ثم ترقى في نفس الاستدلال بقوله: «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار» أي: المكونات «هي التي توصل إليك» أي: إلى معرفتك.

ولذا قال المريد لشيخه: «يا أستاذ! أين الله؟» فقال: «ويحك! وهل يطلب مع العين أين؟!».

«إلهي قد عميت عين» المراد بها عين البصيرة وهذا يحتمل أن يكون إخبارا وأن يكون دعاءً بدوام العمى لأن أصله حاصل «لا تراك عليها رقيبًا» أي: حفيظا مراقبًا لها فمن رأى الله رقيبًا عليه يعلم جميع أحواله ولا يخفى عليه منها شيء استحى منه ومن لم يكن على هذا الوصف عميت عين بصيرته فبارز مولاه بأنواع القبائح من غير اكتراث ولا مبالاة.

ولذا ورد في الحديث: «**أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان**»[1].

«وخسرت صفقة» أي: تجارة «عبد لم يجعل لك من حبك نصيبًا» أي: حبك له أو حبه لك والأول الأصل في الثاني قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾، وحب الله لعبده إحسانه إليه وثناؤه عليه، وحب العبد لله طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته وانجذابه بقلبه إليه فمن أعطاه الله من ذلك الحب نصيبًا فقد فاز ومن حرمه منه وشغله بالدنيا فقد خسرت تجارته وهيت لك الأمور الدنيوية التي يتقلب فيها أي خسر في تجارته، وكانت تجارته خاسرة لا عبرة بها.

«إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار» أي: المكونات من الأموال والعيال وغيرهم أي: ملابستها ومخالطتها بعد غيبتي عنها بالوصول إليك ومشاهدتك فإن المريد إذا وصل إلى المولى غاب عن الأكوان ثم إذا خالطها بمقتضى الأمر بها شغلته عن مولاه واحتجب بها عنه؛ فلذا قال: «فأرجعني إليها مكسوًا بكسوة الأنوار» أي: بكسوة هي الأنوار الإلهية التي تمنع من تعلقي بها واحتجابي بها عنك «وهداية الاستبصار» أي: هداية ناشئة عن الاستبصار أي: الشهود بعين البصيرة «حتى أرجع إليك منها» أي: أشاهدك فيها، وفي بعض النسخ «فيها»، وهي بمعنى ما قبلها «كما دخلت إليك منها» بالاستدلال بها عليك والاعتبار بها فإن المريد

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٧٠).

حينئذ محجوب عن مولاه فيشتغل في الآثار حتى يصل إليه، والضمير في الموضعين للآثار لا بالمعنى المتقدم بل بمعنى الموجودات من السماء والأرض وما بينهما ولو حذف ذلك هنا لكان أولى «مصان السر عن النظر إليها» أي: التعلق بها في اعتقاد نفع أو دفع ضرر.

وقوله: «ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها» بمعنى ما قبله أن صون السر عن النظر إليها هو عدم استحسان شيء منها في نظره ورفع الهمة في الاعتماد عليها هو عدم التعلق بها فيما ذكر والحاصل أنه سأل المولى أنه إذا أرجعه إلى الأكوان والتلبس بها يرجعه إليها على حال شريفة مضادة للحال التي كان عليها قبل السلوك، وهو كونه مكسوًا بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار فإنه إذا رجع إليها على هذه الحالة لم تؤثر فيه ولم تحجبه عن مولاه وهذا المعنى غير ما تقدم في قوله: «فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق»، كما هو ظاهر مما قررناه سابقًا ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه تحصيل تلك المطالب السيئة «إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك» وهو في الحقيقة عين العز والفخر.

قال ذو النون المصري: «ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه».

وقوله: «وهذا حالي لا يخفى عليك»، بمعنى ما قبله والقصد بذلك طلب حصول مطالبه من مولاه «منك أطلب الوصول إليك» أي: أطلب منك لا من غيرك الوصول إليك لا غيره من المطالب الدنيوية والأخروية وهذا مطلب العارفين كما مر «وبك أستدل عليك» أي: أستدل عليك وأعرفك بك لا بغيرك من الدليل والبرهان.

قيل لبعض العارفين: «بم عرفت ربك؟» قال: «عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي».

وقال بعضهم: لا دليل على الله سواه، وإنما العلم يطلب لأداء الخدمة.

«فاهدني بنورك» أي: بنور تقذفه في قلبي أهتدي به «إليك» أي: إلى معرفتك معرفة خاصة «وأقمني بصدق العبودية بين يديك» أي: أقمني بين يديك بأن تجعلني حاضر القلب معك حال كوني مصاحبًا لصدق العبودية أي للعبودية الصادقة بألا يظهر عليَّ شيء من أوصاف الربوبية بل أكون متصفًا بغاية العجز والذل والضعف والفقر، ولا يظهر عليَّ شيء من قوة أو عز أو قدرة أو غنى «إلهي علمني من علمك المخزون»، إضافة ذلك العلم إليه إضافة تشريف، والعلم المخزون هو العلم اللدني الذي اختزنه عنده فلم يؤته إلا المخصوصين من أوليائه.

قال تعالى في شأن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل العزة بالله**»[١].

وقال بعضهم: «هو أسرار يبديها الله إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة».

«وصني» أي: احفظني عن رؤية الأغيار أو عن إباحتي بتلك العلوم والأسرار «بسرِّ اسمك المصون» أي: أسمائك المصونة أي المحفوظة عن الابتذال والإهانة؛ فإنه لا يجوز أن يدخل بها بيت الخلاء مثلًا أو أن يسمي بها غيره سبحانه، وسرها أنوار وتجليات تحصل لمن يذكرها.

«إلهي حققني بحقائق أهل القرب» أي: أعطني مقامات أهل القرب منك الذين تحققوا في مقام الفناء فبطل في حقهم رؤية الأسباب وزال عنهم كل حجاب، فلم يروا غيرك واكتفوا بتدبيرك عن تدبير أنفسهم وبعلمك عن الشكوى لغيرك «واسلك بي مسالك أهل الجذب» وهم المحبوبون المرادون، فكأنه يقول اجذبني إليك حتى يسهل عليّ سلوك الطريق وأصلُ إليك في أقرب ندة وأجد ذلة وحلاوة في الأعمال كما هو حال أهل الجذب الذين أخرجتهم عن حكم أنفسهم وتوليتهم بحفظك ورعايتك من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة «اغنني بتدبيرك» لي «عن تدبيري وباختيارك» لي «عن اختياري» فإن في تدبيري أحوال نفسي واختياري شيئا من الأشياء بمقتضى شهوتي وميلي منازعة لك في ربوبيتك لأنك المنفرد بالتدبير والاختيار.

«وأوقفني على مراكز اضطراري» المراكز جمع مركز وهو موضوع الاستقرار والثبوت أي مواضع اضطراري بالذل والعجز والفقر شبهت بالمواضع التي يستقر فيها فهي مواضع اعتبارية ينبغي للعبد ألا يفارقها بل يلازمها كما يلازم الشخص مكانه الذي يستقر فيه ومعنى وقوفه عليها ملاحظتها وعدم غيبته عنها أي: اجعلني ملاحظًا لفقري وعجزي وذلي التي هي مواضع اضطراري أو ملازمتها وتحققه بها أي: اجعلني ملازمًا لها ومتحفظًا بها وإضافتها لاضطراري باعتبار كونها يحصل عندها اضطرار العبد للمولى واحتياجه له.

«إلهي أخرجني من ذل نفسي» من إضافة المصدر للمفعول أي: من كوني أذل نفسي لغيرك بالطمع والحرص أو للفاعل أي من كون نفسي تذلني وتوقعني فيما لا يليق «وطهرني

---

(١) سبق تخريجه.

من شكي وشركي» الشك ضيق الصدر عند إحساسه بأمر مكروه، فإذا ضاق أظلم القلب وأصابه الهم والحزن وطهارته منه بوجود ضده وهو اليقين إذ به يتسع الصدر وينشرح فيستنير القلب ويجد الروح والفرح بالله تعالى وبقدر ما يصيبه من نور اليقين يكون انشراحه واتساعه والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانه له، ومبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب فيفزع حينئذ إلى الأسباب التي يتوصل بها إلى بغيته إذ لا يرى غيرها وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذي يقذفه الحق في قلبه فتطمئن بذلك نفسه، ويسكن عن الشره والطيش الذي أصابها.

وكلما قوي نور التوحيد في قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر «قبل حلول رمسي» أي: قبري إذ ليس بعده تطهير إلا بالنار «بك استنصر» أي: أطلب النصرة على نفسي وشيطاني وهواي «فانصرني» عليها «وعليك أتوكل» في تحصي مطالبي «فلا تكلني» إلى غيرك وإن كنت غير صادق في توكلي «وإياك أسأل فلا تخيبني»، وإن كنت أهلًا للخيبة «وفي فضلك أرغب فلا تحرمني» وإن كنت أهلًا للحرمان أي: أرغب في فضلك لا في فضل غيرك.

وقولنا: «وإن كنت» جواب عما يقال: إن من توكل على الله وحده كفاه فلا حاجة لقوله فلا تكلني ومن سأله وحده لم يخيبه ومن رغب في فضله وحده لم يحرمه فلا حاجة لقوله فلا تخيبني ولا تحرمني «ولجنابك» أي: ذاتك والإضافة للبيان «انتسب» لا لغيرك «فلا تبعدني» عن بابك «وببابك أقف» للسؤال وفيه تشبيه المولى بملك عظيم يقف الطالبون ببابه «فلا تطردني» عنه «إلهي تقدس» أي: تنزه «رضاك» وهو الإحسان أو إرادته «عن أن تكون له علة مني» كأعمالي وأحوالي فرضى المولى لا يتوقف على سبب ولا علة بل رضاه وسيخطه هما سبب لأعمال العاملين حسنها وسيئها، رضي عن قوم واستعملهم لخدمته وسخط على قوم فشغلهم بما يبعد عن حضرته «أنت الغني لذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيا عني» هذا كالتعليل لما قبله والمقصود بها الاسترضاء والاستعطاف وطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة «إلهي إن القضاء» وهو إرادة الله تعالى مع التعلق «والقدر» وهو إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر معلوم ومقدار معين «غلباني» فكلما أعزم على طاعة أو ترك معصية لا يتيسر لي ذلك «وإن الهوى» أي ميل النفس إلى مرادها ومشتهياتها «بوثائق الشهوة» أي: بالشهوة الشبيهة بالوثائق أي: القيود «أسرني» أي: قيدني «فكن النصير لي حتى تنصرني» على أعدائي أي: النفس وجنودها «وتنصرني» أي: تنصر أحبابي وأصحابي على أعدائهم بسببي.

قال الشاذلي -قدس سره: «واجعلني سببًا للغنى لأوليائك وبرزخًا بينهم وبين أعدائك».

«وأغنني بفضلك» أي: شهودك «حتى استغني بك» أي: بشهودك «عن طلبي منك» لأن من كان مشهدًا للحق حاضرًا معه يستحي أن يطلب منه شيئا لرؤيته أنه مطلع على حاله لا يخفى عليه شيء منها ومن كان كذلك لا معنى للطلب منه.

قال الشاذلي: «السعيد حقًّا من أغنيته عن الطلب منك».

«أنت الذي أشرقت الأنوار» أي: المعارف والأسرار «في قلوب أوليائك» حتى عرفوك ووحدوك «وأنت الذي أزلت الأغيار» أي: المكونات والتعلق بها «عن قلوب أحبابك» وهم أولياؤك، وهذا من عطف السبب على المسبب؛ لأن زوال الأغيار سبب في شروق الأنوار «أنت المؤنس لهم» أي: المدخل للسرور على قلوبهم بتجليك «حيث أوحشتهم العوالم» التي كانوا يألفونها وتتعلق قلوبهم بها من أصحاب وأولاد وأموال وغير ذلك.

فإن من حصل له أدنى شك من شهود الحق وتودده لم يستوحش الشيء من ذلك بل يغيب عنه ولم يستأنس بشيء منه بل ينفر عنه بقلبه «وأنت الذي هديتهم» بنور منك «حتى استبانت» أي: ظهرت «لهم المعالم» أي: طرق الحق التي سلكوها فإن ظهور ذلك لا يكون إلا بهداية منك «ماذا وجد من فقدك» أي: فقد شهودك ولم يشهد إلا ذوات المكونات وهذا كناية عن كونه لم يجد إلا شيئًا حقيرًا «وما الذي فقد من وجدك» أي: لم يفقد شيئًا بل حصل على غاية المقصود حيث كنت سمعه مبصره وجميع قواه «لقد خاب من رضي دونك بدلًا» كالشهوات واللذات الدنيوية والأخروية.

فقد رؤي الشبلي في المنام بعد وفاته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: «لم يطالبني بالبراهين على الدعاوي إلا على شيء واحد، قلت يومًا لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار، فقال: «وأي خسارة أعظم من خسران لقائي».

«ولقد خسر من بغى عنك متحولًا» أي: طلب التحول عن حضرتك إلى التعلق بغيرك كالكرامات والمكاشفات، فقد تقدم أن هذا شبيه بمن طلب منه الملك أن يكو ن جليسه فلم يرض إلا بسياسة الدواب «إلهي كيف يرجى سواك» أي: يتعلق القلب بالطلب منه «وأنت ما قطعت الإحسان» بل إحسانك دائم مستمر «وكيف يطلب من غيرك» أن يتوجه إليه بالطلب.

«وأنت ما بدلت عادة الامتنان» أي: عادة هي الامتنان أي: الإحسان «يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته» المؤانسة هي سرور القلب بشهود جمال المحبوب شبهه بشيء له حلاوة وهي تخييل والأذواق ترشيح «فقاموا بين يديه متملقين» التملق هو التلطف في التودد كأن يقول الإنسان حفظك الله، سترك الله وهو هنا كناية عن الطلب من المولى بذلة وانكسار لترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين يديه «ويا من ألبس أولياؤه ملابس هيبته» أي: ملابس

هي هيبته أو هيبته الشبيهة بالملابس الحسية والمراد بالهيبة الجلالة والعظة التي كساها الله لأوليائه، فكل من رآهم حصل له رعب منهم كأنهم أسود.

«فقاموا بعزته مستعزين» أي: قاموا بين يديه مستعزين بعزته بأن رفعوا هممهم عن تعلقها بالأغيار تيهًا وتكبرًا عليها أو ثقة منهم به وذلك لما ألبسهم من ملابس الهيبة حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم إلى سواه «أنت الذاكر من قبل الذاكرين» أي: أنت الذي ذكرتهم بالإحسان إليهم في الأزل بأن تعلقت إرادتك بوجودهم فينا لا يزال فهذا ذكره قبل ذكرهم له ويحتمل أن يراد بذكره لهم توفيقه لهم لذكره، إذ لولاه ما ذكروه.

وقوله «وأنت الجواد» أي: المحسن «بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب» أي: كثير الهبة أي: الإعطاء للعطايا كالأعمال الصالحة والأحوال الحسنة «ثم أنت لما وهبتنا» أي: للشيء الذي وهبته لنا «من المستقرضين» كأنك قلت: أقرضوني هنا أعطيكم بدله في الدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[الحديد:١١]، واستقراضه تعالى من عبده ما وهب له غاية في تلطفه به وإعلائه لقدره وفيه إشارة إلى أن إحسانه تعالى وإعطائه ليس مشوبًا بالعمل «إلهي اطلبني» إلى القرب منك «برحمتك» أي: إحسانك «حتى أصل إليك» فإن لا سبيل إلى الوصول إليك إلا برحمتك لا بأعمالي المدخولة والطلب، وإن كان من الأعلى كالسلطان لم يحصل في الوصول مشقة بخلاف ما إذا كان من الأدنى.

«واجذبني بمنتك» أي: إحسانك فلا يصير لي قدرة على الامتناع «حتى أقبل عليك» وهو بمعنى ما قبله «إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك» لمعرفتي أنك المبتدئ بالإحسان ومن هو كذلك يرجى خيره ولو مع المعصية «كما أن خوفي لا يزاولني» أي: لا يفارقني «وإن أطعتك» لعلمي بأنك الفعال لما تريد، فالطاعة لا تقتضي رفع سخطك وزوال عقابك خصوصًا وهي مدخولة معلولة، ومنشأ اعتدال الخوف والرجاء عند العارفين شهود الصفات المخوفة والمرجية فكما أن صفاته تعالى لا تفاوت فيها كذلك شهودها لا تفاوت فيه.

فإن وقع فيه تفاوت كان شهودًا ناقصًا فلذا يتصور عندهم كمال الخوف مع العمل بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكاب المعصية كما وصف نفسه ﷺ «فقد دفعتني العوالم إليك» وذلك أني توجهت إلى أحد ليعطيني أو ينصرني يقول: لا معطي إلا الله ولا ناصر إلا هو، ويحتمل أن يراد بالعوالم جميع ما عدا الله، فإذا ظهرت لي كرامة أو كشف لي عن شيء من الكون وأردت أن أقف عنده تقول لي حقيقته لا تتعلق بي بل تعلق بمولاك، وكذا أن خاطبتني الجمادات وأردت أن أقف عنده تقول لي حقيقتها لا تتعلق بي بل بمولاك.

«فكل شيء يدفعني عليك وقد أوقفني علمي بكرمك عليك» أي: على بابك فالحامل

على وقوفي ببابك علمي بكرمك والكريم لا تتخطاه آمال المؤملين ولا يتوجه نحو سواه طلب الطالبين «إلهي كيف أخيب» أي: يحصل لي خيبة، وعدم الظفر بالمطلوب «وأنت أملي» أي: الذي أملت العطاء منه؛ لأن عادتك الإحسان «أم كيف أهان» أي: يحصل لي هوان وذل «وعليك متكلي» أي: اتكالي واعتمادي.

«إلهي كيف أستعز» أي: يحصل لي عز في نفسي «وفي الذلة أركزتني» أي: أقمتني في الذلة وجعلتها مركزًا ومكانًا لي لا أفارقها «أم كيف لا أستعز» أي: يحصل لي عزٌّ بِكَ «وإليك نسبتني» أي: وقد نسبتني إليك نسبة خاصة بإفاضة الأنوار على ظاهري وباطني حتى صار كل من رآني يقول هذا ولي الله فأنا ذليل من وجه عزيز من وجه آخر «أم كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني»، فهو صفة لازمة لي «أم كيف أفتقر وأنت الذي بوجودك» أي: بشهودك وفي بعض النسخ «بجودك» أي: إحسانك إليّ بالشهود «أغنيتني» حتى حصل لي عزٌّ بك فالافتقار يرجع للذلة والاستغناء للعزة وتلونه في هذه الأوصاف المتضادة بحسب الظاهر عليه من مشاهدة ما يوجبها والذلة المثبتة هنا هي ذلة الخليقة والعبودية والنسبة التي أشار إليها هي سر الخصوصية كما تقرر «أنت الذي لا إله غيرك» يعبد أو يستند إليه في كل شيء.

«تعرفت لكل شيء» أي: جعلت نفسك معروفًا لكل شيء بما أودعته فيه من النور الذي عرفك به «فما جهلك شيء» بل صار كل شيء يعرفك «وأنت الذي تعرفت إليَّ في كل شيء» بأن أودعت في نورًا «فرأيتك ظاهرا في كل شيء» بسبب ذلك النور «فأنت الظاهر لكل شيء» مفرغ على ما قبله «يا من استوى» أي: استولى «برحمانيته» أي: برحمته «على عرشه» فصار العرش تحت حكمه وقهره كاستيلاء السلطان بجنوده على أهل بلدة فشبه المولى سلطان الرحمة بالجنود وعرشه بأهل البلدة «فصار العرش غيبًا» أي: غائبًا ليس له وجود «في رحمانيته» أي: بالنسبة لرحمته «كما صارت العوالم» أي: السماوات والأرضون وما فيهما «بالآثار» وهو العرش؛ لأنه أثر الرحمة والعوالم بالنسبة له كلاشيء «ومحوت الأغيار» وهو العرش، «بمحيطات أفلاك الأنوار» أي: بالأنوار الشبيهة بالأفلاك المحيطة بالعرش وهي تلك الرحمة.

والحاصل: أن رحمته تعالى أي إحسانه هو الذي اقتضى وجود العوالم كلها من عرشها إلى فرشها، ولولا إحسانه هو الذي اقتضى وجود العالم كلها من فرشها إلى عرشها ولولا إحسانه لها بالوجود ما وجدت. فالمراد بالرحمة الرحمة العامة التي وسعت كل شيء «يا من احتجب» أي: امتنع «في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار» أي: في عزه الشبيه بالسرادقات جمع سرادق بمعنى الخيمة التي تنصب على صحن الدار فالسرادقات الخيام وهو

من إضافة المشبه به للمشبه فكما أن الخيمة تمنع من رؤية ما بعدها كذلك عز الله أي: قوته العظيمة تمنع عن رؤيته بالأبصار ثم إن أريد رؤية الإحاطة فهي ممتنعة في الدنيا والآخرة، وإن أريد مطلقها فهي ممتنعة في الدنيا واقعة في الآخرة للمؤمنين فعزه تعالى اقتضى حجب ما سواه عن رؤيته، فإن العزيز معناه المنيع الذي لا يوصل إليه، يقال حصن عزيز إذا تعذر الوصول إليه.

وقيل: العزيز الذي لا يرتقى إليه، وقيل: العزيز الذي ضلت العقول في عظمته وحارت الألباب عن إدراك نعته وكلَّت الألسن عن استيفاء مدحته «يا من تجلى» على قلوب العارفين «بكمال بهائه» أي: بمحاسن صفاته أي: بصفة جلاله وجماله «فتحققت عظمته» أي: كونه عظيما لا نهاية له «الأسرار» أي: بواطن القلوب «كيف تخفى وأنت الظاهر» بذاتك في جميع الأشياء كما يقول أهل الشهود أو بظهور أفعالك وتصرفاتك في العالم كما يقول غيرهم.

«أم كيف تغيب وأنت الرقيب» أي: المراقب لنا في حركاتنا وسكناتنا «الحاضر» الذي ليس بغائب وأتى به لأنه لا يلزم من المراقبة الحضور إذ قد تحصل الإحاطة بأفعال الغير وأحواله بالمكاتبة والمراسلة.

وهذا آخر ما تيسر رقمه على هذا الكتاب المبارك على وجه لطيف جعله الله خالصًا لوجهه الكريم بمنه وكرمه... آمين.

تمَّ ذلك الشرح يوم السبت المبارك لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوال من شهور سنة أربع بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد أفقر العباد عبد الله الشرقاوي الخلوتي.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



فهرس المحتويات